جبران خليل جبران

المؤلّفات الإنكليزية الكاملة معرّبة

عرّبها وقدّم لها

د. نديم نعيمه

مع الرسوم الأصليّة الملوّنة

نوفل

جبران خليل جبران

المؤلّفات الإنكليزيّة الكاملة معرّبة

عرّبها وقدّم لها د. نديم نعيمه

صدرت عام 2015 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **Shutterstock**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **نجلا رعيدي شاهين**
طباعة: **53Dots**
تجليد فنّي: **شركة فؤاد البعينو للتجليد ش.م.م.**

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-600-8

تصدير

تضمّ هذه المجموعة المعرّبة كافة أعمال جبران الانكليزيّة التسعة، سواء التي صدرت أثناء حياته، ابتداءً بالمجنون 1918 مرورًا بالسابق 1920 والنبيّ 1923 ورمل وزبد 1926 ويسوع ابن الانسان 1928 وانتهاءً بآلهة الأرض 1931 قبل أيّام معدودة من وفاة صاحبه، أو التي صدرت بعد وفاته وهي التّائه 1932، وحديقة النبيّ 1933، ومسرحية لعازر وحبيبته التي قدّم لها وأصدرها في أميركا لأوّل مرّة سنة 1973 سميّ جبران وابنه بالمعموديّة، النحّات المعروف خليل جبران بالاشتراك مع زوجته «دْجاين».

أمّا التّائه فإنّه، وإن ظهر بعد آلهةِ الأرض الذي هو مؤلّف متكامل بنية وسياقًا، إنّما يعود إلى فترة سابقة للآلهة؛ نظرًا إلى أنّه مجموعة من الحكايا والأوابد المتفرّقة كانت قد كُتبت على غرار المجنون والسابق ورمل وزبد، على مراحل ثم جُمعت لاحقًا وأُعدّت قبل موت صاحبها، للطباعة. إلّا أنّ جبران لم يمهله الموت ليرى الكتاب مطبوعًا.

وأمّا حديقة النبيّ فكتاب يغلب فيه التوليف على التأليف. فالاسم على ما يذكر ميخائيل نعيمه هو حتمًا لجبران الذي كان يخطّط لثلاثيّة تبدأ «بالنبيّ» ثم «حديقة النبيّ» انتهاء إلى «موت النبيّ». إلّا أنّه لم

يعش ليعدّ لحديقة النبيّ أكثر من مقطوعتين أو ثلاث متكاملات. أمّا ما تبقّى فمقطّعات لعلّها من مسودّات أوليّة للكتاب من قلم جبران بما فيها القصيدتان الختاميّتان وبعض المترجمات إلى الانكليزيّة من عربياته التي لا يصعب التعرّف إليها، وقد جرى ربطها بعضها ببعض وتوليفها من غير مقتضيات تأليفيّة ملزمة، بقلم غير قلمه. والذي لا شكّ فيه هو أنّ جبران ما كان ليرضى لهذا الكتيّب أن يصدر هكذا باسمه.

أمّا لعازر وحبيبته فمسرحيّة من فصل واحد، صدرت لمرّتين؛ الأولى سنة 1973 مع مقدّمة كما سلف، والثانية سنة 1981 وقد أضيفت إليها مسرحية ثانية هي الأخرى من فصل واحد باسم «الأعمى». وقد أرفقت المسرحيّتان بمقدّمة ضافية وغنيّة، يشير فيها المقدّمان إلى أنّ هاتين المسرحيّتين هما الوحيدتان المكتملتان بين خمس عُثر عليها في أوراق جبران. أمّا تاريخ المسرح الجبراني نسبة إلى أعمال جبران الأخرى بالانكليزيّة فيعود، استنادًا إلى بعض إشارات في مذكّرات ماري هاسكل وتقديرات من المترجم، إلى السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة قبل وفاته، أي سنوات انشغاله أيضًا بيسوع بن الانسان وبآلهة الأرض، خاصة أنّها جميعًا تقريبًا، تتناول مباشرة أو مداورة مسألة الموت التي كان جبران قد أصبح منشغلًا بها بدافع من مرضه الذي بدأ يؤثّر في إنتاجه منذ صدور النبيّ.

سبق لأربعة من مؤلفات جبران الانكليزيّة التسعة أن تمّ تعريبها من قبل المترجم وإصدارها فرادى مع النص الانكليزيّ على الصفحات المقابلة؛ وهي المجنون والسابق والتّائه وآلهة الأرض. ولمّا كان المجنون فاتحة انكليزيّات جبران وآلهة الأرض خاتمتها، فقد تصدّرت كلًّا من المؤلّفين مقدّمة ضافية بقلم المترجم، آثرنا أن نبقي عليها في

المجموعة، نظرًا لما للمقدّمتين من فائدة في تكامل الصورة الجبرانيّة بقسماتها الانكليزيّة.

أمّا إقدامنا على ترجمة أعمال جبران الانكليزيّة إلى العربية، فهو للسبب عينه الذي حمل ميخائيل نعيمه سنة 1956 على تعريبه النموذجيّ للنبيّ. لقد شقّ عليه أنّ جبران الذي عرفه واستمع إليه في صومعته النيويوركيّة يقرأ عليه انكليزيّاته، هو غير هذا الذي يقدّم إلى الناس في بلاده معرّبًا، فآثر أن يوطّنه ولو من خلال أثر واحد؛ أقلّه من خلال الكتاب الأهمّ الذي قامت عليه شهرته لا في الأقطار الانكلوساكسونيّة وحدها بل في سائر العالم، وهو النبيّ.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ جبران أحيانًا كان يضمّن إنكليزيّاته أشياء كان قد سبق له أن نشرها في عربيّاته؛ خاصة الشذرات منها والأوابد والحكايا المرمّزة، «كالبحر الأعظم» مثلًا، و«نفسي مثقلة بثمارها»، و«بالأمس واليوم وغدًا» وغيرها. كان المتوقّع أن يورد المترجم هذه ومثيلاتها بصيغتها العربيّة الأصليّة، ناجزة كما جاءت بقلم جبران نفسه. لكن حرصًا على أسلوب جبران الانكليزيّ الذي كان أقلّ تهويمًا وأكثر اقتضابًا وانضباطًا وحسًّا دلاليًّا صارمًا وإقناعًا ممّا هو في عربيّاته، جعلنا نتجاوز الأصل العربيّ لهذه «المقطوعات»، ولو جبرانيًّا، وإعادة تعريبها أُسوة بشقيقاتها الأنكلوساكسونيّات.

نشير أيضًا إلى أنّ النبيّ على تعدّد موضوعاته، ليس له فهرس في الأصل؛ بل أسئلة متوالية يطرحها أهل أورفليس على المصطفى فيجيب عنها، الواحد بعد الآخر، في مقاطع تقصر أو تطول. وقد وضعنا نحن فهرسًا لهذه الموضوعات فيسهل على القارئ الرجوع إليها في مواضعها.

يبقى أن نشير إلى أنّ عددًا من الرسوم التي اعتاد جبران أن يضمّنها نصوصه، كانت قد حفيت على توالي طبعات مؤلّفاته. لذلك

عمدنا إلى البحث عن أصولها كي يُعاد استنساخها من جديد. وقد وفّقنا بمعونة لجنة جبران الوطنيّة وغيرها من المؤسّسات والأفراد، إن في لبنان أو في المهجر، إلى عدد لا بأس به من هذه الأصول. فإلى جميع هؤلاء بالغ شكرنا وتقديرنا. وإننا نتوجّه بالشكر الخالص مع بالغ التقدير إلى السيّدات باسكال قهوجي وألين أبو سعد ونجلا رعيدي وهدى زعرب اللواتي لولا سعيهنّ الدؤوب لما وفّقنا ليس فقط إلى هذه الرسوم، بل أيضًا إلى إخراج هذه المجموعة إجمالًا بالحلّة التي جاءت فيها.

جُلّ ما نرجوه ونحن نقدّم هذه المجموعة المعرّبة إلى القارىء، أن نكون قد وفّقنا إلى المحافظة على رواء ذلك الوجه الجبرانيّ بجميع قسماته التي بها أطلّ على العالم الخارجي ومن أجلها أقبل عليه ذلك العالم وأدخله إليه وأحبّه.

ن. ن.

مقدّمة

1

تحمل صفة مهجريّ إذ تطلق على جبران كأحد أبرز أُدباء المدرسة المهجريّة التي نشأت في أميركا الشماليّة خلال الثلث الأوّل من القرن العشرين، أكثر بكثير من معناها الجغرافي؛ أي الابتعاد عن الوطن الأصليّ والالتحاق بوطن بديل. أن يكون انسان ما مهاجرًا بالمعنى الجغرافيّ يعني أنّه أيضًا غريب. أمّا إذا كان الغريب هذا شاعرًا رائيًا وذا نزعة رومنطيقيّة كما كان جبران، فذاك يعني أنّ غربته مثلّثة؛ فهو إضافة إلى غربته الجغرافيّة، غريب كشاعر راء عن عالم الناس وأعراف الناس، وغريب ثالثًا كراء، عن كلّ ما يشدّه إلى العالم الواقعي الحسّي، أي عالم الزمان والمكان.

من هنا كان لا بدّ لغربة مثلّثة كهذه في نفس شاعر كجبران، أن تُلهب فيه حنينًا مثلّث الوجوه: إنّه حنين إلى الوطن، وحنين إلى مجتمع انسانيّ مثاليّ يلجأ إليه الشاعر ولو بالخيال، وهو من جهة ثالثة حنين إلى عالم مفارق خلف الزمان والمكان؛ عالم الحقيقة العلويّة المطلقة.

هذا الحنين المثلّث هو الذي تكوّنت منه تلك القيثارة ذات الأوتار الثلاثة التي عزف عليها جبران ألحان حياته جميعًا. إنّ تطوّر عزفه من مرحلة إلى أخرى، كما يبدو في سياق مؤلّفاته، لم يكن ناجمًا عن أي تبديل أجراه على آلته أو في عدد أوتارها – فهو قطّ لم يعرف العزف على أكثر من تلك الأوتار – بل عن اختلاف في توزيع الضّرب بحيث كانت تطغى أنغام وتر ما في هذه المرحلة أو تلك على أنغام رفيقيه. أمّا المرحلة التي تعادلت فيها أنغام تلك الأوتار فمرحلة انصرافه شبه الكامل إلى كتاباته الانكليزيّة، وعلى رأسها النبيّ التي بلغ فيها كامل نضجه الفكريّ والروحيّ والفنّي. إذ فيها يصبح كلٌّ من وطن المغترب والمجتمع الانسانيّ المثالي الذي يتوق إليه والعالم العلويّ المطلق الذي هو موضوع حنينه، أقانيم ثلاثة متساوية، لحنين اغترابيّ واحد متكامل.

أن نفهم هذه التكامليّة الرائعة وأن نتذوّقها في هذه المرحلة الانكليزيّة من حياة جبران المتمثّلة في هذه المجموعة الكاملة، ابتداءُ بالمجنون سنة 1918 وانتهاء بموت صاحبه سنة 1931، يقتضينا أن نجتاز مع جبران في عزفه غير المتكافىء على أوتار حنينه المثلّث، كامل مسيرته العربيّة من قبل، لأنّها بمثابة التمهيد.

أمّا بداية هذه المسيرة، فكتيّب بثلاث عشرة صفحة، افتتح به جبران حياته الأدبيّة كلّها، وأصدره بعد إحدى عشرة سنة من هجرته الأولى إلى بوسطن سنة 1894 وهو يومها في الحادية عشرة من عمره. واسم ذلك الكتاب – ولعلّ ذلك ليس صدفة، «الموسيقى». هذا الكتيّب الذي يشبه أن يكون في أسلوبه مسابقة انشائيّة لطالب ثانوي، هو تشبيب بالموسيقى أكثر منه مقالًا فيها ودراسة عنها. فهو من هذه الناحية يعكس لنا الكثير من جبران المشبّب والقليل القليل من مادّة موضوعه. أمّا جبران المشبّب فيبدو عاطفيًّا متماديًا في عاطفته حتّى

المراهقة. إلّا أنّه مراهق يعرف كيف يسكب عواطفه في لغة هي غاية في الشاعريّة وإن تكن بعد طريّة العود محدودة الموارد، مقلقلة القواعد. أمّا أهميّة الكتاب كتوطئة للفكر الجبرانيّ ففي ما يكشفه في نفس صاحبه من معالم تلك الغربة الميتافيزيقيّة وهي بعد في خطوطها الأولى، ومما تولّد عنها عند الفتى من حنين ضبابيّ مبهم كئيب. من هنا كان لجبران اليافع أن يرى في الموسيقى الأثيريّة الكئيبة المهوّمة توأمًا لروحه وأن يخاطبها في هذه الأسطر التالية بما يمكن أن يعتبر نموذجًا صادقًا عن الكتاب ككلّ، إن من حيث الروح أو الأسلوب.

«يا ابنة النفس والمحبّة. يا إناء مرارة الغرام وحلاوته. يا خيالات القلب البشريّ. يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح. يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة... يا خمرة القلوب الرافعة شاربها إلى أعالي عالم الخيالات. يا مشجّعة الجنود ومطهّرة نفوس العابدين. يا أيّتها التموُّجات الأثيريّة الحاملة أشباح النفس ويا بحر الرقّة واللّطف، إلى أمواجك نسلّم أنفسنا وفي أعماقك نستودع قلوبنا، فاحمليها إلى ما وراء المادة وأرينا ما تكنّه عوالك الغيب».

من موسيقى سنة 1905 وحتّى بداية عهد «النبيّ» سنة 1923 الذي بدا فيه حنين جبران الطويل وكأنّه قد حمل صاحبه «إلى ما وراء المادّة» وأطلعه على الكثير «ممّا تكنّه عوالم الغيب»، مرّت مؤلّفات جبران كما مرّ فكره بمرحلتين اثنتين: الأولى مرحلة «عرائس المروج» و«الأرواح المتمرّدة» و«الأجنحة المتكسّرة» و«دمعة وابتسامة» وهي جميعًا مؤلّفات شبابه التي ظهرت ما بين سنة 1907 وسنة 1914. أمّا الثانية، وهي الأنضج نسبيًّا، فمرحلة «المواكب» سنة 1919 و«العواصف» سنة 1920 بالعربيّة ثمّ «المجنون»، أوّل مؤلّفاته الانكليزيّة و«السّابق» ثانيها الذي كان بمثابة التمهيد لظهور «النبيّ».

من الطبيعي في المرحلة الشابّة الأولى من مؤلّفات جبران، أن يطغى وتر الحنين إلى لبنان تحت أنامل جبران العازف، على الوترين الباقيين في قيثارته. إنّه هنا جبران المرتبط جسدًا بحيّ الصينيّين في بوسطن، موطن هجرته الأول، والمشدود روحًا إلى لبنان بشرّي وقاديشا وأرز الربّ، مرتع ما يقارب الاثنتي عشرة سنة الأولى المكوّنة في حياته.

تضمّ «عرائس المروج» مجموعة من ثلاث قصص قصيرة، بينما تشتمل «الأرواح المتمرّدة» على أربع أخرى. أمّا رواية «الأجنحة المتكسّرة» فيمكن، مع القليل من التجاوز، أن تعتبر قصّة قصيرة مطوّلة. وهكذا يصبح بالإمكان، إذا نحن تجاهلنا أسماء هذه الكتب وتواريخ صدورها، أن نعتبرها مجموعة من ثماني قصص قصيرة متشابهة روحًا وأسلوبًا وأغراضًا إلى حدّ الترداد. فهي جميعًا تتّخذ لنفسها إطارًا واحدًا لا يتبدّل: إنّه لبنان، أرض الجمال الطبيعي المسحور. وهي جميعًا تدور حول أبطال، إن نحن تجاوزنا الاختلاف في أسمائهم وأوضاعهم الروائيّة المباشرة، بدوا وكأنّهم في الحقيقة واحد من حيث الجوهر، أو كأنّهم أقنعة متعدّدة لوجه واحد هو جبران خليل جبران نفسه في هذه المرحلة الشابّة من حياته. حتّى إنّ جبران هذا كثيرًا ما لا يحفل بأن يلبس قناعه ويخفي هويّته. كأن يسمي أحد أبطال قصص «الأرواح المتمرّدة» خليل الكافر أو أن يستخدم في «الأجنحة المتكسّرة» ضمير المتكلّم. فجبران ولبنانه إذن هما اللّاعبان الأساسيّان على المسرح في جميع هذه القصص: لبنان وطن خيال جبران المسحور وموضوع حنينه في بوسطن، وجبران المشتعل عشقًا لوطنه المسحور وحنينًا إليه.

إلّا أنّ جبران العاشق هذا، شأنه شأن معظم المتيّمين من العشّاق، إنّما يلجأ في إقناع المعشوقة بحبّه الصافي الإلهي البريء، واستمالتها، إلى المبالغة في تصوير الرّياء والعهر والبغاء في جميع منافسيه على

قلبها. أمّا المنافسون على امتلاك لبنان قلبًا وروحًا، فهم، كما بدا لجبران، رجال الكنيسة في لبنان القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، ونبلاؤه وإقطاعيُّوه. من هنا جاءت الحبكة في هذه القصص – وبلا استثناء تقريبًا – من النوع الذي ييسِّر لجبران البطل أو لبطل جبرانيّ أن يصطرع مع واحد أو آخر من هؤلاء المنافسين. فإذا لم يصرعه استطاع على الأقل أن يشهّر به وأن يعطي نفسه في الحالين مداها للتفنّن في وصف لبنان والتشبيب به طبيعة وسحرًا وجمالًا، تشبيبًا يرتفع به إلى مرتبة القداسة.

يجمع الحبّ في «الأجنحة المتكسّرة» بين جبران الشابّ وسلمى كرامة. ولكنّ مطران المدينة يفرّق بين قلبين ارتبطا ببراءة الحب ليزوّج سلمى مرغمة، من ابن أخيه الفظّ الغليظ. وهكذا ينفتح الباب واسعًا أمام جبران الكاتب ليشبع نهمه من التغنّي بجمال لبنان مسرح حبّه القدّوس، وليصبّ جام نقمته وغضبه من جهة أخرى على رجال الدّين الذين يلبسون مسوح الطهر الأخرويّ ليستروا بها عري العهر الدنيوي في نفوسهم.

أمّا خليل الكافر في «الأرواح المتمرّدة» فيطرد خارج الدّير في إحدى ليالي الشّتاء الثّلجيّة المسعورة، لا لشيء إلّا لأنّه، كما تُصوّره القصّة، كان أقرب إلى المسيح وتعاليمه ممّا كان باستطاعة رئيس الدّير ورفاقه الرّهبان أن يتحمّلوه. وكان لخليل أن تنقذه من العاصفة في آخر لحظة، أرملة وابنتها الجميلة بعد أن سمعتا أنينه من كوخهما المنفرد عند طرف القرية. ولا يمضي طويل وقت على تخفّي خليل عند منقذتيه حتّى تؤخذ الأمّ بمسيحيّته اللّاكهنوتيّة المتحرّرة البكر فتصبح من مريديه، وتشغف الإبنة بنبل شخصيّته وطلعته فيتحابّا. وعندما يُكتشف خليل ويلقى عليه القبض من قبل رجل الاقطاع في المنطقة ويؤتى به إلى المحاكمة أمامه بتهمة الكفر والخروج على القانون، ينتصب خليل في

وسط جماهير البسطاء من الفلّاحين المرابعين الذين تجمّعوا للتفرّج، ويتكلّم كمسيح في مجيئه الثاني. ويُمغنط دفاعه، الذي لا يلبث أن يتحوّل إلى هجوم كاسح على الكنيسة والاقطاع وعلى ما بينهما من تحالف، قلوب القرويين الطيّبين البائسين، فيلتفّون حوله ثائرين متّحدين. وتكون النتيجة أن ينتحر الإقطاعيّ هلعًا ويولّي الكاهن المدّعي هاربًا. أمّا خليل فيقترن بفتاته. وأمّا القرية فتحيا بعدها حياة اجتماعيّة سعيدة في ظلّ المحبّة والتعاون والعدل الطبيعيّ وبساطة التقوى في المسيحية البكر الأولى.

ويأتي «يوحنّا المجنون» في «عرائس المروج» وكأنّه الصورة المكرّرة لخليل الكافر. يغفل يوحنّا الرّاعي لحظة عن عجوله فتدخل أملاك الدّير. فلا يكون من رئيس الدّير ورهبانه إلّا أن يسجنوا الرّاعي ويحتجزوا العجول لقاء ما زعموا أنّه تعدّ على أملاك مقدّسة. وعندما يطلق سراح يوحنّا بعد توسّل مستميت من والديه، ينتظر عيد الفصح وتجمّع المصلّين في الكنيسة، ليهتبلها فرصة يتوجّه فيها إلى الجموع بخطبة صبّ فيها كلّ غضبته على رجال الكنيسة ورؤسائها: إنّهم الفرّيسيّون المحدثون أعداء المسيح، الذين يعيشون وينعمون في غفلة عن رسالتهم الحقيقيّة وعلى حساب البسطاء الكادحين البائسين الذين في قلوبهم حقًّا يقطن المسيح. ففي هؤلاء الفريسيين الجدد يقول يوحنّا:

«لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج، والذّهب المذوّب، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقّة الباردة، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيّتك خالية من الخبز، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الأرامل. تعال

ثانية يا يسوع الحيّ واطرد باعة الدّين من هياكلك فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم».

ولأنّ يوحنّا كان ينطق بالحقّ الخالص في نظام طبقيّ مستبدّ، من أعدى أعدائه الحقّ والإخلاص، فقد اعتبر مجنونًا لا يستحقّ الاهتمام. وهكذا درج الناس على تلقيبه ساخرين بيوحنّا المجنون.

قد يُتوقّع بعد كل هذا أن نعتبر جبران القصّاص مصلحًا اجتماعيًّا أو ثائرًا فكريًّا. وإنّه على أيّ حال كثيرًا ما اعتبر كذلك من قبل مقيّمي أدبه وفنّه. والذي يشجّع على مثل هذا الاعتبار، أنّ أبطال قصصه منهمكون أبدًا – وإن يكن كلامًا وخطابة – في خوض معارك تتّسم بطابع اجتماعي إصلاحيّ. أمّا مثار العراك فقضايا ثلاث تكاد تكون دائمًا هي هي في جميع القصص: حبّ سماويّ بريء يطغى عليه ويدنّسه ويقضي عليه مجتمع لا يفهم الحبّ إلّا وسيلة لمآرب أنانيّة قذرة ولأغراض دنيويّة خسيسة، رجال دين يجمعون الثّروة والقوّة والسّلطان باسم المسيح ورسالته بينما هم في الواقع أعدى أعداء المسيح ورسالته، نظام إقطاع لرجال إقطاع يمتصّون دماء النّاس ليغذّوا الوحش الذي احتلّ في قلوبهم مكان الإنسان.

إلّا أنّ جبران، على الرغم من جميع مظاهر الثّورة والإصلاح الإجتماعي، يبقى في قصصه هذه أبعد من أن يستحقّ لقب الثائر أو المصلح الاجتماعيّ.

أن تكون مصلحًا ثائرًا يعني أن يكون لديك البديل لما أنت ثائر عليه. ولكن أيًّا من أبطال جبران هؤلاء لا يوحي بأنّه يحمل بديلًا جوهريًّا ما. أو إنّ ما يحملونه من بديل – إذا جاز أن يعتبر كذلك – لا يتعدّى كونه مجرّد سلب لما يثورون عليه. فالبديل عن الحبّ الفاسد المفسد مثلًا هو، كما يبدو عند أبطال جبران، عدم وجود حبّ فاسد مفسد. أو

إنّه ذلك النوع من الحبّ الخيالي المسحور الذي نلقاه في «الأجنحة المتكسّرة». والبديل عن نظام إقطاعي، هو انعدام وجود نظام إقطاعي، إنّه ذلك النظام الإجتماعيّ الذي بلا نظام معيّن، والذي ننتهي إليه في «خليل الكافر». والبديل عن كنيسة أصبح رجالها بلا مسيح، هو مسيح بلا كنيسة ولا رجال على الإطلاق؛ بلا جسم عقائدي محدّد. أي إنّه مسيح مجنون كالذي ننتهي إليه في يوحنّا.

إنَّ مصلحًا إجتماعيًّا ثائرًا لا يملك البديل المحدّد لما يثور عليه، سرعان ما تنقلب البطولة فيه إلى شذوذ فيتحوّل من بطل إجتماعيّ مصلح إلى شاذّ عن المجتمع لأنّه عاجز عن أن يتكيّف معه فيكيّفه. من هنا كان أبطال جبران – وربّما بلا استثناء – «كفّارًا» و«مجانين» و«تائهين» وحتّى «أنبياء» و«آلهة». إنّهم في كلّ ذلك يمثّلون جبران حيّ الصينيّين المغترب القلق المستوحش الشاذّ في مجتمع هو فيه، والمشدود أبدًا عبر حنينه وخياله إلى لبنان موطن طفولته المسحور وأرض تطلّعاته إلى عالم من الجمال البكر المؤنس والعيش الطبيعي الدافىء الحميم. فكأنّ همّ جبران الحقيقي إذ يثور من خلال أبطاله، ليس أن يجتثّ المفاسد التي تشوّه المجتمع في لبنان الجميل، بل أن يحطّم المجتمع الفاسد الذي يشوّه الجمال البكر في طبيعة لبنان التي بلا شائبة. إنّ همّه الأوّل هو لبنان الطبيعة والجمال والطّفولة، وليس لبنان المجتمع والإنسان.

وتزداد صورة هذا النوع من لبنان الذي تعمر به مخيّلة جبران وضوحًا، في مقال لاحق حيث يقف لبنانه المرتجى المنشود وأولئك الذين كانوا موضوع نقمته وثورته في قصصه، وجهًا لوجه. إنّ أقصى ما يستوحى من خطاب جبران إلى هؤلاء المفسدين في هذا المقال الذي دعاه «لكم لبنانكم ولي لبناني»، ليس كيف يمكن تحويل لبنان إلى

مجتمع أفضل، بل كم هو لبنان جميل وخلّاب، بلا مجتمع على الإطلاق. يقول:

«... لكم لبنانكم ولي لبناني.
لكم لبنانكم ومعضلاته، ولي لبناني وجماله.
لكم لبنانكم بكلّ ما فيه من الأغراض والمنازع،
ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأماني...
لبنانكم عقدة سياسيّة تحاول حلّها الأيّام، أمّا
لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجمال نحو ازرقاق السّماء.
لبنانكم مشكلة دوليّة تتقاذفها الليالي، أما لبناني
فأودية هادئة سحريّة تتموّج في جنباتها
رنّات الأجراس وأغاني السّواقي...
لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة، أمّا لبناني ففكرة بعيدة
وعاطفة مشتعلة وكلمة علويّة تهمسها الأرض في أذن الفضاء...
لبنانكم طوائف وأحزاب، أمّا لبناني فصبية يتسلّقون الصخور
ويركضون مع الجداول ويقذفون الأكر في السّاحات...
لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات، أمّا لبناني فتغريد
الشّحارير، وحفيف أغصان الحور والسّنديان ورجع صدى الغابات
في المغاور والكهوف».

لا عجب إذن أن يكون الختام الذي انتهت عنده هذه المرحلة الأولى من حياة جبران الأدبيّة ليس خطوات لاحقة في الثورة والإصلاح بل «دمعة وابتسامة». إنّ الدموع التي تطغى على البسمات في هذه المجموعة من المنثورات الشعريّة هي بكلّ وضوح دموع جبران المستوحش الشاذّ عن مجتمعه في بوسطن لا جبران الثائر الإجتماعي، جبران المغنّي بصوت

شجيّ موجع ألحان الغربة والحبّ المؤود وتقاسيم الكآبة والتوحّد والتحرّق إلى الوطن مشحونة بنوع من الحنين الغامض إلى دنيا مفارقة. أمّا البسمات في هذه المجموعة فتجسيد للحظات كانت حتّى الآن متباعدة في حياة جبران المغترب فبدأت تتزايد وتتقارب وتتواصل في اطّراد، لحظات لا يعود فيها لبنان، بلد الجمال المسحور، فسحة أرضيّة جغرافيّة، بل يتحوّل تدريجيًّا في خلد الشّاعر ومخيّلته إلى رمز لوطن علويّ إلهيّ مفارق. فبعد محاولات أوّلية في أدب جبران السابق، كما في «رماد الأجيال والنار الخالدة»، إحدى قصص «عرائس المروج» التي يتجلّى فيها إيمانه بالتقمّص، أخذ جبران في منثورات «دمعة وابتسامة» الشعريّة يعطي حنينه إلى الوطن إتّجاهًا أفلاطونيًّا واضحًا ومطّردًا. فغربته قد أصبحت غربة النّفس الإنسانيّة السجينة في عالم الزمان والمكان. كما أصبح حنينه إلى الدّيار حنين تلك النفس المتطلّعة من خلال سجنها إلى عالم إلهيّ مطلق، منه كان نزولها في البدء وعنه كان نزوحها وإليه يشدّها الحنين المضني والأشواق المبرّحة. من هنا كانت الحياة الإنسانيّة دمعة وابتسامة: دمعة يعتصرها النزوح الميتافيزيقي والتغرّب، وابتسامة يضيؤها أمل الإنعتاق والعودة إلى الدّيار. وهكذا يصبح المثل التقليدي للبحر والنهر والمطر مألوفًا في كتابات جبران: فالمطر هو دموع البحر المنتحب اغترابًا فوق الجبال والسهول والأودية، وخرير الجداول هو أغاني الماء الهازج فرحًا في طريق العودة إلى البيت الأبويّ. تقول إحدى منثورات جبرات الشعريّة في «دمعة وابتسامة»:

«تتبخّر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والأودية حتّى إذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمّت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها. كذا النّفس تنفصل عن الرّوح العام وتسير في عالم المادّة وتمرّ كغيمة فوق جبال

الأحـزان وسهول الأفـراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع إلى حيث كانت: إلى بحر المحبّة والجمال، إلى اللّه...».

لقد عمد جبران، عندما كان لبنان يجسّد صورة الوطن في مخيّلته ويشكّل موضوع حنينه، إلى صبّ نقمته وغضبه على أولئك الذين رأى أنّهم يشوّهون وجه لبنانه الجميل البتول. أمّا وقد بدأ موطن جبران يتحوّل في ذهنه إلى عالم ميتافيزيقيّ أفلاطونيّ مجرّد، فإنّ ثورته المريرة لم تعد مقصورة على رجال الدين والإقطاعيّين المستغلّين المستبدّين وغيرهم ممّن شوّهوا في مخيّلته صورة لبنانه الحبيب. بل تعدّتهم إلى الإنسان ككلّ، ذلك المغترب في عالمه الزمنيّ المكانيّ عن وطن الألوهة الذي منه تحدّر. لقد كان من الإنسان في مغتربه الأرضيّ الماديّ الدّنيء أن غامت في نفسه صورة الوطن الأمّ، صورة الله الكاملة التي كانت له في البدء. وهكذا فإنّ تقزّز جبران ونقمته وثورته لم تعد تستهدف المجتمع اللبنانيّ أو أيّ مجتمع محليّ آخر، بل الإنسان قاطبة في مجتمعه الأرضيّ الأوسع. مثل هذه النّقمة وهذا التقزّز هو الذي يشكّل الخط الرئيسيّ المتّصل الذي ينتظم كلًّا من قصيدة جبران الطّويلة «المواكب» الصادرة سنة 1919، ومجموعة مقالات «العواصف»، آخر كتاب صدر له بالعربيّة سنة 1920.

2

ليست الهجرة في حدّ ذاتها، هي التي تخلق فينا الشّعور بالإغتراب. فإذا كان الإنسان، كما في المفهوم الأفلاطونيّ الجبرانيّ، من مصدر علويّ إلهيّ، كنّا جميعًا في عالم الزمان والمكان مهاجرين ورفاق طريق. أمّا الذي يحسّ الغربة الموحشة المريرة حقًّا، فنفس تعي أنّها من ديار علويّة، ولكنّها إذ تتوجّه إلى رفاقها في الهجرة من بني البشر، تجد أن ليس في

الدرب إلى اللّه سواها وأنّهم جميعًا لاهون عنها بسفاسف عالمهم الترابيّ يتمرّغون بأوحاله في نشوة من يرى فيه غاية الأرب ومنتهى المطاف. مثل تلك الغربة المريرة هي التي أحسّت بها نفس جبران فولّدت فيه مزيجًا من التقزّز من الناس والتّعالي عليهم طغى على المرحلة الثانية من حياته الأدبيّة كلّها وأضفى عليها صفتها المميّزة. أمّا التّعالي، فلأنّ جبران الذي اعتبر نفسه وحيدًا في وعيه ألوهيّته، أحسّ وكأنّه أرفع من أن ينتمي إلى سائر البشر وقد بدوا له من عليائه وكأنّهم في طينهم الأرضيّ سلالات مزوّرة؛ كأنّهم «أبناء الآلهة وأحفاد القرود».

إنّ ذلك المزيج من التّعالي والتقزّز هو تمامًا ما يحسّه يوسف الفخري بطل جبران في مقطوعته القصصيّة «العواصف». فيوسف الذي يعتزل الناس تعاليًا في كوخ متوحّد بين الجبال العاصية، يصبح بالنسبة إلى الجيرة كلّها لغزًا يوحي بالجلال والرّهبة. إلّا أنّه لا يلبث أن يبوح بسرّ عزلته البطوليّة وصمته الرهيب لراوية القصة، جبران، عندما يضطر هذا في ليلة ليلاء وقد فاجأته العاصفة وهو في الجبال، أن يلجأ إلى ذلك الكوخ، ريثما ينحبس المطر. يقول يوسف الفخري:

«... نعم باطلة هي أعمال الإنسان، وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والأماني وباطل كلّ شيء على الأرض. وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحب النّفس وشوقها وهيامها – ليس هناك غير شيء واحـد... فكرة تفاجئ وجدان الإنسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة... منتصبة كبرج من النّور بين الأرض واللّانهاية».

هكذا كان ليوسف الفخري وهو المتطلّع إلى سائر البشر من على رأس برج الحياة، من خلال نفسه المتألّهة العملاقة كما بدت له في لحظة إشراق مذهلة، أن يراهم في عيشهم الأرضي المكرور البليد عند

قاعدة البرج؛ في غباء نفوسهم البهيمة التي لا تجرؤ على أن ترفع أبصارها عن مواخير التراب إلى القمم الإلهيّة في كلّ منهم، أقزامًا يثيرون التقزّز والاشمئزاز، وجبناء مرائين يثيرون الإحتقار والكراهية. يقول يوسف الفخري مكملًا إيضاحه لضيفه:

«... هجرت النّاس لأنّ أخلاقي لا تنطبق على أخلاقهم، وأحلامي لا تتّفق مع أحلامهم، تركت البشر لأنّني وجدت نفسي دولابًا يدور يمنة بين دواليب تدور يسارًا». إلى أن يقول: «لا يا أخي لم أطلب الوحدة للصلاة والتقشّف، بل طلبتها هاربًا من النّاس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجيجهم وعويلهم. طلبت الوحدة لكي لا أرى أوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدرًا وشرفًا...».

أمّا في «حفّار القبور»، وهي مقطوعة قصصية أخرى في العواصف، فإنّ هؤلاء الرجال، وهم يمثّلون في نظر جبران المجتمع البشريّ بأسره، ليسوا في حقيقة عيشهم سوى جثث متعفّنة نتنة. ذلك ما يوضحه لجبران الراوية بطل قصّته الذي لا يزيد عن كونه صورة مكرورة ليوسف الفخري:

«أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنّهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنّهم لم يجدوا من يدفنهم فظلّوا منطرحين فوق الثّرى ورائحة النتن تنبعث منهم». من هنا كانت نصيحة ذلك البطل لمحدّثه بأنّ أجلّ صناعة يمكن أن يمتهنها إنسان عملاق سما بنفسه إلى قمة برج الحياة، هي حفر القبور. وهكذا ينتهي جبران الرّاوية إلى القول:

«ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات، غير أنّ الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني!».

أمّا اسم محدّث جبران وبطل قصته فهو «الإله المجنون». ولعلّه باستطاعتنا أيضًا وبكلّ انسجام مع موقف جبران الفكريّ في هذه المرحلة من حياته الأدبيّة والشعريّة أن نعتبر ذلك الإسم مرادفًا في قاموسه لـ«الإنسان المتألّه».

«المواكب»، قصيدة جبران الطولى بالعربية، حوار بين صوتين. والصّوتان، إن نحن أرهفنا السّمع، صادران على ما يبدو، عن إنسان واحد: إنّه أحد هؤلاء المجانين الجبرانيّين، أو أولئك الذين سموا بنفوسهم على الطريقة الجبرانيّة في كتاب «العواصف»، إلى ذراها الإلهيّة على رأس البرج فأصبح كلّ منهم إله نفسه. فهو إن ألقى ببصره إلى أسفل فرأى سائر النّاس في تمرّغهم الحضيضيّ عند القاعدة، رفع عقيرته متقزّزًا من زيفهم متهكّمًا على آلهتهم، ساخرًا من نظمهم وتقاليدهم، شامتًا بقيمهم التي تبدو في غبائها وكأنّه محتوم عليها أن تظلّ أبدًا في تناقض وفوضى وصدام. وهو إن ارتفع ببصره إلى عالمه العلويّ الرفيع على قمّة البرج، هناك بعيدًا فوق ثنائيّات الزّمان والمكان وتناقضات الخير والشرّ، وخلف الحياة والموت، هناك حيث تتداخل جميع الثنائيات وتذوب في وحدة شاملة، رفع صوته مسبّحًا الحياة الكلّية الكونيّة المطلقة. فإذا ارتفع الصّوت الأوّل قائلًا:

والعدل في الأرض يبكي الجنّ لو سمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا
فالسّجن والموت للجانين إن صغروا
والمجد والفخر والإثراء إن كبروا
فسارق الزّهر مذموم ومحتقر

وسارق الحق يدعى [الباسل الخطر][1]
وقاتل الجسم مقتول بفعلته
وقاتل الرّوح لا تدري به البشر

ردّد الصوت الثاني من جهته:

ليس في الغابات عدل لا ولا فيها العقاب
فإذا الصفصاف ألقى ظلّه فوق التراب
لا يقول السرو هذي بدعة ضد الكتاب
إن عدل النّاس ثلج إن رأته الشّمس ذاب
أعطني الناي وغنّ فالغنا عدل القلوب
وأنين النّاي يبقى بعد أن تفنى الذّنوب

3

أن يبلغ الإنسان قطبه الإلهيّ فيكتمل، يعني أن يبلغ مرحلة من الطمأنينة النفسيّة والفهم العميق والرضى والمحبّة الشمولية المسكرة. أمّا أنّ جبران وأبطاله الجبرانيّين ما زالوا آلهة مجانين، وحفّاري قبور وأعداء للإنسان والمجتمع البشري قاطبة؛ أمّا أنّهم ما زالوا، على الرّغم من زعمهم بلوغ قطبهم العلوي على رأس برج الحياة، مفعمين بالمرارة والثورة المسمومة الحانقة، فدليل على أنّ الإكتمال الجبرانيّ المزعوم خلال هذه المرحلة الثانية من أدب صاحبه كان أقرب إلى الإدّعاء منه إلى اليقين وإلى الوهم والإيهام منه إلى واقع حال راهن محقّق. فكأنّ انشغال جبران «المجنون» أو جبران «السوبرمان» بصراعه الشخصي

---

[1] كذا في الأصل.

العنيف من أجل تبيّن وجه الحق، وبوحدته الذاتيّة المريرة على درب التسامي الرّوحي، قد حال ليس فقط بينه وبين غبطة الإكتمال على رأس برج كان في الواقع ما يزال بعيدًا كلّ البعد عن بلوغه، بل أيضًا بينه وبين أن يعي المأساة الكبرى في حياة إخوان له في الناسوت ضائعين غارقين في أوحال دنياهم عند القاعدة. وهكذا كان لجبران أن أعلن تقزّزه من الناس وسخطه عليهم، في حين كان يُنتظر أن يثير فيه ضياعهم، وهو المهتدي، حنانًا ورثاءً ورأفة ومحبّة.

أمّا وقد أفرغ جبران في هذه المرحلة معظم ما كان في نفسه من سخط ومرارة على الإنسان ومجتمعه، فقد تحتّم عليه بحكم طبيعة المرتكزات التي قام عليها تفكيره، أن يعبُر في تطوّره الفلسفيّ إلى مرحلة لاحقة ثالثة. إنّها المرحلة الانكليزيّة من نتاجه وعلى رأسها النبيّ مؤلّفه الأمّ. أمّا فاتحتها وهمزة الوصل، بل نقطة التحوّل ما بين جبران العربيّة وجبران الانكليزيّة، فكتاب «المجنون»، 1918، ومن بعده «السّابق»، 1920.

قد يوحي المجنون استنادًا إلى التّسمية، وهو مجموعة أوابد وأمثال وحكايا مرمّزة، بأنّه استمرار للجنون الجبرانيّ في عربيّاته. قد يصحّ ذلك من بعض الوجوه؛ خاصة أنّ الكتاب قد صدر قبل «المواكب» بسنة، وبسنتين قبل «العواصف». إلّا أنّه في جوانبه الأهم، مجنون من نوع مختلف. إنّه، في الدرجة الأولى وعلى العموم، لم يعد فوقيًّا خطابيّ اللهجة والأسلوب، جالسًا على رأس برج الحياة ومقرّعًا بالناس عند السّفح، لا لشيء إلّا لأنّهم يبدون له من عليائه أقزامًا.

ولقد طال التغيّر في مجنون جبران هذا، لا أسلوب الخطاب فقط، بل أيضًا طبيعة النظرة وطريقة الأداء. ولعلّ العامل الأفعل وراء هذا التطوّر، هو تغيّر القارىء الذي وجد جبران نفسه متوجّهًا إليه. لقد وجد

نفسه في مخاطبة قارئه الانكليزيّ على ما يبدو، أمام أمرين اثنين لا بدّ من مراعاتهما إن هو شاء أن يستوقف ذلك القارىء. أمّا الأوّل ففي أن يكون مقنعًا في ما يذهب إليه. والإقناع لا يكون في أن يخاطب الناس من عل ليبيّن لهم، ولقارئه الإنكليزيّ على الخصوص، كم هم أدنون لا يفهمون، بل أن ينزل إليهم ويخاطبهم كواحد منهم، فيكشف لهم في ذواتهم عمّا من شأنه إن هم عاينوه، أن يرتفع بهم إلى القمّة حيث كان له هو أن ارتفع.

أمّا الأمر الثاني بالنسبة إلى جبران وقارئه الإنكليزيّ، فيتعلّق بالأصالة. أنت لا تستطيع أن تكون مقنعًا، إلّا إذا كنت أصيلًا. إلّا أنّ جبران الطاريء على الانكليزيّة وأساليبها وتراثها سيظلّ مهما بذل من جهد، طارئًا ودخيلًا، ما لم يمدّ قارئه بشيء من أصالته هو نفسه؛ من أصالة مشرقيّته ولغّته وأساليبها وتراثها. حتّى إذا قرأها الإنكليزيّ، لا يحسّ أنّه أمام شيء دخيل يمرّ من فوقه ويبتسم، بل أمام كتابة أصيلة يقف أمامها فيتأمّل ويعجب. فكان أن اعتمد جبران في مجنونه، أسلوب الأوابد والشذرات وجوامع الحكم والحكايا المرمّزة التي حفل بها تراث العربية من كليلة ودمنة إلى ألف ليلة وليلة وطرق أهل التصوّف وقصص الأنبياء؛ وذلك بلغة ذات سمة توراتيّة مؤاتية.

وهكذا لم يعد المجنون في «المجنون» إنسانًا بالضرورة، بل غالبًا ما أصبح رمزًا للمضمون. ففي مقطوعة بعنوان «العين» مثلًا، تقول العين: إنّي أرى خلف هذه الأودية جبلًا موشّى بالسديم الأزرق. أليس أنّه بديع؟ فأصاخت الأذن إصغاءً مركّزًا ثم قالت: «ليس ثمّة من جبل، فأنا لست أسمعه». وتكلّمت اليد فقالت، «عبثًا أحاول أن أتبيّنه بالحسّ أو باللّمس. إنّي لست أقع على جبل». وقال الأنف، «لا وجود لجبل، فأنا لا أتنسّم له رائحة».

عندها استدارت العين نحو جهة أخرى، وراح الآخرون يتحدّثون حول ضلالة العين الغريبة قائلين، إنّ شيئًا أو مسًّا ما قد أصاب العين.

يمكن لقارئ هذه المقطوعة أن يحسب العين نسبة إلى الآخرين من الزملاء حولها، وبكلّ بساطة «مجنونة».

حتّى في مقطوعة الكتاب الأولى التي تروي حكاية المجنون الذي سمّي الكتاب باسمه، لا يعتبر المجنون نفسه مجنونًا، أو يتّخذ لنفسه منصّة مجنون، كما كان يحصل في عربيّات جبران، بل إنّهم الناس في غبائهم هم أنفسهم، الذين يدعونه مجنونًا، ويتّخذون لأنفسهم دور الهازئين. كلّ ما في الأمر أنّ هذا الإنسان استفاق ذات صباح، فإذا اللصوص قد سرقوا أقنعته السبعة التي قنّعته من البدء. فخرج في الشوارع عاريًا من أقنعته وهو يلعن اللصوص. فإذا أحد الصبية يصيح من على أحد السطوح قائلًا، «ها إنّه مجنون». وعندما التفت الرجل إلى أعلا كي يبصر الصبيّ، إذا بالشّمس تقبّل لأوّل مرّة وجهه العاري، فاشتعلت نفسه محبّة للشّمس ولم يعد يريد الأقنعة. فقال صائحًا، مباركون، مباركون هم اللصوص الذين سرقوا أقنعتي.

إذا كان الناس قد اعتبروا هذا الرجل مجنونًا، فليس لأنّه هو يرى نفسه مختلفًا عنهم أو أرفع منهم أو متحاشيًا لهم. إنّهم هم الذين انتبذوه، فقط لأنّ أحدًا منهم لم يرفع مرّة وجهه للشّمس ليعرف معنى أن يقبّله النور فيستغني في الحياة عن كلّ ما يقنّعه دون ذلك النور.

وفي كتاب «السابق» ثاني «المجنون»، يقول السابق الذي هو الممهّد لآت من بعده هو «النبيّ»، ما يبدو وكأنّه تنكّر تام لكافة مجانين جبران في عربيّاته،

«كم أنا غرٌّ بعد ومغضب لأكون ذاتي المطلقة.

«وكيف لي أن أبلغ ذاتي المطلقة، إلّا إذا ذبحت ذواتي المكبّلة، أو إلّا إذا غدا الناس جميعًا مطلقين».

«كيف للنسر في ذاتي أن يحلّق أمام وجه الشمس،

«قبل أن يغادر فراخي العشّ الذي بنيته أنا نفسي لهم بمنقاري؟»

إنّ إيمان جبران بوحدة الحياة الذي كان في عربيّاته هوسًا أكثر منه حالة وجود، قد غدا فيما بعد بجميع مستلزماته الفكريّة والفنّية والروحية الأخرى، المحور الذي دارت حوله الآن جميع مؤلّفاته.

إذا كانت الحياة وحدة كلّية لامتناهية، فإنّ كلّ كائن حيّ بالتالي، وخاصة الانسان، هو عالم أصغر. إنّه اللّامتناهي وقد لفّ بالقمط كما لو كان، تمامًا كما هي البذرة بحدّ ذاتها شجرة كاملة مقمّطة.

تقول إحدى شذرات جبران في «رمل وزبد»، أحد مؤلّفاته الانكليزيّة الصادر سنة 1926 «كلّ بذرة هي كتلة من حنين». وإنّ الذي نفهمه بهذا الحنين، أنّه شوق الشّجرة في البذرة إلى تمزيق الجدران التي تكتنفها والإنطلاق نحو الإكتمال في الشّجرة التي كانتها قبل أن تدخل القمط. فكلّ بذرة إذن تنطوي في ذاتها ليس فقط على أشواقها، بل أيضًا على صورة الإكتمال الذي تشتاقه وعلى الطريق المؤدّي إلى ذلك الإكتمال. أن نعتمد القياس نفسه بالنسبة إلى البشر يعني أن نقول إنّ كلّ إنسان هو بذرة إلهيّة، إنّه الحياة اللّامتناهية المطلقة في القمط. فكلّ إنسان بالنّسبة إلى جبران إذن، هو كتلة من حنين. إنّه حنين الإله المقمّط في الإنسان إلى الإنسان الطليق في اللّه الذي كانه قبل أن يدخل القمط.

وجاء في شذرة أخرى أنّ «ما من حنين إلّا ويتحقّق». ما من إنسان إذن، إلّا وهو صائر إلى التألّه؛ إلّا وهو عائد إلى اللّه الذي منه كان صدوره في البدء. إنّه، كالبذرة، ينطوي في ذاته ليس فقط على الحنين

إلى اللّه، بل أيضًا على صورة اللّه موضوع حنينه، وعلى الطريق المؤدّي إلى الإكتمال على تلك الصورة. أو بكلام آخر أكثر تمثيلًا لحنين جبران المثلّث، ولأوتار قيثارته الثلاثة التي بها يعبّر عن ذلك الحنين:

ما من إنسان إلّا وهو مغترب عن وطنه،

ما من وطن حقيقي للانسان إلّا عالم المطلق الذي كان عنه اغترابه،

ما من طريق للرجوع سوى حياة مثالية في مجتمع مثالي يؤهّله لذلك الرجوع.

ما أن رأى جبران الانسان بهذا المنظار حتّى لم يعد بمقدوره أن يكون «حفّار قبور». الناس جميعًا علويّون إلهيّون، وليس في أمثالهم يصحّ الموت. أمّا أنّهم يتمرّغون في أوحال عالمهم الأرضي، فذاك ليس لأنّهم من الخسّة بحيث يثيرون في النفس التقزّز، بل لأنّهم في جهلهم ذاهلون عن اللّه في نفوسهم؛ شأنهم في ذلك شأن قطعة الخشب الهشّة الباردة في ذهولها عن النار الهاجعة في ذاتها، حتّى إذا مسّها قبس خارجيّ منبّه، استيقظت تلك النار وتفجّرت فيضًا من لهب ونور.

لا، ليس إلى حفّار قبور يفتقر الناس، بل إلى منبّه موقظ؛ إلى قابلة سقراطيّة تسعفهم على إيقاظ الهاجع في نفوسهم كيما تغدو تلك النفوس أهلًا للرجوع إلى الوطن.

وهكذا ينسدل الستار في هذه المرحلة الختامية من حياة جبران، على جبران المغضب والمجنون المتعالي، ليبرز مكانه جبران المنبّه والموقظ «والنبيّ».

4

في النبيّ الصادر سنة 1923، يبصر المصطفى، «الذي كان فجرًا لذاته»، سفينته التي كان قد لبث ينتظرها في مدينة أورفليس اثنتي عشرة سنة، آتية من بعيد كي تقلّه إلى جزيرته التي كانت مسقط رأسه. عندها يترك أبناء أورفليس جميع أعمالهم اليوميّة ويتحلّقون حوله في ساحة المدينة مكتئبين، ليشيّعوه ويطلبوا إليه أن يترك معهم شيئًا من حكمته قبل أن يغادر. ويرضى المصطفى أن يجيب عن كلّ ما اختاروا أن يطرحوه عليه من أسئلة. فكان أن أجاب عن ستة وعشرين سؤالًا هي مجموع كتاب النبيّ.

ليس علينا أن نذهب بعيدًا في تخيّلنا كي ندرك أنّ المصطفى، نبيّ أورفليس، ليس غير جبران نفسه الذي كان حتّى سنة 1923 قد مضى عليه في نيويورك – مدينة أورفليس – بعد أن ارتحل إليها من بوسطن عام 1912، حوالي الإثنتي عشرة سنة. كما انّه ليس من الصّعب أن نفهم بجزيرة المصطفى الأمّ، لبنان الذي كان أبدًا موضوع تطلّعات جبران وشوقه وحنينه. أمّا إذا شئنا أن نذهب بخيالنا إلى أبعد من المدلولات المباشرة لبدا لنا لبنان رمزًا لعالم الماوراء الذي هو معادننا المطلق، وبدا لنا المصطفى بالمنظار الجبرانيّ، رمزًا لذلك الإنسان الذي بلغ به وعيه حدّ تحقيق ذاته العلويّة؛ حدّ التهيُّؤ للعبور. من هنا كان مجيء سفينته – أي الموت – لتقلّه إلى موطنه الأم، إلى العالم الأفلاطوني المطلق الذي منه كان نزوحنا الأوّل وعنه كانت غربتنا الوجوديّة العظمى. أمّا أهل أورفليس فيمثّلون المجتمع البشريّ في منفاه الزمنيّ المكانيّ، وفي افتقاره الأعظم في تيهه إلى يد نبويّة مرشدة تقوده من الآنيّ في نفسه إلى المطلق – من اللّه في الإنسان إلى الإنسان في اللّه. ولأنّ المصطفى

قد خبر بنفسه عبور التّيه واجتياز الطريق المؤدّي إلى الوطن الأمّ، فقد اعتبر نفسه ذلك الدليل الهادي.

إذا نحن عرّينا التعاليم الجبرانيّة في النبيّ من جلبابها الشعريّ الأخّاذ، بدت من حيث المضمون قائمة جميعًا على فكرة مركزيّة واحدة هي أنّ الحياة واحدة ومطلقة ولا متناهية. فالإنسان ككائن حيّ، ليس في ظاهره الزمنيّ المكانيّ المحدود الزائل سوى ظلّ لما هو عليه في حقيقته. ذلك لأنّه في حقيقته موصول بالحياة الكونيّة المطلقة. فهو إذا كان بعد لا يعي مدى امتداد كيانه، فلأنّ وعيه لذاته ما زال حسيرًا.

يقول المصطفى في كلمته الوداعيّة لأهل أورفليس، «في سكينة الليل خطرت في شوارعكم، ودخلت روحي بيوتكم، وعبرت دقات قلوبكم إلى قلبي، وسرت أنفاسكم على وجهي وعرفتكم جميعًا... ولكنّ شيئًا أكثر عذوبة... أقبل عليّ، إنّه اللامحدود الذي فيكم. إنّه الإنسان الشّاسع فيكم الذي لستم بعد نسبة إليه سوى خلايا وأعصاب... وإنّكم لفي الانسان الشّاسع تكونون شاسعين، رأيته، وإنّه من خلاله كان لي أن رأيتكم وأحببتكم».

أما كيف لنا أن نبلغ الانسان الشّاسع فينا ونحن لسنا بعد نسبة إليه سوى خلايا وأعصاب، فأن نفعل في سبيله ما تفعله البذرة أو البلّوطة تحت التراب. إنّها تخلع ما هو ذاتها الصغرى من أجل أن تتيح لشوقها إلى السنديانة الشاسعة الهاجعة في كيانها أن يتحقّق. القضية تشبه أن تكون قضية عاشق يضحّي بكلّ ما هو ذاته لا ليموت بل ليحقّق حلمه ويحيى فقط بالمعشوق الذي فيه.

إنّه لملفت حقًّا أن يكون أوّل طلب إلى المصطفى من أهل أورفليس وجّهته ألمترا العرّافة، هو أن يحدّثهم عن الحبّ. يقول المصطفى في جملة ما يقول:

«عندما يومئ الحبّ إليكم فاتبعوه، ... وعندما يضمّكم بجناحيه استجيبوا للجناحين... وعندما يتكلّم إليكم فصدّقوه... فمثلما يتوّجكم الحبّ، هكذا أيضًا يرفعكم على الصليب. ومثلما هو لنمائكم، كذلك هو لتقليمكم أيضًا.

فالحبّ إذن، الذي هو المرشد إلى ذواتنا الكبرى، لا يمكن أن ينفصل عن الألم. إنّ ألم التفتّح والتمزّق تحت التراب هو وحده الذي يشعر البذرة بالشجرة التي تتململ مستيقظة في داخلها.

يقول المصطفى:

«إنّ ألمكم هو تكسّر القشرة التي تغلّف ما فيكم من وعي.

«وكما أنّ على نواة الثمرة أن تنفلق كي يمتثل قلبها أمام وجه الشمس، كذلك يتحتّم عليكم أن تعرفوا الألم».

ما أن يرى الألم بهذا المنظار حتّى يتحوّل لتوّه إلى نوع من الفرح. إنّه فرح البذرة التي تعاني ألم الموت كشجرة في القماط تحت التراب، كي تتحوّل نموًّا أو حبًّا إلى شجرة بالفعل. أما الألم المؤلم حقًّا والذي لا فرح فيه، فلا يكون إلّا عند الذين لا يتعظون به ولا يفهمونه. إذا كانت ذاتنا الكبرى أو الانسان الشاسع فينا هو اللّه، كان كلّ ما يتسبّب في إيلامنا مجرّد شاهد على أنّ ذاتنا لم تبلغ بعد من الرحابة حدّ أن تحتويه. فالألم إذن، إن هو فهم على حقيقته، تحوّل إلى حافز للإتّساع والنموّ، وبالتالي للفرح. من هنا قول المصطفى:

«إنّ فرحكم هو الحزن فيكم وقد انخلع قناعه... وكلّما أمعن الألم حفرًا في أعماقكم، زدتم سعة لاحتواء الفرح».

إن يكن الألم والفرح وجهين لحقيقة واحدة، فالموت والحياة هما أيضًا كذلك. ليس ما يموت في عالم لامتناه كالذي نحن فيه إلّا الجزئي المتناهي. ولكنّ الجزئيّ في مثل هذا العالم مرتبط إرتباطًا كينونيًّا لا

انفصام فيه بسائر الأشياء من حوله التي هي مرتبطة أيضًا بغيرها وهكذا تدرّجًا حتّى اللّانهاية. فكلّ ما نعتبره جزئيًّا متناهيًا إذن، ليس في حقيقته إلّا اللّامتناهي نفسه وقد بدا لحواسنا الحسيرة على غير صورته. إنّه يبدو لحواسنا المحدودة أبدًا متنكّرًا. فنحن ما أن نفهم الموت على حقيقته حتّى ندرك أنّه ليس فناء على الإطلاق. إن هو إلّا الجزئيّ المتناهي فينا ينصبّ في اللانهاية. إنّه عبور اللّه في الإنسان إلى الإنسان في اللّه. من هنا قول المصطفى:

«الحياة والموت متلازمان تمامًا كتلازم النهر والمحيط. ... وماذا في توقّف الأنفاس غير تحرير النَفَس من مدّه وجزره اللذين بلا قرار كي يرتفع ويتّسع ويبلغ اللّه بلا تعثّر».

إذا كان الموت والحياة شيئًا واحدًا تمامًا كما الألم والفرح، كان أنّ الحياة ليست أبدًا نقيض الموت ولا الموت نقيض الحياة. فالحياة تعني النموّ. وأن ننمو يعني أن نكون في حال موت مستمر. من هنا كان كلّ موت في حقيقته ولادة جديدة وانتقالًا في الوجود إلى مرتبة أعلى وأرحب. تمامًا كما هي كلّ ولادة ضرب من التقمّص. وهكذا يتدرّج الإنسان في رحلته نحو المطلق، ولادة بعد ولادة وموتًا بعد موت في سلسلة متّصلة فيتّسع وعيه لذاته دائرة تلو دائرة حتّى يتناهى بالنتيجة إلى الذات العلويّة. فكأنّ الذات في تصاعدها كما في قول المصطفى: «هي الروح اللاهبة فيكم، الدائبة على أن تجمع إلى ذاتها مزيدًا من ذاتها».

ونحن كلّما جمعنا من أنفسنا أكثر فأكثر في طريق تصعيدنا، حياة بعد حياة وموتًا بعد موت، أي كلّما تحوّل العالم الأصغر فينا إلى العالم الأكبر الذي هو عالم المطلق، ازداد إدراكنا بأنّه لا يمكن لشيء ما أن يصدر عنّا في الطريق إلّا وسيرتدّ يومًا ما وفي مرحلة لاحقة ما إلينا. ففي

اللّامتناهي لا يمكن لأيّ شيء أن يضيع أو يضمحلّ. كذلك، وبالقياس عينه، لا يمكن لأيّ شيء أن ينزل بنا إلّا ونكون نحن في الواقع الذين هيّأنا له في أنفسنا ودعوناه. فما دام أنّ اللّه هو ذاتنا الكبرى التي سننتهي حتمًا إليها، استحال أن يصيبنا أو يحلّ بنا أيّ شيء من خارج تلك الذّات. يقول المصطفى:

«ليس القتيل بريئًا من دم نفسه، ولا المسروق بلا مسؤولية عن سرقة حلّت به. إنّ للصالح حصّة في ما يصدر عن الأشرار من شرّ، وإنّ صاحب اليد الناصعة ليس مغسول اليدين من أعمال السّفلة».

إن يكن اللّه هو الذات الكبرى لكلّ واحد منّا، فما من خير في هذا الوجود اللّامتناهي إلّا وهو خير كلّ إنسان بالضرورة. كما أنّ ما من شرّ يمكن لأيّ إنسان أن يتنصّل من مسؤولية وجوده.

«إنّكم، كما في موكب واحد، تسيرون معًا إلى ذاتكم الإلهيّة... وكما أن التقيّ والصالح لا يمكن أن يرتفع إلى أسمى ممّا هو في ذات كلّ واحد منكم، فإنّ الشرّير والضّعيف لا يمكن أن ينحطّ إلى أدنى ممّا هو أيضًا في نفوسكم جميعًا.

«وكما أنّ ما من ورقة واحدة تصفّر على شجرة إلّا بالمعرفة الصّامتة لتلك الشّجرة جميعًا، كذلك ما من فاعل شرّ يقوم بفعلته إلّا بمقتضى الإرادة الخفّية في نفوسكم جميعًا».

وهكذا يبدو أنّ رفعة روحيّة في المسيح مثلًا هي جزء لا يتجزّأ من خسّة مادّية في يهوذا الإسخريوطيّ. ذلك لأنّ يهوذا والمسيح هما في اللّه واحد لا ينفصل.

ما من إنسان إذن يستطيع أن يحقّق ذاته الكبرى ويخلص، في عملية انعتاق فرديّ. فكما أنّ النّسر مهما أمعن في التحليق، يبقى رهين الأرض حيث عشّه وفراخه، فلا يتحرّر حتّى تشتدّ أجنحتهم جميعًا فيواكبوه

في تحليقه الأثيريّ، كذلك أيضًا هي حال أولئك الذين سمت نفوسهم وصفت وشفّت، من الشعراء والمفكّرين والمرسلين والأنبياء. فطالما بقي ولو قدر ذرّة من الشرّ أو الخسّة أو الحيوانيّة في أيّ نفس بشريّة، تعذّر على أي نفس بشريّة أخرى مهما بلغ سموّها الروحي ومحاذاتها للّه، أن تنعتق وتخلص وتفلت نهائيًّا من دورات التقمّص في دولاب الحياة الذي لا يعرف التوقّف أبدًا في دورانه. فكأنّ حال تلك النفوس السامية المشرفة على الإنعتاق، هي حال ذلك الفيلسوف السجين في أسطورة الكهف عند أفلاطون، الذي أُطلق سراحه فما كان منه بعد أن أدرك النور إلّا أن وجد نفسه مسوقًا بطبيعة إدراكه نحو العودة إلى الكهف من جديد والمكوث فيه حتّى يتحرّر سائر رفاقه من السلاسل والعتمة. من هنا قول نبيّ جبران لأهل أورفليس وهو يهمّ بركوب البحر ومغادرتهم:

«إذا حدث أن تلاشى صوتي في آذانكم وامّحت محبّتي من ذاكرتكم، فسأعود عندها مرّة أخرى إليكم...

«قليلًا، ويتّخذ حنيني غبارًا وزبدًا لجسد جديد

«قليلًا، هنيهة استراحة على سطح الريح

«وتعود امرأة أخرى فتلدني».

إذا نحن قسنا تلك الفترة التي قضاها المصطفى طافيًا على سطح الريح بمقياس أدبيّ فكريّ، بدت بالفعل قصيرة جدًّا. إذ ما انقضت خمس سنوات على مغادرته أورفليس، حتّى عاد فحُبل به ووضع من جديد. لم تكن امرأة أخرى هي التي حبلت به ووضعته كما سبق وتنبّأ، بل كان جبران نفسه. أمّا اسم الوليد هذه المرّة فما كان «المصطفى» أيضًا بل «يسوع».

5

لقد ظهر «يسوع ابن الانسان»، كتاب جبران الثاني بعد النبيّ، وربّما المساوي للنبيّ من حيث الأهمية، سنة 1928. أمّا كتابه الأوّل بعد النبيّ فكان كناية عن مجموعة من الأوابد والشذرات، بعضها منقول مع التعديل الضروري، عن كتاباته العربيّة. واسم الكتاب الذي صدر سنة 1926، «رمل وزبد».

إنّ الذي يحاوله جبران في يسوع ابن الانسان، هو أن يعطي صورة مجسّدة عن المسيح كما يراه هو، وذلك عن طريق جعل عدد من معاصري يسوع يتكلّمون عنه، كلّ من وجهة نظره الخاصة، حتّى إذا اجتمعت هذه الروايات في ذهن القارئ، وعددها تسع وسبعون رواية، خرج بالصورة التي يريد له جبران أن يخرج بها. أما التسعة والسبعون راويًا، فمنتقون من مختلف القوميات والأعراق والنواحي؛ عبرانيّين ورومانيّين ويونانيّين وفينيقيّين وعرب وفرس وغيرهم. إلّا أنّ فيهم واحدًا فقط لم يكن معاصرًا بالمعنى المعهود، بل هو «رجل من لبنان» آت بعد تسعة عشر قرنًا من مجيء يسوع ليدلي بدلوه هو أيضًا ويقول كلمة فيه، وذلك على صورة قصيدة طويلة يختتم بها الكتاب.

إلّا أنّ هذا اللبنانيّ المتأخّر، لا يلبث أن يقول في قصيدته ليسوع، بلهجة لا نشكّ لحظة في أنّها لهجة المصطفى:

«إنّي قد ولدت ومتّ سبع ولادات وسبع ميتات منذ ولادتك الأولى، وها أنت تراني اليوم حيًّا من جديد».

إذا كان لإيماءة جبران هذه في مطلع قصيدته أن توحي بأنّه هو أو المصطفى في النبيّ إنّما يمثّل الولادة ما بعد السابعة للناصريّ، فهناك فعلًا مؤشّرات كثيرة في صورة يسوع الجبرانيّة كما نخرج بها من الكتاب، تدلّ على عمق التشابه بينه وبين النبيّ. فيسوع هنا كالمصطفى في النبيّ

يوصف بأنّه المختار المحبوب، الذي بعد ولادات سابقة متكرّرة قد أتى من جديد كما سيأتي أيضًا مستقبلًا ليساعد الانسان في سعيه إلى ذاته الكبرى أو الشاسعة أو المجنّحة. وهو ليس إلهًا تأنّس بل هو إنسان عاديّ، وابن أرحام عاديّة ولدته مرّة بعد مرّة فتمكّن عن طريق تساميه الروحيّ ووعيه لذاته الكبرى أن يرتفع بنفسه من الناسوت إلى اللاهوت. أمّا رجوعه المتكرّر إلى الأرض، فرجوع النسر الذي يأبى أن يستأثر بحرّيته الكاملة في الفضاء قبل أن يهجر جميع فراخه العشّ ويجاروه في الطيران؛ أو هو رجوع سجين أفلاطون، الذي يأبى أن يعطي نفسه حرّية النور قبل أن تنحلّ أصفاد جميع رفاقه في السجن ويخرجوا. وهكذا يأتي قول يسوع جبران، وكأنّه تذكير بوعد المصطفى لأهل أورفليس بأنّه سيعود إليهم من عالمه المفارق كلّما مسّت حاجتهم إليه. يقول يسوع:

«وإنّي لولا رغبة عند والدة، لعرّيت نفسي من أقمطتي وقفلت راجعًا إلى الفضاء.

«ولولا الكآبة التي في كلّ واحد منكم، لما رضيت أن ألبث معكم لأنتحب».

وكالمصطفى في النبيّ، لم يكن مسيح جبران متّسمًا بالتواضع والشفقة والمسكنة كما استقرّت صورته عند الجماهير، إنّ عودته إلى الأرض كانت عودة روح عاتية جبّارة مجنّحة، همّها أن تتوجّه لا إلى مواطن الضعف في الإنسان، بل إلى تلك القوّة فيه التي من شأنها أن ترتفع به من الجزئيّ فيه إلى الكلّي ومن المتناهي إلى اللامتناهي. يقول أحد معاصري الناصري:

«إنّي لأمرض وأتقيّأ أمعائي عندما أسمع ضعيفي القلوب يعزون إلى يسوع التواضع والدعة كي يبرّروا قلوبهم الضعيفة، وعندما أسمع

المداسين المنسحقين يتحدّثون في فقرهم إلى العزاء والسلوى عن يسوع، وكأنّه دودة مضيئة إلى جانبهم.

أجل، إنّ قلبي لينطبق من هؤلاء الناس. فالذي أبشّر به هو ذاك القنّاص العاتي وذاك الروح العصيّ الذي ليس يقهر.

ولكن على الرغم من كلّ ما سبق، لا يمكن لقارئ جبران من أن يلحظ في يسوع بن الانسان، على ما فيه من قربى من النبيّ، سمة لا نفتقدها في النبيّ فقط، بل في سائر أعمال جبران حتّى ذلك التاريخ، وإن على تفاوت. إنّها القدرة على التشخيص أو التجسيد، أو ما يسمّونه في الفنون، وفي الفن الروائي على الأخص، رسم الشخصيات. فنحن في النبيّ مثلًا، على عظمة هذا الكتاب، لا نعرف المصطفى إنسانًا، بل فكرًا يقدّم إلينا في سلّة من كلام؛ إنّه يقف أمام جماعة من الناس ما يقرب من نهار بطوله، يسألونه فيجيب. ولولا بعض الحركة الآتية من مجيء السفينة ومن البحّارة المنتظرين في الميناء، ولولا ذلك الشعر وما يحمله من رؤى كونيّة، لكان الكتاب فنّيًّا غاية في الجمود ومبعثًا للضجر. إذ منذا يستطيع واقعيًّا أن يصرف نهارًا بطوله واقفًا على قدميه يلقي بستّ وعشرين عظة متواصلة على مستمعين، أو يقف بين جمهور يستمع نهارًا بكامله إلى واعظ أو خطيب؟

أما يسوع بن الانسان فكتاب كلّه حركة بحيث يبرز يسوع شخصية مستديرة، تُرى وتسطع من كلّ جهة من جهاتها قولًا وفعلًا وتحرّكًا، وذلك إضافة إلى ما ينعكس من تلك الشخصية في مرايا الآخرين. فكأنّ المجنون الشخصيّة المركزيّة الأمّ في أعمال جبران جميعًا، بعد أن بدأ نزوله انطلاقًا من «المجنون» إلى «السابق» فـ«النبيّ»، عن رأس برج الحياة إلى الناس عند القاعدة، قد بلغ في يسوع بن الانسان غاية تأنّسه؛ فهو يأكل ويشرب ويضحك ويغضب ويعاشر ويعتزل، إلى غير ذلك

من شؤون الطبيعة البشريّة، وذلك من غير أن يبتعد بوصة واحدة عن طبيعته الإلهيّة الأخّاذة التي له في الأناجيل. لقد حاول جبران الاستفادة من الفراغات التاريخيّة في تلك الشخصيّة الانجيليّة، موسّعًا هنا ومضيفًا هناك ومجتهدًا هنالك، فإذا يسوع الأناجيل، وإن لم يزدد ألوهية، قد ازداد تبلورًا كإنسان.

لقد كان جبران حريصًا كلّ الحرص على القطبين البارزين في شخص يسوع بن الانسان، حتّى إذا أخذ مداه في إبراز الانسان، كان متأكّدًا أنّ ذلك لحساب الإله أيضًا لا على حسابه. ها بدويّ مثلًا، في مقطوعة «رجل من البادية» – والراجح أنّه عربيّ – آت كغريب إلى أورشليم ليتفرّج على الهيكل ويقدّم ذبيحة على نيّة زوجته التي أنجبت له توءمين ذكرين، وفيما هو واقف على الشرفة يتأمّل الجماهير دونه، وبينهم بائعو الحمام والصيارفة المنشغلون كالكواسر في اصطياد الزبائن، إذا برجل أُخذ بهيبته، يدخل كالسهم وبيده سوط من جلد الماعز، فيصرخ في الناس ويقلب الموائد ويضرب بائعي الحمام، فإذا الساحة كلّها تفرغ في لحظات. إلّا من صوت الرجل قائلًا: «ردّوا هذه الطيور إلى السماء التي هي عشّها». ولم تلبث أن طارت ثلاث حمامات، حطّت الأولى على كتفه والإثنتان الأخريان عند قدميه.

وأُخذ البدويّ بهيبة الرجل الذي بدا له «كهيكل آخر إلى جانب الهيكل». وعندما استفسر عنه قيل له إنّه يسوع، والكلّ يكرهه في أورشليم. فردّ البدويّ بقوله، قلبي من الصلابة بحيث ينتصر لسوطه ومن الخضوع بحيث يجثو عند قدميه.

الكتاب مليء بمثل هذا وبعضه من الصعب أن يمحى من الذاكرة، كصورة أمّ يسوع في أورشليم عندما أتى من يخبرها في الخان عند العشيّة بالقبض على يسوع والتهيّؤ لصلبه، خاصة صورة يدها المرتفعة

بأصابعها نحو السماء كأغصان شجرة من الحور الأبيض، وكحديث زوجة بيلاطس إلى زائرة رومانيّة كيف أنّها، سنين بعد صلبه، ما زالت غير قادرة أن تنسى وجهه يوم رأته ذات مرّة يتحدّث إلى تلامذته في إحدى الغياض، أو أمّ يهوذا بعد أن شنق نفسه، أو التقائه الأوّل بالمجدليّة أمام بيتها أو قصّة اللاوي الموسر في ضواحي الناصرة وقصره الذي اكترى له عددًا من النجّارين بينهم يسوع، وكيف أنّه ما زال يعرف بالضبط أين وكيف تمتاز النافذة التي صنعها يسوع عن التي صنعها سواه، أو حكاية الراعي الصغير من جنوب لبنان في نواحي جبل الشيخ الذي كان يلعب على شبابته عندما مرّ به يسوع ومعه آخرون وسأله ما إذا كان يعرف قبر إيليا في تلك الأنحاء. فأرشده الراعي الصغير إلى كومة من حجارة على أنّها ذلك القبر، وأنّ العابرين يرمي الواحد منهم على القبر حجرًا كلّما صدف مرورهم من هناك. ومرّ به يسوع وحده بعد أيّام فإذا الشّبابة خرساء والراعي في منتهى الإنكسار بسبب فقده إحدى نعاجه. وتأثّر يسوع لذلك وقال للراعي بحنان: أمهلني قليلًا لأبحث لك عنها. ورجع بعد أن غاب بعض الوقت خلف التلال والنعجة تتبع خطاه، حتّى إذا وصل وقفت النعجة تنظر إلى عينيه ووجهه كما كان يفعل الراعي الصغير. وبعد أن عانق الصغير نعجته بكلّ ما فيه من حنان واستغرق في تقبيلها، رفع عينيه الدامعتين ليُفرغ ما في قلبه من فيض انشغاف بهذا الرجل الغريب، فإذًا يسوع قد ذهب.

وهكذا لم يعد هذا «المجنون الانجيليّ» تحت قلم جبران، إذا جاز التعبير، شيئًا آتيًا فقط من فوق، ولا مخلوقًا مكبّلًا بما هو تحت. بل غدا ما يمكن أن يسمّى «عينيًّا مطلقًا»، أي إنّه إنسان حقّ لشدّة ما هو إلهيّ، وهو إلهيّ حقًّا لشدّة ما هو إنسان.

ما يلفت حقًّا في مرحلة يسوع بن الانسان من حياة جبران المتّسمة بالحسّ المتزايد لبشرية أبطاله الإلهيّين إزاء أُلوهيّتهم لا على حسابها، أنّه بدأ يظهر اهتمامًا ظاهرًا بالمسرح، بحيث يزيد من قدرته على شدّ رؤاه المجنّحة المحلّقة في عالم الغيب إلى خشبة الواقع المسرحي.

6

ليس معروفًا بالتمام متى كتب جبران مسرحيتي «لعازر وحبيبته» و«الأعمى» اللتين نشرهما وقدّم لهما سميّه النحّات المعروف من أصل بشرّاني في بوسطن، خليل جبران، بالاشتراك مع زوجته؛ لعازل وحدها في كتاب مستقلّ سنة 1973، ثمّ المسرحيّتان معًا في مجلّد واحد سنة 1981. ويقول الناشران إنّ المسرحيّتين الانكليزيّتين هاتين هما الوحيدتان الكاملتان من أصل خمس غير مكتملة. إلّا أنّنا نرجّح أنّ هذه القدرة المسرحية غير المكتملة عند جبران، لا بدّ قد حصلت في السنوات الأخيرة من حياته، وسنوات يسوع بن الانسان سنة 1928 على الأخص، حين بدأ المرض يشتدّ عليه وتشغله فكرة الموت.

لقد سبق لجبران أن حاول في عربيّاته كتابة المسرحيّة، إلّا أنّ محاولته يومها، كما في «ملك البلاد وراعي الغنم» و«إرم ذات العماد» و«الصلبان» وغيرها، لم تكن جادّة بالمعنى المسرحيّ، بل كانت باستثناء واحدة بعنوان «الرجل غير المنظور» التي نشرت في السائح الممتاز سنة 1927، كناية عن مجرّد حواريات إرشاديّة الطابع تغلب فيها اللهجة الخطابيّة وليس لها من فنّ المسرح سوى الاسم لا أكثر. إلّا أنّ قاريء جبران الإنكليزيّ لا يمكنه إلّا أن تعتريه الدهشة أمام هذه القفزة الفنّية الهائلة التي حقّقها في مسرحيّتيه؛ «الأعمى» بالدرجة الأولى، و«لعازر وحبيبته» التي تحتفظ بجوّ «يسوع بن الانسان»، من بعدها:

أمّ لعازر وشقيقتاه ينتظرن في بيتهنّ عند العشيّة، رجوع لعازل من التلال القريبة التي درج على الاعتزال فيها إلى حدّ يشغل البال، منذ إقامته من الموت. المسرح هو المصطبة خارجًا تحت العريشة؛ مرثى على نولها منشغلة البال بحيث لا تستطيع العمل، ومريم معها. أمّا الوالدة فمنهمكة في إعداد العشاء داخلًا وتطلّ بقلق بالغ بين حين وآخر لتتساءل عن تأخّر لعازر. على المسرح شخص آخر هو المجنون، يفترض أنّه غير مرئيّ، يعلّق بكلام يفترض أنّه غير مسموع من الآخرين، على مفاصل الأحداث وكأنّه يمثل حضورًا مختلفًا إلى جانب حضور الآخرين.

ويأتي لعازر جدّ جائع، إلّا أنّه لا يدخل على الرغم من إلحاح الوالدة المنشغلة أبـدًا بالعشاء، بل يدخل في حديث مع مريم تتفهّمه هي، ويرى أبعاده المجنون، وتظل مرثى غير قادرة على فهم إشكالية أخيها مع المسيح ومنغلقة دونها.

لعازر عاتب على المسيح. أليس أنّهم أحبّوه وآمنوا به لأنّه جاء ليحرّرهم من سجونهم؛ من هذا القفص الذي ينحشرون فيه دون هذا المدى الطليق الذي تتوق عناصرهم المشوّقة إلى الاتحاد بعناصره التي عنها انفصلت، إتّحاد العاشق بالمعشوق. وها لعازر كان قد تحرّر، بمعنى أنّه ككلّ مغترب في كيانه البشري، قد عاد بالموت إلى دياره؛ النور الذي كان سجينًا فيه عاد حنينًا إلى النور الأكبر. أجل! لقد تحوّل لعازر بموته إلى عالم من عشق؛ إلى ذوب من حنان مع حبيبته. وفجأة، حصلت المأساة الكبرى؛ فجأة في هذا المدى العشقيّ الكونيّ يسمع لعازر، كما ألحّ على مريم أن تفهم، صوتًا يخرق المدى قائلًا: «يا لعازر، قم إليّ» وكان الصوت صوت المعلّم.

وهكذا كان على العاشق الذائب بكلّ مكوّناته في المعشوق، أن يقطّع الأوصال جميعًا وينسلّ بها رجوعًا إلى حيث كانت؛ إلى السجن من

جديد. لماذا فعل الناصريّ بي هذا، كان تساؤله أمام شقيقته، ثم قفل راجعًا من غير عشاء إلى التلال.

ما نودّ التوقّف عنده في هذا الملخّص، لا أن نلقي الضوء على بعض جوانب المسرحية كعمل متكامل فقط، بل لنلفت إلى بوادر تساؤل غريب عند جبران في هذه المرحلة، تساؤل سيبلغ مداه في كتابه الأخير، «آلهة الأرض» 1931، حول المصير البشريّ إجمالًا.

ليس بسيطًا أن يخلق جبران شخصيّة بشريّة عاتبه على يسوع، فتنقلب المعادلة؛ لعازر الإنسان يمثّل طريق الإنعتاق وعودة المغترب إلى الديار، في حين يمثّل المسيح، ابن المطلق، طريق العودة بالمطلق إلى الزمنيّ وبالمنعتق إلى عالم السجن والقيود.

ليس المقصود هنا الإيحاء بأنّ جبران قد تنكّر لقناعات يسوعه أو نبيّه، بل الإشارة إلى بوادر مرحلة جديدة بهموم مستجدّة في مسيرته الكتابيّة. وهذا سيتبدّى بصورة أكثر جلاء في «آلهة الأرض» خاتمة أعماله الصادر بضع أيّام بعد وفاته.

7

«آلهة الأرض»، كناية عن قصيدة منسرحة طويلة في مقاطع، «يُجري فيها الآلهة الأرضيون الثلاثة، أرباب الحياة العمالقة»، على حدّ تعبير جبران، حوارًا حول الإنسان ومصيره.

إنّ جبران الذي كان في حياته الأدبية كلّها شاعر الغربة والحنين، بدا وكأنّه قد وصل في «النبيّ» وفي يسوع، النسخة شبه المطابقة للمصطفى، إلى حالة من الإستقرار الفكريّ والروحيّ طالما تاق بكلّ جوارحه إلى بلوغها. فالمصطفى والمسيح، وهما كما نفهمهما عند جبران، إلهان من مواليد الأرض أصلًا، يعتبران أنّ مصير الإنسان ومنتهاه،

هو في صعوده عبر التسامي الرّوحي والحبّ الكونيّ الشّامل نحو التطابق الكامل مع اللّه، حقيقة الوجود اللامتناهية. فهل أنّ جبران في أخريات حياته قد بدأ يعيد النظر في فلسفة نبيّه ويسوعه؟ وإلّا فما معنى أنّه عوضًا عن إله أرضيّ واحد؛ عن فلسفة مصير إنسانيّ واحدة، كما في «النبيّ» و«يسوع بن الإنسان» قد جاء الآن في كتابه الأخير بثلاثة آلهة أرضيّين يبدو من حوارهم في القصيدة أنّهم على غير اتفاق؟

إنّ جبران الذي كان لزمن ما يعاني من صراع صعب مع مرض عضال، قد بدأ يحسّ بعد وقت قصير من كتابة «يسوع بن الإنسان» أنّ الأقدار في ذلك الصّراع ليست إلى جانبه. لا بدّ أنّه، كالمصطفى، قد «رأى سفينته قادمة في الضباب لتقلّه إلى جزيرة أجداده». وليس مستبعدًا عن إنسان كجبران مسلّح بقناعات المصطفى الصّوفية، أن يتوقّف بين الفينة والفينة في رحلته الموحودة الموحشة نحو الموت، ليروز في جعبته من جديد زاده لتلك الرحلة.

لقد رأى المصطفى في موعظته الوداعية لأهل أورفليس، أنّ ارتحاله عنهم سيكون موقّتًا وأنّه سيعود ثمّ يعود من جديد؛

«قليلًا! هنيهة استراحة على سطح الريح،
وتعود امرأة أخرى فتلدني».

ولكن ماذا عن هذه الحلقات المتّصلة من الولادات المتلاحقة المتتالية واحدة بعد أخرى؟ إذا كان منتهى الإنسان الأبعد ككائن متناه، هو أن يبلغ اللانهاية ويتّحد بها، فإنّ ذلك المنتهى لا شكّ ضرب من المستحيل. ذلك لأنّ الدّرب إلى اللّانهاية بلا نهاية. وإنّ مطلب الإنسان، سالك ذاك الدّرب تقمّصًا بعد تقمّص، سيكون قطعًا بلا جدوى إن لم يكن بليدًا مكرورًا مملًّا. من هنا يرتفع صوت الإله الأرضيّ الجبرانيّ الأوّل:

«تعبة هي أنفاسي من كلّ ما هو كائن،

«وإنّي لن أحرّك يدًا لأخلق عالمًا أو لأمحو آخر.
«إنّني ما كنت لأحيا لو كان باستطاعتي أن أموت، لأنّ أثقال
«الحقب ترسو على منكبّي وأنين البحار الذي بلا قرار يضني منامي.
«آه لو أستطيع أن أتوه عن المقصد الأمّ وأتلاشى ككوكب محترق.
«آه لو أستطيع أن أعرّي ألوهتي من مطلبها وألفظ خلودي في المدى وأنعدم.
«آه لو أستهلك وأنسلّ من ذاكرة الزّمن إلى خواء اللّامكان».

وفي مكان آخر يقول هذا الإله نفسه:

«فجميع ما هو أنا، وجميع ما هو كائن على الأرض وجميع ما سيكون، لا يحرّك نفسي
«صامت هو وجهك
«وفي عينيك تغفو ظلال اللّيل
«ولكن مرعب هو صمتك
«ومرعب أنت».

إذا كان للإنسان أن يشبّه في صعوده نحو اللّامتناهي بمتسلّقٍ جبلًا، فإنّ مثل هذه اللّحظات السوداويّة العبثيّة اليائسة لا تحصل عنده إلّا حين يدير عينيه نحو القمّة اللّامتناهية ارتفاعًا. فكأنّه يحسّ في أعماقه أنّ من المستحيل بلوغها. ولكنّه ما أن يلقي بناظريه انحدارًا إلى المنحنى الذي تمّ تسلّقه، حتّى يتغيّر شعوره. فتحلّ الثقة بالنفس محلّ اليأس، والتفاؤل مكان التشاؤم، والرّجاء محلّ العبثيّة والقنوط. ذلك لأنّ مرحلة يمكن أن تبدأ لا بدّ قابلة لأن تختتم. إذ كيف للذي له بداية أن يكون بلا منتهى.

ولا بدّ أنّ جبران في رحلته الموحودة نحو الموت قد كان له أن يستدير إلى هذا الوجه المقابل من المستلزمات الفكريّة لفلسفة مصطفاه. وهكذا يأتي صوت الإله الثّاني، وكأنّ عينيه متّجهتان تفاؤلًا نحو المنحدر الذي اجتيز، وليس يأسًا نحو القمّة اللّامتناهية بعدًا دونه. ففلسفته هي أنّ ارتفاع القمّة لا شكّ جزء لا يتجزّأ من انخفاض الوادي بعيدًا تحت قدميه. أنّه الآن قد ارتفع فوق الوادي في تسلّقه، دليل قاطع على أنّه لا محالة قاهر يومًا القمّة. ذلك لأنّ القمّة هي أقصى نقطة يستطيع الوادي أن يرتفع بأعماقه إليه. إنّ رحلة الإنسان إلى اللّه هي رحلة من الوادي في نفسه إلى القمّة، إنّها رحلة في الدّاخل لا في الخارج. يقول الإله الثّاني للأوّل:

«نحن المدى الأبعد ونحن أعلى العلو،
والذي بيننا وبين الأبديّة التي بلا حدود
ليس إلّا تحرّقنا المحموم الذي بعد لم يتبلور
وإلّا مقاصد ذلك التحرّق.
إنّك تناجي المجهول
والمجهول، مسربلًا بالضباب المتهادي،
قاطن في ذات نفسك.
إيْ، في ذات ذاتك يرقد مخلّصك
ويرى في إغفائه ما لا تراه عينك المستيقظة.
...
توقّف وانحدر ببصرك إلى العالم
وأبصر أبناء حبّك الذين لم يبلغوا بعد الفطام.
الأرض هي مسكنك، والأرض عرشك،
وعاليًا أبعد من أقصى أماني الإنسان جموحًا.
ترتفع يدك حاملة مصيره».

إلّا أنّ صوتًا آخر، ليس فيه من تشاؤم الإله الأوّل ولا من تفاؤل الإله الثاني، كان لا يلبث كما يبدو أن يدغدغ أذن جبران في رحلته الموحودة نحو الموت. هو صوت ثالث كان يأتيه ربما من ماضي شبابه الباكر في «الأجنحة المتكسّرة» و«دمعة وابتسامة». إنّه ليس بعضًا من صوت المصطفى، ولكنّه في الوقت نفسه ليس نشازًا بالنّسبة إليه. هو صوت من قد بدأ يقتنع أنّ الإنسان قد شُغل في التفكير بالحياة وفي فلسفتها إلى درجة نسي معها أن يحياها. إنّ خيرًا من المتسلّق المكدود الذي ترعبه شواهق القمة اللّامتناهية في علوّها فييأس، أو الذي يغريه دنوّ الوادي وانقهاره فيتفاءل، لشابٌّ غيّبه الحبّ المذهل السكران في غرّة المروج المترعة النشوى بخمرة الربيع، فخلّى ذاهلًا أمور الكون للكون وانشلّ على صدر الرفيقة ذوبًا من الخدر الحنون. وهكذا يرتفع صوت الإله الثالث مؤنّبًا رفيقيه ومتوسّلًا إليهما أن يوقفا ما هما فيه من حوار فارغ وأن يتّجها بناظريهما إلى عاشقين متيّمين متعانقين في ذهول أثيريّ بين أزاهر المرج المنوّر على كتف الوادي:

«شقيقيّ، يا شقيقيّ،
هناك عرس في الوادي.
إنّه ليوم أوسع من أن يدوّن
...
أما نحن، فيغيّبنا الشفق
عسى أن نستفيق على فجر عالم جديد
وأمّا الحبّ فسيبقى
ولن تمحى أبدًا بصماته.
كوره المقدّس في لهب،
الشرر يتعالى، وكلّ شرارة كوكب.

ولَكم هو أجدى بنا وأحكم
أن ننسحب بالوهيتنا الأرضية إلى ركن قصيّ، ونهجع
ونترك للحبّ، ببشريّته وضعفه، أن يتولّى قيادة اليوم الآتي».

هكذا اختتم جبران غربته التي استغرقت حياته كلّها. لقد عاد ثانية إلى حبّ «الأجنحة المتكسّرة»، إلى الحبّ البشري الفطريّ غير المفلسف ليسلّمه دفّة القيادة، فيعود هكذا إلى منشئه ومنطلقه الأوّل أيّام شبابه الباكر. إنّها لدورة كاملة تلك التي قام بها ذلك الفكر، دورة كانت منسجمة كل الانسجام – وربما عن غير وعي من جبران – مع عقيدة التقمّص. ها إنّ شجرة الأرز الجبّارة التي كانها جبران «النبيّ» تعود مجدّدًا إلى البذرة التي كانتها في البدء، إلى الحبّ البشري الفطريّ غير المفلسف، ربما كي تعود «فتستفيق ثانية على فجر جديد».

الدكتور نديم نعيمه
الجامعة الأميركية في بيروت
2014/9/9

المجنون
أشعاره وأوابده

The Madman, 1918

مقدّمة

صدر «المجنون»، أوّل مؤلّف يظهر لجبران بالانكليزيّة، في أواسط تشرين الأوّل سنة 1918. فبعد أن رفضته داران للنشر في نيويورك، سبق أن عُرض عليهما، بحجّة أنّه كتاب لا يُتوقّع له المبيع، قَبِل أن يتولّاه ناشر شاب في الخامسة والعشرين من عمره، هو «ألفرد كْنُوبْفْ»، كان يحاول أن يشقّ طريقه في دنيا المطبوعات، وفي جملة اهتماماته، أصحاب المواهب من الكتّاب القادمين أصلًا من بلدان أخرى، والحاملين في مؤلّفاتهم نكهة مختلفة.

أمّا النكهة المختلفة هذه، ففي «المجنون» الكثير منها، إن من حيث التصوّر والرؤيا أو من حيث اللغة والأسلوب.

إنّ جبران الطارئ أصلًا على الانكليزيّة، لم تتوفّر له خلال حياته في أميركا أيّ دراسة منهجيّة أصوليّة إن للّغة نفسها أو لتراثها وآدابها. فاطّلاعه على الآداب الانكليزيّة كان جلّه تقميشيًّا انتقائيًّا ليس من شأنه أن يحقّق له انصهارًا في ذلك الأدب بحيث يصبح كواحد من أهله. وأمّا إنكليزيّة الخطاب اليوميّ التي كان قطعًا يتقنها، فكانت قد تحصّلت عنده على سبيل المراس. لقد كانت لغة تسلّمها ناجزة من الآخرين، فتكلّم بها كما يتكلّم الآخرون. إلّا أنّ الوضع جاء مختلفًا عندما أقبل جبران على

الكتابة الأدبيّة والتأليف. فهو هنا، شأن كلّ كاتب أصيل، لا يمكن أن يرضى، لغة ومضمونًا، إلّا بما هو مبتكر وخصوصيّ. ولكن ما من كتابة مبتكرة وخصوصيّة لغة ومضمونًا، إلّا إذا جاءت انبثاقًا حيًّا عن خلفيّة تراثيّة أصيلة ومتكاملة. والخلفيّة التراثيّة الوحيدة التي كان لجبران أن ينبثق عنها ويطوّر أصالته منها ويطلّ على العالم الأنكلوساكسونيّ من خلالها، لم تكن الانكليزيّة نفسها ولا كانت آدابها، بل كانت العربيّة وما تنطوي عليه في حناياها من روح مشرقيّ مختلف وتراث عربيّ مباين.

لقد ظلّ جبران حتّى مرحلة متأخّرة من حياته الأدبيّة يعترف لماري هاسكل في غير مناسبة، أنّه يعاني الكتابة بالانكليزيّة ويشكّ في جدارته بها، لا سيّما أنّه ما زال، حسب إقراره، يكتب بالانكليزيّة ويفكّر بالعربيّة[1].

لقد حرصت هاسكل، التي ظلّت تتعهّد جبران وأدبه الانكليزيّ وتضبط لغته، منذ أن تحابّا في أواسط العقد الأوّل من القرن وحتّى قبيل وفاته، ألّا تمسّ جوهر ذلك الأدب. ذلك أنّ هذا الجوهر المشرقيّ الهوّية كان علامته الفارقة. لذلك اقتصر تدخّلها لا على تحوير التعبير، بل على تصحيح الإملاء وإعادة تقويم عبارة أو أخرى وترتيب لفظة أو استبدالها بأختها من أجل جلاء ذلك التعبير والحفاظ عليه، وتمكينه من أن يدخل الانكليزيّة من غير أن يتحوّل إلى إنكليزيّ فيفقد فرادته[2]. وإنّه من هذه الزاوية يجب النظر إلى بعض ما تورده ماري في يوميّاتها من قول جبران

---

[1] جرى الاعتماد في معظم ما يمتّ إلى يوميّات ماري هاسكل ومذكّراتها عن جبران على Jean Gibran and Khalil Gibran, Kahlil Gibran his life and world. N. Y., 1974. فهذا الكتاب غنيّ جدًّا بمقتطفاته من محفوظات ماري هاسكل الضخمة.

[2] جرى الاعتماد في تتبّع تصحيحات ماري، على كتاب Shehadi, William, Kahlil Gibran, a prophet in the making, Beirut 1991 حيث أُثبتت مسودّات معظم مؤلّفات جبران الانكليزيّة، وكان المترجم قد أشرف على طباعته وتصحيح مسوّداته وإخراجه في المطبعة الكاثوليكيّة في بيروت 1991.

لها مثلًا: كيف يمكن لشيء أن يكون إنكليزيًّا من غير مساعدتك؟ أو، أعرف الانكليزيّة من شيكسبير والتوراة وأنت. وليس من كبير جدوى أن نتساءل: إذا كان جبران قد عرف الانكليزيّة حقًّا من شيكسبير ومن التوراة، حسب زعمه، فما كبير حاجته بعد ذلك إلى ماري؟

صحيح أنّ في لغة جبران بعض الشّبه، إن لم يكن بشيكسبير قطعًا، فبالتوراة. إلّا أنّ هذا الشبه، على الأرجح، لم يتسرّب إليه من تأثّره بالتوراة الانكليزيّة فقط، بل أيضًا من أسلوبه العربيّ المتأثّر بالكتاب المقدّس في ترجمته العربيّة. بمثل هذا الأسلوب العربيّ في إنكليزيّته، كان جبران يكتب مقطوعات «المجنون»، حتّى إذا أرسلها بالانكليزيّة إلى ماري، كما فعل في «اللذّة المستحدثة»، وهي أوّل قطعة يعدّها في 21 أيلول سنة 1913 لهذا الكتاب، دعاها بلهجة مازحة إلى أن تنقلها بمعرفتها إلى الانكليزيّة.

وكثيرًا ما كان ذلك يكلّف ماري، الحريصة على عدم المسّ بروح المقطوعة وشخصيّتها وعالمها ورؤاها، جهدًا مضنيًا، خصوصًا أنّها غالبًا ما كانت تصوغ تعديلاتها بشكل اقتراحات، لجبران أن يقبل أو أن يرفض منها ما لا يراه منسجمًا مع حسّه الأدبي والفنّيّ الخاصّ. حتّى أنّ ما اقترحته ماري مرّة بشأن قصيدة باكرة لجبران تعود إلى سنة 1915 ولا تتجاوز الاثنين والثلاثين سطرًا، قد ملأ سبع صفحات.

هكذا جاء أدب جبران، من «المجنون» وحتّى «يسوع ابن الانسان» و«آلهة الأرض» في مرحلة ما بعد «النبيّ» عندما بدأ يخفّ اعتماده على ماري، عربيًّا صرفًا في إنكليزيّته وأسلوبه ومضمونه. وإنّ في هذا بالضبط سرّ نجاح هذا الأدب، كما أنّ فيه أيضًا سرّ إخفاقه إن كان من إخفاق.

أمّا سرّ النجاح، إلى حدّ أنّ «النبيّ» ظلّ لسنوات وسنوات أكثر الكتب مبيعًا في الولايات المتّحدة، ففي أنّه كان للأدب الجبرانيّ وما يزال، فضلًا عن عبقريّة صاحبه الشعريّة الفذّة، ذلك النّفَس المشرقيّ الغريب والساحر والمتميّز بمناخه الأسطوري، الذي يتملّك الإنسان الغربيّ. ذلك لأنّه يُدخله عالمًا مختلفًا كلّ الاختلاف عن عالمه، ولأنّه في الوقت نفسه يريحه. فهو في قرارة نفسه يحسّ، وهو يستمتع بذلك العالم، أنّه كغربيّ غير ملزَم به.

وأمّا سرّ الفشل، فلأنّ الغربيّ الأنكلوساكسونيّ، ظلّ يشعر إزاء هذا الأدب الجبرانيّ الغريب في روحه وأسلوبه، أنّه أدب يُلذّه ولكنّه لا يخصّه. فعلى الرغم من ملايين النسخ الجبرانيّة التي بيعت في الولايات المتّحدة، ما زال جبران، خارج تاريخ الأدب الأميركيّ والإنكليزيّ. يُحسَب على الإنكليزية ولكنّه لا يُعتبر منها. فلا الأسلوب الجبرانيّ كوّن تلامذة ومدرسة عند الأميركيين، ولا جبران أُدخل، إلّا هامشيًّا وفيما ندر، في السياق الأدبيّ العام بحيث يشكّل حلقة من الحلقات المتواصلة التي يتألّف منها تاريخ الأدب الإنكليزيّ والأميركيّ، إذ يؤرّخ المؤرّخون لذلك الأدب، ويبحث الباحثون ويَنتخب المنتخبون.

يبقى أنّ الوجه العربيّ المشرقيّ الأبرز في «مجنون» جبران، كما في سائر «إنكليزيّاته»، ليس اللغة وحدها ولا المضمون، على ما في الاثنين من سمات عربيّة لا يمكن أن تُخطأ، بل هو تلك الرؤية النبويّة المشرقيّة بأسلوبها النبويّ المشرقيّ، المطلّة من خلال اللغة والمضمون والواهبة لكليهما ذلك النبض الذي يفسّر ما فيهما من قوّة وفعل وسلطان. والمقصود بالرؤية النبويّة المشرقيّة هو هذه النظرة الأُحديّة إلى الوجود والإنسان والأشياء، التي تميّزت بها شعوب منطقة ما يُسمّى اليوم بالشرق الأوسط، والتي مثّلها التراث الإبراهيميّ بدياناته الثلاث أجلى ما

يمكن التمثيل: الحقيقة واحدة هي الله، وهو أعلى وأعمق وأشمل ممّا يمكن أن يحيط به حسّ أو عقل أو قياس. فلا وجود إلّا له ومنه وفيه.

فأنت إمّا أن تنظر إلى الكون والناس والأشياء بعين الحقيقة، وهو ما لا يستطيعه إلّا الرّاؤون والأنبياء والمرسلون، فإذا الدنيا في منظارك غير الدنيا والعالم غير العالم. فالذي تراه، مختلف تمامًا عن المعهود وعمّا درج الناظرون بغير منظارك على اعتباره الحقّ والخير والجمال. وإمّا أن تنظر إلى الحقيقة بمنظار الذين ما اكتحلت عيونهم بنور الحقّ، وهم الكثرة المطلقة من الخلق، فإذا الحقيقة ليست الحقيقة إيّاها، وليست واحدة بل هي بعدد الناظرين إليها وعلى صورهم وأمثالهم.

وهكذا نجدنا مشرقيًّا في ذلك الموقف الدَّهريّ المتكرّر منذ التكوين حتّى الحاضر: راءٍ اكتحلت عيناه بنور الحقّ فهبط إلى الناس يدعوهم إلى رؤية ما يرى أو ينهرهم ويثور عليهم باسمه أو يعتزلهم من أجله، وجماهير حسيرة دون مَدى ما يراه، تعتبر عماها رؤيةً ورؤيته عَمًى فتتّهمه بالإنحراف والشذوذ والجنون. وغالبًا ما ينتهي به الأمر، كما تشهد سيرة الرائين والأنبياء والمرسلين منذ كان الراؤون والأنبياء والمرسلون، إلى الاضطهاد أو القتل أو التّهجير. فهو المحتسب مجنونًا بين العقلاء الذين هم الناس كافةً، لا لشيء إلّا لأنّه العاقل الوحيد بين مجانين.

من هذه الزاوية المشرقيّة الدّهريّة يجدر النظر لا إلى المجنون وحده في «مجنون» جبران، بل إلى صيغه المتكرّرة تحت أسماء أخرى في سائر الأعمال الجبرانية الانكليزيّة، من السابق في «السابق» إلى النبيّ أو المصطفى في «النبيّ» فيسوع في «يسوع ابن الانسان» انتهاء بالتائه في «التائه» خاتمة السلسلة الجبرانيّة بمعناها الحصريّ. فالمجنون اعتبر مجنونا في فاتحة الكتاب، فقط بعد أن سرق اللصوص

أقنعته الدهريّة جميعا، فسار بين الناس عاريا إلا من ذاته ومن كلّ ما من شأنه أن يحجب حقيقته عن الآخرين وعن نور الحقّ. ولأنّه العاري الوحيد في مجتمع إنسانيّ كلّ واحد فيه مؤتزر بألف إزار وازار من الاعتبارات البشريّة، كان هو المجنون الغريب «المبهم»، وكانوا هم العقلاء «الأليفين» «الواضحين».

هكذا كان لكلّ مقطوعة أو قصيدة تقريبًا من مقطوعات الكتاب وقصائده، أن تأتي معقودة على مفارقة، نتيجة تقاطع بين رؤيتين نقيضتين: هناك الحدث أو الشيء أو الموقف كما يبدو في حقيقته بسيطًا وطبيعيا، أي عاريا لعين المجنون أو جبران، وهناك الحدث أو الشيء أو الموقف نفسه، تتولاّه العيون الحسيرة فلا تبلغ حقيقته، بل الذي تراه فيه هو أبدا سواه. لذلك يتكلّم المجنون والناس عن الشيء الواحد بلغتين مختلفتين، ويعيشون العالم الواحد حياتين متباينتين. فاذا هو في نظرهم مجنون، واذا هم من منظوره معتوهون.

ففي مقطوعة «الملك الحكيم»، وهي خير ما يمثّل هذا الواقع، جنّ الرّعايا جميعًا لأنّهم، باستثناء الملك ووزيره، كانوا قد شربوا من البئر الوحيدة في المدينة بعد أن كانت ساحرة قد غافلتهم وهم نيام ليلًا، وألقت فيها محلولًا يسبّب الجنون. وهكذا لم يعد لهؤلاء حديث في ما بينهم ليلًا نهارًا سوى عن جنون الملك والوزير وضرورة استبدالهما بعاقلين يحكمان المدينة. وإذ استفحل الأمر لم يجد الملك الحكيم بدًّا من أن يشرب من الماء المسحور، ففعل هو والوزير. فكان أن هاجت المدينة كلّها وماجت احتفالًا بعودة الملك ووزيره إلى رشْديهما.

أمّا أنّ الملك «الرائي» في هذه المقطوعة قد تنازل عن رؤيته في سبيل التسوية وشاطر الآخرين جنونهم، فأمر لا يعني تكرار الموقف نفسه في سائر القصائد والمقطوعات. بل الغالب أن يتحوّل المجنون

باسم رؤياه النافذة إلى ثورة على ما يعتبره عمى الآخرين تبلغ في «الهزيمة» و«العالم الكامل» مثلًا، حدّ الكفر بالناس وبالمجتمع والعالم. ولعلّ الفرق الوحيد بين المجنون في «المجنون» وبين سائر الشخصيات النبويّة في ما تبع من أعمال جبران الانكليزيّة مرورًا بالسابق والمصطفى وانتهاء بيسوع والتائه، ليس في درجة الجنون بل في مدى الثورة. فجميع هؤلاء من حيث الجنون، رؤيويّون ارتفعت بهم رؤاهم إلى نور الحقّ، فارتدّوا من هناك إلى الناس في دنيا العتمة يكشحون عنهم ظلمة ما حسبوه في حياتهم نورًا. إلّا أنّ هؤلاء المجانين من حيث تعاطيهم مع الناس مختلفون. ففي حين ينضح المجنون في «المجنون» رفضًا ونقمة وثورة ومرارة، نراه، بعد أن بلغ المصطفى في «النبيّ» مثلًا، يتخلّى عن نقمته على الناس الغارقين في دنيا العتمة، وعن ثورته ومرارته، ويتحوّل إلى مشفق ورحيم ورؤوف همّه، وهو العارف بعماهم، ألّا يقرّع بهم في ضوء إبصاره بل أن يرفعهم محبّة إليه وييسّر لهم حكمته علّهم يبصرون الذي هو مبصر.

ليس واضحًا تمامًا متى بدأ جبران يعدّ لكتابه الأوّل بالانكليزيّة. فالراجح انّه بدأ ذلك أو بدأ يفكّر بذلك إثر عودته من باريس في 21 تشرين الأوّل سنة 1910، بعد سنتين وبعض السنة من دراسة الرسم في تلك المدينة على نفقة ماري هاسكل. ففي مذكّرات ماري لسنة 1911 انّه بدأ يحدّثها عن شروعه بسلسلة مقالات عن «مجنون»، أو انّه يعمل على كتابة المجنون بالانكليزيّة. وعندما أرسل إليها في أيلول سنة 1913 مقطوعة «اللذّة المستحدثة» التي ضُمّت فعلًا إلى الكتاب فيما بعد، طالبًا إليها أن تنقل «إنكليزيّتها» إلى الانكليزيّة، قال واصفًا المقطوعة، إنّها «من مذكّرات مجنون».

وكرّت سبّحة المقطوعات الأخرى بعد «اللذّة المستحدثة» كما يتّضح من مذكّرات ماري ويوميّاتها، كما تزايد الحديث عن التعاون في تشذيب حلّتها. فجاءت سنة 1914 «الليل والمجنون» و«البحر الأعظم» اللّتان ظهرتا على التوالي في عددَي تشرين الثاني وكانون الأوّل سنة 1916 من مجلّة «الفنون السبعة» الأميركية، و«الذوات السبع» و«خيال صحرا» وربّما مقطوعات أخرى لم يجرِ ذكرها. كما جاءت سنة 1915 قصيدة «العالم الكامل» ومقطوعات «الكلب الحكيم» و«النّاسكان» و«الأخذ والعطاء». وهذه الأخيرة إضافة إلى ثانية بعنوان «الفلكيّ» ظهرتا في عدد كانون الثاني من المجلّة نفسها، التي احتُجبت بعد صدور هذه الأعداد الثلاثة. وقد ذُكر لسنة 1917 مقطوعات «الله» و«النمال الثلاثة» و«الرمّانة» و«طموح» و«العين» و«البحار الأخرى». أمّا قصيدة «يا هزيمتي»، التي كتبت أصلًا بطلب من هيئة تروّج لاعطاء حقّ تقرير المصير للشعوب الصّربيّة وظهرت في كرّاس مستقلّ، فتعود إلى سنة 1918 عام ظهور المجنون وضمّها مع سائر المقطوعات الأخرى إليه.

وكما أنّ مجنون 1918، كشخصيّة نبويّة، قد استمرّ في مؤلّفات جبران الانكليزيّة بأسماء وأوضاع ومواقف أخرى مرورًا بالسابق والمصطفى ويسوع وانتهاء بالتائه والإله الثاني في «آلهة الأرض»، فإنّه في الوقت نفسه كان تتويجًا بالانكليزيّة لعدد آخر من المجانين الذين حفلت بهم من قبل مؤلّفات جبران العربيّة، انطلاقًا من الموسيقى فاتحة تلك المؤلّفات ومؤلّفات جبران عمومًا سنة 1905، وصولًا إلى العواصف، خاتمتها، سنة 1920. فهو في «عرائس المروج» 1906 يوحنّا المجنون، وهو في «الأرواح المتمرّدة» سنة 1908 خليل الكافر، وهو في «العواصف»، يوسف الفخري وحفّار القبور، وغيرهما من الأسماء

والألقاب. وهو غالبًا، حيث لا اسم يُسمّى أو لقب يُلقّب به، جبران نفسه متحدّثًا بالضمير الأوّل المتكلّم.

أمّا من أين كان لجبران في المكان الأوّل هذا الولع بالجنون، فأمر بالإمكان أن يكثر الكلام في تعليله من غير كبير طائل يُرجى. فماري هاسكل مثلًا، تتحدّث عمّا رواه لها مرّة عن حادثة طبعت مخيّلته وهو صبيّ، مع مجنون محتجز وقائيًّا في جوار بشرّي، ناداه باسمه وهو لم يسبق أن تعرّف إليه أو رآه في حياته، وطلب إليه أن ينبئ من هم أحبار الكنيسة، أنّ شولاميت الملك سليمان التي قال في التشبيب بها أعظم شعره، هي عشيقته التي من لحم ودمّ وليست كنيسة الربّ كما يزعمون.

ويمكن الذهاب إلى غير ذلك من ربط الجنون الجبرانيّ برومنطيقيّته أو بنزعته النيتشويّة، أو بملازمته في عهده الباكر «فْرَد هولند داي» والمتحلّقين حوله، المولعين بكلّ ما هو إيزوتيريكيّ مُغرب، أو بهذه أو تلك من قراءاته، وبينها الرّيحاني، الذي كان في حينه قد سبقه أشواطًا في شهرته الأميركيّة.

لعلّ في كلّ ذلك شيئًا من الصحّة والسداد. إلّا أنّ هذا كلّه قد لا يبدو ضروريًّا بالنسبة إلى إنسان شاعر كجبران متحدّر من تراث، أحدُ أكثر أمثاله الشعبيّة شيوعًا، المثل القائل: «أخوت يحكي وعاقل يفهم»، ومنتمٍ إلى لغة تقرن بين الجنون والجنّ والجنّة، ولا تجد للّيل المحتلك، الذي هو عالم الشعراء ومستنزَل وحيهم، فعلًا أفضل من الجنون.

يبقى أن يُذكر ما كان لتحوّل جبران في «المجنون» إلى الانكليزيّة كوسيلة للتعبير الأدبيّ، من فضل على أدبه. إنّ من أبرز ما تسبّب فيه هذا التحوّل، هو انتقال الكتابة الجبرانيّة من طور يغلب فيه الانسياح العاطفيّ المراهق والخطابيّة النرجسيّة الرّافضة باسم صوابيّة هي بعدُ زعم وتوهّم أكثر منها تملّك ورسوخ، إلى طور آخر بدأ يتّسم بالعمق

والرصانة والنضج. فجبران المجنون أو جبران النبيّ الرّائي في مؤلّفات ما قبل الانكليزيّة كان «مقتنعًا» اقتناع نبيّ بصدق رسالة يحملها إلى الناس، يقرّعهم باسمها ويثور عليهم بمقتضاها ويعتزلهم احتقارًا لما فيهم من عمى عنها. إلّا أنّه في كلّ ذلك، على ما حمله أدبه من جمال شعريّ وحرارة إيمانيّة وتهويم أثيريّ، لم يستطع أن يكون «مقنعًا». إنّنا في مكان ما، عميقًا في النفس، نحسّ أنّنا نستمتع بهذا الذي يُقال ونحبّ قائله، ولكن من غير أن نحمله على محمل الجدّ فنقتنع به ونتبنّاه. امّا وقد بدأ جبران ينتقل إلى الانكليزيّة ويتوجّه إلى القارئ الانكليزيّ، فإنّه بدأ يعمل وكأنّ عليه أن ينتقل من مقتنع إلى مُقنع من غير أن يتخلّى عن جوهر قناعته. فالذي كان يبدو جديدًا وملفتًا بالنسبة إلى القارئ العربي النهضويّ لن يكون جديدًا وملفتًا بالمعنى الغربيّ. فلا قصص «عرائس المروج» و«الأرواح المتمرّدة» و«الأجنحة المتكسّرة» المُمتهنة فنيًّا ستعتبر قصصًا، ولا دموع «دمعة وابتسامة» السخيّة ورفيقاتها يمكن أن تستثير في القارئ الغربيّ العريق في آداب لغته أكثر من ابتسامة إشفاق. العريق لا يمكن أن يستوقفه ويثيره إلّا عريق مثله.

من هنا كان ارتداد جبران في إنكليزيّاته إلى تراث لغته وشعبه العريق، من ألف ليلة وليلة إلى كليلة ودمنة إلى الكتب الإبراهيميّة المنزَلة إلى المجاميع الأدبيّة وكتب التصوّف. فكان أن خرج من هذه جميعًا ومن مثيلاتها بهذا الأسلوب النبويّ المرتكز على الشذرات والأوابد وجوامع القول. إنّه الأسلوب الذي بدأه «بالمجنون» و«السابق» وبلغ ذروته في «النبيّ» و«يسوع ابن الإنسان». وهذا أيضًا هو الأسلوب الذي تمكّن فيه أن يتحوّل من مقتنع إلى مقنع وأن يحقّق هذه الجاذبيّة الآسرة المهولة التي تمتّع وما زال يتمتّع بها بالنسبة إلى القارئ الأميركيّ.

ن. ن.، 9 شباط 1997

تسألونني كيف صرت مجنونًا؟ إليكم ذلك:

في قديم الزمان يوم كثيرون من الآلهة لم يكونوا بعد قد ولدوا، استفقت من نوم عميق فإذا أقنعتي جميعًا قد سُرقت – أقنعتي السبعة التي كنت قد فصّلتها ولبستها خلال حيوات سبع – وهكذا رحت من غير أقنعة، أركض في الشوارع المكتظّة صائحًا، «اللصوص! اللصوص! اللعنة على اللصوص».

وضحك الرجال والنساء منّي، ومنهم من خاف منّي فلجأ راكضًا إلى بيته.

وعندما بلغت السّوق، صاح صبيّ من على أحد السّطوح قائلًا، «إنّه مجنون». والتفتُّ إلى أعلى كي أبصر الصبيّ، فإذا الشّمس تقبّل لأوّل مرّة وجهيَ العاري. لأوّل مرّة قبّلت الشّمس وجهي أنا السّافر، فكان أن اشتعلت نفسي محبّة للشمس وما عدت أريد الأقنعة. بل في ما يشبه النشوة رفعت صوتي صارخًا، «مباركون، مباركون هم اللصوص الذين سرقوا أقنعتي».

هكذا صرت مجنونًا.

وفي جنوني وجدت الحرّيّة والأمان كلَيهما؛ حرّية التوحّد وأمان مَنْ لم يعد موضعًا للفهم، ذلك أنّ الّذين يفهموننا إنّما يستعبدون شيئًا فينا.

ولكن ليس لي أن أعتدّ كثيرًا بهذا الأمان. فحتّى اللصّ داخل زنزانته هو في مأمن من لصّ آخر.

اللّٰه

في غابر الأيّام عندما اعترت رعشة النّطق الأولى شفتيّ، صعدتُ الجبل المقدّس وخاطبتُ الله قائلًا، «يا سيّدي، ها إنّي أنا عبدك. مشيئتك الخفيّة شريعتي، وإنّي باق رهن طاعتك إلى الأبد».

إلّا أنّ الله لم يبد اكتراثًا، بل مرّ عابرًا كعاصفة عاتية.

وبعد ألف من السنين صعدت الجبل المقدّس وخاطبت الله ثانية قائلًا، «يا خالقي، ها أنا صنع يديك. من الطين جبلتني وإنّي مدين لك بكلّ وجودي».

ولكنّ الله لم يبد اكتراثًا، بل مرّ خاطفًا كمن بألف جناح،

وبعد ألفٍ من السنين تسلّقت الجبل المقدّس وعدت فخاطبت الله قائلًا، «أيّها الآب، إنّي أنا ابنك. برأفة ومحبّة ولدتني، وبالمحبّة والتعبّد سوف أدخل في ملكوتك».

ولكنّ الله لم يبد اكتراثًا، بل مرّ عابرًا كالسّديم الذي يوشّي التلال البعيدة.

وبعد ألف من السنين تسلّقت الجبل القدّوس وعاودت مخاطبة الله قائلًا، «يا الهي، يا غايتي وتمامي. أنا أمسك وأنت غدي، أنا جذورك في الأرض وأنت أزاهري في السماء، وإنّا معًا ننمو أمام وجه الشمس».

عندها انحنى الله من فوقي وهمس في أذنيّ كلمات هي العذوبة.
وكما يحتضن المحيط جدولًا يتراكض انحدارًا إليه، هكذا احتضنني.
وعندما هبطت الأودية والبطاح كان الله أيضًا هناك.

يا صاحبي

يا صاحبي، أنا لست كما أبدو. ما التبدّي سوى كساء أرتديه – كساء من نسيج الحذر يقيني من تسآلك كما يقيك من صدودي.

الـ«أنا» فيّ يا صاحبي تقطن بيت الصمت، وفيه ستبقى إلى الأبد محجّبة هكذا وممتنعة.

لست أريد لك أن تصدّق أقوالي ولا أن تركن إلى ما أفعل – فما كلماتي سوى أفكارك أنت وقد اتّخذت صوتًا، وما أفعالي سوى آمالك المتحقّقة.

عندما تقول «إلى الشرق تهبّ الريح»، أقول، «أجل إنّها فعلًا تهبّ إلى الشرق»؛ ذلك أنّي لا أريدك أن تعلم بأنّ فكري مقيم لا على الرّيح بل على البحار.

أنت لا تستطيع أن تفهم أفكاريَ المبحرة، لا، ولا أنا أُريد لك أن تفهم. أريد في البحر أن أكون وحيدًا.

عندما يكون الوقت نهارًا بالنسبة إليك يا صاحبي، يكون ليلًا بالنسبة إليّ. ومع ذلك تجدني أتحدّث عن الظهيرة المتلألئة على التلال وعن الظلّ الأرجوانيّ الذي ينسلّ عبر الوادي؛ فأنت لا تستطيع أن تسمع

أناشيد ليلي، ولا أن تبصر أجنحتي وهي تصطفق على النّجوم. وإنّه ليغبطني ألّا أدعك ترى أو تسمع.

حين تصعد أنت إلى جنّتك، أهبط أنا إلى جحيمي – ولكنّك مع ذلك تنده إليّ عبر الهوّة المفرغة، «يا صاحبي، يا رفيقي» – وأنده رجوعًا إليك، «يا صاحبي، يا رفيقي» – ذلك أنّي لن أدَعَك تبصر جحيمي. فمن شأن اللهب أن يحرق ناظريك، والدخان أن يصطم أنفك. وإنّ محبّتي لجحيمي هي من القوّة بحيث لن أدعك تزوره. أريد في جحيمي أن أكون وحيدًا.

أنت تعشق الخير والجمال؛ وإنّي، مراعاة لك أقول: إنّ تعشّق هذه الأمور جيّد ولائق. لكنّني في سرّي أضحك من عشقك وأحرص في الوقت نفسه ألّا أدعك تبصر أنّني أضحك. أريدني أن أضحك وحدي.

أنت يا صاحبي طيّب وعاقل وحكيم، بل قل إنّك كامل – وإنّي أنا أيضًا أتحدّث إليك بحكمة وتعقّل، في حين أنّني مجنون. لكنّي أُقنّع جنوني. أريدني وحدي أن اكون مجنونًا.

أنت يا صاحبي لست صاحبي. ولكن كيف السّبيل إلى إفهامك؟ دربي ليست دربك، ومع ذلك ترانا نسير معًا يدًا بيد.

خيال صحرا[1]

قلتُ مرّة لخيال صحرا، «لا بدّ أنّك مللت الوقوف في هذا الحقل النّائي».

فقال «إنّ لذّة التخويف عميقة ومديدة، فلست أملّها أبدًا».

قلت بعد أن تفكّرت قليلًا، «هذا صحيح، فأنا أيضًا قد عرفت تلك اللذّة».

قال، «أولئك المحشوّون قشًّا فقط هم القادرون على معرفتها».

وغادرته بعد ذلك غير عارف ما إذا كان قد امتدحني أو استخفّني.

وانقضى عام كان خيال الصحرا خلاله قد استحال فيلسوفًا.

وعندما مررت به ثانية الفيت غرابين يبنيان عشًّا تحت قبّعته.

---

[1] «خيال صحرا»، أو «الفزّاعة»، نصب من القشّ في ثياب إنسان يُرفع في مزرعة لإخافة الطيور المضرّة بالمحاصيل وخصوصًا الغربان. وغالبًا ما يسمّيه العامّة «خيال صحرا» نسبة إلى تسمية الحقول الفسيحة المزروعة بالصحارى – المترجم.

السائرتان في المنام

كان في بلدة مولدي امرأة وابنتها. وكانتا من اللواتي يسرن اثناء النوم.

وذات ليلة، فيما السكون يلفّ الوجود، التقت الأمّ ابنتها وهما تسيران غافيتين في حديقتهما المتّشحة بالضباب.

وتكلّمت الأمّ فقالت، «وأخيرًا! ها أنت أخيرًا أيّتها اللدودة؛ انت التي بها تهدّم صباي – التي بنت عمرها على أنقاض عمري! آهٍ لو فيّ أن أقتلك!»

وتكلّمت الإبنة فقالت: «تبًّا لك أيّتها الأنانية الهرمة المقيتة. يا من تقف حائلًا بيني وبين ذاتي المتحرّرة! يا من تودّ لعمري أن يكون صدى لعمرها الخالي! آه لو أنّك في عداد الميّتين».

في تلك اللحظة صاح أحد الدّيكة، فاستفاقت الاثنتان وقالت الأمّ برأفة، «أهذا انت يا رجائي؟» وأجابت الابنة بالرقّة عينها «أجل يا حبيبتي».

الكلب الحكيم

حدث ذات يوم أن مرّ كلب حكيم بجماعة من القطط. وإذ اقترب وتبيّن له أنّهم جادّون في ما كان يشغلهم عنه، توقّف.

وكان أنّ قطًّا كبيرًا مهيبًا وقف في وسط الجماعة وجال بنظره فيهم ثمّ قال، «أيّها الإخوة، عليكم بالصلاة؛ حتّى إذا ما صلّيتم ثمّ صلّيتم من غير أن يخامركم أيّ شك، أمطرت السماء حتمًا فئرانًا».

وعندما سمع الكلب ذلك ضحك في سرّه وتحوّل عنهم قائلًا، «تبًّا لكم أيّها القطط العميان المغفّلون؛ أما كتب من زمان، ولا سبق لي أن عرفت كما عرف آبائي من قبل، أنّ الذي يهطل استجابة للصلاة وللإيمان وللابتهال، ليس فئرانًا بل عظامًا»؟

النّاسكان

حدث أنّ ناسكين كانا يعيشان على جبل ناء يتعبّدان لله ويحبّان واحدهما الآخر.

وكانت عند هذين النّاسكين قصعة واحدة من فخّار، هي كلّ ما يمتلكانه.

وذات يوم دبّت روح شرّيرة في قلب الناسك الأكبر فأقبل على الأصغر قائلًا، «لقد مرّ على عيشنا معًا زمن طويل، وقد آن لنا أن نفترق. فلنقتسم مقتنياتنا».

فحزن النّاسك الأصغر وقال، «يحزّ في نفسي يا أخي أنّك ستتركني. ولكن إن كان لا بدّ لك من الذهاب، فليكن». وأتى بقصعة الفخّار فقدّمها له قائلًا، «لا يمكن لنا أن نقتسمها يا أخي فلتكن من نصيبك».

فقال النّاسك الأكبر، «لن أقبل حسنة. فأنا لن آخذ إلّا نصيبي، لا بدّ للقصعة من ان تُقتسم».

وقال الأصغر، «إذا انحطمت القصعة فأيّ نفع يبقى منها بالنسبة إليك أو إليّ. إن شئت دعنا نلقي عليها القرعة».

وقال الناسك الأكبر مكرّرًا، «لن أرضى إلّا بالعدل وبما هو ملكي. ولن أُوكل العدل وما هو ملكي لعبث المصادفة. لا بدّ للقصعة من أن تُقسم».

ولم يعد عند الناسك الأصغر من حجّة يضيفها فقال، «إن كانت هذه فعلًا مشيئتك، وإذا كان هذا حقًّا ما ترتضيه، فدعنا إذن نكسر القصعة».

فاربدّ وجه الناسك الأكبر محتقنًا وصاح، «إيه أيّها الجبان اللعين، إنّك لن تقاتل»!

في الأخذ والعطاء

يُحكى أن كان لرجل مرّة سعة وادٍ من الإبر. فأتته ذات يوم أمّ يسوع قائلة، «يا صديقي، ثوب ولدي مثقوب، ولا بدّ لي من رتقه قبل أن يذهب ابني إلى الهيكل. هلّا تكرّمت فأعطيتني إبرة؟».

غير أنّه لم يعطها إبرة، بل أعطاها عظة بليغة في الأخذ والعطاء لتحملها إلى ابنها قبل أن يتوجّه إلى الهيكل.

الأرواح السّبعة

فيما الليل في عزّ سكونه وأنا في نصف إغفاءة، جلس أرواحي السبعة بعضهم إلى بعض وراحوا يتحدّثون في همس هكذا:

الرّوح الأوّل: هنا في هذا المجنون أقمت طوال هذه السنين، وما من شغل لي سوى أن أجدّد آلامه نهارًا وأبعث اكتئابه ليلًا. لم يعد لي طاقة على مزيد من تحمّل. وإنّي لأثور.

الرّوح الثاني: إنّ قسمتك يا أخي أفضل من قسمتي، ذلك أنّه أوكل إليّ أن أكون لهذا المجنون روحه المرح. أضحك ضحكه وأغنّي أويقاته السَّعيدة، وأرقص بقدمين مثلّثتي الأجنحة أفكاره المتألّقة. أنا الذي ينبغي أن أثور على وضعي المتعَب.

الروح الثالث: وماذا عنّي أنا، الروح المدنف عشقًا وأخو الرّغبات الجامحة والشّهوات الغريبة؟ إنّ لي أنا، المتيّم عشقًا، أن أثور على هذا المجنون.

الروح الرابع: أنا هو الأكثر شقاء بينكم جميعًا. ذلك أنّ ما أُوكل إليّ لم يكن سوى البغضاء المنكرة والحقد المدمّر. فأنا، الروح العاصف، وليد أغوار الجحيم السّود، أنا هو الذي ينبغي أن ينتفض على القيام في خدمة هذا المجنون.

الروح الخامس: لا، بل أنا، أنا الروح المتفكّر، الروح المهوّم، روح المجاعة والتعطّش الذي قضي عليه أن يبقى هائمًا بلا قرار في إثر أشياء لم تعرف وأشياء بعد لم تخرج إلى الوجود – أجل أنا هو الذي ينبغي أن يثور لا أنتم.

الروح السادس: وأنا، أنا الروح العامل، الروح الكادح الزريّ الذي، بيدين متأنّيتين وعينين مشوقتين، يفصّل الأيّام صوَرًا ويضفي على هيولى العناصر أشكالًا جديدة وخالدة – أنا، ذلك الروح الموحود، هو من ينبغي له أن يثور على هذا المجنون الذي لا يعرف القرار.

الروح السابع: كم هو غريب أن ترغبوا جميعًا في الثّورة على هذا الإنسان بحجّة أنّه قد فرض عليكم، كلّ بمفرده، دورًا تؤدّونه. آه لو قُيّض لي أن أكون كأيّ منكم، روحًا ذا قسمة محدّدة! لكن لا شيء لي من هذا. فأنا الرّوح الذي بلا عمل قطّ، الروح الذي يتّكئ في اللّامكان واللّازمان الأبكمين المُفرغين، فيما أنتم منصرفون إلى تجديد الحياة. أأنتم الذين ينبغي أن تثوروا يا أبناء جيرتي، أم أنا؟

عندما تكلّم الروح السابع هكذا، ألقى عليه الأرواح السّتّة الآخرون نظرة إشفاق ولم يضيفوا شيئًا، بل إنّهم، والليل يزداد حلكًا، استسلموا للنوم واحدًا تلو الآخر تلفّهم هكذا، غبطة جديدة لإنصياع جديد. أمّا الرّوح السابع، فظلّ ساهرًا يحدّق في اللّاشيء الذي هو وراء كلّ شيء.

الحرب

أقيمت ذات ليلة وليمة في القصر، واتّفق أنّ رجلًا جاء وسجد قدّام الأمير فاستدار نحوه جميع المدعوّين، ولاحظوا أنّ إحدى عينيه مقتلعة والمحجر المفرغ ينزف. فاستوضحه الأمير قائلًا، «ماذا دهاك يا هذا؟». فأجاب الرجل، «إنّي أيّها الأمير لصّ محترف، ولمّا كان لا قمرَ هذه اللّيلة، انطلقت لأسرق حانوت الصيرفيّ. وفيما أنا أعالج الدخولِ من النافذة، ارتكبت خطأ فكان أن دخلت دكّان الحائك، وإذا بي في العتمة، أصطدم بالنول فتُقتلع عيني. وقد جئت الآن أيّها الأمير ألتمس إنصافي من الحائك. وأرسل الأمير في طلب الحائك فحضر. وقضى بوجوب أن تُقتلع إحدى عينيه.

وقال الحائك، «حكمك عدل أيّها الأمير، فالحقّ يقتضي أن تؤخذ إحدى عيني. لكنّ المؤسف أنّ الاثنتين ضروريّتان بالنسبة إليّ كي أتمكّن وأنا أحوك الثوب، أن أبصره من وجهيه. إلّا أنّ لي جارًا إسكافيًّا له هو أيضًا عينان في حين أنّ مهنته لا تقتضي وجود اثنتين».

عندها أرسل الأمير في طلب الاسكافيّ فحضر. واقتلعوا له واحدة من عينيه الاثنتين.

وبذلك أخذت العدالة مجراها.

الثّعلب

نظر ثعلب عند شروق الشمس إلى ظلّه فقال، «سأتغدّى اليوم جملًا». وأمضى الصباح بطوله يفتّش عن جمال. إلّا أنّه عند الظّهيرة رأى ظلّه ثانية فقال، «فأرة تكفي».

الملك الحكيم

كان على مدينة «ويراني» النائية مرّة، ملك جبّار حكيم. وكان مخشيًّا لبأسه ومحبوبًا لحكمته.

واتّفق أنَّ في قلب تلك المدينة بئرًا ماؤها بارد نمير يستقي منها جميع السكّان بمن فيهم الملك وحاشيته، إذ لم تكن هناك بئر أخرى.

وذات ليلة، وفيما الجميع نيام، دخلت ساحرة المدينة وألقت في البئر سبع نقاط من محلول غريب وقالت، «كلّ من يستقي من هذا الماء بعد الآن يصبح مجنونًا».

وفي الصباح التالي شرب من البئر جميع السكّان باستثناء الملك ورئيس حجّابه، فجنّوا تمامًا كما تنبّأت الساحرة.

وخلال ذلك النهار لم يكن للناس من شغل في أزقّة المدينة وأسواقها سوى الهمس واحدهم للآخر قائلين، «لقد جُنّ الملك. أصاب ملكنا ورئيس حجّابه مسّ. لا يجوز قطعًا أن يحكمنا ملك مجنون، فعلينا أن نخلعه».

في ذلك المساء أمر الملك بكأس ذهبيّة تُملأ من البئر. وعندما أُحضرت إليه عبّ منها ثمّ أعطاها إلى رئيس حجّابه كي يشرب هو أيضًا.

وكان ابتهاج عظيم في «ويراني»، تلك المدينة النائية، لأنّ ملكها ورئيس حجّابه قد استعادا رشديهما.

طُموح

اجتمع إلى طاولة في حانة ثلاثة رجال. أحدهم حائك والآخر نجّار والثالث فلّاح.

قال الحائك، «بعت اليوم كفنًا من الكتّان الرفيع بقطعتين ذهبيّتين. فلنشرب قدر ما نريد من الخمر».

وقال النجّار، «أمّا أنا فقد بعت أفضل تابوت عندي. فليكن لنا مع الخمر شواء سخيّ».

وقال الفلّاح، «لم يكن لي أن أحفر سوى لحد، إلّا أنّ سيدي ضاعف من أجري. فليكن لنا إضافة، قطائف بالعسل».

وظلّت الحانة في حركة طوال تلك الليلة، لكثرة ما طلبوا خمرًا ولحمًا وقطائف. وكانوا في مرح.

أمّا صاحب الحانة فكان يفرك يدًا بيد ويبتسم لزوجته، إذ أنّ ضيوفه كانوا ينفقون بغير حساب.

وعندما غادروا كان القمر قد ارتفع عاليًا، فساروا في الطريق يغنّون ويهزجون.

ووقف المضيف وزوجته في باب الحانة يرافقانهم بنظراتهما.

وقالت الزوجة، «آه لهؤلاء السادة! كم أنّهم مرحون وأسخياء. حبّذا لو أنّهم يأتوننا كلّ يوم بمثل هذا الطّالع، إذن لما اضطرّ ولدنا أن يكون ساقيًا في حانة، وأن يعمل بمثل هذا الشقاء. بل كنّا نثقّفه فيصبح بإمكانه أن يصير كاهنًا».

اللذّة المستحدثة

اخترعتُ في الليلة الفائتة لذّة جديدة. وفيما كنت أختبرها للمرّة الأولى، إذ بملاك وشيطان يقبلان مسرعين نحو بيتي فيلتقيان عند الباب، وينشب بينهما عـراك حـول لذّتي المستحدثة؛ أحدهما يقول «إنّها معصية» فيقول الثاني «بل إنّها فضيلة».

اللُّغة الأخرى

بعد ثلاثة أيّام على ولادتي، وفيما أنا مُضجَع في مهدي الحريريّ أُحدّق بدهشة مُفزعة في العالم الجديد الذي يحيط بي من كلّ جانب، توجّهت أمّي إلى مرضعتي قائلة، «كيف حال ولدي؟»

فأجابتها المرضعة، «إنّه بخير يا سيّدتي، لقد أرضعته ثلاث مرّات؛ ولم يسبق لي أن رأيت طفلًا بهذا المرح في مثل هذه السنّ».

فثار سخطي وصرخت، «هذا ليس صحيحًا يا أمّاه؛ فسريري قاس، والحليب الذي رضعته مرّ في فمي ورائحة الثدي كريهة في منخريّ، وإنّي لفي منتهى الشقاء».

إلّا أنّ أمّي لم تفهم، ولا المرضعة فهمت، لأنّ اللغة التي تكلّمتها كانت لغة العالم الذي منه كان مجيئي.

وفي اليوم الحادي والعشرين من حياتي، وفيما كنت أُعمَّد قال الكاهن لوالدتي، «لك أن تكوني حقًّا سعيدة يا سيّدتي بأنّ ابنك قد ولد مسيحيًّا».

فأخذني العجب – وقلت للكاهن، «أمّك في الجنة إذن لا بد شقيّة، لأنّك أنت لم تولد مسيحيًّا».

إلّا أنّ الكاهن هو الآخر لم يفهم لغتي.

وبعد سبعة أهلّة، نظر إليّ ذات يوم أحد العرّافين وقال لأُمّي، «إنّ ابنك سيغدو رجل سياسة وقائدًا في الرجال عظيمًا».

غير أنّي صرخت – «تلك نبوءَة كاذبة، فأنا سأكون موسيقيًّا، وإنّي غير موسيقيّ أبدًا لن أكون».

لكنّ لغتي حتّى وأنا في تلك السنّ، لم تكن بعد مفهومة. ولشدّ ما أثار ذلك استغرابي.

وبعد ثلاث وثلاثين سنة مات خلالها الكاهن وأمّي والممرّضة جميعًا (ظلّل الله أرواحهم)، وظلّ العرّاف في قيد الحياة. وقد التقيته البارحة قرب بوّابة الهيكل؛ وفيما كنّا نتحدّث معًا قال، «كنت دائمًا أعرف أنّك ستصبح موسيقيًّا عظيمًا. لقد تنبّأت وقرأت مستقبلك وأنت بعد في سنّ الطّفولة».

وكان أن صدّقته – ذلك أنّي أنا أيضًا قد نسيت الآن لغة ذلك العالم الآخر.

الرمّانة

ذات مرّة عندما كنت ساكنًا في قلب رمّانة سمعت حبّة تقول، «إنّي سأصبح ذات يوم شجرة، وستغنّي الرِّيح في أغصاني وتتراقص الشَّمس على أوراقي، وسأكون قويّة وجميلة خلال جميع الفصول».

ثمّ تكلّمت حبّة أخرى فقالت، «عندما كنت في مثل حداثتك كانت تراودني أنا أيضًا مثل هذه الرؤى. إلّا أنّني الآن، وقد غدوت قادرة على روز الأشياء وتقويمها، أرى انّ أمانيّ كانت عبثًا».

وقالت أيضًا حبّة ثالثة، «لست أرى فينا ما ينبئ بمستقبل ذي شأن».

وقالت رابعة، «ولكن، أيّ اضحوكة ستكونها حياتنا، ما لم تكن موصولة بمستقبل أعظم»!

وقالت خامسة، «لماذا الجدل في ما سنكونه في حين أنّا لا نعرف حتّى الذي نحن عليه».

فأجابت سادسة، «أيًّا يكن ما نحن فيه، فهو الذي سنستمرّ عليه».

وقالت سابعة، «لـديّ صـورة واضحة عمّا سيكون، إلّا أنّني لا أستطيع أن أعبّر عنها بكلام».

وتكلّم في إثرها ثامنة – وتاسعة – وعاشرة، ثمّ كثيرات أخريات – إلى أن أصبحن جميعًا يتكلّمن، فما عدت أستطيع لكثرة الأصوات أن أتميّز شيئًا.

وهكذا انتقلت في ذلك اليوم نفسه إلى قلب سفرجلة حيث البذور قليلة وتكاد لا تخرج عن صمتها.

القَفَصان

في حديقة والدي قَفَصان. في أحدهما أسد كان عبيد والدي قد أتوا به من صحراء نينوى، وفي الثاني عصفور دوريّ بلا غناء.

وفي كلّ يوم عند الفجر ينده الدوريّ إلى الأسد، «عم صباحًا يا أخي السجين».

النمال الثلاثة

التقى ثلاثة من النمال على أنف رجل كان راقدًا في الشمس. وبعد أن حيوا واحدهم الآخر، كلّ حسب أعراف قبيلته، وقفوا هناك يتحدّثون.

قال الأوّل، «هذه التلال والسّهول هي أشدّ ما عرفته قحطًا. لقد فتّشت طوال النهار عن حبّة من أيّ نوع فلم أُوفّق إلى شيء».

قال الثاني، «وأنا أيضًا لم أوفّق إلى شيء، مع أنّني لم أترك زاوية أو فرجة إلّا تفقّدتها. هذا في اعتقادي هو ما يدعونه الأرض الطريّة المتحرّكة التي لا ينبت فيها شيء».

عندها شال الثالث برأسه وقال، «نحن الآن يا صاحبيّ نقف على أنف سيّد النمال الأسمى، الذي لا حدود لجبروته. فجسمه هو من الضخامة بحيث لا نستطيع أن نراه، وظلّه من الترامي بحيث لا نستطيع أن نحدّه، وصوته من الإرتفاع بحيث لا نستطيع سماعه؛ أمّا هو نفسه، فكلّيّ الوجود».

عندما تكلّم ثالثهم هكذا نظر الآخران واحدهما إلى الآخر واستغرقا في الضحك.

في تلك اللحظة تحرّك الرجل في نومه رافعًا يده إلى أنفه ليحكّه، فكان أنّهم سحقوا جميعًا.

حفّار القبور

بينما كنت مرّة أدفن واحدة من ذواتي الميتة، أقبل حفّار القبور نحوي قائلًا، «بين جميع الذين يأتون إلى هنا ليدفنوا موتاهم أنت وحدك الذي أحببت».

قلت، «ذاك يفرحني كثيرًا، ولكن لماذا أحببتني؟»

قال، «لأنّهم يأتون باكين وينصرفون باكين – في حين أنّك الوحيد الذي يأتي ضاحكًا، وضاحكًا يذهب».

على درجات الهيكل

رأيت عشيّة البارحة على درجات الهيكل الرّخاميّة امرأة جالسة بين رجلين. كان جانب من وجهها ممتقعًا، أمّا الثاني فكان على احمرار خجول.

المدينة المباركة

رُوِي لي في حداثتي عن مدينة كان الجميع فيها يحيون بموجب الكتاب المقدّس.

فقلت في نفسي، «لأقصدنّ تلك المدينة والنعمة التي فيها». كانت بعيدة، فأعددت للرحلة عدّة عظيمة. وبعد أربعين يومًا أطللت على المدينة، ودخلتها في اليوم الواحد والأربعين.

ويا للغرابة! فالسكّان بمجملهم كانوا كلّ واحد منهم، بعين وحيدة ويد وحيدة. وأخذني العجب فقلت في نفسي، «أهو المفترض في أهل مدينة بهذه القداسة ألّا يكون لهم سوى عين واحدة ويد واحدة؟»

وقد لاحظت أنّهم هم أيضًا مندهشون، ذلك أنّهم كانوا شديدي العجب من تمتّعي بيدين وعينين اثنتين. وفيما كانوا يتكلّمون معًا، سألتهم قائلًا، «هل هذه حقًّا المدينة المباركة حيث يحيا كلّ إنسان بموجب الكتاب المقدّس؟» فأجابوا، «أجل هذه هي تلك المدينة».

فقلت، «وماذا حلّ بكم، وأين هي أعينكم اليمنى وأيديكم اليمنى؟»

وبدا على الناس جميعًا التأثّر، وقالوا، «تعال وانظر».

واقتادوني إلى الهيكل في وسط المدينة. وكان أن شاهَدْتُ في الهيكل كومة من الأيادي والعيون، كلّها متخثّر. فقلت، «واحسرتاه! أيّ فاتح هو هذا الذي أنزل بكم هذه الهمجيّة؟»

وسرت فيهم همهمة. ثمّ انبرى أحد المتقدّمين بينهم وقال، «هذه الفِعلة هي فِعلتنا نحن. فالله قد سلّطنا على الشرّ الذي كان قائمًا فينا».

ثمّ قادني، والناس جميعًا من ورائنا، إلى مذبح مرتفع، وأراني فوق المذبح كتابة منقوشة فقرأت:

«فإذا دعتك عينك اليمنى إلى الخطيئة، فاقتلعها وألقها عنك، فَلَأَن تفقد عضوًا من أعضائك خيرٌ لك من أن يُلقى جسدُك كلّه في جهنّم. وإذا دعتك يدك اليمنى إلى الخطيئة، فاقطعها وألقها عنك. فَلَأن تفقد عضوًا من أعضائك خيرٌ لك من أن يذهب جسدك كلّه إلى جهنّم».

عندها فهمت. فاستدرت إلى الجمع كلّه وصرخت، «أما من رجل بينكم أو امرأة، بعينين اثنتين أو بيدين اثنتين؟»

وأجابوني قائلين، «لا، ولا واحد. ما من سالمين بيننا سوى أولئك الذين هم أصغر من أن يتسنّى لهم قراءة الكتاب المقدّس وفهم وصاياه».

وما أن أصبحتُ خارج الهيكل حتّى غادرت توًّا تلك المدينة المباركة؛ ذلك أنّي لم أكن حدثًا وكان باستطاعتي قراءة الكتاب.

الإله الخيّر والإله الشرّير

التقى الإله الخيّر والإله الشرّير على قمّة الجبل.

فقال الإله الخيّر، «طاب يومك يا أخي».

إلّا أنّ الإله الشرّير لم يجب.

فقال الإله الخيّر، «أنت في مزاج معتكر هذا النهار».

وقال الإله الشرّير، «أجل. فإنّهم في الآونة الأخيرة، غالبًا ما يظنّونني أنت فينادونني بإسمك ويعاملونني كأنّني أنت، وفي ذلك ما يكدّرني».

وقال الإله الخيّر، «ولكنّني أنا أيضًا أخطأوني بك ونوديت بإسمك».

فمشى الإله الشرّير مبتعدًا وهو يلعن غباء الإنسان.

«الهزيمة»

أيّتها الهزيمة، يا هزيمتي، يا عزلتي ويا انفرادي؛
لَأنت أعزُّ عليّ من ألف انتصار،
وأعذب على قلبي من كلّ أمجاد الأرض.

أيّتها الهزيمة، يا هزيمتي، يا تعرّفي إلى ذاتي ويا تحدّيا لوجودي،
بك أعرف أنّني لم أزل بعدُ فتيًّا خفيف الخطى،
فليس تغويني أكاليل الغار التي إلى ذبول،
وفيك كان لي أن وجدت التوحّد،
وغبطةَ أن أكون منتبذًا ومحتقرًا.

أيّتها الهزيمة، يا هزيمتي، يا سيفي البارق ويا مِجنّي،
في عينيك قرأت:
أن نتمجّد يعني أن نُستعبَد،
أن يفهمنا النّاس يعني أن نُسطّح،
وأن يستوعبنا الآخرون يعني أن قد بلغنا الإكتمال
وآن، كالثمرة اليانعة، أن نَسقط وأن نُستَهلَك.

أيّتها الهزيمة، يا هزيمتي ويا صديقتي الجسور،
لَأنت التي ستستمعين إلى أغانيّ وصراخاتي وإلى سكوتي،
وليس إلّاك من سيحدّثني عن اصطفاق الأجنحة،
عن اصطخاب البحار،
وعن الجبال التي تشتعل في الظلام،
ولَأنت وحدك من سيتسلّق ذلك الشاهق الصخريّ الذي هو نفسي.

أيّتها الهزيمة، يا هزيمتي ويا إقدامي الذي لا يعرف الموت،
لَنحن مجتمعَين سنقهقه مع العاصفة،
معًا سنحفر القبور لكلّ ما يموت فيكِ وفيّ،
وسننتصب بعزم أمام وجه الشمس،
وسنكونّ خطيرين.

الليل والمجنون

«أنا مثلك أيّها الليل، حالك وبلا رداء؛ أطأ الدرب الملتهب الذي يمتدّ فوق أحلام يقظتي، وكلّما مسّت قدمي أديم الأرض، تفتّق الأديم عن دوحة عاتية من السّنديان».

«لا، أنت لست مثلي أيّها المجنون، لأنّك ما زلت ترنو إلى الوراء لتبصر وسع ما خلّفَته في الرّمال قدماك».

«أنا مثلك أيّها الليل، صامت، وعميق؛ وفي مكنون وحدتي إلهة على فراش المخاض. وفي المولود المزمع، يتّصل الفردوس بالجحيم».

«لا، أنت لست مثلي أيّها المجنون، لأنّك ما زلت ترتجف أمام الألم، وما زال نشيد الهاوية يبعث فيك الرّعب».

«أنا مثلك أيّها الليل، جامح ورهيب، فأذناي تضجّان بصراخ الأمم المقهورة وبالتأوّهات على آبدات الدّيار».

«لا أنت لست مثلي أيّها المجنون، فأنت ما زلت تتّخذ من ذاتك الصغرى رفيقًا لذاتك، أمّا ذاتك المجنّحة فأنت بعد، لا تستطيع أن تكون لها صديقًا».

«أنا مثلك أيّها الليل، قاس ومهول. فصدري مضاء بالسفن المحترقة فوق البحار، أمّا شفتاي فمبلّلتان بدماء الفرسان الذبيحة».

لا، أنت لست مثلي أيّها المجنون، فأنت ما زلت رهين الشوق إلى روح تكون أختًا لروحك، وأمّا ذاتك، فلم تصبح بعد شريعة لذاتك».

«أنا مثلك أيّها الليل بي فرح وغبطة؛ لأنّ ذاك الذي يقيم في ظلّي هو الآن سكران بخمرة بكر، ولأنّ تلك التي تسير في إثري، تأتي إثمها وهي طروب».

«لا، أنت لست مثلي أيّها المجنون، فنفسك مؤتزرة بالحجاب المسبّع الثنايا، أمّا قلبك فأنت لا تحمله في يدك».

«أنا مثلك أيّها الليل، طويل الأناة مشبوبُ العواطف، ففي صدري ألف عاشق ميت، أُنزلوا اللّحد بأكفان من القبل الذاوية».

«بلى أيّها المجنون، أمثلي تُـرى أنـت؟ أمثلي تُـرى أنـت؟ أفي مستطاعك أن تمتطي العاصفة حصانًا وتمتشق البرق حسامًا؟»

«مثلك أنا أيّها الليل، أنا مثلك في الجلالة والجبروت. فعرشي قائم على أكداس من الآلهة الصرعى، أمّا الأيّام، فمن قدّامي تمرّ لتلثم ذيل ردائي من غير أن ترفع طرفها أبدًا إليّ».

«هل أنت مثلي يا طفل قلبي المستحلك؟ أمفكّر تُرى أنت أفكاري الجامحة، ومتكلّم لغتي التي بلا حدود؟»

«نحن حقًّا شقيقان توأمان أيّها الليل، فأنت تنشر المدى وأنا أنشر ذاتي».

وجوه

عرفت وجهًا بألف سِمة، وعرفت آخر بسمة واحدة فكأن قد جُمّد في قالب.

عرفت وجهًا كان باستطاعتي أن أنفذ من قماش بشرته إلى القباحة من تحت، وعرفت آخر كان عليّ أن أرفع عنه قماش البشرة لأبصر كم كان جميلًا.

عرفت وجهًا مسنًّا كثير الأخاديد، إنّما للا شيء. وعرفت وجهًا صقيلًا، وإنّما انحفرت فيه جميع الأشياء.

أعرف الوجوه، لأنّني أتطلّع من خلال النّسيج الذي تحوكه عيني أنا نفسي، فأبصر الحقيقة التي في الوراء.

البحر الأعظم

ذهبت ونفسي إلى البحر العظيم لنستحمّ. وعندما بلغنا الشاطئ رحنا نفتّش فيه عن مكان مستور ومنعزل.

وفيما كنّا نسير، أبصرنا رجلًا جالسًا على صخرة رماديّة ومعه كيس يأخذ منه حفنات من الملح ويلقي بها في البحر.

قالت نفسي، «هوذا المتشائم، فلنغادر هذا المكان لأنّا لا يمكن أن نستحمّ ههنا».

وأكملنا السير إلى أن بلغنا خليجًا صغيرًا، وإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده علبة مرصّعة بالجواهر يأخذ منها سكّرًا ويرمي به في البحر.

قالت نفسي، «هوذا المتفائل، وهو أيضًا لا ينبغي أن يرى جسدينا العاريين».

وتابعنا المسير فإذا على أحد الشّطآن رجل يلتقط عن الرمال أسماكًا ميتة ويعيدها بحنان إلى الماء.

فقالت نفسي، «وهذا أيضًا لا يمكن أن نستحمّ على مرأى منه. فهو الإنسانيّ صاحب المبرّات».

وتجاوزناه عابرين، فوصلنا إلى حيث أبصرنا إنسانًا يرسم ظلّه على الرمال، فتأتي الأمواج العاتية وتمحوه. إلّا أنّه في كلّ مرّة كان يعيد رسمه من جديد.

قالت نفسي، «هوذا المتصوّف، دعنا نتركه وشأنه».

وأكملنا طريقنا إلى أن أبصرنا في مجوّف هادئ رجلًا يغرف الزَّبد ويصبّه في قصعة من مرمر.

قالت نفسي، «هوذا المثاليّ، لا ينبغي له قطعًا أن يرى عريَنا».

وتابعنا المسير، إلى أن تناهى إلينا فجأة صوت يصيح، «هذا هو البحر، هذا هو البحر العميق. هذا هو البحر الشّاسع الجبّار». وعندما بلغنا مصدر الصوت ألفينا رجلًا جالسًا وظهره للبحر، وقد الصق بأذنه صدفة كان يصغي إلى هفيفها.

وقالت نفسي، «دعنا نكمل المسير. هذا هو الواقعي الذي يدير ظهره إلى كلٍّ لا يستطيع استيعابه فيشغل نفسه بالجزء».

وتجاوزنا مكملين. وبين الصّخور في مكان كثير الطحالب، وجدنا رجلًا مطمور الرّأس في الرمال: فقلت لنفسي، «لنا أن نستحمّ ههنا، فهو لا يستطيع أن يبصرنا».

«أبدًا»، قالت نفسي، «أبدًا». «فهذا أشدّ تهلكة منهم جميعًا. إنّه الزّمّيت».

ولم تلبث أن اعترت وجه نفسي وصوتها كآبة عظيمة.

وقالت، «دعنا ننصرف من هنا. فما من مكان مستور ومنعزل يمكننا أن نستحمّ فيه. فأنا لن أترك لهذه الرّيح أن تعبث بشعري المذهّب، ولن أكشفَ صدري الناصع في هذا الجوّ أو أدع النور يفضح عريي الطّهور».

عندها تركنا ذلك البحر طلبًا للبحر الأعظم.

مصلوب

صحت في الناس، «بودّي لو أُصلب!»

فقالوا، «ولماذا لدمك أن يكون على رؤوسنا؟»

فأجبت، «كيف لكم أن تتمجّدوا ما لم تصلبوا مجانين؟»

وكان أنّهم رضخوا لمطلبي فصلبت، وكان في صلبي مرضاتي.

وفيما أنا معلّق بين الأرض والسماء، رفعوا رؤوسهم نحوي كي يبصروني. فكان أنّهم تمجّدوا. ذلك أنّ رؤوسهم لم يسبق لها أن رفعت من قبل.

وإذ كانوا يتطلّعون صعودًا إليّ صاح بي أحدهم قائلًا، «ما الذي أنت ساع إلى التكفير عنه؟»

وصاح آخر قائلًا، «ما القضيّة التي أنت مضحّ بنفسك من أجلها؟»

وقال ثالث، «أتعتقد أنّك بهذا الثمن تبتاع مجدًا عالميًّا؟»

ثمّ قال رابع، «انظروا كيف أنّه يبتسم! أيمكن لألم كهذا أن يغتفر؟»

وأجبتهم جميعًا قائلًا:

«اذكروا فقط أنّي ابتسمت. فأنا لست أكفّر – أو أضحّي – أو أطلب مجدًا؛ وما من شيء لديّ لأغفره. لقد عطشت – ورجوتكم أن تعطوني

دمي لأشرب إذ ما من شيء يمكن أن يطفئ عطش مجنون غير دمه. كنت أبكم – وطلبت منكم جراحًا مكان الأفواه. وكنت سجين أيّامكم ولياليكم – فالتمست بابًا يفضي إلى أيّام وليال أكثر رحابة.

والآن أمضي – كما مضى مصلوبون آخرون من قبل. ولا يكوننّ في معتقدكم أنّنا سئمنا الصلب. ذلك أنّ علينا أن نصلب من قِبَل رجال أكثر فأكثر اتّساعًا، وبين أرضين وسماوات أشدّ جبروتًا».

الفلكيّ

رأيت وصديقي رجلًا أعمى يجلس وحيدًا في ظلال الهيكل. فقال صديقي، «إليك أحكم إنسان في محيطنا».

وتركت صديقي واقتربت من الأعمى فحيّيته ورحنا نتحدّث.

وبعد قليل قلت له، «أعذر سؤالي؛ منذ متى أنت أعمى؟»

فأجاب، «منذ ولادتي».

قلت، «وأيّ مسلك من مسالك العرفان تتّبع؟»

أجاب، «أنا فلكيّ».

ووضع يده على صدره قائلًا، «إنّي أرقب جميع هذه الشّموس والأقمار والنّجوم».

الحنين الأكبر

ها أنا أجلس بين أخي الجبل وأختي البحر.

نحن الثلاثة واحد في الانفراد، والحبّ الذي يجمع بيننا عميق وراسخ وغريب. بل هو أعمق من أعماق أختي وأرسخ من رسوخ أخي وأغرب من غريب جنوني.

أدهار فوق أدهار تصرّمت منذ الفجر الرّمادي الأوّل الذي جعلنا نتبدّى واحدنا للآخر؛ وعلى الرّغم من أنّنا شهدنا عوالم كثيرة تولد وتكتمل ثمّ تموت، فإنّنا ما زلنا في لهفة وفتوّة.

نحن في فتوّة ولهفة، ولكنّنا رغم ذلك بلا زوّار ولا أُلّاف. ومع أنّنا نرقد معًا في نصف عناق لا ينقطع، فإنّنا لسنا على ارتياح. فأيّ ارتياح هو ارتياح الرّغبة الملجومة والشّوق الحبيس؟ أنّى لفراش شقيقتي من إله ناريّ يدفئه؟ وأيّ سيل أنثوي تُراه يستطيع أن يطفىء نار شقيقي؟ ومن تُراها المرأة التي ستأخذ بِقياد قلبي؟

في سكون الليل تتمتم أختي في نومها الإسم الخفيّ لإله النار، وينده أخي من بعيد على الآلهة القريرة القصيّة، أمّا أنا فلست أدري إلى من يتوجّه في النوم ندائي.

* * *

ها أنا أجلس بين أخي الجبل وأختي البحر. نحن الثلاثة واحد في الانفراد، والحبّ الذي يجمع بيننا عميق وراسخ وغريب.

قالت وريقة عشب

قالت وريقة عشب لورقة خريف، «لَشدّ ما تُحدثين من ضجّة وأنت تسقطين! إنّك تبدّدين جميع أحلامي الشتائيّة».

فقالت الورقة ساخطة، «يا وضيعة المحتد والمسكن! أنتِ أيّتها المشاكسة التي لا تعرف الإنشاد! فأنت لا تسكنين المناخات العُلويّة فتستطيعين أن تتبيّني نغم الغناء».

وما لبثت ورقة الخريف أن استلقت على الأرض واستسلمت للرقاد. وعندما أقبل الرّبيع عادت واستفاقت فإذا هي وريقة عشب.

وإذ جاء الخريف فدهمها رقادها الشتويّ وامتلأ الجوّ من فوقها بأوراق الخريف المتساقطة، تمتمت لنفسها، «تبًّا لهذه الأوراق الخريفيّة كم تحدثن من ضجيج! إنّهنّ يبدّدن جميع أحلامي الشتائيّة».

العين

قالت العين ذات يوم، «إنّي أرى خلف هذه الأودية جبلًا موشّى بالسّديم الأزرق. أليس أنّه بديع؟»

وأصاخت الأذن، وبعد هنيهة من الإصغاء المركّز قالت، «ليس ثمّة من جبل، فأنا لست أسمعه».

عندها تكلّمت اليد فقالت، «عبثًا أحاول أن أتبيّنه بالحسّ أو باللّمس. إنّي لست أقع على جبل».

وقال الأنف، «لا وجود لجبل. فأنا لا أتنسّم له رائحة».

عندها استدارت العين صوب جهة أخرى، وراح الآخرون يتحدّثون معًا حول ضلالة العين الغريبة قائلين، «لا بدّ أنّ شيئًا ما قد أصاب العين».

الرَّجلان العالمان

اتّفق أنّ عالِمين اثنين كانا يسكنان مدينة «أفكار» القديمة، وكان كلّ منهما يكره علم الآخر ويقلّل من شأنه. فأحدهما كان ينكر وجود الآلهة في حين كان الثاني مؤمنًا.

وذات يوم التقى الاثنان في ساحة المدينة وراحا يتجادلان وسط أتباعهما حول وجود الآلهة أو عدم وجودهم. وبعد ساعات من المشادّة افترقا.

ذلك المساء ذهب الجاحد إلى الهيكل وسجد قدّام المذبح وناشد الآلهة أن يغفروا له عناد ماضيه.

وفي الساعة نفسها كان العالِم الآخر، العالِم الذي أشاد بالآلهة، يحرق كتبه المقدّسة. ذلك أنّه قد غدا ملحدًا.

عندما ولِدت كآبتي

عندما ولدت كآبتي، تعهّدتها بعناية ورعيتها بحنان رؤوف.

ونَمَت كآبتي كسائر الكائنات الحيّة، قويّة وجميلة ومليئة بالمباهج المدهشة.

وأحببنا أنا وكآبتي واحدنا الآخر كما أحببنا العالم من حولنا؛ ذلك أنّ للكآبة قلبًا رؤوفًا، وأنّ قلبي يرؤف مع الإكتئاب.

وعندما كنّا أنا وكآبتي نتحادث، كانت أيّامنا تتّخذ أجنحة ولياليناتتمنطق بالأحلام؛ ذلك انّ للكآبة لسانًا بليغا، وأنّ لساني يغدو بليغًا مع الإكتئاب.

وعندما كنّا أنا وكآبتي نغنّي معًا، كان الجيران يجلسون إلى نوافذهم وينصتون؛ ذلك أنّ أغانينا كانت عميقة كالبحر وأنغامنا مترعة بالذكريات الغريبة.

وعندما كنّا أنا وكآبتي نمشي معًا، كان الناس يتطلّعون ألينا بأعين حانية ويتهامسون بكلام فائق العذوبة. ومنهم من كان ينظر إلينا حاسدا؛ ذلك أنّ الكآبة كانت شيئًا نبيلًا وكنت أنا فخورًا بالكآبة.

إلّا أنّ كآبتي ماتت، شأن سائر الكائنات الحيّة، وخُلِّيت أنا وحدي للتفكّر وللبحران.

والآن عندما أتكلّم تنزل كلماتي ثقيلة في أُذنيّ.
وعندما أُنشد أغانيّ، لا يُقبل الجيران كي يصغوا اليّ.
وعندما أجوز الشوارع، لايتطلّع أحد نحوي.
فقط في منامي تتناهى إليّ أصوات تقول في رثاء، «انظروا، ههنا يرقد الإنسان الذي ماتت كآبته».

وعندما ولِدت غبطتي

وعندما ولدت غبطتي، حملتها بين ذراعيّ ووقفت على السّطح صائحًا، «هلمّوا، أنتم أيّها الجيران، هلمّوا وانظروا، فقد ولدت لي هذا النهار غبطتي. هلمّوا وشاهدوا هذا الكائن البهيج الذي يضحك أمام وجه الشمس».

لكنّ أحدًا من الجيران لم يقبل لينظر إلى غبطتي. ولكم كان استغرابي شديدًا. وفي كلّ يوم طوال سبعة أهلّة، كنت أُعلن من على السطح عن غبطتي، لكنّ أحدًا مع ذلك لم يستمع اليّ. فكنّا أنا وغبطتي وحيدين لا نُقصد ولا نُزار.

واعترى غبطتي الشّحوب والضّجر، لأنّ ما من قلب حفل بروائها غير قلبي، وما من شفاه قبّلت شفتيها غير شفتيّ.

وكان أن ماتت غبطتي من الوحشة.

وإنّي الآن أذكر غبطتي التي ماتت فقط من خلال تذكّري لكآبتي التي احتضرت. لكنّ الذكرى ورقة خريف، تتمتم هنيهة في الرّيح ثمّ لا تلبث أن تسكت إلى الأبد.

العالم الكامل

يا إله الأنفس الضّائعة، أنت أيّها الضّائع بين الآلهة، استمع إليّ:

أنت أيّها القَدَرُ الرّفيق السّاهر علينا نحن الأرواح المجنونة التّائهة، استمع إليّ!

إنّي مقيم وسط هيئة بشريّة مكتملة، أنا الذي هو في منتهى النّقصان.

أنا، هذه الفوضى البشريّة، هذا السّديم المتخبّط من العناصر، أجدني أجول وسط عوالم مكتملة – وسط أقوام لهم شرائعهم الناجزة ونظمهم الخالصة. أفكارهم مصنّفة وأحلامهم مرتّبة ورؤاهم مُدرجة ومسجّلة.

فضائلهم يا ربُّ لها مقياسها وخطاياهم لها ميزانها، وحتّى ما لا يُحصى من أمورهم التي هي في غبش الشفق ما بين فضيلة ورذيلة، هو مدوّن ومفهرس.

هنا تقسم الأيّام والليالي إلى مواسم مسلكيّة، وتُضبط وفق قواعد هي من الدقّة فوق كلّ شبهة.

لك أن تأكل، أن تشرب، أن تنام، أن تستر عريك، ثمّ أن تسأم في الوقت المناسب.

لك أن تعمل، أن تعبث، أن تغنّي، أن ترقص، ثمّ أن تنام بلا حراك عندما تعلن الساعة أنّ الوقت قد أزف.

لك أن تفكّر، إنّما فقط على هذا النحو، أن تشعر، إنّما فقط بهذا القدر، ثمّ أن تتوقّف عن التفكير وعن الشعور عندما يرتفع كوكب بعينه هنالك فوق الأفق.

لك أن تسلب جارًا، مع ابتسامة، أن تمنح الهبات مع تلويحة مدروسة من اليد، أن تمتدح بحصافة، أن تلقي الملامة بحذر، أن ترمِّد جسدًا بنسمة من لهاث، ثمّ أن تغسل يديك غبّ انتهاء أعمال النهار.

لك أن تحبّ بمقتضى عرف راسخ، أن ترفّه عن نفسك الأعزّ بطريقة مخطّطة سلفًا، أن تتعبّد للآلهة بلياقة، أن تكيد للشياطين بمكر – ثمّ أن تتناسى كلّ ذلك وكأنّ الذاكرة موات.

لك أن تتخيّل، إنّما بغرض، أن تتفكّر، إنّما باتّزان، أن تفرح إنّما بعذوبة، أن تتألّم بنبل – ثمّ أن تُفرغ الكأس كي يعود الغد فيملأها من جديد.

هذه الأمور جميعًا، يا ربّي، تحبل بها البشريّة عن سابق اقتناع، وتلدها بتصميم، وترضعها الانضباط. وتنشّئُها على القوانين، وتوجّهها بالعقل، ثمّ تذبحها وتدفنها بموجب المراسم المقرّرة. وحتّى قبورها الخرساء التي تقوم في صلب الأنفس البشريّة، معلّمة ومرقّمة.

إنّه لعالم كامل، عالم فائق الكمال، عالم العجب العجاب، إنّه الثّمرة الأنضج في جنّة الله، والفكرة الرّائدة لمجمل هذا الوجود.

ولكن لماذا عليّ أن أكون هنا أيّها الربّ، أنا هذه البذرة الحيّة الحبلى بمكبوت الأماني، هذه العاصفة المجنونة التي ليست إلى شرق أو إلى غرب، بل هذه الشظيّة الطّائشة من كوكب محترق.

لماذا أنا هنا يا إله الأنفس الضّائعة، أنت أيّها الضّائع بين الآلهة.

السابق

أمثاله وقصائده

The Forerunner, 1920

أنت ذاتك سابق لذاتك، والأبراج التي بنيتَها ليست من ذاتك العملاقة سوى الأساس.

وأنا ذاتي سابق لذاتي، ذلك أنّ الظلّ الذي يمتدّ أمامي عند الشروق، سيلتمّ تحت قدميّ عند الظهيرة. وإنّ شروقًا لاحقًا فوق ذلك، سيلقي أمامي بظلّ آخر لتعود ظهيرة أخرى فتلمّه من جديد.

نحن دائمًا كنّا سابقين أنفسنا، وسنبقى أبدًا كذلك. فجميع الذي جمعناه أو سنجمعه، لن يكون سوى بذور لحقول بعد لم تُحرث. وإنّا نحن الحقول والحارثون، ونحن المجمَّعون والجامعون.

عندما كنتَ أنت رغبة تائهة في الضّباب، كنت أنا أيضًا هنالك رغبة تائهة. وكان أن سعينا واحدنا إلى الآخر فتولّدت لدينا من شوقنا أحلام. وكانت الأحلام زمنًا بلا حدود، وكانت الأحلام مدى بغير قياس.

وعندما كنتَ كلمة خرساء على شفتَي الحياة المرتعشتين، كنتُ أنا أيضًا هناك كلمة خرساء. ثمّ تلفّظت بنا الحياة، فكررنا خلال السنين ونحن ننبض بذكريات الأمس وأشواق الغد، ذلك أنّ الأمس كان رهين الموت وأنّ الغد كان طريد الولادة.

وها الله الآن يرفعنا على راحتيه. أنت شمس في يمينه وأنا أرض بيسراه. إلّا أنّك مشعًّا، لست أفضل منّي متلقّيًا للشعاع.

ونحن، شمسًا وأرضًا، لسنا غير البداية لشمس أعظم وأرض أهمّ. وإنّا أبدًا سنكون البداية.

أنت، أيّها الغريب العابر قدّام باب حديقتي، أنت سابق ذاتك.

وأنا نفسي أيضًا سابق ذاتي، مع أنّي متّكئ في ظلّ أشجاري وأبدو من دون حراك.

الأبله

جاء من البادية مرّة إلى مدينة شارِيَة العظمى رجل حالِم، ولم يكن له سوى جبّته وعصاه.

كان وهو يسير في الشوارع يحدّق بإعجاب وإكبار في المعابد والأبراج والقصور، ذلك أنّ مدينة شارية كانت فاتنة الجمال. وكثيرًا ما تكلّم مع المارّة مستوضحًا عن المدينة – إلّا أنّهم لم يفهموا لغته ولا هو فهم لغتهم.

وتوقّف ساعة الظهيرة أمام نزل كبير مبنيّ بالرخام الأصفر، يدخل الناس إليه ويخرجون منه بلا اعتراض.

«لا بدّ أنّ هذا مزار»، قال في نفسه، ودخل كالآخرين. إلّا أنّ دهشته كانت عظيمة عندما وجد نفسه في صالة فائقة البهاء حافلة بجمهور من الرجال والنساء يتوزّعون على عدد من الموائد. كانوا يأكلون ويشربون ويستمعون إلى العازفين.

«لا! ليست هذه عبادة»، قال الحالم، «لا بدّ أنّها وليمة دعا الأميرُ الناسَ إليها احتفاء بمناسبة عظيمة.»

وفي تلك اللحظة، تقدّم منه رجل، حسبه أحد عبيد الأمير، فأجلسه، ثمّ قدّموا له اللحم والنبيّذ وأفخر أنواع الحلوى.

وعندما شبع الرّجل الحالم، قام لينصرف، إلّا أنّ رجلًا ضخمًا ذا لباس في غاية الزينة، أوقفه عند الباب.

فقال الحالم في نفسه، «لا شكّ هذا هو الأمير نفسه». فانحنى له وشكره.

عندها قال الرّجل الضّخم بلغة أهل المدن:

«يا سيّد، أنت لم تسدّد ثمن غدائك». لكنّ الحالم لم يفهم، بل كرّر الشّكر له من كلّ قلبه. وتفكّر الرّجل الضّخم مليًّا وتأمّل الحالم عن كثب. فاتّضح له أنّه غريب، حقير الملبس وأنّه فعلًا لا يملك ما يسدّد به ثمن غدائه. وصفّق الرّجل الضّخم بيديه – فأقبل أربعة من حرّاس المدينة. وبعد أن استمعوا إلى الرجل الضخم، أخذوا الحالم بينهم، إثنان عن كلّ جانب. ولاحظ الحالم الظاهرَ الرسميّ في لباسهم وفي تصرّفهم فنظر إليهم بابتهاج. «هؤلاء رجال من عِلْيَة القوم»، قال في نفسه.

وساروا معًا إلى أن أتوا قصر العدل فدخلوه.

وإذا الحالم أمام رجل وقور ذي لحية مسترسلة وثوب ملوكيّ، جالس على عرش. فقدّر أنّه الملك، وراقه أن يؤتى به إلى حضرته.

ونقل الحرّاس إلى القاضي، الذي هو الرجل الوقور، التّهمة الموجّهة إلى الحالم، فعيّن القاضي محاميين، واحدًا ليعرض القضيّة والثاني ليدافع عن الغريب.

وقام المحاميان، الواحد بعد الآخر، وأدلى كلّ منهما بمرافعته. واعتقد الحالم في نفسه أنّه يستمع إلى كلمات ترحيبيّة، فامتلأ قلبه إكبارًا للملك وللأمير على ما هو جار من أجله.

وصدر الحكم على الحالم بأن يُكتب جرمه على لوحة تدلّى من عنقه، وأن يطاف به في المدينة على حصان عار يتقدّمه زمّار وطبّال. ونُفّذ الحكم على الفور.

وفيما كان الحالم يخترق المدينة على الحصان العاري، والطبّال والـزمّـار يتقدّمانه تهافت السكّان على جلبة الأصـوات، وإذ أبصروه استغرقوا جميعهم في الضحك. وتراكض الصِّبية خلفه زُمرًا، شارعًا إثر شارع.

فأخذت قلب الحالم النّشوة والتمعت عيناه وهو ينظر إليهم. ذلك أنّ اللوحة بالنسبة إليه كانت علامة البركة الملكيّة، وكانت المظاهرة موكبًا على شرفه.

وأبصر، وهو راكب بين الجمهور، رجلًا مثله من أهل البادية فامتلأ قلبه حبورًا ونده إليه بصوت صارخ: «صاح! يا صاح! أين تُرى نحن؟ أيّ مدينة حلم تُرى هـذه؟ بل أيّ شعب مضياف بهذا السخاء هو هذا؟ يولمون للضّيف العابر في قصورهم، فيواكبه أمراؤهم ويعلّق له مليكهم شارة على صدره باذلًا له ضيافة مدينة هي هبة من السماء».

لكنّ الآخر الذي كان هو أيضًا من البادية، لم يجب. بل اكتفى بابتسامة وهزّة هادئة من الرأس، فيما ظلّ الموكب سائرًا.

وكان الحالم مرفوع المحيّا كما كانت عيناه تفيضان بالنور.

حُبّ

يقولون إنّ الخُلد والجيأل
يشربان من الجدول نفسه
حيث الأسد يأتي ليشرب.

ويقولون إنّ النّسر والعقاب
ينشبان منقاريهما في الجيفة نفسها
ويكونان في سلام واحدهما مع الآخر،
في حضرة الشيء المَيت.

آه أيّها الحبّ، يا من لجَمتْ
يداه الملوكيّتان رغائبي
وارتفعتا بعطشي وجوعي
إلى حيث الكرامة والكبرياء،
لا تدع ما هو قويّ ووفيّ في ذاتي
يقرب الخبز أو الخمر
اللذين يغرّران بالأضعف في نفسي.

دعني أقضي جوعًا،
ودع قلبي يتشقّق عطشًا،
بل دعني أموت وأهلك،
قبل أن أمدّ يدي
إلى كأس ما ملأْتَها أنت
أو إلى قصعة أنت لم تباركها.

الملك الناسك

تناهى إليّ أنّ في غابة بين الجبال رجلًا شابًّا يحيا متوحّدًا بعد أن كان ملكًا على بلاد شاسعة وراء النهرين. وقالوا أيضًا إنّه هو بملء إرادته تخلّى عن عرشه وأرض أمجاده، وجاء يعيش في البرّية.

فقلت في نفسي، «لأقصدنّ ذلك الرجل وأطّلعنّ على مكنون سرّه، فالذي يتخلّى عن مملكة هو لا بدّ أعظم من مملكة.»

وانطلقت في ذلك اليوم عينه إلى الغابة حيث يقيم. فألفيته جالسًا تحت سروة بيضاء وفي يده قصبة وكأنّها بمقام الصولجان. فحيّيته كما لو أنّي أحيّي ملكًا.

فاستدار نحوي وقال بلطف، «ما الذي جاء بك إلى غابة السكينة هذه؟ أجئت في إثر نفس ضائعة بين الظّلال الخضر، أم هي رجعة لك في شفق العمر إلى الدّيار؟»

وأجبته قائلًا، «بل جئت في إثرك أنت لأنّي متلهّف إلى معرفة ذاك الذي جعلك تستبدل عرشًا بغابة.»

وأجاب قائلًا، «وجيزة هي قصّتي، فالفقّاعة، فجأة كان انطفاؤها، وإليك الحكاية: «ذات يوم وأنا جالس إلى نافذة في القصر، كان رئيس حجّابي ومبعوث لإحدى البلدان الأجنبيّة يتمشّيان في الحديقة، وفيما

هما يقتربان من نافذتي، كان رئيس الحجّاب يتحدّث عن نفسه قائلًا، «أنا مثل الملك، عندي عطش إلى النبيذ القويّ، وجوع إلى كلّ ألعاب المقامرة. وعندي مثل الملك، طباع عاصفة». ثمّ توارى رئيس الحجّاب ومعه المبعوث، وراء الأشجار. إلّا أنّهما عادا بعد دقائق وكان رئيس الحجّاب هذه المرّة يتحدّث عنّي، وكان يقول، «إنّ سيّدي الملك ماهر مثلي بالرّماية؛ ومثلي يحبّ الموسيقى ويستحمّ ثلاث مرّات في اليوم.»

وبعد هنيهة أضاف، «في عشيّة ذلك النهار غادرت قصري وليس عليّ سوى ردائي، ذلك أنّي لم أرضَ أن أبقى حاكمًا على أناس يتبنّون مساوئي، أمّا فضائلي فيعزونها إلى أنفسهم.»

قلت، «هذا مثير حقًّا ومن باب الغرابة.»

فقال، «كلّا يا صاحبي، أنت قرعت باب صمتي فحصلت فقط على اليسير. من لا يقدم على استبدال مملكة بغابة ترنّم فيها الفصول بلا انقطاع؟ كثيرون هم الذين استبدلوا مملكتهم بما هو أقلّ من السكينة وحلاوة العيش في صحبة التوحّد. وبلا عدّ هم النسور الذين ينزلون من سماواتهم العليا ليعيشوا مع الخلدان فيتعرّفوا إلى أسرار التراب. وهناك الذين يتخلّون عن مملكة الأحلام كي لا يظهروا بعيدين عمّن لا أحلام لهم، والذين يتخلّون عن مملكة العري فيسترون أرواحهم كي لا يخجل الآخرون من رؤية الحقيقة غير المستترة والجمال الذي بلا قناع. إلّا أنّ الأعظم من هؤلاء جميعًا هو الذي يتخلّى عن مملكة الكآبة كي لا يبدو ذا تكبّر واختيال.

وإذ نهض واقفًا توكّأ على قصبته وقال، «إذهب الآن إلى المدينة العظمى فَاجلس عند بوّابتها وارقب جميع الذين يدخلون إليها والذين يخرجون واحرص أن تتميّز فيهم ذاك الذي، وإن ملكًا بالولادة، ليست له مملكة، وذاك الذي، وإن محكومًا بالجسد، هو حاكم بالروح – مع أنّه لا

هو ولا محكوموه يعرفون ذلك؛ وذاك الذي وإن بدا حاكمًا، هو في حقيقة أمره عبد لعبيده».

وبعد أن قال هذه الأشياء، ابتسم لي فإذا آلاف الأسحار على شفتيه. ثمّ أدار وجهه ومشى متوغّلًا في الغابة.

وعدت إلى المدينة وجلست عند بوّابتها لأرقب المارّة كما أشار. أمّا الملوك الذين عبرت ظلالهم فوقي منذ ذلك النهار حتّى اليوم فكانوا بلا عدّ. وأمّا المحكومون الذين عبر فوقهم ظلّي فكانوا قلّة قليلة.

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يروّحون لملكة هرمة كانت تغفو فوق عرشها، وكانت تشخر. وكان في حضن الملكة قطّة مستلقية وهي تخرخر وترنو باسترخاء إلى العبيد.

وتكلّم العبد الأوّل فقال، «هذه المرأة الهرمة، كم هي قبيحة في نومها. أنظروا إلى فمها كيف يتدلّى، وكيف تتنفّس وكأنّ ابليسًا يمسك بخناقها.

[عندها قالت القطّة مخرخرة، «قباحتها في نومها لا تبلغ نصف قباحتك أنت في عبوديّتك المستيقظة.»]

وقال العبد الثاني، «كان المتوقّع للنوم أن يلطّف أخاديدها بدل أن يعمّقها. لا بدّ أنّها تحلم بشيء شرّير.»

[وخرخرت القطّة، «حبّذا لو أنّك أنت أيضًا تنام وتحلم بحرّيتك.»]

وقال العبد الثالث، «لعلّها ترى الآن مواكب جميع الذين تمّ لها ذبحهم.»

[وخرخرت القطّة، «أجل، إنّها ترى مواكب أجدادك وأحفادك.»]

وقال العبد الرابع، «سهل جدًّا الكلام عليها، لكنّ ذلك لن يخفّف من عناء وقوفي وأنا أروّح.»

[وخرخرت القطّة، «إنّك ستبقى مروّحًا إلى أبد الأبد، فإنّه كما على الأرض كذلك في السماء.»]

في هذه اللحظة أحنت الملكة العجوز رأسها في نومها فوقع تاجها على الأرض.

فقال أحد العبيد، «هذا نذير شؤم.»

[وخرخرت القطّة، «نذير الشؤم بالنسبة إلى أحدهم هو نذير تفاؤل بالنسبة إلى آخر.»]

فقال العبد الثاني، «ماذا لو استفاقت فوجدت تاجها واقعًا! لا بدّ ستذبحنا.»

[وخرخرت القطّة، «هي تذبحكم منذ الولادة، إلّا أنّكم لا تعلمون.»]

وقال العبد الثالث، «أجل تذبحنا وتحسب ذلك تقدمة للآلهة.»

[وخرخرت القطّة، «وحدهم الضعفاء يضحّى بهم للآلهة.»]

وأسكت العبد الرابع الباقين، فالتقط التاج بتأنٍّ وأعاده إلى رأس الملكة من غير أن يوقظها.

[وخرخرت القطّة، «ليس من يعيد تاجًا بعد سقوطه إلّا العبد.»]

وبعد قليل انتبهت الملكة من نومها فتطلّعت حولها وتثاءبت، ثمّ قالت، «أظنّني كنت أحلم، وقد رأيت عقربًا يطارد أربع يرقانات حول أصل سنديانة عتيقة. لست مرتاحة لهذا الحلم».

ولم تلبث أن أغمضت عينيها واستسلمت للرقاد من جديد. فواصلت شخيرها وواصل العبيد الأربعة الترويح.

[وخرخرت القطّة، «واصلوا الترويح أيّها الأغبياء، واصلوا الترويح. فأنتم إنّما تروّحون للنار التي بها تُشوون.»]

الإستبداد

هكذا تغنّي التنّينة التي تحرس كهوف الشاطئ السبعة:

«ها قريني سيأتي راكبًا على الموج. فالأرض ستمتلئ رعبًا لزئيره الهادِر، وستتّقد السّماء نـارًا من لهيب منخريه. قراننا سينعقد عند خسوف القمر، وعند كسوف الشمس سألد الخضر الذي سينحرني.»

هكذا تغنّي التنّينة التي تحرس كهوف الشاطئ السبعة.

القدّيس

زرت مرّة، إبّان شبابي، قدّيسًا في غيضته الهادئة خلف التلال؛ وفيما كنّا نتحدّث عن طبيعة الفضيلة، إذا بأحد قطّاع الطرق يصعد متثاقلًا نحونا عند ضلع الجبل. وعندما بلغ الغيضة، ركع قدّام القدّيس قائلًا، «أيّها القدّيس! حبّذا لو تريحني، فخطاياي تثقلني.»

وأجابه القدّيس، «وخطاياي أنا أيضًا تثقلني.»

فقال قاطع الطرق، «ولكنّي أنا لصّ نهّاب.»

وأجابه القدّيس، «وأنا أيضًا لصّ نهّاب.»

فقال قاطع الطرق، «ولكنّني قاتل، ودماء كثيرين من الرجال تصرخ في أذنيّ.»

وأجابه القدّيس، «وأنا كذلك قاتل وفي أذنيّ تصرخ دماء رجال كثيرين.»

فقال قاطع الطرق، «لقد ارتكبت من الجرائم ما لا يُحصى.»

وأجابه القدّيس، «وأنا أيضًا قد ارتكبت من الجرائم ما لا يُعدّ.»

عندها انتصب قاطع الطرق واقفًا، وحدّق في القدّيس، ولاحت في عينيه نظرة غريبة. وعندما غادرنا هبط وثبًا على المنحدر.

وملت إلى القدّيس قائلًا، «كيف لك أن تتّهم نفسك بجرائم لم ترتكبها؛ ألا ترى أنّ الرجل قد غادرنا وهو لم يعد مؤمنًا بك؟»

وأجاب القدّيس، «صحيح أنّه لم يعد مؤمنًا بي، لكنّه غادر وقد ناله الكثير من العزاء.»

وسمعنا قاطع الطريق في تلك اللحظة يغنّي من بعيد فيردّد الوادي صداه ويمتلئ فرحًا.

سريّ الثراء

وقعتُ في إحـدى الجزر مـرّة خـلال أسـفاري، على مسخ بـرأس إنسان وبأظلاف من حديد، يأكل من تراب الأرض ويشرب من مياه البحر من غير أيّ توقّف. راقبته لفترة طويلة، ثمّ اقتربت منه قائلًا، «ألا تبلغ أبدًا كفاية، أما من شبع أبدًا لجوعك أو من ريّ أبدًا لعطشك؟»

وأجابني قائلًا، «بلى، أنا مكتفٍ، بل إنّي تعب من أكلي وشربي؛ إلّا إنّي خائف ألّا يبقى لِغد ترابٌ لآكل أو بحرٌ لأشرب.»

الذات العظمى

هذه حكاية ما جرى. فبعد الفراغ من تتويجه ملكًا على جبيل، انسحب نُفسبَعل إلى غرفة نومه – الغرفة نفسها التي شيّدها له سَحَرة الجبل النسّاك الثلاثة. وعمد إلى تاجه فخلعه كما خلع ثوبه الملوكيّ، ووقف في وسط الغرفة مفكّرًا في نفسه وقد غدا الآن حاكم جبيل بلا منازع.

وفجأة استدار فإذا رجل عار يدرج من المرآة الفضيّة التي وهبته إيّاها والدته.

فأجفل الملك وصاح بالرّجل، «ما مرادك؟»

وأجاب الرّجل العاري، «لا شيء سوى هذا: لماذا توّجوك ملكًا؟»

وأجاب الملك، «لأنّي الرّجل الأنبل في البلاد.»

وقال الرّجل العاري، «لو أنّك كنت على مزيد من النبل لما كنت ملكًا.»

وقال الملك، «إنّهم توّجوني لأنّي الرّجل الأقوى في البلاد.»

وقال الرّجل العاري، «لو أنّك بعدُ أكثر قوّة لما كنت ملكًا.»

عندها قال الملك، «توّجوني لأنّي الرّجل الأحكم في البلاد.»

وقال الرّجل العاري، «لو أنّك بعدُ أوفر حكمة لما اخترت أن تكون ملكًا.»

عندها خرّ الرّجل أرضًا وبكى بمرارة.

ونظر إليه الرّجل العاري من علٍ، ثمّ أخذ التاج وأعاده بعطف إلى الرأس المنحني للملك.

وعاد الرّجل العاري، وهو يتطلّع بمحبّة إلى الملك، فدخل المرآة.

ونهض الملك ونظر لتوّه إلى المرآة. فلم يرَ فيها سوى نفسه متوّجًا.

الحرب والأمم الصغيرة

حدث مرّة، فوق أحد المراعي حيث كان حمل ونعجة يرتعيان، أنّ نسرًا كان يحوّم عاليًا ويحدّق جائعًا في الحمل. وفيما كان يهمّ بالإنقضاض على فريسته، ظهر نسر آخر وأخذ يحوّم بالنظرة الجائعة نفسها فوق النعجة وحملها. عندها نشب بين المتنافسين قتال شحن الفضاء بزعيقه الضّاري.

ونظرت النعجة إلى فوق، فأخذها العجب. ومالت إلى الحمل فقالت، «كم هو غريب يا بنيّ، أن يلجأ هذان المجنّحان النبيلان إلى مهاجمة واحدهما الآخر. أليس الفضاء من الرّحابة بحيث يتّسع لكليهما؟ صلِّ يا صغيري، صلِّ في قلبك كيما يُحِلّ اللّهُ السلام بين أخويك المجنّحين.»

وصلّى الحمل في قلبه.

نقّاد

ذات مساء، بلغ رجل كان يقصد البحر على حصانه، أحد الخانات في محاذاة الطريق. فترجّل، وبثقة كلّ راكب نحو البحر بالليل وبالإنسان، ربط حصانه إلى شجرة قرب الباب ودخل الخان.

وعند منتصف الليل، وفيما الجميع نيام، أقبل لصّ وسرق حصان المسافر.

وعند الصباح أفاق الرّجل وتبيّن له أنّ حصانه قد سُرق. فحزن على الحصان وعلى أنّ رجلًا ما، كان من نفسه أن سرق.

وأقبل زملاؤه النزلاء فتحلّقوا حوله وأخذوا يتكلّمون.

فقال الرجل الأوّل، «حماقة منك كبرى أن تربط جوادك خارج الإسطبل.»

وقال الثاني، «وحماقة أعظم أنّك أهملت حتّى أن تعقل الحصان.»

وقال الرجل الثالث، «إنّه لغباء في مطلق الأحوال أن تسافر إلى البحر على حصان.»

وقال الرابع، «وحدهم المتراخون وثقيلو الخطى يقتنون خيولًا.»

عندها أخذ المسافر العجب، فصاح أخيرًا بهم، «يا قوم، لقد سارعتم أفـرادًا وجماعة إلى إطلاعي، بسببٍ من سرقة حصاني، على أخطائي ونقائصي. لكنّ الغريب أنّكم لم تفوهوا بكلمة مَلامة واحدة على الرجل الذي سرق الحصان.»

شعراء

كان أربعة من الشعراء متحلّقين حول طاسٍ من مزيج كحوليّ موضوعة على طاولة.

قال الشاعر الأوّل، «إخالني أُبصر بعيني الثالثة أريج هذه الخمرة وهو يهوّم في الفضاء كغمامة من عصافير في غابة مسحورة.»

ورفع الشاعر الثاني رأسه ثمّ قال، «إنّي بالأُذن التي في داخلي، قادر أن أسمع هذه العصافير الأثيريّة وهي تغرّد. فألحانها تأسر قلبي كما تحتجز الزهرة البيضاء النحلةَ ضمن بتلاتها».

وأغمض الشاعر الثالث عينيه ثمّ رفع ذراعيه إلى أعلى قائلًا، «إنّي ألمس هذه العصافير بيديّ وأُحسّ أجنحتها على أصابعي كأنّها أنفاس حوريّة غافية».

عندها نهض الشاعر الرابع فرفع الطّاس عاليًا وقال، «يؤسفني أيّها الرفاق أنّني في منتهى التبلّد حسًّا وسمعًا ونظرًا، فلا أستطيع أن أبصر أريج هذه الخمرة أو أسمع تغريدها أو ألمس اصطفاق أجنحتها. أنا لست أبصر سوى الخمرة نفسها. فعليّ إذن أن أشربها كي تشحذ حواسي وترفعني إلى أجوائكم الأثيريّة».

ورفع الكأس إلى شفتيه وأفرغ في حلقه كلّ ما فيها حتّى الثمالة. وبأفواه فاغرة، نظر الشعراء الثلاثة مشدوهين إليه، وكانت في عيونهم كراهية عطشى إنّما من غير باب الشعر.

مؤشّر الريح

قال مؤشّر الريح للريح، «كم أنتِ مضجرة ومملّة! أما باستطاعتك، بين كلّ الاتّجاهات، أن تهبّي إلّا في اتّجاه وجهي؟ إنّك تفسدين عليّ ما أعطانيه الله من استقرار.»

لكنّ الريح لم تبدِ جوابًا. إنّها فقط قهقهت في الفضاء.

ملك أرَدوس

مَثلَ متقدّمو مدينة أرَدوس ذات مرّة أمام الملك والتمسوا منه قرارًا يحرّم على الرجال في المدينة الخمرة وكافّة أنواع المسكرات.

لكنّ الملك أدار لهم ظهره وانصرف عنهم ضاحكًا.

فانصرف المتقدّمون مثبطين.

وعند باب القصر، التقوا رئيس التشريفات. فلاحظ رئيس التشريفات اضطرابهم وتفهّم قضيّتهم.

ثمّ قال لهم، «مؤسف يا إخوان! لو صدف أن التقيتم الملك وهو سكران لكان قطعًا استجاب لطلبكم.»

من عمق أعماق القلب

من عمق أعماق القلب طار عصفور وحلّق نحو السماء.

وفيما كان يحلّق أعلى فأعلى، كان يكبر في اطّراد.

لم يكن في البداية أكبر من دوريّ، ثمّ غدا كالقبّرة فالنّسر، فشاسعًا كغيمة ربيعيّة، إلى أن ملأ السماوات المتلألئة بالنجوم.

من قلبي طار عصفور نحو السماء. وكان يكبر باطّراد كلّما ابتعد، إلّا أنّه مع ذلك ظلّ في قلبي ولم يغادر.

إيه إيماني، يا معرفتي غير المدجّنة، كيف لي أن أحلّق إلى أعاليك فأبصر وإيّاك ذات الإنسان العظمى وقد ارتسمت على وجه السماء؟

كيف لي أن أحوّل هذا البحر في داخلي إلى ضباب، فأتهادى وإيّاك في فضاءات بلا حدود؟

كيف لسجين داخل المعبد أن يبصر قبابه الذهبيّة؟

كيف لقلبِ ثمرةٍ أن يترامى فيحيط أيضًا بالثمرة؟

إيهٍ إيماني، لستُ بقادر، أنا المكبّل خلف هذه القضبان من الفضّة والأبنوس، أن أطير معك.

ومع ذلك فأنت، انطلاقًا من القلب، قلبي، تحلّق نحو السماء، وقلبي هو الذي يرفعك، وفي ذلك مرضاتي.

سلالات

كانت مليكة إيشانا على فراش المخاض، وكان الملك وعظماء رجال بلاطه ينتظرون بمنتهى القلق في القاعة الكبرى للثيران المجنّحة.

وعند المساء أقبل فجأة رسول مسرع، وسجد أمام الملك قائلًا، «إنّي أحمل بشائر سارّة إلى سيّدي الملك وإلى مملكته وعبيده. فعدوّ العمر، مرحاب الظالم ملك البثرون، قد توفّي.»

وعندما سمع الملك وعظام رجاله النبأ انتصبوا جميعًا وهلّلوا فرحًا، ذاك أنّ محراب الجبّار لو أطيل في عمره، كان من غير شكّ سيجتاح إيشانا ويحمل سكّانها إلى الأسر.

في هذه اللحظة دخل طبيب البلاط قاعة الثيران المجنّحة ومن ورائه القابلات الملكيّات. وسجد الطبيب قدّام الملك قائلًا، «إنّ سيّدي الملك سيحيا إلى الأبد وسيدوم ملكه على شعب إيشانا أجيالًا بلا عدّ. ذلك أنّه قد ولد لك الساعة صبيّ أيّها الملك، سيكون وليًّا للعهد.»

عندها طفح قلب الملك فعلًا بالسعادة. ففي وقت واحد مات عدوّه وترسّخت السلالة الملكيّة.

وحدث أن كان في مدينة إيشانا نبيّ صادق. وكان النبيّ فتيًّا ويتمتّع بروح جريئة. فأمر الملك في تلك الليلة أن يمثل النبيّ بين يديه.

وعندما جيء به خاطبه الملك قائلًا، «تنبّأ الآن وتكهّن بما سيكون عليه مستقبل ابني الذي ولد للمملكة هذا النهار».

ولم يتردّد النبيّ فقال، «اسمع أيّها الملك، فها إنّي سأقرأ فعلًا طالع ابنك الذي ولد هذا اليوم. إنّ روح عدوّك، روح عدوّك الملك محراب نفسه الذي مات مساء البارحة، لم تلبث غير نهار واحد في الهواء قبل أن عادت تبحث لها عن جسد تحلّ فيه. والجسد الذي دخلته كان جسد ابنك الذي ولد لك هذه الساعة».

عندها ثار غضب الملك فأخذ سيفه وقطع رأس النبيّ .

ومنذ ذلك اليوم حتّى الساعة وحكماء إيشانا يقولون واحدهم للآخر، «أما هو معروف، ولا هو متداول منذ القدم، أنّ إيشانا محكومة من عدوّ؟»

معرفة ونصف معرفة

جلس أربعة ضفادع على جذع عائم عند حافّة أحد الأنهار. وفجأة مسّ التيّار الجذع فنزل به بطيئًا مع المجرى. فسرّ الضّفادع بذلك وأُخذوا. ذلك أنّه لم يسبق لهم أن أبحروا.

وبعد صمت طويل، تكلّم الضفدع الأوّل فقال، «هذا فعلًا جذع في منتهى الرّوعة. إنّه يتحرّك كما لو أنّه حيّ. لا عهد بجذع كهذا من قبل على الإطلاق.»

ثمّ تكلّم الضفدع الثاني فقال، «كلّا يا صاحبي، إنّه جذع كسائر الجذوع. فهو لا يتحرّك. النهر الذي يسير إلى البحر هو الذي يحملنا معه كما يحمل الجذع.»

وتكلّم الضفدع الثالث فقال، «لا الجذع هو الذي يتحرّك ولا النهر. إنّما التحرّك قائم في فكرنا، إذ بدون الفكر لا شيء يتحرّك.»

وأخذ الضفادع الثلاثة يتشاحنون حول من هو المتحرّك حقًّا.

وازداد الخلاف حدّة وصخبًا من غير أن ينتهوا إلى اتّفاق.

عندها تحوّلوا نحو الضفدع الرابع، الذي كان حتّى الآن مصغيًا بانتباه من غير أن يفصح بشيء، فسألوه رأيه.

وقال الضفدع الرابع، كلّ واحد منكم مصيب وليس أيّ منكم على خطأ. فالتحرّك قائم في الجذع وفي الماء كما هو أيضًا في الفكر.»

فاستشاط الضفادع الثلاثة غيظًا، ذلك أنّ أحدًا منهم لم يكن مستعدًّا للإعتراف بأنّ الحقيقة لم تكن كلّها إلى جانبه وبأنّ الإثنين الآخرين لم يكونا بالكامل مخطئين.

عندها حدث الأمر الغريب. اجتمع الضفادع الثلاثة معًا ودفعوا بالضفدع الرابع من على الجذع إلى النهر.

«قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج...»

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج، «نقيّةً خُلِقتُ ونقيّةً سأبقى إلى الأبد. فأنا أوثر أن أُحرق وأتحوّل إلى رماد أبيض، على أن يمسّني حلكٌ أو أن يقربني ما ليس نظيفًا.»

وسمعت المحبرة ما كانت تقوله الورقة، فضحكت في سرّها المحتلك؛ إلّا أنّها لم تجرؤ قطّ على الدنوّ منها. وسمعتها أيضًا الأقلام المتعدّدة الألوان، ولم تدن هي الأخرى أبدًا منها.

وظلّت صحيفة الورق التي بمثل بياض الثلج، طاهرة مدى العمر ونقيّة – نقيّة وطاهرة – وفارغة.

البحّاثة والشاعر

قال الأُفعوان للقبّرة، «أنت تحلّقين. إلّا أنّك لا تستطيعين أن تزوري مطاوي الأرض فتبصري نسغ الحياة في صمته الأروع.»

وأجابت القبّرة، «أجل، أنت تعرف أكثر من الكثير، بل أنت أحكم من كلّ ذي حكمة – خسارة أنّك لا تستطيع الطيران.»

قال الأُفعوان وكأنّه لم يسمع، «أنت لا تستطيعين أن تبصري سرّ الأعماق ولا أن تجوبي كنوز المملكة الخبيئة. أمس لا أبعد كنت مستلقيًا في كهف من الياقوت. إنّه كقلب رمّانة ناضجة، يتحوّل مع أيّ شعاع من نور مهما كان ضعيفًا، إلى وردة من لهب. من لِغَيري أن يبصر مثل هذه الرائعات؟»

وقالت القبّرة، «لا أحد، لا أحد إلّاك قادر أن يستلقي بين الذكريات البلّورية لمدارات العصور. خسارة أنّك لا تستطيع الغناء.»

وقال الأُفعوان، «أعرف نبتة تمتدّ جذورها نزولًا حتّى أمعاء الأرض، وكلّ من يأكل من ذلك الجذر يغدو أكثر جمالًا من عشتار.»

وقالت القبّرة، «لا أحد، لا أحد إلّاك قادر أن يميط اللثام عن الأفكار السحريّة التي للأرض – خسارة أنّك لا تستطيع الطيران.»

وقال الأُفعوان، «ثمّة جدول أرجوانيّ يجري تحت أحد الجبال، والذي يشرب منه يغدو خالدًا تمامًا كالآلهة. ويقيني أنّ ما من طائر أو حيوان قادر أن يكتشف ذلك الجدول الأرجوانيّ.»

وأجابت القبّرة، «أنت لو شئت، لكان في مستطاعك أن تصبح خالدًا خلود الآلهة – خسارة أنّك لا تستطيع الغناء.»

وقال الأُفعوان، «أعرف معبدًا دفينًا أقوم بزيارته مرّة كلّ هلال، والذي بناه شعب آبد من العمالقة، وقد نُقشت على جدرانه جميع أسرار الزمان والمكان. والذي يستطيع فكّ رموزها سيفهم ذاك الذي هو أبعد من كلّ فهم.»

وقالت القبّرة، «لا شكّ أنّك لو شئت لتمكّنت بجسدك المطواع أن تحيق بكلّ علم يتعلّق بالزمان والمكان – خسارة أنّك لا تستطيع الطيران.»

عندها امتعض الأُفعوان وتمتم فيما هو يستدير ليدخل وجره، «مِغناء برأس فارغ».

وطارت القبّرة بعيدًا وهي تغنّي، «خسارة أنّك لا تستطيع الغناء خسارة، خسارة يا حكيمي، أنّك لا تستطيع الطيران».

قِيَم

إستخرج رجل مرّة من حقله تمثالًا في منتهى الجمال. فأخذه إلى غاوٍ كان يعشق جميع الأشياء الجميلة، وعرضه عليه للبيع. فاشتراه بثمن باهظ، ثمّ مضى كلٌّ في سبيله.

وأطرق الرجل وهو في طريقه بالمال إلى البيت، وقال في نفسه، «هذا المال، كم من مقادير حياة هي منطوية فيه! كيف لإنسان أن يُعطي كلّ هذا مقابل حجر مقتطع ميت، مدفون في التراب منذ ألف سنة؟»

وكان الغاوي في الوقت ذاته، ينظر إلى تمثاله متأمّلًا ويقول في نفسه، «أيّ جمال هو هذا! أيّ حياة! يا للروح التي حلمت به! – يُقبل هكذا نضيرًا من إغفاءة هانئة امتدّت به ألف عام. كيف لإنسان أن يبيع كلّ هذا لقاء مال ميت بلا أحلام؟»

بحار أُخرى

قالت سمكة لسمكة أخرى، «إنّ فوق بحرنا هذا بحرًا آخر بمخلوقات أخرى سابحة فيه – وهذه تعيش هناك تمامًا كما نعيش نحن هنا.»

وأجابت السمكة، «مجرّد تصوّرات! مجرّد تصوّرات! إذا كنتِ تعرفين أنّ كلّ من يغادر بحرنا ولو مقدار بوصة، ويبقى خارجه يموت، فأيّ برهان تملكين على وجود أحياء آخرين في بحار أخرى؟»

توبة

في ليلة غاب قمرها، دخل رجل حديقة جاره وسرق أكبر بطّيخة تمكّن أن يقع عليها وحملها إلى بيته.

وفتحها فوجد أنّها ما زالت فجّة.

وحدثت الأعجوبة!

إستفاق ضمير الرجل وانهال عليه بالتأنيب؛ لقد ندم على أنّه سرق البطّيخة.

الرّجل المحتضر والنسر

إصبر، ألا اصبر قليلًا يا صاحبي اللجوج،
قليلًا وأُسلم هذا الشيء الخراب
الذي طالت حشرجته العبثيّة المضنية،
فاستنفدت صبرك.
أنا لن أدع جوعك المحقّ
يبقى رهين هذه اللحظات:
لكنّ هذا الرباط، وإنْ من لهاث،
ليس سهلًا أن يُقطع.
وإنّ إرادة الموت،
التي هي أقوى من كلّ ما هو قويّ،
ما زالت تستمهلها إرادة الحياة
التي هي أضعف من كلّ شيء ضعيف.
ألا عفوك يا رفيقي، لقد أطلت عليك.
لكنّها الذّاكرة تشدّ بروحي؛
مواكب الأيّام الخوالي،
رؤيا شباب تقضّى في حلم،

وجهٌ يتوسّل جفنيّ ألّا يغمضا،
صوتٌ لا يريد أن يبرح أذنيّ،
يدٌ حانية على يدي.
إغفر لي أنّي أطلت عليك الانتظار.
ها قد أُكمل الآن، وغام كلّ شيء: —
الوجه والصوت واليد والضباب الذي
كان وراء مثولهنّ ههنا.
لقد انحلّت العقدة،
وانقطع الحبل.
وذاك الذي ليس طعامًا ولا شرابًا فيّ
قد تمّ انسحابه.
إقترب أيّها الرفيق الجائع،
فالمائدة قد أُعدّت، والطعام، على قلّته وفقره،
إنّما يبذل بمحبّة.
تعال وانشب منقارك هنا، إلى اليسار
وانتزع من القفص هذا العصفور الأصغر،
الذي لم يعد لجناحيه بعد الآن أن يصطفقا:
أريد له أن يحلّق وإيّاك عاليًا في الفضاء.
تعال، اقتربَ يا صديقي فأنا مضيفك الليلة،
وأنت ضيفي على الترحاب.

أبعد من وحدتي

ثمّة وحدة هي بعد أبعد من وحدتي. وإنّ توحّدي نسبة إلى المقيم في تلك الوحدة، سوق مكتظّة، وإنّ سكوني نسبة إليه جلبة أصوات مصطخبة.

لَكَم أنا غرّ بعدُ وطائش كي أطلب تلك الوحدة. فنداءات الوادي في الوراء ما زالت تدغدغ أذنيّ، وما زالت ظلاله تسدّ عليّ طريقي فلا أستطيع العبور.

إنّ وراء هذه التلال غابة مسحورة. وما سلامي نسبة إلى المقيم في تلك الغابة إلّا زوبعة، وما افتتاني نسبة إليه سوى انخداع.

لَكَم أنا غرّ بعد وعربيد، كي أطلب تلك الغابة المقدّسة. فطعم الدماء ما زال عالقًا في فمي وقوس آبائي وسهامهم لم ترمها بعد يدِي، فلا أستطيع العبور.

أبعد من هذه الذات المثقلة، تمكث ذاتي المجنّحة؛ وما أحلامي نسبة إليها سوى معركة تدور في عشيّة، وما أمانيّ سوى قرقعة لِعظام.

لَكَم أنا غرّ بعدُ ومغضب كي أكون ذاتي المجنّحة.

وكيف لي أن أصبح ذاتي المجنّحة ما لم أذبح ذواتي المثقلة، أو ما لم يصبح جميع الناس أحرارًا؟

كيف لأوراقي أن تطير مرنّمة في الريح، ما لم تنحلّ جذوري في العتمة؟

كيف للنسر فيّ أن يحلّق عاليًا أمام وجه الشمس، قبل أن يغادر فراخي العشّ الذي بنيته أنا نفسي لهم بمنقاري؟

الحراسة الأخيرة

في عزّ الليل، آن أقبلت أنفاس الفجر الأولى محمولة على الريح، ترك السابق حجرة نومه، هو الذي يعتبر نفسه صدى لصوت ما عرفته أذن بعد، وصعد إلى سطح بيته. طويلًا وقف هناك وطويلًا جال بنظره على المدينة الهاجعة دونه، ثمّ رفع رأسه وكأنّ الأرواح اليقظى أبدًا لجميع النائمين قد تجمّعت حوله، وفتح شفتيه وتكلّم قائلًا:

«يا إخوتي ويا جيراني وأنتم يا من تمرّون كلّ يوم أمام بابي، أريد أن أكلِّمكم في منامكم وأن أجوز وادي أحلامكم عاريًا وبلا معيق؛ ذلك أنّكم في ساعات يقظتكم أشدّ غفلة بما لا يقاس، وفي آذانكم المثقلة بالأصوات أشدّ صممًا.

«لطالما أحببتكم، وبلا مقاس كانت محبّتي.

«أُحبّ الواحد فيكم وكأنّه جميعكم، وأحبُّكم جميعًا وكأنّكم واحد. ففي ربيع قلبي كنت المغنّي في حدائقكم وفي صيف قلبي كنت الساهر على بيادركم.

«بَلى، أحببتكم جميعكم، القزم فيكم والعملاق، الأبرص كما الممسوح بالزيت، والمتلمّس دربه في العتمة تمامًا كالذي يرقص العمر على الجبال.

«أحببتك أنت القويّ، على الرغم من أنّ حوافرك التي من حديد ما زالت تدقّ عروقي؛ وأنت الضعيف على الرغم من أنّك أنضبت إيماني وضاع فيك اصطباري.

«أحببتك أنت الغنيّ، في حين أنّ عسَلَك كان مرًّا في فمي، وأنت الفقير على الرغم من أنّك كنت مدركًا خجلي ذا اليدين الفارغتين.

«وأنت أيّها الشاعر، بعودك المحدّب وأصابعك العمياء، أنت على امتداد عاطفتي حببتك. وحببتك أنت أيّها الباحث المنقّب المكبّ أبدًا في «حقول خزّافين»[1] على جمع أكفان تأكّلها البِلَى.

«أحببتك أنت الكاهن الذي يقيم في سكون الأمس مشكّكًا في مقدّرات غدي؛ وأحببتكم أنتم المتعبّدين لآلهة هم المجسّدات لِما فيكم أنتم من الرغائب.

«أنتِ أيّتها المرأة العطشى وكأسها أبدًا مترعة، بتفهُّم أحببتك، وأنت يا امرأة الليالي المؤرّقة، أنت أيضًا أحببتك بإشفاق.

«أحببتك أنت أيّها المهذار قائلًا، «عند الحياة كثير تقوله»؛ وأحببتك أنت أيّها العييّ، هامسًا نفسي إلى نفسي، «أليس أنّه قائل في سكوت ما كنت أرغب لو سمعته في كلام؟»

«وأنت القاضي والناقد، أنتَ أيضًا أحببتك؛ مع أنّك قلت وأنت تراني مصلوبًا، «إنّه ينزف بانتظام، والشكل الذي تتركه دماؤه على جلده الأبيض، بهجة للنظر.»

«بلى، إنّي أحببتكم جميعًا، الصغار والكبار، القصبة المرتجفة والسنديانة العتيّة.

---

[1] «حقل الخزّاف» الوارد ذكره في إنجيل متّى 7:27، إسم يُطلق على حقل ابتيع بالمال الذي أغري به يهوذا مقابل تسليمه المسيح، ليكون مدفنًا للفقراء والغرباء (المترجم).

«لكنّ ما يبعث على الأسى أنّ فيضان قلبي هو الذي جعلكم تميلون عنّي. ذلك أنّكم تؤثرون أن تشربوا المحبّة من كأس على أن تعبّوا من نهر متدفّق. ترضون أن تسمعوا الحبّ هامسًا، ولكنّكم إذا رفع الحبّ صوته، عمدتم إلى آذانكم فأقفلتموها.

«ولأنّي أحببتكم جميعًا ذهبتم إلى القول، «إنّ قلبه شديد الرقّة واهٍ، وإنّ دربه بالغ الغموض. فحبّه حبّ محتاج يلتقط الفتات حتّى ولو كان جالسًا إلى المآدب الملوكيّة. إنّه حبّ إنسان ضعيف، ذلك أنّ القويّ لا يحبّ إلّا الأقوياء.»

«ولأنّني أحببتكم بإفراط، ذهبتم إلى القول،«إنّه حبّ صادر عن أعمى لا يعرف جمال واحد من قباحة آخر. وهو حبّ من فقد ذوقه فإذا به يشرب الخلّ وكأنّه النبيّذ. بل إنّه حبّ المتطفّل والمدّعي، إذ أيّ غريب يمكن له أن يكون أمّنا وأبانا وأختنا وأخانا؟»

«هذا ما قلتموه وأكثر. فلطالما دللتم في السوق بأصابعكم عليّ وقلتم هازئين، «هاكم الذي لا عمر له، ولا تسري عليه الفصول. في الظهيرة يلعب الألعاب مع أطفالنا، وعند المساء يجلس مع شيوخنا ويصطنع الفهم والحكمة.»

«وقلت في نفسي، «سأحبّهم زيادة. أجل، لسوف أحبّهم أكثر. سأستر حبّي بظاهر من يبدو كأنّه يكره، وسأموّه حناني بحلّة من مرارة. سألبس قناعًا من الحديد فلا آتيهم إلّا ممنطقًا ومدرّعًا.»

«عندها أنزلت يدي ثقيلة على جراحاتكم وزمجرت في آذانكم كعاصفة في الظلام.

«أعلنتكم من على السطح منافقين وفرّيسيّين ومحتالين وفقاقيع طين خدّاعة فارغة.

«قصيرو النظر بينكم أنزلت بهم لعنة الخفافيش العمي. والأقرب من التراب فيكم شبّهتهم بالخلدان التي بلا نفوس.

«أعلنت البلغاء بينكم، أصحاب الألسنة المغصَّنة، والساكتون ذوو الشفاه الحجرية والبسطاء العاديّون، دعوتهم الموتى الذين قطّ لا يملّون الموت.

«الساعون وراء حكمة هذا العالم أدنتهم بالتجديف على الروح القدس، ووسمت الذين لا يرضون غير الروح، بصيّادي ظلال، يلقون بشباكهم في المياه الراكدة فلا يلتقطون سوى صورهم.

«وهكذا أنكرتكم بشفتيّ، في حين أنّ قلبي وهو ينزف في داخلي كان يطلق عليكم رقيق التسميات.

«كانت محبّة تجلِدُ نفسها بنفسها، تلك التي تكلّمت. وكان اعتزازًا مذبوحًا فيّ نصف ذبحة ذاك الذي كان يتخبّط على التراب. كان جوعي إلى محبّتكم هو الذي احتدم غيظًا على السطح، في حين كانت محبّتي وهي راكعة في سكون، تتوسّل إليكم الغفران.

«وحدّثت معجزة!

«فالذي فتح أعينكم لم يكن غير تنكّري، والذي أيقظ قلوبكم لم يكن غير تمظهري بالكراهية.

«فأنتم الآن تحبّونني.

«أنّكم تحبّون السيوف التي تضربكم والنبال التي تتوسّل صدوركم. ذلك أنّ عزاءكم هو في أن تجرَّحوا، وإذ تشربون من دمائكم، عندها فقط تنتشون.

«كالفراش الذي يسعى إلى الهلاك في اللهب، هكذا أنتم تتجمّعون كلّ يوم في حديقتي: وبوجوه مرفوعة وعيون مأخوذة تتفرّجون عليّ وأنا ممعن بنسيج أيّامكم تمزيقًا. ويقول واحدكم للآخر هامسًا، «إنّه يرى

بنور الله، وكالأنبياء الماضين يتكلّم. يزيح الحجب عن أرواحنا ويفتح مغالق قلوبنا، وكالنسر الذي يعرف طرق الثعالب، هو يعرف طرقنا.»

«بلى، أنا حقًّا عارف بطرقكم. إلّا أنّها فقط معرفة النّسر بالطرق التي لفراخه. وإنّه ليطيب لي أن أفضح سرّي. فأنا بحكم حاجتي إلى دنوّكم، أصطنع الابتعاد، وفي خوفي من جَزْر محبّتكم أصون مغالق السُّدود أمام فيض محبّتي.»

وبعد أن فاه بهذه الأمور غطّى السابق وجهه بيديه وبكى بمرارة. فقد كان يعرف في قرارة نفسه أنّ المحبّة الذليلة في عريها هي أعظم من محبّة تنشد الفوز عن طريق التستّر؛ وكان يحسّ في نفسه خجلًا.

إلّا أنّه فجأة رفع رأسه وتمطّى بذراعيه وكأنّه ينهض من النوم وقال، «لقد تصرّم الليل، وعلينا نحن أبناء الليل أن نموت عندما يُقبل الفجر راقصًا على التلال؛ وإنّ حبًّا أعظم سيُبعث من رمادنا، وسيضحك هذا الحبّ في وجه الشمس، ولن يطاله موت أبدًا».

النبيّ

The Prophet, 1923

لبث المصطفى، المختار الحبيب الذي كان فجرًا لذاته، اثنتي عشرة سنة في مدينة أورفليس، ينتظر قدوم سفينته التي ستعود به إلى جزيرة مولده.

وفي السنة الثانية عشرة، وفي اليوم السّابع من أيلول الذي هو شهر الحصاد، تسلّق التلّة خارج أسوار المدينة وتطلّع صوب البحر؛ فأبصر سفينته مقبلة في الضباب، فانفتحت لها مغالق قلبه وطار إليها فرحه بعيدًا فوق الماء، فأطبق عينيه وصلّى عميقًا في مكنونات روحه.

إلّا أنّ كآبة تملّكته وهو ينزل عن التلّة، فتفكّر في قلبه قائلًا:

كيف لي أن أُغادر بسلام ومن غير كآبة؟ لا، ليس من غير جرح في الروح سيكون ذهابي عن هذه المدينة.

طويلة كانت أيّام الألم التي أمضيتها داخل أسوارها، وطويلة كانت ليالي التوحّد؛ ومن ذا يستطيع أن يغادر آلامه وتوحّده من غير الْتِياع؟

لكم نثرتُ نتفًا من روحي في هذه الشوارع، ولكم هم مواليد أشواقي الذين يخطرون عراة بين هذه التلال فلا أستطيع أن أُغادرهم من غير همّ ووجع.

ليس مجرّد ثوب هو هذا الذي أخلعه اليوم، بل هو الجلد جلدي، أمزّقه أنا نفسي بيديّ.

ولا هو مجرّد فكر أتركه ورائي، بل هو قلب براه الجوع والعطش فاستحال مرّه حلاوة.

غير أنّي لا أستطيع البقاء.

فالبحر الذي يدعو جميع الكائنات إليه، هو الآن يدعوني، فلا بدّ لي أن أُلبّي النّداء.

ذلك أنّ بقائي، رغم كرّ الساعات التي تحترق في العتمة، يعني أن أتجمّد وأُقولَب وأستحيل كومة مرصوصة من ركام.

كم بودّي لو آخذ معي كلّ هذا الذي هنا، ولكن أنّى لي ذلك؟

فالصوت لا يستطيع أن يحمل معه اللسان والشفتين التي منها جناحاه، بل عليه وحيدًا أن يطلب الأثير.

وعلى النّسر، وحيدًا ومن دون عشّه، أن يحلّق أمام وجه الشمس.

وعندما بلغ أسفل التلّة، استدار ثانية صوب البحر فرأى سفينته وهي تقترب من الميناء وعلى مقدّمها البحّارة، هؤلاء الذين من أرض أجداده.

فندهت روحه إليهم، وقال،

يا أبناء أمّي القديمة، أنتم يا من تمتطون الأمواج،

كم وكم أبحرتم في أحلامي، وها أنتم الآن في يقظتي التي هي حلمي الأعمق.

مستعدّ أنا للذهاب. وها لهفتي مرفوعة الأشرعة في انتظار الريح.

فقط نَفَس آخر أتنفّسه في هذا الهواء الهادئ، فقط التفاتة حنوّ واحدة أخرى ألتفتُها إلى الوراء،

ثمّ أنضمّ إليكم بحّارًا بين بحّارين.
وأنتَ أيّها البحر الرحيب، والأمّ التي لا تنام،
أنتَ وحدك يا واهب السلام والحرّيّة للنهر والجدول،
فقط انعطافة أخرى سينعطفها بَعدُ هذا الجدول،
فقط كركرة بعدُ أخرى له في هذا المدى،
ثمّ أنضمّ إليك قطرة بلا حدّ إلى محيط بلا حدود.

وفيما هو يسير رأى من بعيد رجالًا ونساء يتركون حقولهم وكرومهم ويسرعون نحو أبواب المدينة.

وسمع أصواتهم تنادي باسمه وتنده من حقل إلى حقل، تعلن مجيء سفينته.

فقال في نفسه:

أيكون يوم الفراق يوم تلاق؟

وهل سيقال إنّ مسائي كان في واقع الأمر فجري؟

وماذا عساي أُقدّم للذي غادر محراثه في قلب الثلم، أو للذي أوقف في المعصرة دولابه؟

هل لقلبي أن يغدو شجرة مثقلة بثمارها، فأجمع منها وأُعطيهم؟

وهل لأُمنياتي أن تغدو ينبوعًا يفيض بما أملأ به كؤوسهم؟

هل أنا قيثار كي تمسّ أوتاري يدُ الرحمن، أم أنا مزمار كي تنفخ فيّ أنفاسه؟

طالب سكينة أنا، فما ترى الكنز الذي وقعتُ عليه في تأمّلاتي كيما أجود منه وأنا مطمئنّ.

إن يكن هذا يوم حصاد بالنسبة إليّ، فبأيّ حقول وفي أيّ فصول منسيّة ترى القيت بذاري؟

وإن تكن هذه حقًّا الساعة التي فيها أرفع مصباحي، فلن أكون أنا صاحب اللّهب الذي سيشتعل فيه.

فارغًا ومعتمًا سيكون المصباح الذي أرفعه،

وإنّ ربّ الليل، هو الذي سيملأه زيتًا وأيضًا سيضيؤه.

هذه الأمور قالها كلامًا إلّا أنّ الكثير في قلبه ظلّ من غير كلام. ذلك لأنّه هو نفسه لم يكن في استطاعته أن يتحوّل بالأعمق في مكنونات قلبه إلى كلمات.

وعندما دخل المدينة. أقبل الناس جميعًا لملاقاته وهم يصرخون إليه وكأنْ بصوت واحد.

وتقدّم منه شيوخ المدينة قائلين:

إبق بعد معنا ولا تغادرنا.

لقد كنت في شفقنا ظهرًا وكان أن أعطانا شبابك أحلامًا لنحلم.

لست غريبًا بيننا ولا ضيفًا، بل أنت ابننا الأثير الذي نحبّ.

لا تدع عيوننا تجوع إلى وجهك.

وتوجّه الكهّان والكاهنات إليه قائلين:

لا تدع لموج البحر أن يباعد اليوم بيننا، وأن تتحوّل السنون التي أمضيتها معنا إلى ذكرى.

كنت روحًا يمشي في وسطنا، وكان طيفك نورًا على وجوهنا.

لشدّ ما أحببناك، إلّا أنّ حبّنا كان من غير كلام، كما كان مغلّفًا بالأقنعة.

لكنّه الآن ينده عاليًا إليك، ويودّ أن يمثل قدامك سافرًا من غير قناع.

أليس أنّ الحبّ منذ كان الحبّ، لا يعرف مدى عمقه إلّا ساعة الفراق؟

* * *

وأتى آخرون يتوسّلون إليه أن يبقى، إلّا أنّه لم يبد جوابًا، بل أحنى فقط رأسه؛ وكان أنّ الواقفين قريبًا، رأوا دمعًا ينهلّ على صدره.

ثمّ تقدّم هو والجمع إلى الساحة الكبرى أمام المعبد.

وهناك خرجت من الهيكل امرأة تدعى ألميترا. وكانت عرّافة.

وتطلّع إليها بمنتهى الحنوّ. ذلك لأنّها أوّل من سعى إليه وآمن به يوم لم يكن قد مضى عليه سوى يوم واحد في مدينتهم.

فحيّته قائلة:

يا نبيّ اللّه، أيّها الساعي إلى الذي ما بَعدَه بَعدْ، طويلًا وأنت تترصّد الآفاق انتظارًا لسفينتك.

والآن، ها سفينتك قد أقبلت وأصبح لزامًا عليك أن تذهب.

عميق هو شوقك إلى أرض تذكاراتك وموطن الأبعد من أمانيك؛ وإنّه ليس لحبّنا أن يقيّدك ولحاجاتنا أن تثنيك.

لكنّ لنا عليك قبل أن تغادرنا هذا المطلب، وهو أن تتكلّم إلينا وتعطينا شيئًا من مخزون ما انكشف عليك.

فنعطيه نحن لأولادنا، وهم لأولادهم، وهكذا فلا يطاله فناء.

كنت في توحّدك ترصد أيّامنا، وفي يقظتك تصغي إلى نومنا ونحن نضحك أو نتفجّع.

فهات الآن إذن واكشف أنفسنا لأنفسنا وأخبرنا بكلّ ما أُعطيت أن تراه ما بين الولادة والموت.

وأجاب قائلًا،

يا أهل أورفليس، وعمّاذا باستطاعتي أن أتكلّم سوى عن هذا الذي يعتمل، حتّى في هذه اللحظة، داخل نفوسكم؟

عندها قالت ألميترا، حدّثنا عن الحبّ.

رفع رأسه وتطلّع إلى الجمع، فران عليهم السكوت، وقال بصوت عظيم:

عندما يومئ الحبّ إليكم فاتبعوه،

رغم أنّ طرقه وعرة وممتنعة،

وعندما يضمّكم بجناحيه استجيبوا للجناحين،

حتّى لو كان للنصل المخبوء بين قوادمهما أن يجرّحكم،

وعندما يتكلّم إليكم، ثقوا بما يقول،

حتّى ولو كان في صوته ما يمكن أن يعبث بأحلامكم كما تعبث ريح الشمال بأزاهير الحديقة.

فمثلما يتوجّكم الحبّ، هكذا أيضًا يرفعكم على الصّليب. ومثلما هو لنمائكم، كذلك هو لتقليمكم أيضًا.

وهو كما يتسلّق أعاليكم ليداعب الأندى من أغصانكم المرتعشة تحت الشمس،

كذلك سيهبط إلى جذوركم ويرجّها في تشبُّثها بالتراب.

* * *

كأغمار الحنطة المثقلة بالسنابل، سيجمعكم إليه،
فيدرسكم حتّى يعرّيكم.
ويذرّيكم إلى أن يحرّركم من أحساككم.
ثمَّ يطحنكم فتبيضّون
ويعجنكم فتلينون
ثمَّ يكلكم إلى ناره المقدّسة كيما تصبحوا خبزًا مقدّسًا للوليمة الإلهيَّة القدّوس.

كلّ هذا سيفعله الحبّ فيكم كي تتعرّفوا إلى أسرار قلوبكم وتتأهّلوا بفضل تلك المعرفة لأن تصبحوا فلذة من قلب الحياة.

أمّا إذا أفضى بكم خوفكم إلى أن تقتصروا في حبّكم على ما يمدّكم به الحبّ من هناءة ولذّة،

فأحرى بكم أن تستروا عريكم وتنسحبوا من بيدر الحبّ، إلى عالم اللامواسم، حيث ستضحكون ولكن ليس ضحكتكم كلّها، وتبكون ولكن ليس بكلّ ما فيكم من دموع.

* * *

الحبّ لا يجود إلّا بذاته، ولا يأخذ إلّا من ذاته.
الحبّ لا يملك شيئًا وقطّ لا يرضي أن يمتلك.
ذلك أنّ ما من حاجة للحبّ غير الحبّ.

لا تقل، في حال أحببت، «اللّه في قلبي» بل الأحرى، «أنا في قلب اللّه».

ولا يخطرنّ لك أنّ في استطاعتك التحكّم بمسار الحبّ، ذلك أنّ الحبّ، إن رآك أهلًا، تولّى هو نفسه مسارك.

ليس للحبّ من مشتهى سوى تحقيق ذاته.

أما إذا أنت أحببت ورأيت أن لا بدّ لك من مشتهيات، فلتكن هذه مشتهياتك؛

أن تذوب وتكون كالجدول الجاري الذي يودعُ الليلَ أغنيتَه.

أن تذوق ذلك الوجع الذي يلازم الحنان عندما يكون فيك شديدا.

أن تكون جريح الحبّ كما بنيت أنت صورته في ذاتك.

وأن تدمى هكذا بفرح، وبملء إرادتك.

أن تستفيق فجرًا بقلب مجنّح فتقدّم الشكران ليوم آخر من الحبّ.

أن تستريح ساعة الظهيرة، وتتفكّر في نشوة الحبّ.

أن تعود إلى بيتك في المساء شاكرًا؛

وأن تنام بعد ذلك وفي قلبك صلاة من أجل المحبوب، وعلى شفتيك أغنية تسبيح مرفوعة إليه.

وتكلّمت ألميترا ثانية فقالت، ماذا عن الزواج يا معلّم؟

فأجاب قائلًا:

ولدتما معًا، ومعًا ستبقيان إلى منتهى الدهر.

معًا ستكونان عندما تبعثر أيّامكما أجنحة الموت البيضاء.

أجل! معًا ستكونان حتّى في ذاكرة اللّه الصامتة.

لكن خلّيا للمعيّة بينكما أن تبقي على تفاريج،

فتدخل منها أرياح السماوات بينكما وترقص.

أحبّا واحدكما الآخر، لكن لا تجعلا من حبّكما قيدًا

بل اجعلا منه بين شطآن روحيكما بحرًا متواصل الأمواج.

وليملأ الواحد منكما كأس رفيقه، ولكن لا تشربا كليكما من كاس واحدة.

وليعطِ واحدكما الآخر من خبزه، ولكن حذار أن تأكلا كليكما من الرغيف الواحد.

غنّيا وارقصا معًا وكونا فرحين، ولكن أتركا لكلّ منكما أن يكون وحده.

فأوتار القيثار مستقلّ واحدها عن الآخر، إلّا أنّها معًا تهتزّ للنغم الواحد.

أعطيا كلٌّ قلبه للآخر، ولكن من غير أن يكلَه إليه.

ذلك أنّ يد الحياة وحدها هي التي تتعهّد القلوب.

قفا معًا ولكن من غير أن يلتصق الواحد منكما بالآخر.

فأعمدة الهيكل إنّما تقف متباعدة،

كما أنّ السنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما في ظلّ الأخرى.

وقالت امرأة تضمّ إلى صدرها رضيعًا، حدّثنا عن الأولاد، فأجاب:

أولادكم ليسوا أولادكم

إنّهم أبناء الحياة وبناتها في حنينها إلى ذاتها.

هم يأتون من خلالكم وليس منكم.

ومع أنّهم يحيون معكم، فإنّهم لا يخصّونكم.

لكم أن تعطوهم محبّتكم، وليس أفكاركم.

ذلك لأنّ عندهم هم أفكارهم.

ولكم أن تُسكِنوا أبدانهم ولكن ليس نفوسهم،

ذلك لأنّ نفوسهم تقيم في بيوت الغد التي لا يمكن لكم زيارتها حتّى ولو في الأحلام.

لكم أن تجهدوا كي تكونوا مثلهم، ولكن حذار أن تسعوا إلى جعلهم مثلكم.

ذلك أنّ الحياة لا تسير القهقرى، ولا تتوقّف مسايرةً للبارحة.

أنتم القوس التي منها سينطلق أبناؤكم أسهمًا حيّة إلى الآتي.

باري القوس الأعظم يرى العلامة على مسار اللانهاية، فيحنيكم بما فيه من عزم كيما تنزلق سهامه عنكم سريعة وبعيدة،

فاجعلوا تقوّسكم فرِحًا في يد الرّامي فهو، كما يحبّ السهم الطائر، كذلك يحبّ القوس المثبتة في قبضته.

عندها قال رجل ثريّ، حدّثنا عن العطاء، فأجاب:

مهما أعطيتم ممّا تملكونه يبقى قليلًا.

أنتم تعطون عن حقّ، فقط عندما تعطون من أنفسكم.

وهل ما تملكون سوى أشياء تحفظونها وتصونونها مخافة أنّكم قد تحتاجونها في اليوم الآتي؟

اليوم الآتي! وماذا لليوم الآتي أن يأتي به إلى كلب فائق التدبير، يدفعه تدبيره إلى أن يطمّ عظامًا في الرمال المقفرة وهو يتبع الحجّاج في طريقهم إلى المدينة المقدّسة؟

وهل الخوف من حاجة تأتي سوى الحاجة نفسها؟

وهل خوفك من عطش يأتي وبئرك ملآنة، سوى العطش إيّاه الذي لا يمكن إطفاؤه؟

هناك الذين يعطون قليلًا من كثير يملكون – ويعطونه طلبًا للظهور، فهؤلاء يُفسد مطلبُهم عطاءَهم.

وهناك الذين يملكون قليلًا ويعطونه بأكمله.

هؤلاء هم المؤمنون بالحياة وكرم الحياة، وخزائنهم لن تعرف الفراغ.

وهناك الذين يعطون بفرح، ففرحهم ثوابهم،

وهناك الذين يعطون بألم، فألمهم معموديّتهم،

وهناك الذين يعطون من غير أن يحسّوا بألم العطاء، فلا هم يطمعون بفرح يأتي ولا هم يطمحون إلى فضيلة تتحقّق؛

فشأن هؤلاء شأن ريحانة الوادي البعيد التي تشيع عطرها هكذا في الفضاء.

من خلال أكفّ هؤلاء وأمثالهم يتكلّم اللّه، ومن وراء مثل عيونهم يطلّ اللّه على الأرض ويتبسّم.

جميل أن تعطوا عندما تُسألون، لكنّ الأجدى أن تعطوا بدافع من أنفسكم من غير أن تُسألوا؛

أمّا صاحب اليد المفتوحة، فيجد في البحث عن متلقٍّ، فرحًا أشدّ من فرح العطاء.

وهل من شيء إطلاقًا جدير بأن تضنّوا به؟

أليس إنّ يومًا سيأتي يؤخذ فيه كلّ ما تملكون؛

فاعطوا الآن إذن، كي يكون موسم العطاء لكم لا لوارثيكم.

غالبًا ما تقولون، «بودّنا أن نعطي، ولكن للمستحقّين».

لكن الأشجار في بساتينكم لا تقول ذلك، ولا القطعان في مراعيكم.

فهي تعطي في سبيل أن تحيا. ذلك أنّ في الإمساك هلاكها.

إنّ من وُجد أهلًا لأنْ يُعطي أيّامَه ولياليه، لجدير بأن تعطوه أنتم أيّ شيء سوى ذلك.

وإنّ الذي استحقّ أن يشرب من محيط الحياة، لجدير بأن يملأ كاسه من جدولكم الشحيح.

وهل من مثوبة عطاء للمعطين، أعظم من الشجاعة والثقة، لا بل من الإحسان نفسه، الذي ينطوي عليه أخذُ الآخذين؟

ومن تراك أنت، كي يمزّق الناس أمامك صدورهم ويذلّون كبرياءهم، فترى ضعفهم عريانًا وسترهم مهتوكًا؟

إحرص أوّلًا أن تكون أنت نفسك مستحقًّا أن تكون مُعطيًا وأداة عطاء، ذلك أنّ الحياة في الحقيقة، هي المعطية – في حين أنّك أنت الذي تحسب نفسك معطيًا، لست سوى مجرّد شاهد.

وأنت أيّها المُحسَن إليه – والناس جميعًا هم من المُحسَن إليهم –، لا تحمّل نفسك عبء الشعور بالإمتنان، وذلك تحاشيًا لنير تضعه على عنقك وعنق المُحسِن إليك.

فالأحرى بك أن تتّخذ من عطايا المُحسِن أجنحة ترفعك وإيّاه إلى فوق؛

ذلك أنّك إن بالغت في التفكّر بما عليك للمحسن، كنت كالمشكّك في كرمه، هو الذي أمّه الأرض المعطاء وربّ السماء أبوه.

عندها قال أحدهم، وهو صاحب فندق شيخ، حدّثنا عن المأكل والمشرب.

فقال،

حبّذا لو كان لكم أن تعيشوا على عبير الأرض وحده، وكنبتة في الهواء، أن تحيوا بالنور.

ولكن بما أنّ عليكم أن تقتلوا لتأكلوا، وأن تسلبوا الرضيع حليب أمّه كي تطفئوا عطشكم، فلتجعلوا من ذلك فعل صلاة.

متّخذين من مائدتكم مذبحًا، وممّا تقدّمونه عليها من أطيار غاباتكم وسهولكم وأبريائها، أُضحيات في سبيل الأطهر والأكثر براءة في الإنسان.

عندما تذبحون بهيمة، قولوا لها في قلبكم،

بالسلطة نفسها التي بها تُذبحين، أنا أيضًا سأُذبح وأنا أيضًا سأُؤْكل.

ذلك أنّ السلطة التي وضعتك بين يديّ، ستسلّمني أنا أيضًا إلى يد أُخرى أشدّ.

وإنّ دمَكِ ودمي ليسا سوى النّسغ الذي به تغتذي شجرة السماء.

* * *

وعندما تعضّون على تفّاحة بأسنانكم قولوا لها في سرّكم،

«إنّ بذورك ستحيا في جسدي،

وإنّ براعم غدك ستزهر في قلبي،

وإنّ عبيرك سيكون النَفَس الذي به أتنفّس،

وإنّا معًا سنبقى متهلّلين على امتداد الفصول.»

وفي الخريف عندما تجمعون عناقيد كرومكم إلى المعصرة، قولوا في قلوبكم، «كرم أنا أيضًا، وأعنابي ستُجمع هي الأخرى إلى المعصرة، وكالخمرة الجديدة سأُحفظ في أوان أبديّة.»

وفي الشتاء عندما تُخرجون الخمرة، غنّوا لكلّ كأس في قلوبكم أغنية؛

وليكن في الأغنية استذكار لأيام الخريف وللكرم وللمعصرة.

وتكلّم من بعدُ حارث فقال، حدّثنا عن العمل.

فأجاب قائلًا:

أنتم تعملون، كيما تظلّوا مواكبين للأرض وروح الأرض.

ألّا تعملوا يعني أن تصبحوا في غربة عن الفصول، وفي عزلة عن موكب الحياة الذي يسير بجلال وانضباط اعتزاز نحو اللانهاية.

أنتم إذ تعملون، لستم سوى القيثارة التي يستحيل همس الساعات العابرة في قلبها ألحانًا.

ومن ذا يؤثر أن يكون قصبة خرساء، في حين أنّ جميع الآخرين سواه، معًا وفي تناغم يرنّمون؟

لَكَم قيل لكم إنّ العمل لعنة وإنّ الكدح مصيبة.

أمّا أنا فأقول لكم، إنّكم إذ تعملون إنّما تحقّقون جانبًا من حلم الأرض الأبعد، الذي أُوكل إليكم منذ أن حلمته الأرض.

وأنتم إذ تلازمون العمل إنّما تعبّرون في الحقيقة عن حبّكم للحياة.

وإنّكم في حبّكم للحياة من خلال العمل، إنّما تعانقون الحياة في سرّها الأعمق.

أمّا إذا حدث أن دَفَعَكم ألم الكدّ إلى أن تحسبوا مجيئكم إلى الحياة رزيّة، وأنّ قيامكم بأود الجسم لعنة كتبت على جباهكم، فجوابي أن ليس كعرق جباهكم ما من شأنه أن يمحو ما كتب على الجبين.

لقد قيل لكم أيضًا إنّ الحياة ظلمة، وإنّكم في عيائكم تردّدون ما يقوله المتعبون،

أمّا أنا فأقول إنّ الحياة، إذا انعدم الدافع، هي حقًّا ظلمة،

وإنّ الدافع يظلّ أعمى، ما لم تتولّاه المعرفة،

وإنّ المعارف تبقى جميعًا باطلة، ما لم تقترن بالعمل،

وإنّكم إذ تعملون بمحبّة إنّما ينشدّ الواحد منكم، ذاته إلى ذاته وإلى الآخرين، كما ينشدّ الجميع محبّة إلى اللّه.

* * *

وماذا يعني أن تعملوا بمحبّة؟

إنّه أن تحيكوا الثوب بخيوط تسلّونها من قلوبكم، كما لو أنّ الحبيب هو الذي سيلبس ذلك الثوب.

إنّه أن تبنوا البيت بعطف، كما لو أنّ الحبيب هو الذي سيسكنه.

إنّه أن تبذروا بذاركم بحنان وأن تحصدوا زروعكم بفرح، كما لو كان الحبيب هو الذي سيأكل الغلّة.

إنّه أن تشحنوا جميع ما تصنعه أيديكم بروح من روحكم وأن تدركوا أنّ جميع المغبوطين من الموتى، واقفون من حولكم يرصدون.

كثيرًا ما سمعتكم تقولون، وكأنّكم تتكلّمون في المنام، «إنّ من يعمل في الرّخام، ويرى في الحجر مَعلَمًا من نفسه، هو أكثر نبلًا من ذاك الذي يفلح التراب.

وإنّ الذي يقتنص قوس القزح ويلقي به على قطعة من قماش على صورة إنسان، هو أرفع من ذاك الذي يصنع صندلًا لأرجلنا».

أمّا أنا فأقول، لا في المنام بل في عزّ يقظة الظهيرة، إنّ الريح لا تكلّم السنديان العاتي بأرقّ مما تخاطب أدنى وريقات الحشائش.

العظيم الأوحد حقًّا، هو الذي يتحوّل بعصف الريح إلى أغنية تنضح بما يمدّها به هو نفسه من محبّة.

العمل محبّة أُعطيت مثولًا.

أمّا إذا تعذّر عليك أن تعمل لا بمحبّة بل بتقزّز، فالأجدى بك أن تطلّق عملك وتجلس عند باب الهيكل مستجديًا حسنات أولئك الذين يعملون بحبور.

ذلك أنّك إذا خبزت خبزك من دون اكتراث، جاء خبزك مرًّا لا يشبع من جوع الناس إلّا نصفه.

وإذا كنت تتأفّف من عصر العنب، تسبّب تأفّفك بتسرّب سم إلى خمرتك.

وإن أنت غنّيت، وإن غناء الملائكة، وليس فيك حبّ الغناء، جاء غناؤك لفاعًا لآذان السامعين فحال بينها وبين أصوات اللّيل وأصوات النهار.

وتكلّمت من بعد امرأة فقالت، حدّثنا عن الحزن والفرح.

فأجاب قائلًا:

إنّ فرحكم هو حزنكم وقد خلع قناعه.

والبئر التي منها ينطلق ضحككم هي هي عينها التي غالبًا ما ملأتها دموعكم.

إذ كيف يمكن أن تكون غير ذلك؟

فكلّما أمعن الألم حفرًا في أعماقكم، زدتم سعة لاحتواء الفرح.

أليس أنّ الكاس التي تحمل خمركم، هي عينها الكاس التي انشوت في موقد الخزّاف؟

أليس أنّ الشبّابة التي تفرّج عن أنفاسكم هي الخشبة إيّاها التي جوّفتها السكاكين؟

عندما تعتريكم النشوة، أنظروا عميقًا في قلوبكم، فإذا الذي أثار فيكم الحزن هو إيّاه الذي أعطاكم السّرور.

وعندما تكونون حزانى، أعيدوا النظر في قلوبكم، فإذا الذي تبكونه هو في الحقيقة ذاك الذي كنتم به تفرحون.

* * *

يقول بعضكم، «الفرح أعظم من الحزن»، ويقول آخرون، «لا بل الحزن هو الأعظم».

لكنّي أقول لكم إنّ ما من فصل بينهما.

معًا يأتيان، وعندما يجلس أحدهما وحده معكم إلى المائدة، تذكّروا أنّ الآخر نائم بانتظاركم في السرير.

أنتم في الحقيقة معلّقون ككفّتي ميزان ما بين حزنكم وفرحكم.

فقط عندما تكونون فارغين تتساوى الكفّتان وتتوازيان،

وعندما يرفعكما صاحب الكنز ليزن ذهبه وفضّته، عندها يتحتّم على حزنِكم أو فرحكم أن يهبط أو أن يشيل.

وتقدّم بعدها بنّاء فقال، حدّثنا عن البيوت.

فأجاب قائلًا:

ابنوا لكم من تخيّلاتكم خيمة في البرّيّة، قبل أن تبنوا لأنفسكم بيتًا داخل أسوار المدينة.

فكما أنّ لكم أن تأووا في عشاياكم إلى البيت، كذلك للتائه في أنفسكم والمشرّد والموحود أن يأوي هو أيضًا.

بيتكم هو جسدكم الأكبر.

هو ينمو في ضوء الشمس، وفي سكينة الليل ينام، وهو ليس من دون أحلام، أليس أنّ بيتكم يحلم؟ وفي حلمه يغادر المدينة إلى الغياض والتلال؟

ألا ليت لي أن أجمع بيوتكم في قبضتي وأن أذروها كما يفعل الزارع في الغابات والمروج.

ألا ليت الأودية كانت لكم شوارع، والشعاب الخضر أزقّة كيما يكون مجيء الواحد منكم إلى الآخر، عن طريق الكروم، وهكذا يأتي حاملًا في ثيابه عبير التراب.

لكن هذه الأشياء لم يئن بعد أوانها.

إنّـه خـوف أجـدادكـم هـو الـذي دفـع بكم إلـى أن تسكنوا هكذا تجمّعات متراصّة. وهذا الخوف سيستمرّ بعدُ إلى بعض الأجل.

سيقتَضي أسوار مدنكم أجلٌ بعدُ، قبل أن تتهاوى، وتزول الفرقة ما بين مواقدكم والحقول.

ألا أخبروني يا أهل أورفليس، ما الـذي تحتفظون به في هذه البيوت؟ وما الذي تشدّدون الحرص عليه بأبواب موصدة؟

أعندكم السلام، تلك القوّة الدافعة التي تنمّ عما فيكم من عزم؟

أعندكم التذكارات تلك القناطر المشعّة التي تبيّن أبعاد ما للتفكّر أن يبلغه من ذرى؟

أم عندكم الجمال الذي يقود القلب، من مجرّد مقدودات خشب أو حجر، إلى ذرى الجبل المقدّس؟

ألا أخبروني، أهذه عندكم في بيوتكم؟

أم عندكم مجرّد الرفاهية وشهوة الرفاهية، هذه الدخيلة المندسّة التي تدخل البيت ضيفة فلا تلبث أن تصبح المضيفة ومن بَعْدُ سيّدةَ المكان.

أجل إنّها تصبح المدجِّنة التي تعمد بالسوط والكلّاب إلى أمانيكم الكبرى فتتحوّل بها إلى دمى متحرّكة.

فهي وإن تكن يداها حريريّتين فإنّ قلبها من حديد.

تهدهد لكم كي تناموا، حتّى إذا غفوتم وقفت إلى جانب سريركم لتهزأ بما لأجسادكم من كرامة.

تجعل من حواسّكم السليمة موضعًا للسخرية، فتلفها بوبر من تيجان النبات الشائك على غرار ما يُصنع بالآنية السريعة العطب.

حقًّا إنّ شهوة الرفاهية تغتال أشواق الروح، ثمّ لا تلبث أن تمشي هازئة في الجنازة.

أمّا أنتم يأ أبناء المدى، أنتم يا من هم القلق في الاستكانة، فلن تقعوا في المصيدة ولا أنتم تتدجّنون.

فبيتكم لن يكون مرساة بل سارية.

لن يكون الغشاء البرّاق الذي يغطّي الجرح، بل الجفن الذي يحرس العين.

أنتم لن تضمّوا أجنحتكم كي تستطيعوا الدخول من باب، ولن تحنوا رؤوسكم كي لا تصطدم بسقف، ولا تحاذروا التنفّس مخافة أن تتشقّق جدران وتهوي.

أنتم لن تسكنوا مدافن صنعها الموتى للأحياء.

وعلى الرغم مما لبيوتكم من فخامة ومن سناء، فإنّها لن تستطيع أن تتّسع لسرّكم وأن تأوي ما عندكم من شوق.

ذلك أنّ اللامحدود فيكم إنّما يحيا في قصر السماء الذي بابه سديم الصباح ونوافذه أغاني الليل وسكناته.

وقال له حائك، حدّثنا عن الثياب.

فأجاب:

ثيابكم تحجب الكثير من الجمال فيكم، إلّا أنّها لا تحجب الذي ليس جميلًا،

ومع أنّكم تتوقّعون من الثياب أن تحفظ لخصوصيّتكم حرّيتها، فإنّكم قد تجدون فيها نيرًا لأنفسكم وغلّا.

حبّذا لو كان فيكم أن تلاقوا الشمس والهواء بأجساد أكثر انكشافًا وأقلّ تسترًا.

ذلك أنّ نفَسَ الحياة هو في نور الشمس، وأنّ يد الحياة كائنة في الريح.

بعضكم يقولون، «إنّ ريح الشمال هي التي خاطت الثياب التي نلبس.

وإنّي أقول، أجل، إنّها ريح الشمال،

لكنّ الخجل، خجلكم، كان نولَها، واسترخاءَ أعصابكم خيطها،

وعندما فرغت من عملها راحت تقهقه في الغاب.

لا يغيبنّ عن بالكم أنّ الإحتشام هو الستر الواقي من عين النجس،

ولكن إذا لم يعد هناك من نجس ألا يغدو الاحتشام قيدًا للفكر وتلوُّثًا؟

ولا يغيبنّ عن بالكم أنّ الأرض يروقها أن تتلمّس أرجلكم العارية كما تشتاق الأرياح إلى مداعبة الشعور التي على رؤوسكم.

وقال تاجر، حدّثنا عن البيع والشراء.

فأجاب قائلًا:

الأرض تقدّم لكم عطاءها فلن يصيبكم عوز إذا أنتم عرفتم كيف تملأون أيديكم.

وإنّه لفي تبادل عطايا الأرض ما يفضي بنا إلى الوفرة وإلى الإكتفاء.

إلّا أنّ هذا التبادل إن لم يحصل بمحبّة وبعدالة عطوف، أفضى ببعضهم إلى الجشع وبالآخرين إلى مجاعة.

وعندما أنتم الكادحين إن في البحار أو الحقول أو الكروم، تلتقون في السوق إخوانكم الحائكين والخزّافين أو جامعي التوابل،

تضرّعوا إلى روح الأرض الأعظم كي يحلّ بينكم ويقدّس موازينكم ويحتسب المعادلة ما بين قيمة وقيمة.

ولا تدعوا أصحاب الأيدي الجديبة أن يشاركوا في تعاملكم بعضكم مع بعض، فيبيعوكم لقاء أتعابكم كلامًا.

بل قولوا لمثل هؤلاء

«تعالوا معنا إلى الحقل، أو روحوا مع إخواننا إلى البحر وألقوا شباككم في الماء؛

فالحقل والبحر سيجودان عليكم تمامًا مثلما يجودان علينا نحن أيضًا».

وإذا أتاكم المغنّون والراقصون وعازفوا القيثار، ابتاعوا أيضًا ممّا يقدّمون.

ذلك لأنّهم هم أيضًا جامعو ثمار ولبان، على أنّ الذي يأتون به، وإن بدا من أحلام، هو لباس وطعام لأرواحكم.

وقبل أن تغادروا ساحة السّوق، تأكّدوا أنّ أحدًا لم ينصرف منها بيدين فارغتين.

ذلك أنّ روح الأرض الأعظم، لن يُغمض له جفن على سطح الريح، إلاّ بعد أن يحصل حتّى الأدنى فيكم، على كفايته.

عندها تقدّم أحد قضاة المدينة فقال، حدّثنا عن الجريمة والعقاب.

فأجاب قائلًا:

عندما تمضي روحك هائمة على سطح الريح،

وتبقى أنت وحدك ومن دون حراسة،

عندها يحدث أن تصدر عنك إساءة إلى الآخرين، وبالتالي إلى نفسك.

وعليك، بسبب ممّا صدر عنك، أن تقرع باب الرحماء وأن تبقى على بابهم فترة بلا مجيب.

كالمحيط هي ذاتك العلويّة؛

وهي أبدًا باقية بلا دنس.

هي كالأثير لا ترفع إليها إلّا المجنّحين.

كالشّمس حتّى، هي ذاتك العلويّة؛

فلا تعرف درب الخلد ولا تدخل وجار الأفعوان.

إلّا أنّ ذاتك العلويّة لا تسكن فيك وحدها.

فالكثير فيك ما زال بعدُ إنسانًا، والكثير فيك ليس إنسانًا بعد، بل هو ما يزال بعدُ مسخًا بلا شكل، يمشي بنومه في الضباب باحثًا لنفسه عن استفاقة.

وإنّي عن الإنسان فيكم أريد الآن أن أتكلّم.

غالبًا ما سمعتكم تتحدّثون عمّن يرتكب إساءة، كما لو أنّه ليس منكم، بل غريب عنكم ودخيل على عالمكم.

أمّا أنا فأقول، كما أنّ الورِع والصالح لا يمكن في سموّهما، أن يتخطّيا الأرفع في كلّ منكم.

كذلك لا يمكن للضعيف وللشرّير أن يتخطّيا في سقوطهما، الأحطّ الذي هو أيضًا في كلّ واحد منكم.

وكما أنّ ما من ورقة واحدة تصفرّ على شجرة، إلّا بالمعرفة الصامتة التي للشجرة كلّها،

كذلك يستحيل على الشرّير أن يرتكب إثمه من غير الإرادة الخفّية فيكم أجمعين،

إنّكم كموكب تسيرون معًا نحو ذاتكم الإلهيّة.

أنتم الطريق وأنتم السائرون عليها.

وعندما يسقط أحدكم، إنّما يسقط من أجل السائرين وراءه، تحذيرًا لهم من العثرة التي في الطريق.

أجل، إنّه ليسقط أيضًا من أجل من هم أمامه الذين، وإن كانوا الأسرع والأثبت قدمًا، لم يكلّفوا أنفسهم إزالة حجر العثرة للذين في الوراء.

وأقول زيادة عن هذا أيضًا، رغم أنّه سينوء ثقيلًا على قلوبكم:

ليس القتيل بريئًا من دم نفسه،

ولا المسروق بلا مسؤوليّة عن سرقة حلّت به.

إنّ للصالح حصّة في ما يصدر عن الأشرار من شرّ،

وإنّ صاحب اليد الناصعة ليس مغسول اليدين من أعمال السفلة.

أجل، إنّ المذنب غالبًا ما يكون ضحيّة المذنَب إليه،

كما أنّ المُدان، حتّى في أغلب الأحيان، هو الذي يحمل عبء الدينونة عن غير المتّهم وعن البريء.

أنتم لا تستطيعون الفصل بين المنصف والجائر ولا بين الخيّر والشرّير؛

ذلك لأنّهما يمثلان معًا أمام وجه الشمس، تمامًا كما يتلاصق الخيط الأبيض والخيط الأسود معًا في النسيج.

حتّى إذا انقطع الخيط الأسود، ترتّب على الحائك أنّ يتفحّص النسيج كلّه، والنول نفسه كذلك.

إذا خطر لأحد منكم أن يأتي بالزوجة الخائنة إلى العدالة، فليزن أوّلًا قلب زوجها بالميزان، وليقس روحه بالمقاييس.

ودعوا الذي يريد للآثم أن يُجلد، أن ينظر أوّلًا في روح الذي كان ضحيّة للإثم.

وإذا خطر لأحدكم باسم الاستقامة، أن يعاقِب ويضع الفأس على ساق الشجرة الشرّيرة، فليتفحّص أوّلًا جذورها؛

وسيجد حقًّا، أنّ جذور الخيّر والرديء، والمثمر وغير المثمر، ملتفّة معًا في قلب الأرض السَكوت.

وأنتم أيّها القضاة الذين يتوخّون العدالة،

أيّ حكم تُرى ستصدرون بحق إنسان، وإن صادقًا بالجسد هو لصّ بالروح؟

وأيّ قصاص تُرى ستنزلونه بإنسان، وإن سفّاحًا بالجسد، هو نفسه مذبوح بالروح؟

وكيف ستقاضون رجلًا هو في أعماله خدّاع وظالم في حين أنّه هو أيضًا مزدرى ومهان؟

وكيف ستعاقبون أولئك الذين ندامتهم غدت أعظم ممّا أتوه من ذنوب؟

أليست الندامة هي العدالة التي تقضي بها تلك الشّريعة عينها التي كان يسرّكم أن تكونوا في خدمتها؟

وإنّكم مع ذلك لا تستطيعون أن تنزلوا الندامة بالبريء ولا أن ترفعوها عن قلب المذنب.

فهي من تلقائها ستأتي في الليل، علّ الناس يستيقظون ويحدّقون في نفوسهم.

وأنتم يا من تتطلّعون إلى فهم العدالة، كيف سيتاح لكم ذلك ما لم تنظروا في الأعمال كلّها في ضوء النور الكامل؟

فقط عندها ستدركون أنّ المستقيم والساقط هما إنسان واحد يقف في الشفق ما بين ليل ذاته الممسوخة من جهة، ونهار ذاته الإلهيّة من الجهة الأخرى؛

وأنّ حجر الزاوية في الهيكل ليس أعلى من أصغر حجر في الأساس.

عندها قال أحد المحامين، ولكن ماذا عن شرائعنا أيّها المعلّم؟

فأجاب:

إنّه ليلذّكم أن تضعوا القوانين.

لكنّكم تتلذّذون أكثر في انتهاكها.

فكأنّكم الأولاد الذين يلعبون عند الشاطئ؛ يثابرون على بناء أبراج من الرمال ثمّ يهدمونها ضاحكين.

إلّا أنّكم وأنتم تبنون أبراجكم الرمليّة، لا يلبث المحيط أن يأتي برمال جديدة.

وعندما تهدمونها يضحك المحيط هو أيضًا معكم.

وفي الحقيقة، المحيط يضحك دائمًا مع الأبرياء.

ولكن ماذا عن أولئك الذين ليست الحياة عندهم محيطًا، ولا شرائع الناس عندهم أبراجًا من رمال،

بل الحياة عندهم صخرة والشّريعة إزميل به ينحتونها على شاكلتهم؟

ماذا عن الكسيح الذي يكره الراقصين؟

ماذا عن الثّور الذي يعشق نيره ويحسب أيائل الغابات وغزلانها مخلوقات ضالّة متشرّدة.

ماذا عن الأفعوان الهرم الذي في عجزه عن نزع جلده، يحسب كلّ من عداه عاريًا وبلا حياء؟

وعن الذي يأتي مبكرًا إلى وليمة العرس، حتّى إذا بلغ التخمة انصرف في طريقه قائلًا إنّ الولائم جميعًا مضرّات وإنّ المولمين جميعًا هتّاكٌ للقوانين؟

ماذا يمكن لي أن أقول في هؤلاء سوى أنّهم يقفون هم أيضًا في النور، إلّا أنّهم يقفون وظهرهم للشمس.

إنّهم لا يرون سوى ظلالهم، وظلالهم هي شرائعهم.

وهل الشمس بالنسبة إليهم سوى مبعث للظلال؟

وهل الإمتثال للشريعة في عرفهم غير أن ينحنوا إلى تحت وأن يرسموا ظلالهم على التراب؟

أمّا أنتم الذين تسيرون ووجوهكم للشمس، أيّ رسوم على التراب يمكن أن تستوقفكم؟

أنتم يا من ترافقون الريح، أيّ مؤشّر للريح يمكن أن يتحكّم بمساركم؟

أيّ شرائع بشريّة ستلزمكم إذا أنتم حطّمتم نيركم، ولكن ليس على عتبة زنزانة أيّ سجين؟

وأيّ شرائع ستخشونها إن أنتم رقصتم من غير أن تتعثّروا بسلاسل أيّ إنسان مكبّل بالحديد؟

ومن ذا الذي سيجرّكم إلى المحاكمة، إن أنتم مزّقتم ورميتم عنكم ثيابكم، ولكن ليس على درب أيّ إنسان؟

يا أبناء أورفليس، لكم أن تخرسوا الطّبل وأن تحلّوا أوتار القيثار.
ولكن من ذا الذي يمكن أن يأمر القبّرة بأن تطلّق الغناء؟

وقال أحد المعنيّين بالخطابة، حدّثنا عن الحرّية.

فأجاب:

لقد رأيتكم عند باب المدينة وعند المدفأة في بيوتكم، كيف تخرّون ساجدين تعبّدًا لحرّيتكم؛

تمامًا كما يذلّ العبيد أنفسهم قدّام طاغية تمجيدًا له في حين أنّهم ضحاياه.

أجل، لقد رأيت في حديقة الهيكل وعند ظلال الحصن كيف أنّ أكثركم حرّية، إنّما يحملون حرّيتهم كما لو كانت نيرًا وقيدًا.

فنزف القلب في داخلي؛ ذلك لأنّكم لا يمكن أن تكونوا أحرارًا طالما ظلّ مجرّد شوقكم إلى الحرّية والجدّ في طلبها برذعة على ظهوركم، وطالما ظللتم تتكلّمون عن الحرّية كما لو كانت غاية واكتمالًا.

أنتم تصبحون حقًّا أحرارًا، عندما لا تكون أيّامكم من غير همّ ولا لياليكم من دون افتقار أو شجن،

بل الأحرى، أنّكم تصبحون أحرارًا فقط عندما تكبّل حياتكم هذه الأمور، فإذا بكم تنفلتون منها وتحلّقون فوقها عراة وبلا قيود.

وكيف لكم أن ترتفعوا بعيدًا فوق أيّامكم ولياليكم، ما لم تحطّموا السلاسل التي سبق أن كبّلتم بها ساعات ظهيرتكم، يوم كان وعيكم ما زال بعد في فجر انبلاجه؟

وإنّ ما تسمّونه أنتم حرّية هو الأقوى بين هذه السلاسل رغم بريق حلقاته الذي يبهر البصر تحت نور الشمس.

وهل التحرّر سوى نتف من ذواتكم أنتم، تقتطعونها وترمون بها عنكم؛

إن يكن التحرّر قانونًا جائرًا تودّون أن تلغوه، فذلك القانون كان ليدكم أنتم أن كتبته على جبينكم إيّاه.

فأنتم لا تستطيعون أن تمحوه بإحراق كتبكم التشريعيّة، ولا بغسلكم جباه قضاتكم حتّى ولو سكبتم عليها مياه البحر كلّه.

وإن يكن طاغية تريدون أن تخلعوه عن عرشه، فاحرصوا أوّلًا على أنّ عرشه القائم في قلوبكم قد أُزيل.

إذ كيف لطاغية أن يحكم الأحرار الأباة، ما لم يكن لهم في قلب حرّيتهم تسلّط وفي قلب إبائهم جبن وذلّ؟

وإن يكن همًّا تريدون إزالته عنكم، فذلك الهمّ كان اختيارًا منكم لا فرضًا عليكم.

وإن يكن خوفًا تودّون طرده، فإنّ مقام ذلك الخوف هو في قلوبكم لا في يد المخوف.

والحقّ، أنّ الأشياء جميعًا تتحرّك داخل كيانكم في نصف عناق؛ ما ترغبون فيه وما تخافونه، البغيض منها والمشتهى، المطلوب منها والذي منه تهربون.

هذه الأمور تدور في داخلكم زوجًا زوجًا متلاصقين، دوران أنوار وظلال،

حتّى إذا تلاشى ظلّ واختفى، كان لقرينه الضوء أن يتحوّل إلى ظلّ جديد.

وإنّ حرّيتكم هي على هذا النحو. إذ عندما تتخلّص من مكبّلاتها تعود فتصبح هي ذاتها قيدًا لحرّيّة أعظم.

وتكلّمت الكاهنة ثانية فقالت، أخبرنا عن العقل والهوى.

وأجاب قائلًا:

إنّ نفوسكم غالبًا ما تكون ساحة وغى حيث يشنّ عقلكم وحكمتكم حربًا على أهوائكم ونزعاتكم.

حبّذا لو أستطيع أن أكون المصلح في ذواتكم كي أحلّ الوحدة والإنسجام في عناصركم محلّ التنافس والخصام.

ولكن أنّى لي ذلك ما لم تكونوا أنتم أيضًا المصلحين، لا بل المحبّين لكلّ من تلك العناصر؟

إنّ عقلكم وهواكم ليسا سوى دفّة نفوسكم المبحرة وشراعها.

فإذا تعطّل أيّ منهما وقفتم في عرض البحر أو انحرفتم فتتقاذفتكم الأمواج.

ذلك أنّ العقل وحده، هو عقال للإندفاع، وأنّ الهوى من دون عقال، هو لهب نار يشتعل من ذاته فيأكل ذاته.

لذلك دعوا النفس فيكم تسمو بعقلكم إلى مستوى الهوى، كي يتاح له أن يغنّي؛

ودعوها توجّه هواكم بالعقل، كي يكون لذلك الهوى أن يحيا من خلال انبعاثه يومًا بعد يوم، وكطائر الفينيق أن ينطلق محلّقًا من رماده.

أودّكـم أن تنظروا إلى تعقّلكم وهواكم، تمامًا كما تنظرون إلى ضيفين في بيتكم غاليين.

فأنتم من غير شكّ لن تكرّموا أحدهما فوق تكريمكم للآخر؛

ذلك أنّ من يكون أكثر احتفاء بأحدهما، سيخسر ثقة الإثنين ومحبّتهما على السواء.

عندما تجلسون بين التلال في ظلال الحور الأبيض الظليلة، مستغرقين هكذا في ذلك السلام وتلك السكينة على امتداد المروج والحقول البعيدة – دعو قلبكم يقول في سرّه – «إنّ اللّه يستريح في العقل».

وعندما تهبّ العاصفة فتهزّ الريح العاتية آصال الشجر. دعوا قلوبكم تقول في خشوع، «إنّ اللّه يتحرّك في الهوى».

ولمّا كنتم أنتم نفَسًا في فلك اللّه، وورقة في غابه، كان عليكم أيضًا أن تسكنوا في العقل وتتحرّكوا في الهوى».

وتكلَّمت امرأة فقالت، حدّثنا عن الألم.

فقال:

إنّ ألمكم هو تكسُّر القشرة التي تغلّف ما فيكم من وعي.

وكما أنّ على نواة الثمرة أن تنفلق كي يمثل قلبها أمام الشمس، كذلك يتحتّم عليكم أن تعرفوا الألم.

ولو كان لكم أن تبقوا قلوبكم في دهشة أمام العجائب التي تكتنف حياتكم في كلّ يوم، لتبيّن لكم أنّ ألمكم ليس أقلّ روعة ممّا يحلّ فيكم من فرح؛

ولكنتم تتقبّلون فصول قلوبكم تقبّل حقولكم لما يعبر في سمائها من فصول.

ولكنتم تصبرون بطمأنينة على شتاءات أحزانكم إذ تجيء.

إنّ الكثير من أحزانكم هو محض اختياركم.

وإنّه الدواء المرّ الذي به يشفي الطبيب القائم في كلّ واحد منكم، أنفسكم المريضة.

لذلك عليكم أن تؤمنوا بذلك الطبيب وأن تشربوا الدواء بطمأنينة وسكون:

ذلك لأنّ يده، وإن قاسية وثقيلة، إنّما ترشدها من فوقها اليد الرفيقة للذي يرى ولا يُرى.

ولأنّ كاس الدواء التي يقدّمها، وإن أحرقت شفاهكم، هي مصنوعة من الطين الذي جبله الخزّاف الأعلى بدموعه.

وقال أحدهم، حدّثنا عن معرفة النفس.

فقال:

إنّ قلوبكم تعرف في سكون، أسرار الأيّام والليالي.

وإنّ آذانكم تتعطّش إلى سماع ما في قلوبكم من معرفة.

فأنتم تريدون لكلّ ما كنتم تعرفونه ضمنًا، أن تعرفوه كلامًا.

أنتم تصرّون على أن تلمسوا بأصابعكم أجساد أحلامكم العارية.

وإنّه لجيّد أن تفعلوا.

فالمعين الخفيّ في نفوسكم لا بدّ له أن يفوّر وأن يجري مرنّمًا إلى البحر؛

والكنز المخبوء في أعماقكم اللامتناهية، لا بّد أن ينكشف لعيونكم.

ولكن حذار أن تزِنوا كنزكم الخفيّ بالموازين؛ أو أن تعمدوا إلى سبر أعماق معرفتكم بالمسبار أو القضبان.

ذلك أنّ النفس بحر بلا حدّ أو مقاس.

لا تقولوا «أنا وجدت الحقيقة» بل «أنا وجدت حقيقة».

ولا تقولوا، «لقد وجدت الدرب الذي تسلكه النفس»، بل الأحرى أن تقولوا، «لقد صدفت النفس سائرة على دربي».

ذلك لأنّ النفس تسير على جميع الدروب.

النفس لا تسير على خطّ ما، ولا هي تنمو كالقصبة.

النفس تكشف عن ذاتها، كزهرة اللوتس التي لها ما لا يعدّ من البتلات.

وعندها قال أحد المعلّمين، حدّثنا عن التعليم.

فقال:

ما من إنسان يستطيع أن يكشف لكم غير الذي هو فيكم منذ البدء، والذي ما يزال هاجعًا في نصف إغفاءة.

فالمعلّم الذي يتمشى مع أتباعه في ظلّ الهيكل، لا يعطي من حكمته هو، بل من إيمانه ومودّته.

فهو إذا كان حقًّا حكيمًا، لا يدخلكم إلى مستودع حكمته، بل يقودكم بالأحرى، إلى أعتاب مستودعكم أنتم العقليّ.

للفلكيّ أن يحدّثكم عن مفهومه للفضاء، إلّا أنّه لا يستطيع أن يعطيَكم مفهومه.

وللموسيقيّ أن يغنّي لكم على إيقاع يستلّه من الأثير على مداه، إلّا أنّه لا يستطيع أن يعطيكم الأذن التي تقتنص ذلك الإيقاع ولا الصوت الذي يجسّد صداه.

ولذاك المتمرّس في علم الأرقام أنّ يحدّث عن عوالم الأوزان والمقاييس، ولكنّه لا يستطيع أن يقودكم إلى هناك.

ذلك لأنّ قدرة الإبصار عند أحدهم لا يمكن أن تعير جناحيها لآخر.

وكما أنّ كلًّا منكم إنّما يمثل بمفرده في علم اللّه، هكذا ينبغي لكلّ واحد منكم، أن يكون وحده في معرفته للّه وفي فهمه للبسيطة.

وقال أحد الفتيان، حدّثنا عن الصداقة.

فأجاب قائلًا:

صديقك هو حاجاتك وقد استجيبت.

إنّه حقلك الذي تبذره بمحبّة وتحصده بالشكران.

وهو مائدتك ومدفأتك.

لأنّك تأتي إليه بجوعك، وتقصده في طلب الأنس.

عندما يصارحك صديقك بالذي في ذهنه، أنت لا تخشى الـ«لا» التي في ذهنك أنت، كما لا تمسك في نفسك الـ«نعم».

وإنّ قلبك، عندما يكون هو ساكتًا، لا يتوقّف عن الإصغاء إلى قلبه.

فجميع الأفكار والرغائب والأحلام في عالم الصداقة، إنّما تولد ويتوزّعها الأصحاب، هكذا من غير كلام ولا ضجيج.

أنت عندما تفارق صديقك، لا يلمّ بك الأسى؛

ذلك لأنّ الأحب فيه بالنسبة إليك، قد يصبح في ابتعاده أكثر وضوحًا عندك، تمامًا كالجبل الذي لا يتجلّى واضحًا لمتسلّقه إلّا حين ينظر إليه من السّهل.

ولا يكن لك غرض في الصداقة سوى توسيع أمداء الروح.

فالحبّ الذي يهدف إلى غير الكشف عن سرّ الحبّ، ليس حبًّا، بل هو كناية عن شبكة تلقي بها هكذا جزافًا، فلا يعلق لك فيها إلّا الخسران.

وليكن خير ما فيك لصديقك.

فإذا كان له أن يعرف بحرك في جزره، فليتعرّف إلى مدّه أيضًا.

وإلّا فأيّ صديق هو هذا الذي لا تأتيه إلّا لتقتل عنده الساعات؟

فاسعَ إليه دائمًا بساعاتك التي تودّ أن تحياها.

فهو لسدّ حاجتك لا لملء فراغك.

واحرص لحلاوة الصداقة، أن يتخلّلها ضحك وأجواء مسرّة، ففي الندى الذي للشؤون الصغيرة، ما يجعل القلب يهتدي إلى صباحه وينتعش.

وعندها قال أحد الباحثين، حدّثنا عن الكلام.

فأجاب قائلًا:

أنتم تتكلّمون عندما تفتقدون السلام بينكم وبين أفكاركم؛

فعندما لا يعود بإمكانكم سكنى التوحّد في قلوبكم، تعمدون إلى سكنى شفاهكم. فالصوت إذ ذاك تحوُّل بكم، وملهاة لكم، عن الزمن.

إنّ في معظم كلامكم ما يذبح الفكر إلى نصف الوريد.

ذلك أنّ الفكر عصفور فضاء، له في قفص الكلام أن يبسط فعلًا جناحيه، ولكن من غير أن يطير.

هناك بينكم من يلجأون إلى كثيري الكلام، مخافة أن يكونوا وحدهم.

ففي صمت التوحّد ما يكشف لعيونهم العري الذي لنفوسهم فيهربون.

وهناك من يتكلّمون، فإذا بهم من غير أيّ معرفة أو تعمّد، يكشفون عن حقيقة هم أنفسهم لا يعونها.

وهناك الذين يملكون الحقيقة في داخلهم، ولكنّهم لا ينطقون بها كلامًا.

في صدر مثل هؤلاء، وعلى إيقاع من سكينة، تقيم الروح.

عندما تلتقي صديقك في الطريق أو في السوق، دع الروح فيك تحرّك شفتيك وتوجّه لسانك.

دع للصوت في صوتك يتكلّم إلى أذن أذنه؛

فيكون لروحه أن تحتفظ بحقيقة قلبك، تمامًا كما يبقى طعم الخمرة زمانًا بعد أن يُنتسى لونها ويفنى الدنّ الذي عُتّقت فيه.

وقال فلكيّ، ماذا عن الزمن يا معلّم؟

فأجاب:

بودّكم لو تقيسوا الزمن الذي لا مقاس له ولا قياس.

وبودّكم لو توقّعوا تصرّفكم، حتّى وأن توجّهوا مسار أرواحكم، على إيقاع الساعات والفصول.

فتجعلوا من الزمن جدولًا تجلسون على حافّته وترقبون جريان الماء.

إلّا أنّ اللازمنيّ فيكم على وعي بلا زمنيّة الحياة،

ويدرك أنّ البارحة ليس إلّا ذاكرة اليوم، وأنّ الغد هو حلم اليوم الذي نحن فيه.

وأنّ ذاك الذي فيكم يغنّي ويتفكّر، ما زال يقيم ضمن حدود تلك الهنيهة الأولى التي بعثت النجوم وبعثرتها في الفضاء.

من منكم لا يحسّ أنّ طاقته على الحبّ لا حدود لها؟

ومن منكم، مع ذلك، لا يحسّ ذلك الحبّ عينه، على لا محدوديّته، مطوّقًا في لبّ كيانه، فلا يتحرّك من فكر حبّ إلى فكر حبّ آخر، أو من مآتي حبّ إلى مآتي حبّ أخرى؟

أليس أنّ الزمن كالحبّ، لا ينقسم ولا يُحدّ.

أمّا إذا اقتضاكم فكركم أن تقسموا الزمان إلى فصول، فاجعلوا كلّ فصل يطوّق باقي الفصول جميعها.

ودعوا اليوم يحتضن الماضي بالتفكّر والمستقبل بالحنين.

وقال أحد شيوخ المدينة، حدّثنا عن الخير والشرّ.

فأجاب:

في استطاعتي أن أحدّث عن الخير فيكم، أمّا عن الشرّ فلا.

وهل الشرّ سوى الخير وقد تولّاه الجوع جوعه، والعطش عطشه، بالتعذيب؟

والحقّ أنّ الخير إذا جاع، طلب المأكل حتّى في المغاور المظلمة، وإذا عطش طلب الريّ حتّى في المياه الآسنة.

أنتم خيّرون طالما كنتم واحدًا مع أنفسكم.

أمّا إذا لم تكونوا واحدًا فأنتم، مع ذلك، لستم أشرارًا.

ذلك أنّ بيتًا منقسمًا على ذاته ليس مغارة لصوص. إنّه فقط بيت منقسم على ذاته.

وإنّ قاربًا من غير دفّة، قد يطوف بلا هدى بين جزر مخوفة، ولكن دون أن يغرق بالضرورة إلى القاع.

أنتم خيّرون عندما تجهدون في أن تعطوا من أنفسكم.

إلّا أنّكم لستم أشرارًا إذا أنتم طلبتم لأنفسكم الغنى.

ذلك أنّكم إذا سعيتم إلى الربح، كنتم كالجذر الذي يتمسّك بصدر الأرض ليمتصّ ثديها.

فالثمرة لا يمكنها قطعًا أن تقول للجذر، «كن مثلي نضجًا وامتلاءً، وعطاء دائمًا، من خيرك العميم».

ذلك أنّ العطاء عند الثمرة، هو حاجة تمامًا كالأخذ عند الجذور.

أنتم خيّرون عندما تكونون في كلامكم على وعي تامّ.

لكنّكم مع ذلك، لستم أشرارًا عندما تنامون ولسانكم ما زال يترنّح في حلقكم على غير هداية.

وإنّه لمن شأن الكلام المتعثّر حتّى، أن يشدّد لسانًا عييًّا.

أنتم خيّرون، عندما تسيرون نحو هدفكم بثبات وخطى جريئة.

إلّا أنّكم مع ذلك، لستم أشرارًا إذا كنتم تسيرون إلى هناك وأنتم تعرجون.

حتّى العرج لا يمشون القهقري.

وإنّ عليكم، أنتم الأقوياء وسريعي الخطى، ألّا تعرجوا أمام العرج، ظنًّا منكم، أنّ ذلك على سبيل التعاطف.

أنتم خيّرون في ما لا يحصى من الطرق، وأنتم لستم أشرارًا عندما لا تكونون خيّرين،

أنتم في ذلك فقط كسالى ومتباطئون.

مؤسف ألّا يستطيع الغزال أن يعلّم السلحفاة كيف تغدو سريعة.

إنّه في توقكم إلى ذاتكم العملاقة، يكمن خيركم؛ وإنّ ذلك التوق هو في كلّ واحد منكم.

فهو عند بعضكم سيل عارم، يندفع بقوّة عظيمة إلى البحر حاملًا معه أسرار المنحدرات وترانيم الغابات.

في حين أنّه عند غيركم ساقية ضحلة، تفقدها الزوايا والمنعطفات ذاتَها، فتضيع قبل أن تدرك البحر.

ولكن، لا يقولنّ صاحب التّوق الكبير لقليل التّوق، «لماذا أنت بطيء ومتثاقل»؟

ذلك أنّ الخيّر حقًّا لا يسأل العريان، «أين رداؤك؟» ولا الذي من دون بيت، «ما الذي حلّ ببيتِك»؟

عندها قالت كاهنة، حدّثنا عن الصلاة.

وأجاب قائلًا:

أنتم في شدّتكم وعوزكم تلجأون إلى الصلاة؛ ألا ليتكم تصلّون أيضًا وقلوبكم مترعة فرحًا وأيامكم عامرة بالخيرات.

وهل الصلاة غير نفوسكم وقد امتددتم بها إلى أقاصي الأثير النابض بالحياة؟

وكما يريحكم أن تعمدوا إلى السواد فيكم فتُريقوه عنكم في المدى، فإنّه ليبهجكم أيضًا أن تعمدوا إلى الفجر في قلوبكم فتبادروا ذلك المدى عينه بالنور.

وإذا كنتم لا تستطيعون إذ تلبّون دعاء نفوسكم إلى الصلاة، إلّا أن تدمعوا، فإنّ على نفوسكم هذه أن تهزّكم ثمّ تهزّكم وإن دامعين، إلى أن ينتهي الأمر بكم إلى الصلاة ضاحكين.

أنتم إذ تصلّون، إنّما تتسامون صعدًا لتلتقوا في الفضاء أولئك الذين يصلّون مثلكم في تلك الساعة، ممّن قد لا تلتقونهم أبدًا إلّا في الصلاة.

وإذن، فلتكن زيارتكم لذلك المعبد غير المنظور، لا لشيء إلّا من أجل طيب التعارف ونشوة التشارك القدّوس.

أمّا إذا كان مجيؤكم إلى المعبد فقط من أجل تقديم الطلبات، فإنّ هذه قطّ لن تستجاب.

وإذا كان دخولكم المعبد فقط من أجل أن تتّضعوا بنفوسكم، فإنّكم بهذا قطّ لا تترفّعون.

حتّى ولو كان دخولكم من أجل أن تستجدوا للآخرين، فإنّ استجداءكم قطّ لن يصغى إليه.

إنّه ليكفيكم من الهيكل غير المنظور، فقط أن تدخلوه.

لا أستطيع أن أعلّمكم كيف تصلّون بالكلام.

فاللّه لن يصغي لكلامكم إلّا عندما يتلفّظ هو نفسه به من خلال شفاهكم.

كما أنّني لا أستطيع أن أعلّمكم صلاة البحار والغابات والقمم.

أمّا أنتم يا مواليد الجبال والغابات والبحار، فإنّ هذه ستجد في قلوبكم صلاتها،

فإذا أنتم أرهفتم السمع في هدءة الليل، ستسمعونها قائلة بسكون،

«يا إلهنا، الذي هو ذاتنا المجنّحة، إنّ إرادتك فينا هي التي تريد.

وإنّ مشيئتك فينا هي التي تشاء.

إنّه دافعك الذي فينا، هو الذي يتحوّل بليالينا التي هي لياليك، إلى نهارات هي أيضًا نهاراتك.

نحن ليس لنا أن نطلب شيئًا منك، ذلك أنّك تعرف حاجاتنا قبل أن تولد فينا.

أنت حاجتنا، وإنّك في إعطائنا المزيد من ذاتك، إنّما تمنحنا العطاء كلّه.

عندها تقدّم ناسك كان يزور المدينة مرّة في السنة فقال، حدّثنا عن اللذّة.

فأجاب قائلًا:

اللذّة أغنية من أغاني الحرّيّة.

إلّا أنّها ليست الحرّية.

إنّها من رغباتكم أزاهيرها.

ولكنّها ليست ثمار تلك الرغائب.

إنّها عمق ينده إلى علوّ

إلّا أنّها ليست العمق ولا العلوّ.

إنّها المقفوص يتّخذ جناحًا،

إلّا أنّها ليست المدى وقد أدخل القفص.

أجل، الحقيقة الحقّة إنّ اللذّة أغنية من أغاني الحرّيّة.

وإنّي لأرغب إليكم أن تغنّوها بقلب ملآن، شرط ألّا تضيّعوا قلوبكم في الغناء.

بعض فتيانكم يطلبون اللذّة كما لو كانت كلّ شيء، وإنّهم على ذلك يدانون ويوبّخون.

أمّا أنا فلا أدينهم ولا أوبّخهم، بل أتركهم يسعون.

ذلك أنّهم سيجدون اللذّة، ولكن ليس وحدها؛

سبعٌ هنّ شقيقاتها، وأقلّهنّ هي أكثر جمالًا من اللذّة ذاتها.

أما سمعتم بالرجل الذي ينقب الأرض طلبًا للجذور، فإذا به يعثر على كنز؟

بعض شيوخكم إذا تذكّروا الملذّات، ندموا عليها كما لو أنّها كانت ذنوبًا ارتكبت في حال من السكر.

لكنّ الندم ضباب يلف الفكر، لا أدب يؤدّبه.

عليهم أن يذكروا ملذّاتهم مع الشكران، كما لو أنّها كانت حصاد موسم صيف.

أمّا إذا كان يريحهم أن يندموا فلنتركهم يرتاحون.

إلّا أنّ بينكم أُولئك الذين ليسوا فتيانًا ليسعوا ولا شيوخًا ليتذكّروا؛

فهم في خوفهم من السعي والتذكّر، يتنكّرون لجميع الملذّات،
فلا هم يهملون الروح فيندمون، ولا هم يسيئون إليها فيتلذّذون.

إلّا أنّ في تعفّف هؤلاء تكمن لذّتهم.

فهم، هكذا أيضًا، يعثرون على كنز فيما هم يحفرون التراب بأياد مرتجفة بحثًا عن الجذور.

لكن أخبروني من ذا الذي بمقدوره أن يسيء إلى الروح؟

هل للبلبل أن يسيء إلى الليل في سكونه، أم للحباحب أن يعكّر صفو النجوم؟

أم هل لناركم ودخانكم أن يثقلا هبوب الريح؟

أفي اعتقادكم أنّ الروح بركة راكدة يمكن أن تستثيروها بالعصا؟

فأنتم في حرمان أنفسكم لذّتها، غالبًا ما تتسبّبون بخزن تلك اللذّة في مطاوي كيانكم.

ولكن من ذا الذي يدري أنّ ذاك الذي بدا وكأنّه انزاح عنّا اليوم، لن يترصّدنا حتّى مجيء الغد؟

حتّى أجسادكم، تعي موروثها وحاجاتها المشروعة، فلا ترضى بأن تخدع.

ما جسدكم إلّا قيثار نفوسكم.

بقي لكم أن تَخرجوا منه إمّا بالموسيقى العذبة أو بجلبة من الأصوات النشاز.

* * *

وتسألون الآن في قلوبكم، «كيف لنا أن نميّز بين ما هو جيّد في اللذّة وما ليس جيّدًا»؟

ألا فاذهبوا إلى حقولكم وبساتينكم، حيث ستدركون أنّ لذّة النحلة هي في أن تجمع من الزّهر العسل.

في حين أنّها أيضًا لذّة الزهرة أن تعطي النحلة عسلها.

فالزهرة بالنسبة إلى النحلة هي ينبوع حياة،

في حين أنّ النحلة بالنسبة إلى الزهرة هي رسولة حبّ،

فأخذ اللذّة وإعطاؤها بالنسبة إلى النحلة والزهرة كلتيهما، هو في الوقت عينه حاجة ونشوة.

يا أهل أورفيليس، كونوا في ملذّاتكم كالنحل والأزهار.

وقال شاعر، حدّثنا عن الحلاوة[1].

فأجاب:

أين عساكم تفتّشون عن الحلاوة وكيف لكم أن تجدوها، ما لم تكن هي نفسها طريقكم إليها ودليلكم كذلك في الطريق؟

وكيف لكم أن تتحدّثوا عنها ما لم تكن هي نفسها الحائكة لنسيج كلامكم؟

الحزانى والمصابون يقولون، «الحلاوة رقيقة وحنونة.

تمشي بيننا كأمّ هي بعد فتيّة وحيّية بعض الحياء، بالمجد الذي هو مجدها».

أمّا العاطفيّون فيقولون، «كلّا، بل إنّها شيء من قوّة ومن رهبة.

هي كالعاصفة التي تهزّ الأرض من تحتنا والسماء من فوق».

أمّا المتعبون والمرهقون فيقولون، «الحلاوة صاحبة ذلك الهمس الرقيق الذي به تتكلّم في أرواحنا.

---

1 الجمال بالإنكليزية مؤنّث فجاءت أوصافه في المقطوعة الانكليزية كلّها مؤنّثة وبعضها أنثويّ حصرًا. لذلك استبدلنا «الجمال» وهو عنوان المقطوعة الإنكليزية، بـ«الحلاوة» حفاظًا على روح النصّ – المترجِم.

صوتها يرقّ لسكناتنا كضوء ضئيل وهو يرتجف خوفًا من العتمة».

أمّا القلقون فيقولون، «لقد سمعناها ترفع صوتها صارخة بين الجبال، فيتناهى مع صياحها خطو حوافر، واصطفاق أجنحة وزئير أُسود».

وفي الليل، يقول حرّاس المدينة؛ «الحلاوة ستبزغ مع الفجر من الشرق».

أمّا الكادحون وعابرو السبيل فيقولون عند الظهيرة، «لقد رأيناها من نوافذ المغيب وهي حانية فوق الأرض».

وفي الشتاء يقول المحاصرون بالثلوج، «إنّها مقبلة مع الربيع وثبًا على التلال».

ويقول الحصّادون في حمّارة الصيف، «رأيناها ترقص مع أوراق الخريف كما رأينا ركام ثلج في شعرها».

كلّ هذا قلتموه في الحلاوة،

لكنّكم في الحقيقة، لم تقولوه عنها بل عن حاجات فيكم غير مقضيّة،

الحلاوة ليست حاجة بل نشوة.

هي ليست فمًا يتعطّش، ولا يدًا فارغة ممدودة.

هي ليست صورة يتملّاها النظر، ولا أغنية تطرب لها الأذن،

بل هي بالأحرى، صورة تراها رغم أنّ العينين مغمضتان، وأغنية تسمعها رغم أنّك مقفل أذنيك.

هي ليست النّسغ الذي ينساب داخل لحاء جذع مثلّم، ولا هي جناح شُدّ إلى مِخلب.

بل هي بستان مزهر أبدًا، وسرب ملائكة أبدًا في رواح.

يا أهل أورفليس، الحلاوة هي الحياة عندما تسفر الحياة عن وجهها القدّوس.

إلّا أنّكم أنتم الحياة وأنتم الحجاب.

الحياة هي الأبديّة ناظرة إلى ذاتها في مرآة.

إلّا أنّكم أنتم الأبديّة وأنتم المرآة.

وقال كاهن مسنّ، حدّثنا عن الدين.

فقال:

العلّي تكلّمت هذا النهار عن شيء إلّاه؟

أليست الأعمال كلّها والأفكار كلّها دينًا؟

وذاك الذي ليس عملًا ولا فكرًا، بل تعجّبًا واندهاشًا ينبعان أبدًا في النفس، حتّى حين تكون اليدان مشغولتان في تقطيع الحجارة أو معالجة النول، أليس دينًا أيضًا؟

من ذا يستطيع أن يفصل بين إيمانه وأعماله، أو بين معتقده وأشغاله؟

من ذا يستطيع أن يفرش ساعاته قدّامه قائلًا، «هذه للّه وهذه لي؛ هذه لنفسي وهذه لجسدي؟»

ما ساعاتكم سوى أجنحة تصطفق، رائحة من ذات إلى ذات.

وذاك الذي يلبس فضيلته استنسابًا كثوبه الأفضل بين ثيابه، كان الأجدى به أن يكون عاريًا.

فالشمس والريح لن تحدثا في جلده ثقوبًا.

وذاك الذي يحدّد سلوكه بما يمليه أدب السلوك، إنّما يسجن عصفوره المغنّي في قفص.

فأكثر الأغاني حرّية لا تأتي من بين القضبان والأسلاك.

وذاك الذي يرى العبادة نافذة يفتحها ثمّ لا يلبث أن يغلقها كذلك، إنسان ما دخل بعد مقام روحه الذي نوافذه من الفجر إلى الفجر.

حياتكم اليوميّة هي دينكم وهيكلكم.

وكلّما دخلتموها اصطحبوا معكم كلّ الذي أنتم؛

خذوا المحراث والكير والمطرقة والقيثار،

الأشياء التي صنعتموها عن حاجة أو عن استمتاع.

لأنّكم في أحلام يقظتكم لا تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق إنجازاتكم، ولا أن تهبطوا إلى ما دون إخفاقاتكم.

وخذوا معكم جميع الناس،

لأنّكم وأنتم تتعبّدون، لا تستطيعون أن تحلِّقوا إلى أعلى من آمالهم، ولا أن تتّضعوا إلى ما دون يؤوسهم.

وإذا شئتم أن تعرفوا اللّه، فلا تكونوا حلّالي أحاجٍ.

بل الأحرى بكم أن تنظروا حولكم، فإذا اللّه يلعبٌ مع أولادكم.

وتطلعوا في الفضاء من فوقكم، وسترونه ماشيًا في الغيم، مادًّا ذراعيه في البروق وهابطًا من السحاب في المطر.

سترونه باسمًا في الزهور، وصاعدًا في النّسغ في جذوع الشجر، وملوّحًا من الغصون بيديه.

عندها تكلّمت ألميترا قائلة، نريد الآن أن نسألك عن الموت.

فقال:

بودّكم لو تعرفوا سرّ الموت.

ولكن كيف لكم أن تجدوه ما لم تفتّشوا عنه في قلب الحياة!

إنّ البومة التي يحول ارتباط عينيها باللّيل دون الإبصار في النهار، ليس بمستطاعها أن تميط الستر عن سرّ الضياء.

إذا شئتم حقًّا أن تتبيّنوا روح الموت، فافتحوا قلبكم على مداه لجسد الحياة.

ذلك لأنّ الحياة والموت متلازمان، تمامًا كتلازم النهر والمحيط.

في أعماق آمالكم ورغائبكم، تكمن معرفتكم الصامتة لعالم الماوراء؛

كبذور غارقة في أحلامها تحت الثلوج، هكذا يحلم قلبكم بالربيع.

ألا صدّقوا الأحلام، فإنّ في مخبّآتها، الباب المفضي إلى الأبديّة.

ما خوفكم من الموت غير ارتجاف الراعي وهو يقف أمام الملك في انتظار يده التي ستُلقى عليه إيذانًا بتكريمه.

أليس أنّ تحت ارتجاف الراعي، فرحًا بما سيحمله من شارة ملوكيّة؟

أليس أنّه في الموقف ذاته، أكثر انشغالًا وهو واقف، بارتجافه؟

وهل الموت إلّا أن يقف أحدنا عاريًا في الريح وأن يستحيل ذوبًا في الشمس؟

وماذا في توقّف الأنفاس غير تحرير النَفَس من مدّه وجزره اللذين بلا قرار، كي يرتفع ويتّسع ويبلغ اللّه بلا تعثّر؟

فقط عندما تشربون من نهر السكوت، ستقدمون حقًّا على الغناء.

فقط عندما تبلغون قمّة الجبل، تبدأون التسلّق.

وليس قبل أن تستردّ الأرض أطرافكم، سيتسنّى لكم حقًّا أن ترقصوا.

وأقبل الآن المساء، فقالت ألميترا العرّافة، مبارك هذا النهار وهذا المكان، ومباركة الروح التي تكلّمت.

فأجاب، أكنت أنا الذي تكلّم؟ أليس أنّي كنت أيضًا مستمعًا؟

ثمّ هبط درجات الهيكل وتبعته الجموع. فبلغ سفينته ووقف على ظهرها. وبعد أن تحوّل بوجهه نحو الجموع رفع صوته قائلًا:

يا أهل أورفليس، ها الريح تدعوني الى أن أُغادركم.

وأنا، وإن لم أكن مستعجلًا كالريح، قد بات عليّ أن أذهب.

فنحن التائهين وطلّاب الدرب الذي بلا رفيق، لا نبدأ يومًا حيث أنهينا الذي سبق، ولا يدركنا شروق حيث خلّفنا غروب.

إنّا نبقى مسافرين حتّى بعد أن تلجأ الأرض إلى الرقاد.

نحن بذور النّبتة العنيدة. حتّى إذا تمّ نضجنا وأُثقلت سنابل قلوبنا، أُعطينا للريح فبعثرتنا.

قصيرة كانت أيّامي بينكم، وأقصر منها كانت كلماتي.

ولكن إذا حدث أن تلاشى صوتي في آذانكم، وامّحت محبّتي من ذاكرتكم، فسأعود مرّة أخرى إليكم.

وبقلب أكثر غنى، وشفتين أكثر استجابة للروح، سأعود فأتكلّم.

أجل، سأعود مع المدّ،

وعلى الرغم من أنّ الموت قد يغيّبني، وأنّ السكون الأعظم قد يلفّني، فإنّي سأسعى ثانية إلى أَفهامكم.

ولن يكون سعيي عبثًا.

إذا كان ما قلته لكم حقيقة، فتلك الحقيقة ستعلِن يومها عن نفسها بصوت أكثر جلاء، وبكلمات أكثر قربى من أفكاركم.

ذاهب أنا مع الريح يا أبناء أورفليس، ولكن ليس نزولًا إلى فراغ؛

فإذا كان هذا النهار لم يستجب بالكامل لحاجاتكم وللمحبّة التي فيّ، فليكن إذًا وعدا إلى يوم آخر.

حاجات الإنسان تتغيّر، أمّا الذي لا يتغيّر، فحبّه ورغبته في أن يحقّق له ذلك الحبّ حاجاته.

فاعلموا إذن، أنّي من السكون الأعظم سأعود. فالسديم الذي يتلاشى مع مجيء الفجر غير تارك في الحقل إلّا الندى، لا يلبث أن يرتفع ويتجمّع ويستحيل غمامة تنهلّ بعدها مطرًا على الحقول.

وإنّي لم أكن بعيدًا عما يشبه السديم.

في سكينة الليل خطرت في شوارعكم، ودخلت روحي بيوتكم،

وعبرت دقات قلوبكم إلى قلبي، وسرت أنفاسكم على وجهي وعرفتكم جميعًا.

أجل، عرفت فرحكم وتألّمكم، وكانت أحلامكم في نومكم أحلامي.

وكثيرًا ما كنت بينكم بحيرة بين الجبال.

عكست في مائي قممكم وحنايا جنباتكم وحتّى قطعان أفكاركم ورغباتكم العابرة.

وفي سكوني تناهت إليّ ضحكات أولادكم مع الجداول، وأشواق فتيانكم مع الأنهار.

وعندما بلغت هذه أعماقي، لم تنقطع الجداول ولا الأنهار عن الغناء.

ولكنّ شيئًا أكثر عذوبة من ضحك الأولاد وأشواق الفتيان أقبل عليّ؛

إنّه اللامحدود الذي فيكم؛

إنّه الإنسان الشاسع فيكم الذي لستم بعدُ نسبة إليه سوى خلايا وأعصاب؛

إنّه صاحب الأغنية التي كلّ غنائكم نسبة إليها ليس سوى نبض أبحّ.

وإنّكم لفي الإنسان الشاسع تكونون شاسعين،

رأيته، وإنّه من خلاله كان لي أن رأيتكم وأحببتكم.

إذ أيّ أبعاد يمكن للحبّ أن يبلغها إن لم تكن داخل ذلك الفَلَك، فلك الإنسان الشاسع،

أيّ رؤى، أيّ توقّعات، أيّ افتراضات يمكن أن تحلّق أبعد من ذلك المدى؟

كسنديانة عتيّة مكسوّة بأزاهير التفّاح هو الإنسان الشاسع فيكم.

بأسه يشدّكم إلى الأرض، وعبيره يرتفع بكم إلى المدى، وأنتم في صلابته أقوى من الموت.

* * *

قيل لكم إنّكم كالسّلسلة، قوّتكم هي قوّة أضعف حلقة فيكم.

هذه نصف الحقيقة، إنّكم أيضًا أقوياء قوّة الحلقة الأقوى فيكم.

أن تقاسوا بالعمل الأصغر من أعمالكم يعني أن تقاس قوّة الأوقيانوس بهشاشة الزبد الطافي عليه.

وأن يُحكم عليكم في ضوء سقطاتكم، يعني كأن تلام الفصول على أنّها متبدّلة.

أجل، إنّكم كالمحيط.

ومع أنّ سفنًا ثقيلة جانحة على شواطئكم هي في انتظار المدّ فأنتم، شأن المحيط، لا تستطيعون أن تستعجلوا الأمواج.

وأنتم أيضًا كالفصول،

فمع أنّكم في شتائكم تنكرون الربيع،

فالربيع المستلقي في ذاتكم، يبسم في هجعته ولا يحسب أنّه أُهين.

لا تظنّوا أنّي أنطق بهذه الأشياء، كي تقولوا واحدكم للآخر، «إنّه يجيد مدحنا. هو لم ير فينا سوى الخير».

أنا فقط أنقل إليكم بالكلام ذاك الذي تعرفونه أنتم أنفسكم بالفكر.

وهل المعرفة التي تتوسّل الكلام، غير ظلّ للتي لا يحدها كلام؟

إنّ أفكاركم وكلماتي هذه، إن هي إلّا تموّجات صادرة عن ذاكرة مختومة تحتفظ بسجلّات أماسينا،

وبالأيام السحيقة يوم لم تكن الأرض قد عرفتنا بعدُ ولا عرفت ذاتها،

وبليالٍ كانت الأرض فيها ما تزال من تكوينها خبط طين يفور.

جاءكم قبلُ رجال حكماء ليعطوكم من حكمتهم، وجئتكم أنا إلى الحكمة التي فيكم لآخذ منها.

وها إنّي قد وجدت ما هو أعظم من حكمة.

إنّه الروح اللاهبة فيكم الدائبة على أن تجمع إلى ذاتها مزيدًا من ذاتها،

في حين أنّكم أنتم، في غفلة عن هذا التوسّع في ذاتكم، تعمدون إلى التفجّع على أيامكم المتصرّمة.

إنّها الحياة في طلب الحياة، إنّما في أجساد ترعبها القبور.

ليس من قبور هنا.

فهذه الجبال وهذه السهول ليست سوى مهد وجسر عبور.

وكلّما مررتم بحقل فيه دفنتم أسلافكم، أنعموا فيه النظر، وستبصرون هناك أنفسكم وأولادكم راقصين يدًا بيد.

حقًّا إنّكم غالبًا ما تهزجون طربًا وأنتم لا تعرفون.

وجاءكم آخرون ممّن كنتم قد مددتموهم بالثراء والقوّة والمجد لقاء ما زيّنوا لإيمانكم من وعود.

إنّه لأقلّ من وعد هذا الذي أعطيته، إلّا أنّكم كنتم معي أكثر سخاء.

لقد أعطيتموني تعطّشي الأعمق إلى الحياة.

الحقّ أقول لكم، ما من عطيّة يُعطاها الإنسان أعظم من تحويل جميع غاياته إلى شفاه عطشى، ومن التحوّل بالحياة إلى ينبوع.

وفي هذا يكمن ما أُعطيته من مجد وما حصّلته من ثواب،

ذلك أنّي كلّما أتيت إلى الينبوع لأشرب، وجدت الماء الحيّ نفسه عطشان؛

فيشربني فيما أنا أشربه.

لقد ظنّني بعضكم متكبّرًا وبالغ الحياء، فلا أقبل العطايا،

صحيح أنّني من الأنفة بحيث لا أقبل أجرًا، أمّا العطايا فلا.

فعلى الرغم من أنّي أكلت أكباش العلّيق والتوت البرّيّ بين التلال، في حين كنتم تؤثرون لي أن أجلس إلى موائدكم،

وأنّي كنت أنام في رواق الهيكل في حين كان يسرّكم لو توفّرون لي أنتم المأوى،

ولكن، ألم يكن انشغالكم المحبّ بأيّامي ولياليّ، هو الذي جعل مأكلي حلوا في فمي ومنامي مزيّنًا بالرؤى؟

وإنّي مع ذلك أباركّكم أكثر ما أباركّكم لهذه:

أنتم تعطون الكثير في حين أنّكم لا تعلمون مطلقًا أنّكم تعطون.

الحقّ أقول لكم إنّ المعروف الذي يتطلّع إلى نفسه في المرآة، حجرًا يستحيل.

وعمل الخير الذي يدعو نفسه بألقاب لطيفة، لا يستولد إلّا اللعنة.

لقد حسبني بعضكم انطوائيًّا وثملًا بخمر توحُّدي.

فقلتم، «إنّـه ليؤثر التحادث مع أشجار الغاب على التكلّم مع الناس.

يجلس وحيدًا على رؤوس التلال وينظر إلى مدينتنا من عل».

صحيح أنّي تسلّقت التلال وعرَفت قدماي أمكنة قصيّة.

ولكن كيف كان لي أن أُبصركم، ما لم أنظر إليكم من علوّ شاهق أو من مسافة بعيدة؟

كيف يمكن لأحد أن يكون حقًّا قريبًا ما لم يكن بعيدًا؟

وآخرون بينكم ندهوا إليّ ولكن من غير كلام، فقالوا،

«أيّها الغريب الغريب، المغرم بأعال لا يمكن بلوغها. ما سكناك في الذرى حيث النسور تبني أعشاشها؛

ما جدّك في طلب ما قطّ لن يُبلغ؟

أيّ عواصف تطمح إلى أن تصطادها بشباكك،

وأيّ طيور سديميّة تُرى، أنت تقتنصها في الفضاء؟

تعال وكن واحدًا منّا.

إهبط إلينا وسكّن جوعك بخبز من خبزنا، وأطفىء عطشك بخمرة من خمرنا».

قالوا هذه الأشياء بدافع من الوحدة في نفوسهم؛

ولكن، لو أنّ وحدتهم كانت بعد أشدّ عمقًا، لأدركوا أنّ مطلبي ما كان إلّا سرّ الفرح وسرّ الألم في كلّ واحد منكم،

وإنّي ما كنت أطارد سوى ذواتكم العظمى التي تجوب السماء.

إلّا أنّ المطارِد كان أيضًا هو المطارَد؛

ذلك أنّ الكثير من سهامي ما انزلقت عن قوسي إلّا لتعود إلى صدري.

وأنّ المحلّق كان هو الزاحف أيضًا؛

ذلك أنّ جناحيّ وهمّا يلاقيان الشمس، كان ظلّهما الذي على الأرض سلحفاة.

وإنّي أنا المؤمن كنت الملحد أيضًا؛

ذلك أنّي غالبًا ما وضعت إصبعي في جرحي أنا نفسي، كي يكون لي إيماني الأعظم بكم ومعرفتي الأهمّ.

وإنّي انطلاقًا من هذا الإيمان وتلك المعرفة أقول،

أنتم لستم رهناء أجسادكم ولا أنتم أسرى بيوت أو حقول،

إنّ ذاك الذي هو أنتم، إنّما يقيم أعلى من الجبال، وإنّما يطوف مع الرّيح.

هو ليس شيئًا يدبّ نحو نور الشمس طلبًا للدّفء، أو يحفر أنفاقًا في الظلمة طلبًا للسلامة،

بل هو شيء حرّ. هو روح يحتضن الأرض ويجوب الأثير.

إن تكن هذه كلمات غامضة، فلا تحاولوا أن توضحوها.

غامضة وغائمة هي بداية كلّ شيء، إلّا أنّ هذا ليس شأن النهايات.

وإنّه لبودي أن تذكروني كبداية:

فالحياة وجميع ما هو حيّ، إنّما يتكوّن في السديميّ لا في البلّوري.

ومن ذا الذي يدري ما إذا لم تكن البلّورة سوى سديم متعفّن؟

رجائي إليكم في حال تذكّرتموني أن تتذكّروا هذا:

إنّ ما يبدو فيكم غاية في الضعف والارتباك، هو فيكم الأقوى والأشدّ تصميمًا.

أليس أنّ نَفَسكم هو الذي شاد بنيَتكم العظاميّة وشدّدها؟

أليس أنّ حلمًا لا يذكر أحد منكم أنّه يومًا حلمه، هو الذي شاد مدينتكم وكلّ الذي فيها؟

لو أنّه كان فقط باستطاعتكم أن تروا أمواج ذلك النَفَس، لعزفتم عن رؤية أيّ شيء سواه.

أو لو أنّكم تستطيعون سماع ذلك الحلم في همساته، لامتنعتم عن سماع أيّ شيء آخر.

إلّا أنّكم لا ترون ولا تسمعون. وإنّه لجيّد ألّا تفعلوا.

فالنقاب الذي يغشّي اليوم أبصاركم، سترفعه الأيدي التي تسبّبت في حياكته.

والطين الذي يصطم الآن آذانكم، سيتمّ ثقبه بتلك الأصابع عينها التي جبلته.

وإنّكم سترون

وإنّكم ستبصرون

غير أنّكم لن تحزنوا بسبب من أنّكم عرفتم العمى، أو من أنّكم كنتم طرشانًا،

ذلك لأنّكم يومها ستعرفون الغايات الخفّية وراء جميع الأشياء

وستباركون الظلمة كما تباركون النور.

وبعد أن قال هذه الأشياء، تطلّع حوله فرأى قبطان سفينته واقفًا عند الدفّة، ينظر تارة إلى الأشرعة المستعدّة وأخرى إلى عرض المحيط. فقال،

صبور، جدّ صبور، هو قبطان سفينتي.

الريح مؤاتية والأشرعة تصطفق على غير اصطبار؛

حتّى الدفّة تستعجل إشارة المسار؛

لكنّ قبطاني ينتظر في هدوء وقوفي عن الكلام

وبحّارتي هؤلاء، الذين تعوّدوا سماع تراتيل البحر الأعظم،

هم أيضًا رافقوا بصبر كلامي

ولم يعودوا بعد صابرين.

ها إنّني مستعدّ.

فالجدول قد بلغ البحر، وها إنّ الأم العظيمة تشدّ وليدها إلى صدرها من جديد.

وداعًا يا أهل أورفليس،

فالنهار هذا بلغ النهاية،

وهو ينغلق علينا تمامًا كما تنغلق على غدها زهرة النيلوفر.

ما أُعطيناه هنا سنحرص حقًّا عليه،

أمّا إذا لم يكن كافيًا، فإنّا علينا أن نجتمع ثانية، ومعًا أن نمدّ أيدينا إلى المُعطي.

لا تنسوا أنّي سأعود ثانية إليكم.

قليلًا، ويتّخذ حنيني غبارًا وزبدًا لجسد جديد.

قليلًا، هنيهةَ استراحة على سطح الريح، وتعود امرأة أخرى فتلدني.

وداعًا لكم وللشباب الذي أمضيته معكم.

لم يكن أبعد من أمسِ أنّا التقينا في حلم.

فغنّيتم لي في وحدتي، وبنيت أنا من أشواقكم برجًا في السماء.

وها إنّ نومنا الآن قد هرب وانتهى الحلم، ولم نعد من نهارنا في أوّله.

فالظهيرة تزحمنا، وصباحنا الذي كان نصف يقظة قد اكتمل، وعلينا أن نفترق.

إذا كان لنا في شفق الذاكرة أن نجتمع ثانية، فسنتكلّم معًا من جديد، وستغنّون لي أغنية أعمق.

وإذا اتّفق أن اجتمعت أيدينا ثانية في حلم جديد، فسنبني معًا برجًا آخر في السماء.

* * *

وإذ قال هذا، أعطى الإشارة لبحّاريه، فرفعوا المرساة سريعًا وحرّروا السفينة من مرساها، واتّجهوا نحو الشرق.

وتعالى من الجمع هتاف وكأنّه آتٍ من قلب واحد، فتصاعد إلى الشفق وانداح فوق البحر كمعزوفة أبواق كثيرة،

فقط ألميترا ظلّت صامتة، ترافق السفينة بناظريها إلى أن غيّبها السديم.

وبعد أن تفرّق الجمع كلّه، ظلّت هي واقفة عند حائط المرفأ تستعيد في سرّها قوله،

«قليلًا، هنيهة استراحة على سطح الريح، وتعود امرأة أخرى فتلدني».

رمل وزبد

كتاب أوابد

Sand and Foam, 1926

رمل وزبد

أبدًا أمشي على هذه الشواطئ
ما بين رمل وزبد.
يأتي المدّ فيمحو آثار أقدامي
وتأتي الريح فيندثر الزبد.
أمّا البحر والشاطئ فأبدًا باقيان.

* * *

ملأت قبضتي مرّة ضبابًا
ثمّ فتحتها فإذا الضباب دودة.
وضممت قبضتي مرّة أخرى ثمّ فتحتها،
وإذا الذي في قبضتي عصفور.
وأعدت ضمّ قبضتي وفتحها
وإذا في مجوّفها رجل واقف
بوجه حزين ناظر إلى فوق.
وضممت كفّي ثانية، ولمّا فتحتها
لم يكن فيها إلّا ضباب.

غير أنّي سمعت أغنية في منتهى العذوبة.

* * *

كان فقط أمس عندما كنت أحسب نفسي شظيّة تهتزّ بلا إيقاع في فلك الحياة.

أمّا اليوم فأعرف أنّي فلك والحياة كلّها شظايا تدور في داخلي بموجب حركة موقّعة.

* * *

يقولون لي في يقظتهم، «أنت وعالمك الذي تحيا فيه لستما سوى حبّة رمل على الشاطئ اللامتناهي لبحر ليس له حدود.»

وأقول لهم في أحلامي، «أنا البحر اللامتناهي، وجميع العوالم ليست سوى حبّات رمل على شاطئي.»

* * *

فقط مرّة واحدة أُصِبت بالبكم، وذلك عندما سألني أحدهم، «من أنت؟»

* * *

أوّل فكرة لله كانت ملاكًا.

وأوّل كلمة لله كانت إنسانًا.

كنّا لألف ألف سنة كائنات مرفرفة، تائهة، مشوقة، قبل أن يمنحنا البحرُ وريحُ الغابة الكلمات.

كيف لنا إذن أن نعبّر عن الأيّام القديمة فينا وليس لنا سوى أصوات البارحة.

تكلّم أبو الهول فقط مرّة، وكان كلام أبي الهول، «حبّة الرمل صحراء والصحراء حبّة رمل، فلنَلُذ جميعًا إذن بالصمت من جديد.»

سمعت أبا الهول لكنّني لم أفهم قوله.

رأيت مرّة وجه امرأة، وأبصرت فيه جميع أولادها الذين بعد لم يولدوا.

ونظرت امرأة إلى وجهي فعرفت جميع أجدادي الذين ماتوا قبل أن تولد.

بودّي الآن لو أحقّق ذاتي: ولكن كيف لي ذلك ما لم أصبح جرمًا تسكنه حيوات عاقلة؟

أليست هذه غاية كلّ إنسان؟

اللؤلؤة معبد بناه الألم حول حبّة رمل.

أيّ شوق هو ذاك الذي بنى أجسادنا وحول أيّ حُبَيبات؟

* * *

عندما ألقى بي الله حصاة في مياه هذه البحيرة الرائعة، أحدَثتُ على وجهها ما لا يُحصى من الدوائر.

لكنّني عندما بلغت الأعماق صرت غاية في السكون.

* * *

أعطني السكوت، فأتحدّى الليل.

* * *

أُعطيت ولادة ثانية، إذ أحبّ جسدي وروحي واحدهما الآخر، وتزوّجا.

* * *

عرفت ذات مرّة رجلًا بأذنين هما غاية في الرهافة، إلّا أنّه كان أخرس، نتيجة معركة خسر فيها لسانه.

أدرك الآن أيّ معارك خاضها ذلك الرّجل قبل أن جاء السكوت الأعظم. يسعدني أنّه قد مات.

العالم ليس من الرّحابة بحيث يتّسع لإثنين منّا.

* * *

يا لَطول ما رقدتُ في رمال مصر، صامتًا، لا أحسّ الفصول.

ولم تلبث الشمس أن ولدتني، فنهضت وتمشّيت على شواطئ النيل،

أغنّي مع النهار وأحلم مع الليل.

والشمس الآن تدوسني بآلاف الأقدام كيما أرقد ثانية في رمال مصر.

ولكن هوذا أعجوبة وأحجية!

فالشمس إيّاها التي جمعتني هي عاجزة عن تبديدي.

فأنا ما زلت منتصبًا، وأتمشّى بقدم ثابتة على شواطئ النيل.

* * *

التذكّر هو نوع من اللّقاء.

* * *

التناسي هو نوع من التحرّر.

* * *

نقيس نحن الزمن بموجب تحرّك ما لا يحصى من الشموس؛ ويقيسون هم الزمان بموجب آلات صغيرة في جيوبهم الصّغرى.

قولوا لي إذن كيف يمكن لنا أبدًا أن نلتقي في المكان الواحد والزمن الواحد؟

* * *

ليست المسافة ما بين الأرض والشمس مسافة للذي يتطلّع إلى أسفل من نافذة في المجرّة.

* * *

الإنسانيّة نهر من ضوء يجري من الأبديّة الأسبق إلى الأبديّة.

* * *

الأرواح التي تسكن الأثير، ألا تحسد الإنسان على ألمه؟

* * *

إلتقيت في طريقي إلى المدينة المقدّسة حاجًا آخر، فسألته، «هل هذه حقًّا الطريق إلى المدينة المقدّسة؟»

فأجاب، «إتبعني، فتبلغ المدينة المقدّسة خلال يوم وليلة.»

فتبعته، ولكنّا مشينا عدّة أيّام وليال من غير أن نبلغ المدينة المقدّسة.

لكنّ ما أثار دهشتي، أنّه كان غاضبًا عليّ لأنّه أساء هدايتي.

* * *

إجعلني يا ألله فريسة الأسد قبل أن تجعل الأرنب فريستي.

* * *

ما لأحد أن يبلغ الفجر إلّا عن طريق الليل.

* * *

يقول لي بيتي، «لا تتخلَّ عنّي، فهنا يمكث ماضيك».

وتقول لي الطريق، «تعال واتبعني، لأنّي أنا آتيك».

وأقول لبيتي وطريقي كلَيهما، «لا ماض لديّ ولا مستقبل. إن أنا بقيت هنا فثمّت ذهاب في بقائي؛ وإن أنا ذهبت فثمّت بقاء في ذهابي. من شأن الحبّ والموت فقط أن يُغيّرا جميع الأشياء.

* * *

كيف يمكن ألّا أؤمن بعدالة الحياة، إذا كانت أحلام الذين ينامون على فرش من ريش ليست أكثر جمالًا من أحلام الذين ينامون على التراب.

* * *

غريب، أن يكون اشتهائي لبعض الملذّات جزءًا من ألمي.

* * *

سبع مرّات فيها استصغرت نفسي:

الأولى عندما رأيتها تتّضع أملًا في أن تحصل على رفعة.

والثانية عندما رأيتها تعرج أمام مكرسحين.

والثالثة عندما خُيِّرَت ما بين الهيّن والعسير، فاختارت الهيّن.

والرابعة عندما ارتكبت خطأ، وهوّنت على نفسها في أنّ الآخرين أيضًا يخطئون.

والخامسة عندما صبرت على الضعف وعزت تجمّلها إلى قوّة.

والسادسة عندما احتقرت بشاعة وجه ما، من غير أن تدري أنّه واحد من أقنعتها.

والسابعة عندما غنّت أغنية مديح، واعتبرتها فضيلة.

* * *

أنا أجهل الحقيقة المطلقة، إلّا أنّي أتّضع أمام جهلي، وفي هذا مكمن فخري وجزائي.

* * *

بين المتخيَّل عند الإنسان وبين البلوغ، مسافة لا يمكن له اجتيازها إلّا بالإشتياق.

* * *

الجنّة هناك خلف الباب في الغرفة المجاورة؛ إلّا أنّي أضعت المفتاح.

يمكن أن أكون فقط قد وضعته في غير موضعه.

* * *

أنت أعمى وأنا أصمّ وأخرس، دعنا إذا نتلامس بالأيدي فنتفاهم.

* * *

أهميّة الإنسان ليست في ما يبلغه بل في ما يتوق إلى بلوغه.

* * *

بعضنا كالحبر وبعضنا كالورق.

ولولا السواد في بعضنا لكان بعضنا أخرس؛

ولولا البياض في بعضنا لكان بعضنا أعمى.

* * *

أعطني أذنًا فأعطيك صوتًا.

* * *

عقلنا اسفنجة وقلبنا جدول. أليس غريبًا أنّنا في معظمنا نؤثر الإمتصاص على الجريان؟

* * *

عندما تتوق إلى نِعَمٍ قد لا تعرف لها إسمًا، وتحزن من غير أن تعرف للحزن سببًا، عندهاً حقًّا تكون في نموّ مع جميع الأشياء التي تنمو، وفي تسامٍ نحو ذاتك الكبرى.

* * *

عندما يسكر أحدنا برؤية من رؤاه، فإنّه يحسب التعبير عنها ولو بِحَدِّهِ الأدنى، خمرة بالذّات.

* * *

أنت تشرب الخمرة من أجل أن تسكر؛ وأشربها أنا علّها تصحّيني من تلك الخمرة الأخرى.

* * *

عندما تكون كأسي فارغة أحمل نفسي على التصالح مع ذلك الفراغ. أمّا عندما تكون نصف ملآنة فأنتفض على ذلك الإمتلاء النصفيّ.

* * *

حقيقة الشخص الآخر ليست في ما يُظهره لك بل في الذي لا يستطيع إظهاره.

ففي حال شئت أن تفهمه إذن، إستمع لا إلى ما يقوله بل إلى الذي ظلّ من غير كلام.

* * *

نصف الذي أقوله لا معنى له؛ إلّا أنّي مع ذلك أقوله كي يتسنّى للنصف الثاني أن ينتهي إليك.

* * *

روح النكتة هو روح التناسب.

* * *

وِلـدَت وحدتي عندما امتدح الناس أخطائي الثرثارة، ولاموا فضائلي الصامتة.

عندما لا تجد الحياة مغنّيًا يغنّي ما في قلبها تأتي بفيلسوف ينطق بما في عقلها.

* * *

للحقيقة أن تُعرَف دائمًا، وأن يُنطَق بها أحيانًا.

* * *

الأصيل فينا ساكت؛ أمّا المكتَسَب فثرثار.

* * *

صوت الحياة فيّ لا يستطيع أن يبلغ أذن الحياة فيك ولكن دعنا نتكلّم كي لا نشعر بالوحدة.

* * *

عندما تتحدّث امرأتان، لا تقولان شيئًا؛ وعندما تتكلّم امرأة واحدة تنكشف كلّ الحياة.

* * *

قد تنقّ الضفادع أعلى من خوار الثيران، ولكنّها لا تستطيع جرّ المحراث في الحقل ولا تشغيل دولاب المعصرة. كما أنّ جلودها لا تصلح لصنع الأحذية.

* * *

الخرس وحدهم يحسدون الثرثارين.

* * *

إذا اتّفق للشتاء أن قال، «الربيع في قلبي»، فمن تراه سيصدّق الشتاء.

* * *

كلّ بذرة، شوق مكتوم.

* * *

إذا أنت فتحت عينَيك حقيقةً كي ترى، فستبصر صورتك في كلّ صورة.

وإذا أنت فتحت أذنَيك لتسمع، فستسمع صوتك أنت في كلّ الأصوات.

* * *

يقتضي اكتشاف الحقيقة أن نكون إثنين، واحدًا لينطق بها والآخر ليفهمها.

* * *

أبدًا يتقاذفنا موج الكلمات، إلّا أنّ أعماقنا أبدًا سكوت.

* * *

معتقدات كثيرة هي كزجاج النافذة، نرى الحقيقة من خلاله ولكنّه يعزل بيننا وبينها.

* * *

تعال نلعب لعبة «الغمّيضة والمخباية». إذا أنت اختبأت في قلبي فلن يكون من الصّعب أن تُكتشف. أمّا إذا اختبأت وراء صَدَفة ذاتك فسيكون من العبث لأيّ كان أن يبحث عنك.

* * *

قد تُقنِّع المرأة وجهها بابتسامة.

* * *

ما أنبل القلب الحزين الذي فيه أن يغنّي أغنية فرح مع قلوب فرحانة.

* * *

شأن من يعمد إلى أن يفهم امرأة، أو يشرّح عبقرية، أو يحلّ لغز السكوت، هو شأن من يستفيق من حلم جميل ليجلس إلى طاولة الفطور.

* * *

أرضى أن أمشي مع جميع الذين يمشون. ولا أرضى أن أقف جامدًا لأتفرّج على الموكب المارّ من أمامي.

* * *

أنت مدين لمن يخدمك بأكثر من ذهب. أعطه من قلبك أو أُخدمه.

* * *

لا! نحن لم نحيا عبثًا. أليس أنّهم بنوا أبراجًا من عظامنا؟

* * *

دعونا لا نكون تدقيقيّين وتصنيفيّين. فعقل الشاعر وذنب العقرب يشرئبّ كلاهما بمجد من التربة نفسها.

* * *

من شأن كلّ تنّين أن يلد خضرا يقتله.

* * *

الأشجار قصائد تكتبها الأرض على صفحة السماء. فنقطعها نحن ونحوّلها إلى ورق كيما نسجّل عليه خواءنا.

* * *

إذا عنّ لك أن تكتب (والقدّيسون وحدهم يعرفون لماذا يعنّ) فعليك أن تكون ذا معرفة وفنّ وسحر – معرفة موسيقى الألفاظ، وفنّ أن تكون بلا تفنّن، وسحر أن تحبّ قارئيك.

* * *

يغمسون أقلامهم في قلوبنا، ويحسبون أنفسهم ملهمين.

* * *

إذا كان لشجرة أن تكتب سيرتها الذاتيّة، فلن تكون تلك السيرة مختلفة عن تاريخ سلالة.

* * *

إذا كان لي أن أختار بين القدرة على كتابة قصيدة وبين نشوتي بقصيدة بعد لم تُكتب، لاخترت النشوة. إنّها شعر أفضل.

لكنّك أنت وجميع جيراني متّفقون علىٰ أنّني دائمًا أُسيئ الإختيار.

* * *

الشعر ليس رأيًا يُعبّر عنه، إنّه أغنية تنبجس من جرح ينزف أو فم يبتسم.

* * *

الكلمات لا زمن لها، فعليك أن تتفوّه بها أو تكتبها وأنت على دراية بلا زمنيّتها.

* * *

الشاعر ملك مخلوع جالس ما بين مرمّدات قصره محاولًا تكوين صورة من خلال ذلك الرّماد.

* * *

الشعر هو مسألة فرح وألم ودهشة، مع وَصْلَةٍ من قاموس.

* * *

عبثًا يحاول شاعر أن يهتدي إلى الأمّ التي ولدت أغنيات قلبه.

* * *

قلت مرّة لشاعر، «نحن لن نعرف قدرك إلّا بعد موتك.» فأجاب قائلًا، «أجل، الموت هو الكشّاف دائمًا. وإذا كنت تريد حقًّا أن تعرف قدري، فهو أنّ الذي في قلبي أكثر من الذي على لساني، وأنّ الذي في أمانيّ أكثر من الذي بين يديّ.»

* * *

إذا أنـت غنّيت الجمـال، حتّى ولـو كنت فـي عمق الصحراء، فستحظى بمستمعين.

* * *

الشعر حكمة تسحر القلب.
الحكمة شعر يرنّم في العقل.
إذا تيسّر لنا أن نسحر قلب الإنسان وأن نرنّم بالوقت نفسه في عقله،
كان لذلك الإنسان، عندها، أن يحيا حقًّا في ظلّ الله.

* * *

دأْبُ الإلهام دائمًا أن يُنشد؛ الإلهام أبدًا لا يفسّر.

* * *

كثيرًا ما نرنّم التهويدات لأطفالنا كيما نحن أنفسنا ننام.

* * *

ما كلماتنا جميعًا سوى الفُتات الذي يقع عن وليمة العقل.

* * *

التفكير هو دائمًا حجر العثرة في درب الشِّعر.

* * *

المغنّي العظيم هو ذاك الذي يغنّي صمتنا.

* * *

كيف يمكنك الغناء إذا كان فمك مليئًا بالطعام؟

كيف ليدك أن ترتفع لتبارك، إذا كانت ملأى بالذهب.

* * *

يقولون إنّ الهزار يثقب صدره بشوكة عندما يغنّي أغنية حبّه.
هكذا نفعل نحن جميعًا. وإلّا كيف لنا أن نغنّي؟

* * *

ما العبقرية سوى أغنية من أغنيات «أبي الحنّاء» في مطلع ربيع تباطأ.

* * *

حتّى أرفع الأرواح تحليقًا، لا تستطيع التهرّب من الضرورة البدنيّة.

* * *

المجنون ليس أقلّ موسيقيّة منك أو منّي. فقط الآلة التي يلعب عليها هي بحاجة إلى بعض التوقيع.

* * *

الأغنية التي تنام صامتة في قلب الأمّ، تصدح مغنّية على شفتي طفلها.

* * *

ما من حنين يبقى بلا استجابة.

* * *

لم أكن يومًا على وفاق تامّ مع ذاتي الأخرى.
حقيقة الأمر، على ما يبدو، تقع في مكان ما بيننا نحن الإثنين.

* * *

ذاتك الأخرى دائمًا حزينة من أجلك. لكن ذاتك الأخرى إنّما تغتذي بالحزن. لذلك لا مشكلة إطلاقًا.

* * *

لا صراع بين الروح والجسد إلّا في أذهان أولئك الذين أرواحهم في رقاد، وأجسادهم نشاز.

* * *

عندما تبلغ قلب الحياة ستجد جمالًا في جميع الكائنات، حتّى في العيون العمياء عن الجمال.

* * *

نحن لا نحيا إلّا لنكتشف الجمال. كلّ ما عدا ذلك هو ضرب من الإنتظار.

* * *

إبذر بذرة. فتردّ عليك الأرض زهرة. إحلم حلمك للسماء فتردّ عليك السماء حبيبك.

* * *

مات الشيطان في النهار ذاته الذي فيه ولدتَ.
فليس عليك إذن أن تعبر جهنّم من أجل أن تلتقي ملاكًا.

* * *

نساء كثيرات يقترضن قلب رجل؛ لكن قليلات يتمكّنّ من امتلاكه.

* * *

إذا شئت أن تمتلك فعليك ألّا تطالب.

* * *

عندما تلمس يد الرجُل يد المرأة، يلمس الإثنان كلاهما قلب الأبديّة.

* * *

الحبّ هو الحجاب ما بين العاشقَين.

* * *

كلّ رجل يحبّ إمرأتين، واحدة من خلق خياله، وأخرى ما ولدَت بعد.

* * *

الرجال الذين لا يغفرون للنساء هفواتهنّ الصغيرة، لن ينعموا بالعظيم من فضائلهنّ.

* * *

الحبّ الذي لا يجدّد نفسه يوميًّا يصبح عادةً ويتحوّل إلى عبوديّة.

* * *

العاشقان لا يعانقان واحدهما الآخر بل الذي بينهما.

* * *

الحبّ والشكّ، لم يكونا يومًا على تواصل.

* * *

الحبّ كلمة من نور مكتوبة بيد من نور على صفحة من نور.

* * *

الصداقة هي دائمًا مسؤوليّة حلوة، وليست أبدًا مناسَبَة.

* * *

إذا أنت لم تتفهّم صديقك في كلّ الظروف فأنت لن تفهمه مدى الحياة.

* * *

إنّ أكثر أثوابك ألقًا هو من حياكة الإنسان الآخر؛

إنّ ألذّ وجباتك إليك هي تلك التي تتناولها على مائدة الإنسان الآخر؛

إنّ أهنأ أسرّتك إليك هو في بيت الإنسان الآخر.

تعال فأخبرني إذن، كيف لك أن تفصل نفسك عن الإنسان الآخر؟

* * *

عقلك وقلبي لن يتّفقا أبدًا ما لم يتوقّف عقلك عن سكنى الأرقام، وقلبي عن العيش في الضباب.

* * *

لن نستطيع يومًا أن يفهم واحدنا الآخر ما لم تُختَزَل اللّغة في سبع كلمات.

* * *

كيف لقلبي أن يُزال عنه الختم، ما لم يتحطّم؟

* * *

وحده الحزن العظيم أو الفرح العظيم يستطيع أن يكشف عن حقيقتك.

لقد بات عليك، إذا كان لحقيقتك أن تُكشف، إمّا أن ترقص عريانًا تحت الشمس، أو أن تحمل صليبك.

* * *

لو كان للطبيعة أن تستجيب لِما نقوله عن القناعة، لَما توجّه نهر إلى البحر ولَما سعى شتاء إلى ربيع. ولو كان لها أن تستجيب لِما نقوله عن الإسراف، فكم منّا كانوا يتنفسّون هذا الهواء؟

* * *

عندما تدير ظهرك للشمس، لن تعود ترى غير ظلّك.

* * *

أنت حرّ أمام شمس النهار، وأنت حرّ أمام نجوم الليل؛
وأنت حرّ عندما لا تكون شمس ولا قمر ولا نجوم.
أنت حرّ حتّى عندما تطبق عينَيك على كلّ ما هو كائن.
إلّا أنّك عبد لمن تحبّ لأنّك تحبّه،
وعبد للّذي يحبّك لأنّه يحبّك.

* * *

نحن جميعًا شحّاذون عند باب الهيكل، وكلّ منّا يتسلّم نصيبه من أعطيات المَلِك عند دخوله الهيكل وعند خروجه منه.

لكنّنا بلا استثناء محسودون واحدنا من الآخر، وهذا سبيل آخر إلى الحطّ من جلالة الملك.

* * *

أنت لا تستطيع أن تأكل فوق طاقتك. فالنّصف الآخر من الرغيف يخصّ الشخص الآخر، كما ينبغي أن تبقى لقمة صغيرة للضّيف الطارئ.

* * *

لولا الضيوف، لتحوّلت البيوت كلّها إلى مقابر.

* * *

قال ذئب متلطّف لخروف وضيع، «ألا تشرّف بيتنا بزيارة؟»
فأجاب الخروف: «كان يشرّفنا أن نزور منزلكم لو أنّه لم يكن في معدتكم.»

* * *

أوقفت ضيفي عند العتبة قائلًا، «لا، لا تمسح رِجلَيك وأنت تدخل، بل عند خروجك.»

* * *

الكرَم ليس في أن تعطيني ما أنا بحاجة إليه أكثر منك، بل في أن تعطيني ما أنت بحاجة إليه أكثر منّي.

* * *

تكون محسنًا حقًّا عندما تعطي، وأنت مُديرٌ وجهك بحيث لا ترى حياء الذي تعطيه.

* * *

الفرق بين أغنى رجل وبين أفقرهم هو مسألة نهار من جوع وساعة من عطش.

* * *

نحن غالبًا ما نقترض من غدنا كي نسدّد ما استدنّاه من البارحة.

* * *

أنا أيضًا تزورني ملائكة وشياطين، لكنّني أتخلّص منهم.
عندما يكون الزائر ملاكًا، أصلّي صلاة قديمة، فيحلّ به الضجر؛
وعندما يكون شيطانًا أقترف خطيئة قديمة، فيتحوّل عنّي.

* * *

هذا، على أيّ حال، ليس سجنًا سيّئًا؛ لكنّي لا أحبّ هذا الحائط بين زنزانتي وزنزانة السجين الآخر؛
ومع ذلك أؤكّد لك أنّي لا أرغب في أن ألوم السجّان ولا الذي بنى السجن.

* * *

هؤلاء الذين إذا طلبت منهم سمكة أعطوك ثعبانًا، قد لا يكون عندهم ما يعطونه سوى الثعابين. إذن فذلك من جهتهم سخاء.

* * *

التحايل ينجح أحيانًا، ولكنّه دائمًا ينتحر.

* * *

أنت غفور حقًّا عندما تصفح عن قَتَلة لا يسفكون أبدًا دمًا، وعن لصوص أبدًا لا يسرقون، وعن كذَبَة لا ينطقون بباطل.

* * *

من كان باستطاعته أن يضع إصبعه على الحدّ الفاصل بين الخير والشرّ، كان باستطاعته بلوغ حدّ أن يلمس هدب ثوب الله.

* * *

إذا كان قلبك بركانًا فكيف تتوقّع للأزاهر أن تتفتّح بين يديك؟

* * *

طريقة غريبة من طرق المبالغة في إمتاع الذات! ثمّت أوقات يُساء فيها إليّ وأُخدع، في سبيل أن أضحك على حساب أولئك الذين يعتقدون أنّني لا أدري بأنّه يُساء إليّ وأنّني أُخدع.

* * *

ماذا عساي أقول في الملاحِق الذي يلعب دور الملاحَق.

* * *

دع الذي يمسح يديه المتّسختين بثوبك، يأخذ ثوبك. فقد يحتاج إليه ثانية؛ في حين أنّك قطعًا ما عدت بمثل تلك الحاجة.

* * *

مؤسف أنّ الصيارفة لا يمكنهم إجادة البستنة.

* * *

رجاء لا تُبيّضوا عيوبكم المتأصّلة بفضائلكم المكتسَبة. فأنا أفضّل العيوب، ذلك أنّها شبيهة بعيوبي.

* * *

كم من مرّة نسبت إلى نفسي جرائم لم أرتكبها، وذلك من أجل أن يشعر الشخص الآخر بارتياح في حضوري.

* * *

حتّى أقنعة الحياة، هي أقنعة لأسرار أعمق.

* * *

لك أن تحكم على الناس فقط وفق معرفتك لنفسك.
أخبرني الآن، من منّا هو المذنب ومن منّا البريء؟

* * *

العادل حقًّا هو ذاك الذي يشعر أنّه نصف مسؤول عن ذنوبك.

* * *

لا ينقض الشرائع البشرية إلّا أبله أو عبقريّ. والإثنان كلاهما، هما الأقرب إلى قلب الله.

* * *

فقط عندما تكون ملاحَقًا، تغدو سريعًا.

* * *

لا أعداء عندي، يا ربّ، وإذا كان لا بدّ من عدوّ
فاجعل قوّته معادلة لقوّتي،
كي تكون الحقيقة وحدها هي المنتصرة.

* * *

ستكون على ودّ أكيد مع عدوّك عندما تموتان كلَيكما.

* * *

قد يحدث أن ينتحر الإنسان دفاعًا عن النفس.

* * *

حدث في الماضي البعيد أنّ رجلًا صُلِبَ لكثرة ما أَحَبَّ ولشدّة ما أُحِبّ.

وغريب أن أروي أنّي لقيته البارحة ثلاث مرّات.

في المرّة الأولى كان يطلب إلى أحد رجال الأمن ألّا يقتاد إحدى المومسات إلى السّجن؛ وفي الثانية كان يتناول الخمرة مع أحد المنبوذين؛ وفي الثالثة كان يعارك بقبضتَيه أحد المبشّرين داخل الكنيسة.

* * *

إذا صحّ كلّ ما يقولونه عن الخير والشرّ، فحياتي إذن ليست سوى جريمة واحدة طويلة.

* * *

ما الشفقة سوى نصف عدالة.

* * *

الوحيد الذي ظلمني، هو الذي لم أكن عادلًا مع أخيه.

* * *

عندما ترى رجلًا يقودونه إلى السجن قل في قلبك، «قد يكون أنّه هارب من سجن أضيق».

وعندما ترى أحدهم سكرانًا قل في قلبك، «قد يكون أنّه يطلب الهرب من شيء هو بعد أكثر بشاعة.»

* * *

غالبًا ما أبغضتُ دفاعًا عن النفس؛ لكنّني لو كنت أقوى لما لجأت إلى مثل هذا السلاح.

* * *

ما أغبى الذي يلجأ إلى رَتْقِ الكراهية في عينَيه، بابتسامة على الشفتين.

* * *

فقط للّذين هم دوني أن يحسدوني أو يكرهوني.
لم يسبق أن حسدني أحد أو كرهني؛ أنا لست أعلى من أحد.
فقط للّذين هم فوقي أن يمتدحوني أو يستخفّوا بي.
لم يسبق أن امتدحني أحد أو استخفّ بي؛ أنا لست دون أحد.

* * *

قولك لي، «أنا لا أفهمك»، هو مدح فوق ما أنا جدير به، وإهانة لك أنت لا تستحقّها.

* * *

كم أنا خسيس إذ تعطيني الحياة ذهبًا فأعطيك فضّة، وأعتبر نفسي مع ذلك كريمًا.

* * *

عندما تبلغ قلب الحياة، ستجد أنّك لست أعلى من الشرير ولا أدنى من النبيّ.

* * *

غريب منك أن تشفق على بطيئي الرِجْلِ لا بطيئي العقل.

وعلى أعمى العين لا أعمى القلب.

* * *

إنّه لأحكم بالنسبة إلى الأعرج ألّا يكسر عكّازه على رأس عدوّه.

* * *

كم هو أعمى ذلك الذي يعطيك من جيبه كَيْما يأخذ من قلبك.

* * *

الحياة موكب. بطيء الرِّجْل يحسبها فائقة السّرعة فيتنحّى؛ وسريع الرِّجل يحسبها جدّ بطيئة، فيتنحّى هو الآخر.

* * *

إن يكن من شيء اسمه الخطيئة، فإنّ بعضنا يرتكبها تراجعًا، سيرًا على سنّة الأجداد.

وبعضنا يرتكبها استباقًا، فيهيمن على أبنائنا.

* * *

الخيّر حقًّا هو الذي يكون واحدًا مع جميع المعتبرين أردياء.

* * *

نحن جميعًا سجناء، إلّا أنّ بعضنا سجين في زنزانات لها نوافذ وبعضنا في أخرى من دونها.

* * *

غريب أنّنا جميعًا ندافع عن الملتوي فينا باندفاع أقوى ممّا في دفاعنا عن المستقيم.

* * *

إذا نحن اعترفنا بخطايانا واحدنا للآخر، فسنضحك جميعًا واحدنا على الآخر، لانعدام الجِدَّة في ما نقول.

* * *

وإذا نحن كشفنا جميعًا عن فضائلنا، فسنضحك أيضًا للسبب نفسه.

* * *

يبقى الفرد فوق الشرائع التي يسنّها البشر إلى أن يرتكب جريمة ضدّ الأعراف البشريّة؛

فهو بعد ذلك لا فوق أحد ولا أدنى من أحد.

* * *

الحُكْمُ هو اتّفاق ما بينك وبيني. أنت وأنا غالبًا ما نكون على خطأ.

* * *

الجريمة هي إمّا اسم آخر للحاجة أو عارض لمرض.

* * *

هل من خطأ أفدح من أن تكون على وعي لأخطاء الآخر؟

* * *

إذا ضحك الآخر عليك، فبإمكانك أن تشفق عليه؛ أمّا إذا ضحكت أنت عليه فقد لا تغفر لنفسك مدى الحياة.

إذا آذاك الآخر، فربّما تنسى الأذيّة، أمّا إذا أنت آذيته فستذكر دائمًا ذلك.

الإنسان الآخر في الحقيقة، هو ذاتك الفائقة الإحساس وقد اتّخذَت جسدًا آخر.

* * *

كم أنت غافل إذ تريد من الآخرين أن يطيروا بجناحيك، في حين أنّك لا تستطيع أن تعطيهم حتّى ولو ريشة.

* * *

جلس رجل مرّة إلى مائدتي فأكل خبزي وشرب نبيذي وانصرف ضاحكًا عليّ.

وعاد فأتى ثانية طلبًا للخبز والنبيذ، فمنعته بازدراء.

فضحك عليّ الملائكة.

* * *

الكراهية هي شيء ميت. من تُرى يرضى أن يكون قبرًا؟

* * *

إنّه لشرف للقتيل، أنّه ليس القاتل.

* * *

صمّام الحقّ إنّما هو قائم في قلب الإنسانيّة الصامت، لا في عقلها الثرثار.

* * *

يعتبرونني مجنونًا لأنّي لست أرضى أن أبيع أيّامي بالذهب؛
وأعتبرهم مجانين لأنّهم يعتقدون أنّ لأيّامي ثمنًا.

* * *

ينثرون أمامنا ثرواتهم من ذهب وفضّة، ومن عاج وأبنوس، وننثر أمامهم قلوبنا وأرواحنا؛

وهم مع ذلك يعتبرون أنفسهم المُضيفين ونحن الضيوف.

* * *

أفضّل أن أكون أقلّ الناس، ولي أحلامي ورغبتي في تحقيقها، على أن أكون أعظمهم ولكن من دون أحلام ولا رغائب.

* * *

أكثرهم استدرارًا للشفقة مَن دأبُه تحويل أحلامه إلى فضّة وذهب.

* * *

نحن جميعًا في تسلّق نحو ذروة ما ترغب فيه قلوبنا. إذا حدث أن سلبك المتسلّق الآخر زادك ومحفظتك فزاده الأوّل سمنة والثاني ثقلًا، فأشفق عليه؛

لأنّ التسلّق بسبب شحمه سيزداد صعوبة، ولأنّ الثقل سيزيد في طول الطريق.

وإذا صدف، وأنت النحيل، أن رأيت لحمه ينتفخ إلى خارج، فأسعفه خطوة؛ ذاك سيضيف إلى رشاقتك.

* * *

أنت لا تستطيع أن تحكم على إنسان خارج نطاق معرفتك به. ومعرفتك هذه، كم هي ضئيلة.

* * *

لن أرضى الإستماع إلى منتصر يتكلّم إلى مقهورين.

* * *

الحُرّ حقًّا هو ذاك الذي يشيل عبء العبد المسترقّ بكلّ اصطبار.

* * *

قال لي جاري قبل ألف سنة، «أكره الحياة، لأنّها ليست سوى ضرب من الألم.»

وأمس مررت بالمدافن فرأيت الحياة ترقص على قبره.

* * *

ليس التنازع في الطبيعة سوى الفوضى في شوقها إلى النظام.

* * *

الوحدة عاصفة صامتة تنزع عنّا جميع أغصاننا الميتة؛

ولكنّها إلى ذلك ترسل جذورنا الحيّة أعمق فأعمق في القلب الحيّ للأرض الحيّة.

* * *

تكلّمت إلى جدول مرّة عن البحر، فظنّ الجدول أنّي لست سوى مُغالٍ واسع الخيال؛

وتكلّمت مرّة للبحر عن جدول، فظنّني البحر انتقاصيًّا ومفتريًا.

* * *

كم هي حسيرة تلك النظرة التي ترفع عمل النملة فوق غناء الجندب.

* * *

أشرف الفضائل هنا قد تكون أدناها في عالم آخر.

* * *

العميق والعالي إنّما يمتدّان عمقًا وعلوًّا في خطّ مستقيم. وحده الرّحيب بمستطاعه التحرّك في دوائر.

* * *

لولا أنّ لنا مفهومنا للمعايير والمقاييس، لكنّا نقف أمام الحباحب بالرهبة ذاتها التي نحسّها أمام الشمس.

* * *

عالِمٌ بلا خيال، لحّام بسكاكين كليلة وموازين مستهلكة. ولكن ما العمل، ونحن لسنا جميعًا نباتيّين؟

* * *

عندما تغنّي يسمعك الجائع بمعدته.

* * *

الموت ليس أدنى إلى الشيخ منه إلى الوليد؛ والحياة كذلك.

* * *

إذا كان لا بدّ لك من الصراحة، فكن صريحًا بحلاوة؛ وإلّا فَالزم الصمت، ذلك أنّ في حيّنا رجلًا على فراش الموت.

* * *

قد تكون الجنازة عند الناس، وليمة عرس عند الملائكة.

* * *

قد يتّفق لحقيقة منسيّة أن تموت وأن تترك في وصيّتها سبعة آلاف من الوقائع الحسّية والمستندات الفعليّة لتُنفَق في جنازتها وفي بناء الضريح.

* * *

في الواقع، نحن لا نتكلّم إلّا مع أنفسنا، إلّا أنّنا أحيانًا نتكلّم عاليًا إلى حدّ يمكن للآخرين أن يسمعونا.

* * *

البديهيّ هو الذي يظلّ أبدًا نكرة إلى أن يعبّر عنه أحدهم ببساطة.

* * *

إذا لم تكن المجرّة في داخلي، فكيف تسنّى لي أن رأيتها وعرفتها؟

* * *

إنّهم، ما لم أكن طبيبًا بين أطبّاء، لن يصدّقوا أنّني فلكيّ.

* * *

قد يكون تعريف البحر للصَّدفة أنّها اللؤلؤة.
قد يكون تعريف الزمن للفحم أنّه الألماسة.

* * *

الشهرة ظِلُّ الطَّموحِ وهو واقف في الضوء.

* * *

الجَذر، زهرة لا تأبه للشُّهرة.

* * *

لا دين في ما بعد الجمال، ولا عِلم.

* * *

ما من رجل عظيم عرفتُه إلّا وفي تركيبته صغيرةٌ من الصَغائر؛ والصغيرةُ تلك هي التي حالت بينه وبين الهمود أو الجنون أو الإنتحار.

* * *

العظيم حقًّا هو ذاك الذي يرفض أن يتحكّم بأحد، ولا يرضى لأحد أن يتحكّم به.

* * *

لا أريـد أن أعتقد أنّ الإنـسان وسطيّ عـاديّ، فقط لأنّـه يقتل المجرمين والأنبياء.

* * *

التساهل حبّ مصاب بداء الغطرسة.

* * *

الديدان تتلوّى؛ ولكن أليس غريبًا أنّه حتّى الفِيَلة من شأنها أن تلين.

* * *

قد يكون الإختلاف في الرأي، القادوميّة الأقصر ما بين ذهنَين.

* * *

أنا اللّهب وأنا الفرشاة الجافّة، وبعضي يستهلك بعضي الآخر.

* * *

نحن جميعًا نقصد قمّة الجبل المقدّس؛ تُرى ألَنْ تكون طريقُنا أقصر إذا نحن اعتبرنا الماضيَ مجرّد خريطة لا دليلًا؟

* * *

الحكمة لا تعود حكمة عندما تكون من الإعتزاز بحيث لا تبكي، ومن الوقار بحيث لا تضحك ومن الإمتلاء الذاتيّ بحيث لا تسعى إلى غير ذاتها.

* * *

إذا أنا ملأت نفسي بكلّ الذي تعرفه أنتَ، فأيّ مكان يبقى فيها للّذي أنتَ لا تعرفه.

* * *

تعلّمت السكوت من الثرثارين والتّساهل من المتزمّتين واللّطف من القساة؛ لكن الغريب أنّي لست شاكرًا لمعلّمِيَّ.

* * *

المأخوذ برأيه خطيبٌ أصمّ.

* * *

سكوت الحسّاد كثير الضجيج.

* * *

عندما تبلغ منتهى ما عليك أن تعرف، تكون قد بلغت بداية ما عليك أن تحسّ.

* * *

المبالغة حقيقةٌ فقدَت صوابها.

* * *

إذا كنتَ لا ترى إلّا ما يظهره النور ولا تسمَعُ إلّا ما يذيعه الصوت، فأنت في الحقيقة لا ترى ولا تسمع.

* * *

الحقيقة الواقعيّة أنثى فاقدة الأنوثة.

* * *

لا يمكنك أن تضحك وأن تكون فظًّا في وقت واحد.

* * *

أقربهم إلى قلبي ملكٌ لا مملكةَ له، وفقيرٌ لا يعرف كيف يستعطي.

* * *

فشلٌ خجولٌ أنبل من نجاح متشاوِف.

* * *

إحفر حيث شئت في التراب فستجد كنزًا، ولكن شرط أن يكون لك إيمان الفلّاح.

* * *

قال ثعلب مطارَدٌ من عشرين خيّالًا تواكبهم عانة من عشرين كلبًا، «إنّهم حتمًا سيقتلونني، ولكن كم أنّهم جبناء وأغبياء. هل يقتضي الأمر عشرين ثعلبًا يركبون عشرين حمارًا ويواكبهم عشرون ذئبًا، ليطاردوا ويقتلوا إنسانًا واحدًا؟»

* * *

الذهن فينا هو الذي يذعن للقوانين التي من صنعنا، أمّا الرّوح فينا فأبدًا لا تذعن.

* * *

بحّار أنا وجوّاب آفاق. وإنّي أكتشف كلّ يوم منطقة جديدة في ذاتي.

* * *

واعترضت امرأةٌ قائلة، «طبعًا كانت تلك حربًا محقّة. فَابْني قد سقط فيها.»

* * *

قلت للحياة، «أريد أن أسمع الموت يتكلّم.»
ورفعت الحياة صوتها قليلًا عما كان وقالت، «ها أنت الآن تسمعه».

* * *

عندما تنتهي من حلّ جميع ألغاز الحياة، تحنّ إلى الموت، ذلك لأنّه لغز آخر من ألغاز الحياة.

* * *

الولادة والموت هما التعبيران الأنبل عن الشجاعة.

* * *

أنت وأنا يا صديقي، سنبقى غريبَين بالنسبة إلى الحياة،
وغريبَين واحدنا بالنسبة إلى الآخر، وغريبَين كلّا منا عن نفسه.
إلى أن يأتي يومٌ تتكلّم أنت فيه فأصغي
معتبرًا صوتك صوتي؛

وأقف أنا فيه أمامك
حاسبًا نفسي واقفًا أمام مرآة.

* * *

يقولون لي، «إذا أنتَ عرفتَ نفسك، عرفتَ جميع الناس.»
فأقول، «فقط عندما ألتمس جميع الناس أتعرّف إلى نفسي.»

* * *

الإنسان إنسانان؛ واحدٌ مستيقظٌ في الظلمة وآخر نائمٌ في النور.

* * *

الناسك هو إنسان يطلّق عالم الجزئيّات كَيْما يتمتّع بالعالم كلًّا ومن غير معيقات.

* * *

بين الباحث والشاعر حقلٌ أخضر؛ إذا اجتازه الباحث أصبح حكيمًا، وإذا اجتازه الشاعر أصبح نبيًّا.

* * *

رأيت مساء البارحة فلاسفة في ساحة المدينة، يحمِلون رؤوسَهم في سلال ويصيحون عاليًا مدلّلين، «حكمةٌ، حكمةٌ للبيع.»

لهفي على هؤلاء الفلاسفة! لكأنّهم بحاجة إلى أن يبيعوا رؤوسهم من أجل أن يطعموا قلوبهم.

* * *

قال فيلسوفٌ لكانسِ الشارع، «لهفي عليك! مهنتُك هذه مضنية وقذرة.»

فردّ كانس الشارع قائلًا، «شكرًا يا سيّدي. لكن، قل لي ما مهنتك أنت؟»

وأجاب الفيلسوف قائلًا، «أنا أدرس عقل الإنسان وأعماله وأمانيه.»

فاستأنف كانس الشارع عمله في الكناسة قائلًا وهو يبتسم، «وأنا أيضًا لهفي عليك».

* * *

الذي يستمع إلى الحقّ ليس أقلّ من الذي ينطق به.

* * *

لا يستطيع إنسانٌ أن يرسم الخطّ الفاصل ما بين الضرورات والكماليّات. وحدهم الملائكة يستطيعون ذلك، فهم أهل حكمة وتطلّعات.

لعلّ الملائكة هم أفكارنا الأمثل التي في الفضاء.

* * *

الأمير الحقّ هو الذي يعثر على عرشه في قلب الدرويش.

* * *

الجود هو أن تعطي فوق ما تستطيع، والكبرياء هي أن تأخذ أقلّ ممّا تحتاج.

* * *

أنت في الواقع لستَ مدينًا لأيّ إنسان. أنت مدينٌ بكلّيّتك لكلّ الناس.

* * *

جميع الذين عاشوا في الماضي، يعيشون معنا الآن. حتمًا ليس بودّ أحدنا أن يكون مضيفًا فظًّا.

* * *

أشدُّنا توقًا هو أطوَلُنا حياة.

* * *

يقولون لي، «عصفورٌ في اليد خَيْر من عشرة في الغاب.»

وأقول لهم، «عصفور وريشة في الغاب يساويان أكثر من عشرة عصافير في اليد.»

إنّ سعيك وراء تلك «الريشة» هو الحياة بقدمَين مجنّحتَين؛

لا بل هو الحياة نفسها.

* * *

ثمّة عنصران هنا لا غير، الجمال والحقيقة؛ الجمال في قلوب المحبّين، والحقيقة في سواعد الّذين يحرثون الأرض.

* * *

الجمال العظيم يأسرني، لكنّ جمالًا هو بَعْدُ أعظم من العظيم، يحرّرني حتّى من نفسه.

* * *

نور الجمال يكون أكثر ألقًا في قلب الذي يتوق إليه منه في عينَي الذي ينظر إليه.

* * *

أُعجَبُ بالإنسان الذي يكشف لي عمّا في فكره؛ وأُكْبِرُ الذي يُسفر عن أحلامه. ولكن لماذا أحسّ بالخجل، وحتّى بشيء من الحياء، إزاء الذي يخدمني؟

* * *

كان المَوْهوبون في الماضي يفاخرون بأنّهم في خدمة الأمراء. أمّا اليوم فينشدون الفخر في خدمة المعوزين.

* * *

الملائكة يعلمون أنّ أكثر العملانيّين من الناس، إنّما يأكلون خبزَهُم بعرقِ جبينِ صاحب الأحلام.

* * *

الظَّرف هو غالبًا قناع. إذا تمكّنت من إزالته تكشّف لك إمّا عن عبقريّة منزعجة أو عن ذكاء مشَعْوِذ.

* * *

الفهماء ينسِبون إليَّ فهمًا، والأغبياء غباء. في اعتقادي أنّ الفئتَين على حقّ.

* * *

فقط أولئك الذين في قلوبهم أسرار؛ يمكنهم أن يَحْدِسوا بالأسرار التي في قلوبنا.

* * *

كلّ من رضي أن يشاركك لذّتك، ولكن من دون ألمك، أضاع مفتاح إحدى بوّابات الجنّة السبع.

* * *

نعم، هناك شيء إسمه النرفانا؛ وهي في أن تقود خروفك إلى مرعى أخضر، وأن تهدهد طفلك إلى أن يغفُوَ، وأن تكتب في بنائك لقصيدتك، سطرها الأخير.

* * *

نحن من يختار أفراحَنا وأتراحَنا زمانًا قبل أن نعانِيَها.

* * *

ما الحُزن سوى جدار بين حديقتَين.

* * *

عندما يصبح فرحك أو حزنك عظيمًا، يصبح العالم صغيرًا.

* * *

الرغبة هي نصف الحياة؛ اللامبالاة هي نصف الموت.

* * *

أَمَرُّ ما في حزن يومنا هو ذكرى فرح البارحة.

* * *

يقولون لي، «عليك أن تختار بين ملذّات هذا العالم وطمأنينة العالم الثاني.»

وأقول لهم، «لقد اخترتُ مباهج هذا العالم وطمأنينة العالم الثاني. ذلك لأنّي أعلم في قلبي أنّ ‹الشاعر الأسمى› قد كتب قصيدة واحدة، وهي كاملة تمامًا وزنًا وتقفية.»

* * *

الإيمان واحةٌ في القلب لا يمكن أبدًا لقافلة الفكر أن تصل إليها.

* * *

عندما تبلغ ملء قامتك، ستشتهي ولكن فقط من أجل الشهوة؛ وستجوع، ولكن من أجل الجوع؛ وستعطش من أجل عطش أعظم.

* * *

إذا كشفتَ أسرارَك للريح، فلا تَلُمِ الرّيحَ على كشفها للشجر.

* * *

أزاهير الربيع هي أحلام الشتاء تُتلى على مائدة الملائكة خلال وجبة الصباح.

* * *

قال ظربان لنرجسة، «أترين كم أركض أنا بسرعة فيما أنتِ لا تستطيعين السَّير ولا حتّى أن تزحفي؟»

فأجابت النرجسةُ الظربانَ[1]، «آه، أيّها الرّاكض السريع السامي الإحترام، أركض سريعًا، أرجوك.»

* * *

[1] الظربان، ويُدعى أيضًا الظربان الأميركيّ، حيوان ثديي صغير يضرب به المثل لرائحته النتنة. (المترجم)

الزلاحف أكثر خبرة بالطرقات من الأرانب.

* * *

غريب أنّ المخلوقات التي لا عواميد فقريّة لها هي التي لها أقسى الأصداف.

* * *

أكثرُهم كلامًا أقلّهم تعقُّلًا، ويكاد لا يوجد فرق بين الخطيب المفوّه والدلّال.

* * *

كُنْ شاكرًا أن ليس عليك العيش في ظلّ شهرة والد أو ثراء عمّ.
وكن، فوق كلّ هذا، شاكرًا أنّ أحدًا لن يكون عليه أن يعيش في ظلّ شهرتك أو ظلّ ثرائك.

* * *

فقط عندما تَفوتُ البهلوانَ إحدى طاباته، يعود إليّ.

* * *

الحاسد إنّما يمتدحني من حيث لا يدري.

* * *

ظَلَلْتَ طويلًا حلمًا لأمِّكَ في نومها، ثمّ استفاقَت من أجل أن تلدك.

* * *

جرثومة السلالة هي في حنين أمّك.

* * *

أمّي وأبي اشتهيا طفلًا فأنجباني.

وأردت أنا أمًّا وأبًا فأنجبتُ اللَّيل والبحر.

* * *

بعضُ أبنائِنا هم تسويغٌ لنا وبعضهم ليسوا سوى نداماتنا.

* * *

عندما يُقبِل اللَّيل وتكون أنتَ أيضًا معتمًا، إذهب إلى رقادك وكن معتمًا عن إرادة.

وعندما يأتي الصباح وأنتَ ما زلتَ معتمًا، إنهض وقل للنهار بكلّ تصميم، «أنا ما زلت معتمًا».

من الغباء أن تلعب دور الممثّل مع اللّيل والنهار لأنّهما سيهزآن منكَ كلَيهما.

* * *

الجبل يغشاه الضباب، ليس تلّة؛ وشجرة السنديان تحت المطر ليست صفصافة باكية.

* * *

إليك هذه المفارقة: العميق والعالي، أقرب واحدهما إلى الآخر ممّا هو الوسطيّ إلى أيّ منهما.

* * *

عندما وقَفْتُ مرآةً صافية أمامَكَ، تأمَّلْتَ فِيَّ وأبصرتَ صورتك.

فقلتَ عندها، «أحبّك».

لكنّ الحقيقة هي أنّك أحببت نفسك فيّ.

* * *

عندما يلذّك أن تحبّ جارك، لا يعود ذلك فضيلة.

* * *

الحبّ الذي لا يبقى دائمًا في نموّ إنّما يكون في حال احتضار مستمرّ.

* * *

لا يمكن أن يكون لكَ الشبابُ وأن تكون على معرفة به، في آن معًا؛ فالشباب هو من الإنشغال بالحياة بحيث لا مجال عنده للمعرفة، والمعرفة هي من الإنشغال بالمزيد من ذاتها بحيث لا مجال عندها للإنشغال بأن تحيا.

* * *

يمكن لك أن تجلس إلى شبّاكِكَ وتستعرض العابرين. وقد يكون لك وأنتَ تستعرضُهم أن تبصرَ راهبةً تسير في اتّجاه يمينِك، ومومسًا في اتّجاه يسارِك.

وقد تقول ببراءة، «ما أنبل الواحدة وما أحطّ الأخرى.»

إلّا أنّك، لو أغمضتَ عينَيك وأصغيتَ برهة، لَسَمِعت صوتًا هامسًا في الأثير، «الواحدة تتوجّه إليّ بالصلاة والأخرى بالألم. وفي روح كلّ منهما كوخٌ لإيواء روحي».

* * *

مرّة كلّ مئة عام، يلتقي يسوعُ الناصريُّ يسوعَ المسيحيَّ في بستان بين تلال لبنان. فيتحدّثان طويلًا؛ وفي كلّ مرّة، ينصرف يسوع

الناصريّ وهو يقولُ ليسوع المسيحيّ، «أخشى، يا صديقي، أنّنا لن نستطيع أبدًا أن نتّفق.»

* * *

عسى أن يطعم الله المُتْخَمين.

* * *

للإنسان العظيم قلبان؛ قلبٌ يَدْمى وقلبٌ يتجمّل.

* * *

في حال قال أحدهم كذبةً لا تتسبّب لك أو لِغَيرك بأذيّة، ماذا يمنع أن تقول في قلبك إنّ بيت الوقائع عنده أضْيَقُ من أن يتّسع لتخيّلاته، فاضطرَّ أن يغادره طلبًا لفضاء أوسع؟

* * *

إنّ وراء كلّ باب مغلق لغزًا مختومًا بسبعة أختام.

* * *

الإنتظار، حوافر الزّمن.

* * *

ماذا لو تبيّن أنّ القلقَ نافذةٌ جديدة في الحائط الشرقيّ لمنزلك؟

* * *

قد تنسى الذي ضحكتَ معه، لكنّك أبدًا لن تنسى الذي معه بكيت.

* * *

لا بدّ أنّ في الملح شيئًا غريبًا في قدسيّته. فهو في دموعنا وهو في البحر.

* * *

إنّ إلهَنا، في عطشه الرؤوف، سيشربُنا جميعًا، قطرة الندى ودمعة العين.

* * *

ما أنت سوى جزء من نفسك العملاقة، فَمٌ يسعى إلى خُبز ويدٌ عمياء تحمل الكوب لفمٍ عطشان.

* * *

إذا أنت ارتفعت ولو بوصَةً فوق عِرْقِك وبلدك ونفسك، لَغَدَوْتَ حقًّا إلهيًّا.

* * *

لو كنتُ مكانَكَ لَما أخذتُ على البحر جزره.

فالسفينة جيّدة وقبطانُنا قدير. فقط معدتك هي التي ليست على ما يرام.

* * *

الذي نتوقُ إليه فَيَعْصى، هو أعزُّ مِنَ الذي صار خالصًا بين أيدينا.

* * *

لو كان لكَ أن تمتطي غمامة، لَما رأيتَ الخطّ الفاصل ما بين بلد وآخر، ولا صخرة الحدّ ما بين مزرعة وأخرى.

مؤسف ألّا يكون في استطاعتك أن تمتطي غمامة.

* * *

قبل سبعة قرون خَلَت، طارت سبعُ يمامات من إحدى الأودية العميقة إلى قمّة الجبل المغطّاة بالثلوج. فقال واحد من الرجال السبعة الذين شاهدوا الطيران، «أرى بقعة سوداء على جناح اليمامة السابعة.»

واليوم يروي أهل ذلك الوادي عن سبع يمامات سود طِرن إلى قمّة الجبل المغطّى بالثلوج.

* * *

جمعتُ في الخريف كلّ أحزاني ودفنتُها في حديقتي.

وعندما أقبل نيسان وجاء الربيع ليعقد قرانه على الأرض، نبتَت في حديقتي أزاهيرُ جميلةٌ لا شبيه لها بين سائر الزهور.

وأتى جيراني لمشاهدتها فقالوا لي جميعًا، «هل لك عندما يعود الخريف ثانيةً ويحينُ موسم البذور، أن تعطيَنا شيئًا منها كي نبذرها في حدائقنا؟»

* * *

شقاء حقًّا إنْ أنا مددتُ يدي الفارغةَ إلى الناس فعادت فارغة؛ ولكنّه اليأس إن أنا مددتُها مليئةً ولم تَلق أحدًا يأخذ.

* * *

أتوق إلى الأبديّة، لأنّني هناك سألتقي قصائدي التي لم تُكتَب ولوحاتي التي لم تُرْسَم.

* * *

الفنّ خطوة نخطوها من الطبيعة في اتّجاه اللانهاية.

* * *

العمل الفنّي ضباب حُوّل إلى شكل.

* * *

حتّى الأيادي التي تعمل أكاليل من شوك، هي أفضل من أيدٍ بطّالة.

* * *

دموعنا الأكثر قدسيّة، لا تسعى أبدًا إلى عيوننا.

* * *

ما مِن إنسان إلّا وهو سليلُ كلِّ ملك وكلّ عبد عرفَتْهُما البشريّة.

* * *

لو كانَ لِجَدّ جَدٍّ يسوع أن يدري بالمخبَّأ فيه، أما كان ليقف برهبة أمام نفسه؟

* * *

أكان حبّ أمّ يهوّذا لولدها أقلّ من حبّ مريم ليسوع؟

* * *

ثمّت معجزات ثلاث من معجزات أخينا يسوع ليست بعد مدوّنة في الكتاب: الأولى أنّه كان إنسانًا مثلك ومثلي؛ والثانية أنّه كان يتمتّع بروح النكتة؛ والثالثة أنّه، على انكساره، كان يعرف أنّه هو المنتصر.

* * *

أنت أيُّها المصلوب، أنت مصلوبٌ على قلبي؛ والمسامير التي تثقبُ يدَيكَ إنّما تخترق شغاف قلبي.

وغدًا عندما يمرُّ غريبٌ بهذه الجلجلة، لن يعرفَ بأنّ اثنين سالت دماؤهما هنا.

وسيَحسبُ الذي سال دمَ إنسان واحد.

* * *

لعلّك قد سمعت بالجبل المقدّس.

فهو الجبل الأعلى في العالم.

إذا قيّض لك أن تبلغ القمّة فستلحُّ عليك هناك رغبةٌ واحدة لا غير، وهي أن تنحدر إلى أولئك القاطنين في عمق أعماق الوادي وأن تكون معهم.

إنّه من أجل ذلك دُعِيَ الجبل المقدّس.

* * *

لا بدّ لكلّ فكرة أقفَلتُ عليها سجن التعبير، أن أفرج عنها بأعمالي.

يسوع ابن الإنسان

أعماله وأقواله كما رواها ودوّنها عارفوه

Jesus the Son of Man, 1928

يعقوب

ابن زبدي

وذات يوم من أيّام الربيع، وقف يسوع في ساحة أورشليم وتحدّث إلى الجموع عن ملكوت السماوات.

فاتّهم الكتبة والفرّيسيّين بأنّهم يضعون العقبات ويحفرون المطبّات في طريق أولئك الذين يتوقون إلى الملكوت، وهاجمهم.

وحدث أن كان بين الجمهور، فئة دافعت عن الفرّيسيّين والكتبة، وحاولت أن تتعدّى بالضرب على يسوع وعلينا نحن أيضًا.

إلّا أنّه تحاشاهم وانتحى جانبًا دونهم ومشى نحو البوّابة الشماليّة للمدينة.

وتوجّه إلينا قائلًا، «لم تأتِ ساعتي بعد. كثيرة هي الأمور التي ما زال عليّ أن أقولها لكم، وكثيرة هي الأعمال التي ما زال عليّ أن أقوم بها قبل أن أسلّم نفسي إلى العالم.»

ثمّ قال بصوت مرح ضحوك، «دعونا نذهب إلى الشمال لملاقاة الربيع. هلمّوا معي إلى الهضاب، فالشتاء قد ولّى وثلوج لبنان في طريقها نزولًا إلى الأودية كي تشارك الجداول في الغناء.

«الحقول والكروم قد نفضت عنها الكرى واستيقظت لتحيّي الشمس بتينِها الأخضر الرخص وحصرمها الذي لم ينوّر بعد.»

مشى وتبعناه طيلة ذلك النهار والنهار الذي يليه.

وعند ظَهيرة اليوم الثالث بلغنا قمّة حرمون، فوقف هناك يتأمّل الدساكر المنتشرة في السهول عند السفوح.

كان وجهه مضيئًا كالذهب المذاب وهو يبسط ذراعَيه قائلًا، «تطلّعوا إلى الأرض في لباسها الأخضر ولاحظوا كيف أنّ الجداول قد لَفَقَتْ أطراف ذلك اللباس بخيوط من الفضّة.

«جميلة حقًّا هي الأرض، وكلّ ما عليها جميل،

«إلّا أنّ هناك، وراء كلّ ما تبصرون، مملكةً هي التي فيها سأمارس سلطاني. وإذا أنتم شئتم، وكان ذلك حقًّا خياركم، فستأتون أنتم أيضًا معي وتحكمون.

«أنا وأنتم لن نلبس على وجوهنا أقنعة؛ ولن نحمل في أيدينا سيفًا ولا صولجانًا، وستسود بيننا وبين رعايانا الألفة فلا خوف ولا إخافة».

هذا ما قاله يسوع، فأشحتُ عن كلّ ممالك الأرض وعن جميع مدن الأسوار والبروج؛ وأضحى شغل قلبي الشاغل أن أتبع السيّد إلى مملكته.

في هذه اللحظة، دخل علينا يهوذا الإسخريوطيّ، فدنا حتّى بلغ يسوع وقال، «تذكّر أنّ ممالك الأرض مترامية، واذْكرْ أنّ مدن داود وسليمان هي التي ستكون لها الغلبة على الرومان. إذا رضيتَ بأن تكون ملك اليهود فسنقف إلى جانبك بالسَّيْفِ والترس، وستكون لنا الغَلَبة على الرومان».

عندما سمع يسوع هذا، تحوّل نحو يهوذا بوجه يملأه الغضب، وتكلّم بصوت رهيب كرعد السماء، قائلًا، «أغرب عن وجهي أيّها الشيطان. أفي تصوّرك أنّي ما تحدّرت عبر الدهور إلّا لكي أكون حاكمًا ليوم واحد، في تلّة للنمال؟

«عرشي عرشٌ أبعد من مطال رؤاك. هل الذي جناحاه يطوّقان الأرض أن يرتضيَ اللجوء إلى عشّ مهجور ومنسيّ؟

«هل لِحَيّ أن يُكرَّم أو أن يُرفَّع على يد مَنْ لباسُه الأكفان؟

«مملكتي ليست من هذه الأرض، وعرشي ليس قائمًا على جماجم أسلافك.

إن يكن مسعاك إلى غير مملكة الروح، فالأفضل لكَ أن تغادرَني ههنا، وتنحدرَ إلى كهوف موتاك حيث رؤوس الماضين من حَمَلَةِ التّيجان يعقدون مجلسَ بلاط في مدافنهم، ولعلّهم ما يزالون، يمنحون عظام أسلافك أوسمة الشرف.

«أتجرؤ على إغرائي بتاج من تفالات المعادن، فيما جبهتي تتطلّع إلى الثريّا أو، في مقابل ذلك، إلى أشواكك؟

«وإنّي، لولا حلم حلمَتْهُ يومًا سلالةٌ منسيّة، لَما تركتُ لشمسك أن تشرقَ على اصطباري ولا لقمرِكَ أن يرمي بظلّي على دربك.

«ولولا رغبةٌ لوالدة لكنت مزّقْتُ عنّي أقمطة الطفولة وقفلت راجعًا إلى الفضاء.

«وإنّي لولا الأسى في كلّ منكم لَما رضيت أن أبقى لأنتحب.

«من أنت وما أنت يا يهوذا الإسخريوطيّ؟ ولماذا تجرّبني؟

«هل حقيقة وزَنْتَني بالميزان فوجَدْتَني الصالحَ لقيادة فيالق الأقزام ولتوجيه عربات المشوّهين، ضدّ عدوّ يعسكر فقط في أحقادك ولا يزحف قطّ إلّا في مخاوفك؟

«كثيرة هي الديدان التي تدبّ حول قدميّ، إلّا أنّي لن أعاركها. لقد سئمت هذه الأضحوكة، وسئمت الشفقة على الدابّين الذين يحسبونني جبانًا لأنّي لن أتوجّه صوب أسوارهم وأبراجهم المحصّنة.

«إنّه لَمؤسف أنّ عليّ أن أبقى آسفًا حتّى الأخير الأخير. حبّذا لو كان لي أن أحوّل خُطاي نحو عالَمٍ أرحب حيث يحيا رجال أرحب. ولكن أنّى لي ذلك.

«كاهنكم وإمبراطوركم يطلبان دمي. سيكون لهما ما يرضيهما قبل أن أرتحل. لن أغيّر مجرى القانون. كما أنّي لن أقونن العبث.

«فلنتركِ الغباء يتوالد إلى أن يسأم من مواليده.

«ولندَعِ الأعمى يقود الأعمى إلى المطبّ.

«ولندَعِ الموتى يدفنون موتاهم إلى أن تغصّ الأرض نفسها بثمارها المرّة.

«مملكتي ليست من الأرض. مملكتي ستكون حيث يجتمع اثنان أو ثلاثة منكم بمحبّة وبدهشة أمام رونق الحياة، وذلك احتفاءً بذكري».

ثمّ التفَتَ فجأة إلى يهوذا وقال، «إليك عنّي أيّها الرجل، لن يكون لممالككم أبدًا أن تكون في مملكتي».

وكان المساء قد أقبل، فالتفت إلينا قائلًا، «تعالوا ننزل قبل أن تزحمنا العتمة. فلنَسِر في الضوء طالما الضوء معنا».

هبط عن التلال وتبعناه. وكان يهوذا يلحق بنا من بعيد.

كانت قد أظلمت عندما بلغنا السفوح فقال له توما إبن ثِيوفَنيس، «لقد أظلمت الآن ولم نعد نستطيع أن نتبيّن الطريق، سِرْ بنا، إن لم يكن من مانع لديك، إلى تلك القرية المضيئة هناك، علّنا نجد فيها طعامًا ومبيتًا».

وأجاب يسوع توما قائلًا، «سرت بكم إلى الأعالي حين كنتم جائعين، وعدت بكم إلى السفوح وأنتم أكثر جوعًا. لكنّني لن أستطيع أن أبقى معكم الليلة. أريد أن أكون لوحدي.»

وتقدّم سمعان بطرس قائلًا: «لا تدعنا نذهب وحدنا في الظلام. بل اسمح أن نبقى معك حتّى وإن على هذا الدرب الجبليّ. فالليل وظلال الليل لا تلبث أن تزول، ولن يتأخّر فيدركنا الصباح، فقط لو ترضى أن تبقى معنا».

فأجابه يسوع، «للثعالب هذه الليلة أوجارها، ولطيور السماء أعشاشها، أمّا ابن الإنسان فليس له حيث يضع رأسه. بِودّي الآن حقًّا أن أبقى لوحدي. وفي حال افتقدتموني فستجدونني من جديد على شاطئ البحر. حيث التقيتكم.»

انصرفنا عنه بقلوب كسيفة، إذ لم يكن بِودّنا أن نفترق عنه.

كثيرًا ما كنا نتوقّف ونُدير وجوهنا نحوه، فنراه بجلاله المتوحّد يسير صوب الغرب.

الوحيد الذي لم يستدر ليراه في توحّده، كان يهوذا الإسخريوطيّ.

ومنذ ذلك الحين غدا يهوذا متجهّمًا وبعيدًا، وقد ساورني يقين بأنّ خطرًا ما يكمن في محجرَيه.

حنّة

أمّ مريم

ولد يسوع ابن بنتي مريم في كانون الثاني هنا في الناصرة. وقد زارنا ليلة وُلِد يسوع رجالٌ من الشرق. كانوا من الفُرْسِ الآتين مع قوافل المديانيّين إلى «أسدرايلُن» في طريقهم إلى مصر. ولمّا لم يجدوا لهم مكانًا في الخان طلبوا المبيت عندنا في البيت.

رحّبتُ بهم قائلة، «لقد رُزقَت ابنتي الليلة بِمَولود ذكر. لكُم أن تعذروني فعلًا إذا أنا لم أقم بواجبكم كما تقتضيني أصول الضيافة».

شكروني على توفير المبيت لهم. وبعد أن فرغوا من عشائهم قالوا لي: «بِودّنا لو نرى المولود الجديد».

كان ابن مريم جميلًا للنظر، كما كانت أمّه حلوة أيضًا.

عندما رأى الفارسيّون مريم وطفلها، أخرجوا من حقائبهم ذهبًا وفضّة ومرًّا ولبانًا ووضعوها عند قدمَي الطفل. ثمّ سجدوا وصلّوا بلغة غريبة لم نكن نفهمها.

وفيما كنت آتيةً بهم إلى الغرفة المهيّأة لهم، مَشَوا وكأنّهم مأخوذون بالذي رأوه.

وعندما طلع الصباح غادرونا واستأنفوا طريقهم إلى مصر.

إلّا أنّهم قالوا لي وهم يودّعون: «صحيح أنّ المولود ما زال ابن يومه إلّا أنّنا رأينا في عينيه نور إلهنا كما رأينا بسمة إلهنا أيضًا على فمه. نطلب إليك أن تحميه كيما يعود هو فيحميكم جميعًا.»

قالوا ذلك واعتلوا جمالهم، وكان هذا آخر عهدنا بهم.

ولم تبدُ مريم شديدة الفرح بمولودها الجديد، الممتلئ دهشة وغرابة.

تتطلّع طويلًا إليه، ثم تستدير بوجهها نحو النافذة محدّقة بعيدًا في الفضاء كما لو أنّها تبصر ظاهرات.

وكانت ثمّة وِهادٌ تفصل بين قلبَينا.

كان الطفل ينمو بالجسد والروح كما كان مختلفًا عن سائر الأطفال؛ كان متوحّدًا وصعب المراس، كما لم يكن باستطاعتي أن أرفع يدي عليه.

إلّا أنّه كان محبوبًا من الجميع في الناصرة، وكنت في سرّي أعي لماذا.

كثيرًا ما كان يأخذ من طعامنا ليعطي عابري السبيل. كما كان يعمد إلى توزيع بعض ما كنت أعطيه من حلوى على الأولاد الآخرين، قبل أن يضع هو شيئًا منها في فمه.

يتسلّق أشجار بستاني ليعود بالثمار، ولكن ليس أبدًا من أجل أن يأكلها هو.

كان يقيم سباقات مع أولاد آخرين، ولأنّه كان أسرعهم، كان أحيانًا يتباطأ كي يتيح لهم تجاوز العلامة قبل أن يبلغها.

وأحيانًا، عندما كنت أقتاده إلى فراشه، كان يقول، «قولي لأمّي وللآخرين إنّ جسدي فقط ينام. أمّا عقلي فيظلّ معهم إلى أن تُقبِل عقولهم إلى صباحي».

أشياء كثيرة أخرى عجيبة كان يقولها وهو صبيّ، لكنّني مِنَ الكِبر بحيث لم أعد أتذكّر.

يقولون لي إنّني لن أراه بعد اليوم. ولكن كيف لي أن أصدّق ما يقولون؟

ضحكته ما تزال في أذني. وكذلك وقع خطاه راكضًا حول بيتي. وكلّما قبّلت خدّ ابنتي، عاود أريجه قلبي، وأحسستُ كما لو أنّ جسده مِلْء ذراعيّ.

ولكن، أليس غريبًا أنّ ابنتي لا تتحدّث عن ابنها إليّ؟

يبدو أحيانًا أنّ شوقي إليه أعظم من شوقها. فهي تقف ثابتة في وجه النهار كما لو أنّها لوحة برونزيّة، فيما قلبي يذوب ويسير جداول في داخلي.

ربما هي تعرف أكثر ممّا أعرف. حبّذا لو أنّها أيضًا تُعْلِمُني.

عسّاف

الملقّب بخطيب صور

ماذا يسعني أن أقوله في خطابه؟ لعلّ شيئًا ما في شخصه قد أضفى قوّة على كلماته فاستمال أولئك الذين سمعوه، لأنّه كان وسيمًا وألَقُ النهار على محيّاه.

كانت عيون الناس رجالًا ونساءً عليه، أكثر ممّا كانت آذانهم مصغِيَةً إلى حججه. لكنّه أحيانًا كان يتكلّم بروح من له سلطان، فكان لِهذا التأثيرُ كلُّه على مستَمِعيه.

كنتُ قد استمعتُ في شبابي إلى خطباء روما وآثينا والإسكندريّة، إلّا أنّ الناصريَّ كان مختلفًا عنهم جميعًا.

كانوا هم يشكّلون كلماتهم بفنّ يفتن الأذن، إلّا أنّك إذ تسمعه هو، تحسّ بقلبك يغادرك ويمضي إلى أقاليم ما عرَفَتْ بعدُ زائرًا.

يعمد إلى قصّ قصّة، أو رواية، أو مثل، أو ما شابه ذلك من قصصه وأمثاله، فإذا هي لم يسبِقْ لأحد أن سمعها في سوريا. كان، على ما يبدو، ينسل خيوطها من واقع الفصول، تمامًا كما ينسل الزمن السنين والأجيال.

كأنْ يبدأ قصّته هكذا: «خرج الزارع إلى حقله ليبذر بذوره.»

أو «كان هناك مرّة رجل غنيّ ذو كروم كثيرة.»

أو «أحصى راع خرافَه ذات مساء فوجد أنّ أحدَها مفقود.»

من شأن كلمات كهذه أن تحمل سامعيه إلى الأبسط في نفوسهم، وإلى القديم من أيّامهم.

ففي داخل قلوبنا نحن جميعًا مزارعون، كما أنّا جميعًا نحبّ الكروم. وفي مراعي ذاكرتنا، هناك الرّاعي والقطيع والخروف الضالّ؛

وهناك السكّة والمعصرة والبيدر.

كان يعرف مصدر ذواتنا الأكثر قدمًا، والخيط المتواصل الذي منه نسيج وجودنا.

خُطَباء اليونان والرومان تكلّموا إلى سامعيهم عن الحياة كما بدت للعقل. في حين أنّ الناصريّ تكلّم عن شوق قائم في القلب.

هم رأوا الحياة بأعين أصفى بقليل من عينَيك وعينَيّ. في حين أنّه هو قد رأى الحياة في ضوء الله.

كثيرًا ما خطر لي أنّه كان يتكلّم إلى الجموع كما للجبل أن يتكلّم إلى السهل.

وكان في خُطَبِه سلطانٌ ما عهده خطباء روما وآثينا.

مريم المجدليّة

كان ذلك في شهر حزيران عندما شاهدتُه لأوّل مرّة. كان يسير في حقل القمح عندما كنتُ مارّةً مع وصيفاتي، وكان وحده.

كان إيقاعُ خطواته مختلفًا عمّا عند سائر الرجال، وكانت حركاتُ جسمه شيئًا لا عهد لي به من قبل.

الناس لا يَطأون الأرض على تلك الصورة. وأنا حتّى الآن لا أذكر ما إذا كان يومها مسرعًا أو مبطئًا في مشيته.

كانت وصيفاتي يُشِرن إليه بأصابعهنّ ويتهامسن في كلامهنّ، فيما لجمت أنا خطواتي بُرْهةً لأرفع يدي بالتحيّة. إلّا أنّه لم يحوّل وجهه نحوي ولا هو نظر إليّ. فكرهته، وأحسست كأنّي أُرَدُّ كنسا إلى ذاتي، فيعتريني بردٌ كما لو أنّي في مهبّ ثلج عاصف. واعترتني الرجفة.

في تلك الليلة رأيته في منامي؛ قالوا لي لاحقًا إنّي كنت أصرخ في نومي وأتقلّب في فراشي.

كنّا في شهر آب، عندما شاهدته للمرّة الثانية، من شبّاكي. كان جالسًا يتفيّأ في ظلّ الشّربينةِ مقابل حديقتي، جامدًا كأنّه قدّ من صخر، مثل هذه التماثيل في أنطاكية والمدن الأخرى بمنطقة الشمال.

وأقبل نحوي أحدُ عَبيدي المصريّين قائلًا، «ذاك الرجل! هو هنا من جديد، جالسٌ قبالة حديقتك».

تطلّعتُ إليه، فارتجَفَتْ روحي في داخلي، لأنّه كان جميلًا.

فالجسم قائم في ذاته، وكلّ جزء فيه يبدو كأنّه في تعاشق مع كلّ جزء آخر.

وضعتُ عليّ ثوبًا من دِمَقس وغادرتُ بيتي واتّجهتُ نحوه.

أهِيَ وحدتي التي دفعتني إليه أم هو عبيره الذي اجتذبني؟ أهُوَ جوعٌ في عينيّ إلى الوسامة، أم هو جماله الذي كان يسعى إلى الضوء في عينيّ؟

أنا حتّى اليوم ما زلتُ لا أدري.

سرتُ إليه بثيابي المعطَّرة وصندلي المذهَّب؛ الصندل الذي قدّمه لي القبطان الرومانيّ. وعندما وصلتُ إليه قلتُ له: «نهارًا سعيدًا».

فأجاب: «نهارًا سعيدًا لك يا مريم.»

ونظر إليّ، فإذا عيناه الناعستان ترياني كما لم يَرَني إنسان قطّ. فجأة شعرتُ كما لو كنت عارية، فاعتراني الخجل.

مع أنّه لم يكن قد قال سوى «نهارًا سعيدًا لك».

فقلتُ له، «هلّا أتيتَ إلى بيتي؟»

فأجاب، «ألستُ حاليًا في بيتك؟»

لم أفهم يومها ما عناه، أمّا اليوم فأفهم.

قلت، «هل لك أن تشاركني الطعام والنبيذ؟»

فأجاب، «بلى، يا مريم، ولكن ليس الآن.»

ليس الآن، ليس الآن، قالها وكأنّ صوت البحر في هاتين الكلمتين، وصوت الرّيح، وصوت الشجر. عندما قالهما لي خاطَبَت الحياةُ الموتَ.

عليكَ أن تذكر يا صديقي أنّي كنتُ ميتة. كنتُ امرأة قد طلّقت نفسها. كنت أعيش خارج هذه النفس التي تراها الآن. كنت أخصّ جميع الرجال ولا أخصّ أيًّا منهم. سمّوني بغِيًّا واعتبروني مسكونة بسبعة شياطين. فكنت ملعونة كما كنت موضعًا للحسد.

لكن عندما تطلّعت عيناه الصباحيّتان في عينيَّ، انطفأت جميع نجوم لياليّ وعدتُ مريم، فقط مريم؛ تلك المرأة التي ضاعت عن أرضٍ عرفَتْها وقد وجَدَت نفسها في مطارح جديدة.

وأعـدتُ عليه ثانية قولي، «تـعـالَ إلـى بيتي وشاركني الطعام والنبيذ».

فقال، «لماذا تأمرينني أن آتيَ إلى بيتك؟»

فقلتُ، «أتوسّل إليك أن تدخل بيتي.» وكان كلّ ما كان أرضيًّا فيّ وكلّ ما كان سماويًّا ينده إليه.

وتطلّع إلـيّ، فاعتراني ألق الظهيرة في عينيه، ثمّ قـال، «عندك الكثير من العشّاق إلّا أنّني الوحيد الذي يحبّك. الآخرون يحبّون أنفسهم في ما تتيحينه من قرب، أمّا أنا فأحبّك في ذاتك. الآخرون يرون فيك الجمالَ الذي سيذوب قبل أن تذوبَ أعمارُهم، أمّا أنا فأرى فيك الجمالَ الذي لن يذوب، ذلك الجمال الذي لن يخشى في خريف أيّامك أن يتطلّع إلى نفسه في المرآة، ولا يستاء.

«أنا وحدي أحبّ الذي لا يُرى فيك».

ثم أضاف بصوت خافت، «إذهبي الآن. إذا كانت هذه الشربينة تخصّك ولا تريدينني أن أجلس في ظلّها، فسأنصرف.»

فصحتُ إليه قائلة، «يا سيّدي، تعال إلى بيتي. عندي بخور أحرقه لك، وطستٌ فضّيٌّ لقدميك. أنت غريب ولست في الوقت عينه غريبًا. أتوسّل إليكَ أن تدخل بيتي.»

فوقف وتطلّع إليّ كمثل تطلُّعِ الفصول إلى الحقول دونها، وابتسم ثمّ قال ثانيةً، «الرجال كلّهم يحبّونك لذواتهم، وأحبّك أنا لذاتك».

ثمّ انصرف.

ولكن ما من رجلٍ مشى مرّةً مشيته. أكانت تلك نسمةُ أنفاس في حديقتي وقد تحرّكت شرقًا؟ أم كانت تلك عاصفة من شأنها أن تهزّ كلّ شيء حتّى الأساسات؟

ما كنت لأعرف، لكنّ غروب شمس عينيه في ذلك النهار، قتل التنّين في ذاتي، فصرتُ امرأةً، صرت مريم، مريم المجدليّة.

فيليمون
صيدليّ يونانيّ

كان الناصريّ الطبيبَ الأكبرَ لِشَعبه. ما من إنسان آخر كان له هذا القدر من المعرفة بأجسادنا وعناصرها وما لها من خصائص.

لقد أعاد العافيةَ إلى أولئك الذين كانوا مصابين بأمراض لم يكن يعرفها اليونانيّون والمصريّون. يقولون إنّه استطاع حتّى أن يعيد الموتى إلى الحياة. وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا، فإنّه يكشف عن مقدرته؛ فالأشياء العظمى لا تنسب أبدًا إلّا إلى الذي يجترح الأعمال العظام.

يقولون أيضًا إنّ يسوع زار الهند، وبلاد ما بين النهرين، وإنّ الكهنة هناك قد أطلعوه على معرفة كلّ ما هو مخبوء في مطاوي جُسومنا.

إلّا أنّ هذه المعرفة مع ذلك، يمكن أن تكون قد أُعطِيَت له مباشرةً من الآلهة، لا عن طريق الكهّان. ذلك أنّ ما ظلّ مجهولًا من الناس دهرًا من الزمن، قد ينكشف بلحظةٍ لواحدٍ منهم. فقد يلمس أبولو بيده قلب أحدهم من الجهلة فيحوّله إلى حكيم.

أبوابٌ كثيرة تمّ فتحُها لأهل صور وأهل طيبة، كما فُتِحَت لهذا الرجل أيضًا أبوابٌ كانت موصدة. لقد دخل معبد النفس الذي هو الجسد، وأبصر الأرواحَ الشرّيرة التي تتآمر على أعصابنا، كما أبصر الأرواحَ الخيّرة التي تتولّى غزل خيوط تلك الأعصاب.

يلوح لي أنّه كان يشفي المرضى بقوّة التقابل والتضادّ، بطريقة لا يعرفُها فلاسفتُنا. فاجأ الحمّى بلمسة ثلجيّة من يده فتراجعت؛ وفاجأ الأطراف المتصلّبة بالهدوء الذي فيه، فاستجابت له وغدت في سلام.

عرف تفوّر النسغ داخل القشرة المثلّمة – أمّا كيف وصل إلى النّسغ بإصبعه، فهذا ما لا أعرفه. كان يعرف الفولاذ الصلب وهو تحت الصدأ – أمّا كيف كان يحرّر السيف من صدئه ويجعله برّاقًا، فهذا ما لا يعرفه إنسان.

يبدو لي أحيانًا أنّه كان يسمع همهمة الألم في جميع الكائنات النامية تحت وجه الشمس، وأنّه عندها كان يقيم المتألّمين ويعضدهم لا بمعرفته هو فقط، بل أيضًا بكشفه لهم القدرة التي تنطوي فيهم والتي بها ينهضون ويشفون.

وهو مع ذلك لم تكن تعنيه كثيرًا نفسُه كطبيب. بل كان منشغلًا بالشؤون الدينيّة والسياسيّة لبلاده. وهذا ما يؤسفني لأنّ علينا قبل كلّ شيء، أن نكون أصحّاء بدنًا.

لكنّ هؤلاء السوريّين، إذ يعتريهم مرضٌ ما، يسعون إلى الجدل بدل اللجوء إلى الدواء.

وإنّه لَمُؤسف أنّ أعظم طبيب فيهم قد اختار أن يكون صانع خطابات في ساحة المدينة.

سمعان

الذي كان يُدعى بطرس

كنت على شاطئ بحيرة طبريّة عندما رأيتُ يسوع، سيّدي ومعلّمي، لأوّل مرّة.

كان أخي إندراوس معي وكنّا نلقي معًا شباكنا في الماء.

كان الموج شديدًا وعاليًا ولم نكن قد اصطدنا من السمك إلّا القليل. وكنّا كلَينا منطبقَي القلب.

وإذا بيسوع يقف فجأة بالقرب منّا. فكأنّه انوجد لتوّه في تلك اللحظة، ذلك لأنّنا لم نكن قد رأيناه آتيًا.

دعانا باسْمَيْنا وقال: «إذا تبعتماني، أخذتكما إلى جون فيه السمك بالعناقيد.»

وفيما كنت أنظر إلى وجهه أفلتَتِ الشَّبكة من يديّ، ذلك أنّ لهبًا أشرق في داخلي، فعرفته.

وتكلّم أخي إندراوس فقال: «نحن نعرف جميع الخلجان في هذه الشواطئ، كما نعرف أنّ السمك في يوم كهذا يلجأ إلى أعماقٍ أبعد من مَطال شباكنا.»

فأجاب يسوع، «إتبعاني إلى شواطئ بحر أعظم، فأجعل منكما صيّادي بشر فلا تفرغ شباككما أبدًا.»

فغادرنا مركبنا وشبكتنا وتبعناه.

قوّة ما خفّية كانت تمشي إلى جانب شخصه، هي التي اجتذبتني.

سرت إلى جانبه مخنوقَ الأنفاس مأخوذًا، وأخي إندراوس وراءنا مذهولًا ومندهشًا.

وفيما كنّا نسير على الرمال، استجمعتُ نفسي وقلت له: «أنا وأخي يا سيّدي، سنقتفي خطاك، ونذهب إلى حيث تذهب. ولكن إذا حسن لك هذا المساء أن تأتي إلى بيتنا، فسننعم بزيارتك. بيتنا ليس كبيرًا، وليس سقفنا عاليًا، وسنجلسك إلى عشاء متواضع. لكنّ مجرّد مكوثك في كوخنا هذا، سيجعل منه بالنسبة إلينا قصرًا من القصور. ومجرّد أن تكسر خبزًا معنا، سيجعلنا في حضورك موضع حسد الأمراء على امتداد البلد».

فردّ قائلًا، «بلى، سأكون ضيفكم هذا المساء.»

فامتلأ قلبي فرحًا، وأكملنا سيرنا وراءه ساكتين إلى أن بلغنا البيت.

فقال يسوع ونحن عند العتبة، «السلام لهذا البيت وللساكنين فيه.»

ثمّ دخل وتبعناه.

وكان من زوجتي وأمّها وابنتنا أن وقفن أمامه وتعبّدن له، ركعن قدّامه وقبّلن حاشية رُدنه.

كنّ منذهلات أنّه هو، المختار الحبيب، قد رَضِيَ أن يكون ضيفنا. ذلك لأنّهن كنّ قد شاهدنه على شاطئ الأردنّ عندما اعترف به يوحنا المعمدان أمام الجمهور.

وعلى الفور بدأت زوجتي وأمّها تحضّران العشاء.

كان أخي إندراوس إنسانًا خجولًا، لكنّ إيمانه بيسوع كان أعمق من إيماني.

أمّا ابنتي التي لم تكن قد تجاوزت الإثنتي عشرة، فوقفت إلى جانب يسوع ممسكةً بثوبه كما لو أنّها كانت خائفة من أن يغادرنا ويغيب ثانية في الظلام. تشبّثتْ به كالخروف الضائع الذي وجد راعِيَه.

جلسنا إلى المائدة فكسر هو الخبز وسكب النبيذ؛ وتحوّل إلينا قائلًا، «باركوني الآن يا أحبّتي في أن تشاطروني هذا الطعام تمامًا كما باركَنا الله في إعطائه لنا».

قال هذه الكلمات قبل أن يتناول لقمة واحدة، لأنّه كان يريد أن يتّبع تقليدًا قديمًا يقتضي أن يصبح الضّيف المكرّم هو المضيف.

أحسسنا ونحن معه حول المائدة كما لو أنّنا جالسون إلى وليمة الملك الأعظم.

إبنتي بترونيلة التي كانت بعدُ فتيّة وبريئة، لم تشل عينَيها عن وجهه، كما كانت تتابع جميع حركات يديه. وقد بدا لي في عينيها غشاء من الدموع.

عندما غادر المائدة تبعناه إلى الحديقة، وجلسنا حوله تحت العريشة.

كان هو يتولّى الكلام وكنّا نستمع، فترفّ قلوبنا في صدورنا وكأنّها العصافير.

تكلّم عن الإنسان في ولادته الثانية، وعن أبواب السماوات وهي تنفتح؛ تكلّم عن الملائكة وهي تنزل حاملة السلام والبشائر لجميع البشر، وعنها صاعدةً إلى العرش حاملةً أماني الناس إلى السيّد الربّ.

نظر في عينيّ، نافذًا منهما إلى أعماق قلبي، ثمّ قال، «لقد وقع اختياري عليكما أنت وأخيك، فصار عليكما أن تأتيا معي. لقد كدحتما في الحياة وأُثقلتما بالأحمال. وأنا الآن سأريحكما. إلتزما نيري وخذا عنّي، ففي قلبي سلامٌ وغنى لروحَيْكُما وعودة بكما من الاغتراب».

عندما قال هذا وقفنا أنا وأخي أمامه وقلت له، «سنتبعك نحن يا سيّدي إلى أقاصي الأرض. ولو حدث أن كان حملنا بثقل الجبل فسنحمله ونحن معك بكلّ سرور. وفي حال تساقطنا في مسيرتنا على جنب الطريق، فإنّا سنكون مدركين أنّا سقطنا ونحن في طريقنا إلى الجنّة، وفي ذلك ما يكفينا».

وتكلّم أخي إندراوس، فقال، «سنكون يا سيّدي الخيوط ما بين يدَيْكَ ونَوْلِك. أدخلنا في نسيج القماش إذا شئت، ذلك أنّا سنكون في ثوب أعلى العليّين.»

ورفعت زوجتي وجهها، والدموع على خدَّيها، فتكلّمَتْ بفرح قائلةً: «مبارك أنت أيّها الآتي باسم الربّ، ومباركة الرحم التي حملتك والثديان اللذان أعطياك الحليب».

أمّا ابنتي التي كانت بعد في الثانية عشرة، فجلست عند قدميه وانغلّت إلى جنبه.

لكنّ أمّ زوجتي التي كانت تجلس عند العتبة، لم تنبس بكلمة. كانت فقط تبكي في سكون وقد تبلّل شالها بالدموع.

فتقدّم يسوع إليها ورفع وجهها في مقابل وجهه وقال لها، «أنت أمّ جميع هؤلاء. أنت تبكين من فرحك وستبقى دموعك هذه ماثلة في مخيّلتي».

كان القمر الآن قد ارتفع فوق الأفق. تملّاه يسوع لبرهةٍ ثمّ عاد إلينا قائلًا: «تأخّر الوقت، إذهبوا إلى أسرّتكم، وليحلّ الله في أغفائكم.

سأبقى هنا في هذه التعريشة حتّى الصباح. لقد ألقيت بشبكتي اليوم فاصطدت رجلَين؛ هذا ما يكفيني، فدعوني الآن أتمنّى لكم ليلة سعيدة».

فقالت أمّ زوجتي: «لكنّا أعددنا لك فراشك في البيت، أرجوك أن تدخل وتستريح.»

فأجابها قائلًا، «سأستريح فعلًا ولكن ليس تحت سقف. دعيني هذه الليلة أرقد تحت قبّة العناقيد والنجوم.»

فأسرعت وجاءت إلى الخارج بالحصير والمخدّات والأغطية، فابتسم لها قائلًا: «تأمّلوا، إنّي سأنام الليلة في فراش سُوِّيَ مرّتين.»

تركناه ودخلنا إلى البيت، وكانت ابنتي آخر الداخلين، حتّى أنّ عينَيها ظلّتا عليه إلى أن أغلقت الباب.

هكذا عرفتُ لأوّل مرّة سيّدي ومعلّمي.

ومع أنّ هذا كان لسنوات كثيرة خلت، فإنّه ما زال كأنّه هذا النهار.

قيافا

رئيس الكهنة

دعونا إذ نتكلّم على ذلك المدعوّ يسوع، أن نبقِيَ في ذهننا مسألتَين أساسيّتَين؛ التوراة لا بدّ لنا من أن نبقيها حصينة، وأنّ هذه المملكة لا غنى لها عن حماية روما.

أمّا ذلك الرجل، فكان تحدّيًا لنا ولروما. لقد سمّم عقول العامّة وجنّدهم بما يشبه السحر، ضدّنا وضدّ قيصر.

عبيدي أنا، رجالًا ونساءً، تحوّلوا بعد استماعهم إليه يتكلّم في ساحة المدينة، إلى غضبى وثوريّين. حتّى أنّ بعضهم غادر المنزل وهرب إلى البادية من حيث أتى.

لا يغيبنّ عن البال أنّ التوراة هي مرتكزنا وعماد قوّتنا. ما من بشريّ يستطيع أن يُذلّنا ما دمنا نملك هذه القدرة التي من شأنها أن تغلّ يده، وما من إنسان يمكن له أن يجتاح أورشليم طالما بقيت أسوارها قائمة على ذلك الحجر الدهريّ الذي أرساه داود.

إذا كان لبذار إبراهيم أن يستمرّ حيًّا وأن ينمو، فعلى تربتنا هذه أن تبقى بلا دنس.

أمّا ذلك المسمّى يسوع، فقد كان مدنِّسًا ومُفسِدًا. لذلك ذبحناه بضمير واعٍ ونظيف، وإنّنا سنفتك بكلّ من تُسَوِّل له نفسه الحطّ من شريعة موسى أو المسّ بتراثنا المقدّس.

لقد أدركنا نحن وبيلاطس البنطيّ الخطر الذي يشكّله ذلك الإنسان، فرأينا من الحكمة أن نضع له حدًّا. وإنّي سأحرص على أن يلاقي أتباعه النهاية نفسها، فيتحوّل رجع كلماته كما تحوّلوا هم، إلى سكون.

إذا كان لليهوديّة أن تبقى حيّة فإنّ على كلّ من ينبري لمعارضتها أن يُحَوَّل إلى رغام. فأنا أوثِر قبل أن أرى اليهوديّة تموت أن أغطّي شيبتي بالرماد، تمامًا كما فعل صموئيل النبيّ، فأخلع عنّي بزّة هارون وأستبدلها بالمزق، ريثما أرتحل عن هذه الفانية إلى الأبد.

حنّه

زوجة وكيل هيرودوس

يسوع لم يتزوّج قطّ، إلّا أنّه كان صديق المرأة وكان يعرفها تمامًا كما يجدر بها كرفيقة أنيسة أن تُعرف.

وقد أحبّ الأطفال كما يجدر بهم، تفهُّمًا وإيمانًا، أن يُحبّوا.

تنظر في ضوء عينيه فترى فيه أبًا وابنًا وأخًا. كان يشيل الطفل على ركبتيه ويقول: «كمثل هذا هي قوّتكم وحرّيّتكم، وكمثل هذا هي مملكة الروح».

يُقال إنّ يسوع لم يلتزم شريعة موسى، وذهب بعيدًا في تسامحه مع بغايا أورشليم وسائر البلاد.

أنا نفسي كنت محسوبة بغيًا، لأنّي عشقت رجلًا لم يكن زوجي وكان من الصدّوقيّين.

وذات يوم أقبل عليّ الصدّوقيّون في بيتي بغياب عشيقي، فأمسكوا بي واحتجزوني، فكان من عشيقي أن هجرني ومضى. أخذوني إلى ساحة المدينة حيث كان يسوع يعلّم، وفي نيّتهم أن يمثلوا بي أمامه ليجرّبوه ويوقعوا به.

إلّا أنّ يسوع لم يقاضني بل نسب العيب إلى أولئك الذين كانوا يريدون أن يعيبوا عليَّ، وأنّبهم ثمّ طلب إليّ أن أمضي في سبيلي.

وكان بعد ذلك أن تحوّل كلّ ما لم يكن له طعم في الحياة إلى حلو في مذاقي، وكلّ ما لم يكن ذا رائحة من الأزاهير إلى عاطر في أنفاسي. صرت امرأة لا تلوُّثَ في ذاكرتها، فأصبحتُ هكذا حرّة ولم أعد أمشي حانية الرأس.

رفقه

عروس قانا

حصل هذا قبل أن صار هو معروفًا للناس.

كنت في حديقة أمّي أعتني بأجباب الورد عندما وقف ببابنا. قال: «إنّي عطشان، هل لك أن تجيئيني بماء من بئركم؟» ركضتُ وأتيتُ بكوب الفضّة فملأته ماءً، وسكبت فيه بعض قطرات من ماء الزهر.

عبّ الماء بكلّ لذّة ثم تطلّع في عينيّ وقال: «فلتحلّ بركتي عليك».

أحسست عندما قال ذلك بهبّة ريح، كما لو كان، تسري في كلّ جسدي، ففارقني خجلي على الفور وقلت له: «أنا يا سيّدي مخطوبة لرجل من قانا الجليل، وسينعقد قراننا في اليوم الرابع من الأسبوع المقبل. هل لك أن تأتي إلى عرسي فيتبارك زواجي بحضورك؟»

فأجاب: «سأفعل ذلك، يا بنيّتي.»

الملاحظ أنّه قال «بنيّتي» مع أنّه كان بعد شابًّا وكنت أنا في حدود العشرين.

ثمّ تابع سيره نزولًا على الطريق فيما بقيتُ أنا واقفة عند باب حديقتنا إلى أن نادت عليَّ والدتي إلى البيت.

وفي اليوم الرابع من الأسبوع التالي، أخذوني إلى بيت العريس حيث أقيم العرس، وحضر يسوع بصحبة أمّه وأخيه يعقوب. فجلسوا إلى مائدة العريس مع المدعوّين فيما صويحباتي كنّ يرتّلن أناشيد الأعراس للملك سليمان. وأكل يسوع من زادنا كما شرب من خمرنا موزّعًا ابتسامته بيني وبين الآخرين.

استمع إلى جميع أغاني العاشق المعروفة، وهو يحمل محبوبته إلى خيمته، وإلى ناطور الكروم الذي أُغرِم بابنة سيّد الكرم ومضى بها إلى بيت أمّه؛ وإلى الأمير الذي صدف الصبيّة التي كانت تستعطي فنقلها إلى إمارته وتوّجها بتاج أجداده.

بدا وهو يستمع، كأنّه كان أيضًا يصغي إلى أناشيد أخرى أبعد من مجال أذنيّ.

وعند الغروب أقبل والد العريس إلى أمّ يسوع، وقال لها همسًا: «لم يعد عندنا خمر نقدّمه للمدعوّين، والعرس بعد لم ينته.»

وسمع يسوع الهمس فقال: «السّاقي على علم أنّ الخمر ما زال متوفّرًا».

هذا فعلًا كان واقع الحال. فطالما استمرّ جلوس المدعوّين، ظلّت الخمرة الجيّدة متوفّرة هي أيضًا لكلّ من أراد منهم أن يشرب.

وفي هذه الأثناء بدأ يسوع يتكلّم معنا فيحدّثنا عن عجائب الأرض والسماء؛ عن أزهار سماويّة تتفتّح عندما تحتجب الأرض خلف ستر الليل، وعن أزهار أرضيّة تتضوّع عندما يخبّئ النهار ضوء النجوم.

قصّ علينا حكايات وأمثالًا فأُخذنا بصوته وكنّا نحدّق في وجهه كما لو أنّنا أمام رؤى غريبة، حتّى أنّنا نسينا الأقداح وأطباق الطعام.

كنت وأنا أصغي إليه أحسّ كأنّي في أرض مجهولة قصيّة.

وبعد فترة، إذا بأحد المدعوّين يقول لوالد العريس، «لقد أبقيتَ أجود الخمر إلى آخر العرس، وذلك خلافًا لما يفعله المضيفون».

لكنّ الجميع آمنوا أنّ يسوع قد اجترح معجزة جعلتهم يحصلون على المزيد من الخمر وعلى أجوده، في نهاية العرس لا في بدايته.

وإنّي أنا أيضًا كنت مقتنعة بأنّ يسوع هو الذي أفاض الخمر. لكنّ ذلك لم يدهشني، لأنّي سبق أن استمعت في صوته إلى معجزات. لقد ظلّ ذلك الصوت ملازمًا قلبي في ما بعد حتّى إلى يوم وضعت مولودي الأوّل.

إنّهم في قريتي كما في القرى المجاورة ما زالوا حتّى اليوم يذكرون مأثرة ضيفنا ويقولون: «إنّ روح يسوع الذي من الناصرة، هي الخمرة؛ الخمرة الأعتق والأجود».

فيلسوف فارسيّ في دمشق

لا أستطيع قراءة طالع هذا الرجل كما لا أستطيع الحكم في ما سيحلّ بتلامذته.

إنّ بذرةً مختبئةً في قلب تفّاحة هي بستان محجّب. لكن إذا قُدِّر لتلك البذرة أن تقع على صخرة، تحوّلت إلى لا شيء.

لكنّي أقول هذا: «إنّ إله إسرائيل القديم هو إله قاس بلا شفقة، ويجب أن يكون لإسرائيل إله آخر؛ إله رؤوف وغفور يتطلّع إليهم في دنياهم بإشفاق؛ يهبط إليهم مع أشعّة الشمس ويمشي إلى جانبهم في دربِ تعثُّرِهم، عوض أن يبقى جالسًا أبدًا على كرسيّ المحاسبة ليزن أخطاءهم ويقيس مدى فساد أعمالهم».

على إسرائيل أن تنادِيَ بإله لا يحمل قلبًا غيورًا وذاكرة تحصي نقائصهم؛ إله لا يثأر لنفسه منهم فيفتقد ذنوبهم حتّى الجيل الثالث والرابع.

الإنسان هنا في سوريا، كالإنسان في سائر المسكونة، إنّما يتطلّع في مرآة فهمه هو، وهناك يعثر على معبوده. يصوغ إلهه على شاكلته ويتعبّد لذاك الذي يرى صورتَهُ هو، معكوسةً فيه.

الإنسان في الحقيقة إنّما يصلّي إلى الشوق الهاجع عميقًا في ذاته راجيًا له أن يستفيق ويتحقّق فيه للإنسان مجموعُ مشتهياته.

ليس من بُعدٍ أعمق من الذات في الإنسان. فالذات في الإنسان هي البُعد الذي ينده إلى ذاته، ذلك لأنّه ما من صوت آخر لينده، وما من أذن أخرى لتسمع النداء.

حتّى نحن في بلاد فارس إنّما نرى وجوهنا في قرص الشمس كما نرى أجسادنا راقصة في النار التي نوقدها نحن أنفسنا على المذبح.

أمّا إله يسوع الذي يسمّيه الآب، فلن يكون غريبًا عند شعب يسوع، بل الإله المستجيب لِما هم أنفسهم يشتهون. فآلهة مصر قد ألقوا عنهم ما يثقلهم من الحجارة وهربوا إلى صحراء النوبة كي يكونوا أحرارًا كأهل تلك الصحراء الذين لم يدخلوا بعدُ عبوديّة المعرفة.

أمّا آلهة اليونان والرومان فإنّهم يغربون مع غروب شمسهم. لقد كانوا كثيري الشبه بالناس، حتّى لم يعد بإمكانهم أن يعايشوا نشوة الناس. فالغاب الذي فيه وُلِدَ سحرُهم قد هوت عليه فؤوس الآثينيّين وأهل الإسكندريّة.

وفي نواحينا نحن أيضًا هنا تهوي الأنصاب من أعلى إلى أسفل بفعل قانونيّي بيروت وفتيان إنطاكية النسّاك. فقط الطاعنون من النساء والعجّز من الرجال يسعون إلى معابد الأجداد؛ فقط المنهكون عند آخر الطريق يطلبون العودة إلى البداية.

أمّا هذا الإنسان يسوع؛ هذا الناصريّ، فقد تحدّث عن إله هو أرحب من أن يكون مختلفًا عن روح أيّ إنسان، إله هو أشمل معرفة من أن يعاقِبَ وأوسع محبّة من أن يحصِيَ لخلائقه خطاياهم. من شأن إله هذا الناصريّ أن يدخل أعتاب أبناء الأرض ويجلس حول مواقدهم، ويكون البركة داخل جدران بيوتهم، والضوء الذي ينير لهم الطريق.

إلّا أنّ إلهي هو إله زرادشت، الإله الذي هو الشمس في السماء والنار على الأرض والنور في صدور الناس. وفي ذلك ما يكفيني. فأنا لست بحاجة إلى إله آخر.

داود

واحد من أتباعه

لم أعرف معنى عظاته أو أمثاله إلّا بعد أن لم يعد بيننا. لا، لم أفهم إلّا حين اتّخذَت كلماتُه أشكالًا حيّة أمام عينيّ وتقولبت على صورة أجساد تسير في موكب أيامي.

دعوني أقول لكم هذا: ذات ليلة وأنا جالس في بيتي محلّلًا، ومستعيدًا في ذهني كلماته وأفعاله علّني أدوّنها في كتاب، دخل عليّ ثلاثة لصوص. ومع علمي أنّهم آتون للسطو على أمتعتي، فقد كان مِن استغراقي في ما يشغلني أنّي لم ألقهم بسيف، أو حتّى أن أقول، «ما شأنكم هنا». بل أكملت تدوين ذكرياتي عن السيّد.

وبعد أن ذهب اللصوص تذكّرت عندها قوله: «إذا كان أن أخذ أحد رداءك، فدعه يأخذ رداءك الآخر أيضًا».

وكان أنّني فهمت!

ما من إنسان كان يستطيع، وأنا جالس أدوّن كلماته، أن يوقفني، حتّى ولو كان له أن يحمل مقتنياتي كلّها. ومع أنّي ألتزم الدفاع عمّا أملك وعن نفسي، فأنا أعرف أين يوجد الكنز الأعظم.

لوقا

كان يسوع يحتقر المُرائين ويزدريهم. ينزل غضبه عليهم ويجلدهم فكأنّه العاصفة، ويقصفُ صوتُه في آذانهم وكأنّه الصاعقة فيرتاعون.

ولشدّة خوفهم منه سعوا إلى قتله؛ كالخِلدان تحت الأرض في العتمة كانوا يعملون للتخلّص من وقع قدَمَيه. إلّا أنّه لم يقع في أحابيلهم.

كانوا يثيرون هزأه، لأنّه كان على يقين تامّ من أنّ الروح لن يلحق به زَيْفٌ ولن يُستطاع الإيقاع به في مطبّ.

كان في يده مرآة، وفيها كان يرى المتثاقلين والعرجان والمتعثّرين الذين يسقطون على جنبات الطريق في الصعود إلى القمّة.

كان يشفق عليهم جميعًا ويودّ لو يرفعهم إلى منزلته ويشيل عنهم أثقالهم. أجل، كان يودّ لضعفهم أن يتوكّأ على استطاعته.

هو لم يُدِن الكاذب كلّ الإدانة، ولا اللصّ ولا القاتل، أمّا إدانته المطلقة فكانت للمرائيّ ذي الوجه المقنّع واليد المتسترّة بالقفّازات.

كثيرًا ما كان يستوقفني ذلك القلب، قلبه، الذي يؤوي جميع الذين يلجأون من الأرض البوار إلى محرابه، في حين أنّه يبقى بالنسبة إلى المرائيّ مغلقًا ومختومًا.

وذات يوم، قلتُ له ونحن نستريح معًا في بستان الرمّان: «أنت يا سيّد تغفر للخطأة وللضعفاء والمقلقلين كافّةً، وتخفّف عنهم، وذلك باستثناء المرائين وحدهم.»

فأجاب: «نطقتَ حقًّا عندما سَمَّيْتَ الخطأة ضعفاء ومقلقلين. فأنا أغفر لهم ضعفهم الجسديّ وتقلقلهم الرّوحيّ؛ ذلك لأنّ سقوطهم إنّما تحدّر إليهم من الآباء والأجداد، أو من جشع المحيط.

«إلّا أنّي لا أحتمل المرائيّ لأنّه هو بالذات من يضع النّير على رقاب السذّج والهيّنين من الناس.

«ذوو الضعف هؤلاء، الذين تسمّونهم خطأة، هم كالجلابيط العراة الذين يرتمون خارج العشّ. أمّا المرائيّ فهو العقاب القابع على صخرة قريبة في انتظار الإنقضاض على الضحيّة.

«ذوو الضعف هم أناس تائهون في الصحراء، أمّا المرائيّ فليس تائهًا. هو يعرف الطريق، لكنّه قابع يضحك ما بين رمل وريح.

«ولهذا السبب أراني لا أتقبّله.»

هذا ما قاله السيّد، إلّا أنّي يومها لم أفهمه. لكنّني اليوم أفهم.

وكان أن انتهى مراؤو البلد إلى إلقاء القبض عليه وجلبِهِ إلى المحاكمة في المَجْمَع تحت شعار أنّهم بذلك إنّما يحقّون الحقّ. وقد لجأوا إلى مستندات في شريعة موسى كشاهد وكحجة ضدّه.

هكذا كان لأولئك الذين يخرقون الشريعة شروق كلّ شمس ليعودوا فيخرقوها ثانية عند المغيب، أن دفعوا به إلى الموت.

متّى

الموعظة على الجبل

ذات يوم من أيّام الحصاد، دعانا يسوع مع أصدقائه الآخرين لنرافقه إلى التلال. كانت الأرض عطرة ترتدي جميع حليّها كَابْنَةِ ملك في حفل زواجها. أمّا العريس فكان السماء.

وعندما بلغنا الذرى، وقف يسوع في غابة الغار مأخوذًا ثمّ قال: «إستريحوا هنا، أعدّوا أذهانكم واضبطوا إيقاع قلوبكم، فإنّ عندي الكثير لأقوله لكم».

فاسترخينا على العشب، تحيط بنا أزاهير الصيف من كلّ جهة، وجلس يسوع في الوسط.

وقال يسوع:

«طوبى لذوي الأنفس الرضيّة.

«طوبى لأولئك الذين لا يستعبدهم التملّك لأنّهم سيتحرّرون.

«طوبى لأولئك الذين يعايشون آلامهم، ومن خلال آلامهم ينتظرون الفرح الآتي.

«طوبى لمن بهم جوع إلى الحق والجمال، لأنّ جوعهم سيعود عليهم بخبز، وعطشهم بالماء النّمير.

«طوبى لمن يرأفون، لأنّهم برأفتهم هم أنفسهم، سيتعزّون.

«طوبى لأنقياء القلوب، لأنّهم سيعانقون الله.

«طوبى للرحماء، لأنّ الرحمة ستكون من نصيبهم.

«طوبى لصانعي السلام، لأنّ أرواحهم ستقيم عاليًا فوق المعركة، ولأنّهم سيتحوّلون «بحقل الخزّاف» إلى حديقة.

«طوبى للمطارَدين، لأنّهم سيُمنحون أرجلًا خفيفة ويُجنّحون.

«إفرحوا وتهلّلوا لأنّكم قد وجدتم في ذواتكم ملكوت السماوات. ذلك أنّ المتهلّلين من قديم، كانوا يُضطَهدون عندما يرنّمون لذلك الملكوت. أنتم أيضًا ستُضطَهدون، وفي ذلك فخركم كما أنّ فيه أجركم أيضًا.

«أنتم ملح الأرض، فإذا فقد الملح طعمه فبماذا يُمَلَّح ذلك الطعام الذي به يغتذي قلب الإنسان؟

«أنتم نور العالم، فلا تضعوا ذلك النور تحت المكيال، بل دعوه يشرف من القمّة على أولئك الذين يسعون إلى مدينة الله.

«لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض شريعة الكَتَبة والفرّيسيّين؛ ذلك أنّ أيّامي بينكم معدودة، وكلماتي محصاة، وليس أمامي سوى مجرّد ساعات أتمّم فيها شريعة أخرى وأكشف عن ميثاق جديد.

«قيل لكم لا تقتلوا، أمّا أنا فأقول لكم غضبًا لا تغضبوا إلّا لسبب.

«فُرِضَ عليكم في الماضي أن تأتوا بالعِجْلة والحمل واليمامة إلى الهيكل، وأن تقدّموها على المذبح كي يغتذي أنف الله برائحة الدهون، فتُغفَر لكم خطاياكم.

«أمّا أنا فأقول لكم، أتقدّمون لله ما هو له منذ البدء؟ أم تسترضونه وهو الذي تلفّ ذراعاه المدى، ويرتفع عرشه عاليًا فوق المحيطات المهولة؟

«إنّه لخير لك أن تسعى إلى أخيك فتصالحه قبل أن تذهب إلى الهيكل؛ وأن تكون معطاءً مُحِبًّا لجارك. ففي مثل نفوس كهذه بنى الله الهيكل الذي لا ينهدم، وأقام المذبح الذي ليس إلى زوال.

«قيل لكم، عين بعين وسنّ بسنّ. أمّا أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّ لأنّ من شأن مقاومته أن تغذّيه فيزداد قوّة. فقط الضعفاء يطلبون الثأر لأنفسهم، أمّا أقوياء الروح فيغفرون. وإنّه لشرف لِمَن يطاوله الأذى أن يغفر.

«وحدها الشجرة المثقلة بثمارها تتعرّض لِأَن تُهَزَّ أو لِأَن تُرشَقَ بالحجارة طلبًا فيها لِما يؤكل.

«لا تهتمّوا للغد، بل خيرٌ لكم أن تتمتّعوا بالنهار الذي أنتم فيه، إذ يكفي نهاركم المعجزة التي هي إيّاه.

«وعندما تعطون، لا تكثروا التفكير بنفسكم التي تعطي بل بالحاجة التي تعطون من أجلها. ذلك لأنّ كلّ معطٍ إنّما من الآب يُعطى، ويُعطى على قدر العطيّة وأَزْوَد.

«أعطوا لكلٍّ حسب حاجته، ذلك لأنّ الآب لا يقدّم إلى العِطاش ملحًا، ولا للجائعين حجرًا ولا لبنًا لمن هم في الفطام.

«ولا ترموا مقدّساتكم للكلاب، ولا درركم للخنازير، ذلك لأنّكم بمثل عطاء كهذا إنّما تهزأون بهم كما أنّهم هم أيضًا سيهزأون بالعطايا، فيدفعهم الغيظ إلى تمزيقكم.

«لا تكنزوا كنوزًا يطالها الفساد أو اللصوص. بل اكنزوا لكم كنوزًا لا تفسد ولا تُسرَق، بل تزداد ألقًا وحلاوة مع ازدياد العيون التي تنظر إليها. لأنّه حيث يكون كنزك يكون قلبك أيضًا.

«قيل لكم إنّ القاتل يستوجب أن يُقتَل، والسارق أن يُصلَب، والعاهرة أن تُرجم. أمّا أنا فأقول لكم إنّكم لستم براء من خطيئة القاتل

والسارق والبغيّ، وعندما ينزل بأجسادهم العقاب سيعلو أرواحكم أنتم سواد.

«إنّ الجريمة، أيّ جريمة، ليست من عمل رجل واحد أو امرأة واحدة. فالحقّ أنّ الجرائم جميعها هي من فِعْلِ الجميع. أمّا الذي يقع عليه العقاب فقد يكون الأداة التي تكسر إحدى حلقات القيد الملتفّ حول كواحلكم أنتم، ولعلّه بأحزانه إنّما يدفع ثمن ما سبق أن نعمتم به من أفراح.»

هكذا جاء كلام يسوع، وكم كان بودّي لو أركع قدّامه وأصلّي. إلّا أنّ حيائي حال دون أن أتحرّك أو أتفوّه بكلمة.

لكنّي في نهاية الأمر تجرّأت فقلت: «بنفسي هذه اللحظة أن أصلّي، إلّا أنّ لساني ثقيل في حلقي. هلّا علمتني الصلاة».

وأجاب يسوع: «عندما تُقبِلون على الصلاة، دعوا للشوق فيكم أن يصوغ الكلام، ذلك الشوق هو الذي يشدّني الآن إلى أن أصلّي هكذا:

«أبانا الذي في الأرض كما في السماء، ليتقدّس اسمك، لتكن مشيئتك فينا كما في الفضاء، أعطنا من خبزك كفاف يومنا واغفر لنا برأفتك، ووسّع من سعتنا كي نغفر بعضنا لبعض. سدّد خطانا في الدرب إليك وأُمدد يدك إلينا نحن الذين في العتمة. لأنّ لك الملك وفيك قوّتنا وبك اكتمالنا.»

ولمّا كان أن جاء المساء، هبط يسوع من التلال، وتبعه الجميع. كنت وأنا أسير وراءه أردّد صلاته، مستعيدًا في ذهني جميع ما تكلّم به؛ ذلك أنّي كنت أعرف أنّ كلماته التي كانت تتساقط ذلك النهار مهينمة كرقاع من الثلج، لا بدّ لها أن تتلاصق وتشتدّ في كتل من بلّور، وأنّ من شأن الأجنحة التي كانت ترفرف فوق رؤوسنا أن تعود فتدقّ الأرض وكأنّها الحوافر من حديد.

يوحنّا

بن زبدي

لاحظتم أنّ بعضهم يدعون يسوع «المسيح»، وبعضهم الآخر «الكلمة»، وآخـرون يدعونه «الـنـاصريّ»، كما يذهب بعضهم إلى تسميته «ابن الإنسان».

سأحاول أن أوضح هذه التسميات في ضوء ما أُعطيته.

«المسيح»، ذاك الذي كان منذ قديم الأزمنة، إنّما هو القبس الإلهي القائم في الذات البشريّة. إنّه روح الحياة الذي يحلّ فينا فيتّخذ لنفسه جسدًا كأجسادنا.

إنه إرادة الربّ.

هو «الكلمة» البدئيّة (أو اللوغوس)[1] الذي دأبه أن يتكلّم من خلال صوتنا وأن يحيا في أذننا كَيْما يتسنّى لنا أن نتنبّه وأن ندرك.

وكان أنّ «كلمة» الربّ الإله، ابتنى بيتًا من لحم وعظم وغدى إنسانًا مثلي ومثلكم.

ذلك لأنّه لم يكن في مقدورنا أن نسمع أنشودة الرّيح التي لا جسد لها، ولا أن نرى ذاتنا الكبرى وهي تخطر في السديم.

---

[1] من إضافة المترجم كي يستقيم التذكير في النصّ العربيّ.

كثيرة هي المرّات التي جاء فيها «المسيح» إلى العالم، وكثيرة هي الأقطار التي وطئتها قدماه. لكنّه كان دائمًا يُعتبر غريبًا ومجنونًا.

إلّا أنّ رَجْعَ صوتِه ما وقع يومًا على فراغ، ذلك لأنّ ذاكرة الإنسان تحتفظ بذاك الذي لا يهمّ الذهن أن يستبقيه.

هذا هو المسيح، أعمق العمق وأسماه، المسيح الذي يماشي الإنسان في مسيرته نحو الأبديّة.

أما سمعتم عنه على مَفارِق دُروب الهِنْد، وفي بلاد المجوس، وعلى الرمال المصريّة؟

وهنا في بلادكم شمالًا، سبق لشعّاركم أن أنشدوا مدائح بروميثيوس الذي سرّب النار؛ بروميثيوس الذي يمثّل أمنية الإنسان وقد تحقّقت، بل أمل الإنسان الذي كان رهين القفص وقد أُطلِق؛ ماذا عن أورفيوس الذي أقبل بصوته وقيثارته ليفوّر خمير الروح في الحيوان والإنسان.

أما وصلكم خبر ميثرا الملك وزرادشت النبيّ في بلاد فارس، اللّذين استفاقا من الرقاد الدهريّ للإنسان ووقفا عند سرير أحلامنا؟

نحن أنفسنا نُمسح بشرًا عند اجتماعنا في «الهيكل غير المنظور» مرّة كلّ ألف سنة. يتقدّم عندها أحدهم متجسّدًا، فلا يلبث أن يتحوّل سكوتنا بفعل مجيئه إلى إنشاد.

لكنّ آذاننا مع ذلك لا تتحوّل دائمًا إلى إصغاء ولا عيوننا إلى إبصار.

يسوع الناصريّ وُلِدَ وَرُبِّيَ مثلنا نحن. أبوه وأمّه كانا أُناسًا كَوالدينا، وكان هو الآخر إنسانًا.

أمّا المسيح «الكلمة»، الذي كان منذ البدء؛ المسيح «الروح» الذي يريد لنا أن نحيا حياتنا الأكمل، فقد جاء إلى يسوع ولزمه.

«الروح» كان يد الله المتمكّنة، وأمّا يسوع فكان قيثارتها.

«الروح» كان المزمور، أمّا يسوع فكان النغم.

كان يسوع الناصريّ، المضيف بالنسبة إلى المسيح، والناطق بلسانه؛ هذا المسيح الذي مشى معنا تحت شمسنا واعتبرنا أصدقاءه.

وكان أنّ تلال الجليل وأوديته في تلك الأيّام، لم تكن تسمع إلّا صوته، كنت بعد يافعًا يومها، أمشي وراءه وأتتبّع آثار خطاه.

أمشي وراءه وأتتبّع آثار خطواته، كي أسمع كلمات المسيح التي تخرج من بين شفتَي يسوع الجليليّ.

أمّا لماذا دعاه بعضنا ابن الإنسان، فهذا خبره:

هو نفسه شاء أن يُدعى بهذا الاسم، ذلك لأنّه كان يعرف جوع الإنسان وعطشه، ويرى كدحه في مسيرته إلى ذاته الأعظم.

كان ابن الانسان، المسيح الرؤوف الذي شاء أن يكون مع جميعنا.

بل كان يسوعَ الناصريَّ الذي شاء أن يقودَ جميع إخوته إلى «الممسوح الأحد»، بل حتّى إلى «الكلمة» الذي كان مع الله منذ البدء.

يسوع الجليليّ، أُحِسُّه قائمًا في قلبي؛ الرجل الذي فوق الرجال، الشاعر الذي يجعل منّا جميعًا شعراء، الروح الذي يقرع بابنا كي نستيقظ وننهض ونخرج لملاقاة الحقيقة العارية الطليقة.

كاهنٌ شاب من كفرناحوم

كان ساحرًا، سدى ولحمة، ومشعوذًا؛ رجلًا يفتن البسطاء بتعاويذه وألاعيبه، ويعبث بكلمات أنبيائنا وحُرْمات أجدادنا.

نعم! حتّى أنّه جعل الموتى يشهدون له، والقبور البكماء تبشّر بمجيئه وتؤكّده.

لاحق نساء أورشليم ونساء الأرياف بدهاء ولا دهاء الرتيلاء في اقتناص الذبابة؛ وكان أنّهن وقعن في شباكه.

ذلك أنّ النساء ضعيفات وذوات رؤوس فارغة، يتبعن الرجل الذي يدغدغ عواطفهنّ الجيّاشة بكلمات رقيقة وناعمة. فلولا هؤلاء النسوة الضعيفات والمأخوذات بروحه الشرّيرة لَامَّحى اسمه من ذاكرة البشر.

ومن تُرى هُم الذين تبعوه من الرجال؟

إنّهم كانوا من النوع الذي ينحني للغير ويُداس. فهم على جهلهم وخوفهم، ما كانوا ليثوروا على رؤسائهم الشرعيّين.

إلّا أنّه بعد أن وعدهم بمقامات رفيعة في مملكته السرابيّة، استجابوا لأوهامه ولا استجابة الطين للخزّاف.

ألا تعرفون أنّ العبد يكون في أحلامه دائمًا سيّدًا، والضعيف دائمًا أسدًا؟

كان الجليليّ مشعوذًا ومخادعًا؛ رجلًا يغفر للخطأة جملة خطاياهم، أملًا في أن يسمع من أفواههم القذرة تهليلهم له: «تعيش»، «المجد لك». ويشدّد القلوب الواهية عند البؤساء والذين لا رجاء لهم كي يحصل على آذان تصغي إلى صوته وعلى حاشية تصدح لأمره.

نقض السبت مع الذين نقضوا، أملًا في أن يحصل على تأييد الشذّاذ، وتكلّم بالسّوء على رؤساء كهنتنا، أملًا في أن يجذب إليه الانتباه في «المجلس»، وأن يحظى في معارضته بمزيد من الشهرة.

قلت مرارًا إنّي أكره هذا الرجل. نعم! إنّي أكرهه أكثر من كرهي للرومان الذين يحكمون بلادنا. حتّى مجرّد مجيئه، كان من الناصرة؛ بلدة لعنها أنبياؤنا، وهي مزبلة «الأمم» ولن يأتي منها خيرٌ مدى الدهر.

لاويٌّ موسر في ضواحي الناصرة

كان نجّارًا بارعًا. فالأبواب التي صمّمها لم يحدث قطّ أن خلعها لصّ، والنوافذ التي صنعها كانت جاهزة دائمًا لأن تفتح للريح، شرقيّة وغربيّة.

كان يصنع الصناديق من خشب الأرْز، مجلوّة وقويّة، كما كان يصنع المحاريث والمذاري المتينة والطيّعة في قبضة اليد.

حفر لنا مقاريء الصلاة في معابدنا، حفرها من الخشب التوتيّ، وجعل على جانبَيّ المسند حيث يوضع كتاب الصلاة، أجنحة منبسطة، وحفر في قاعدة المسند عددًا من رؤوس الثيران واليمام والغزلان ذات العيون الواسعة.

حفر كلّ هذا على طريقة الكلدانيّين واليونانيّين. إلّا أنّ شيئًا ما في مهارته لم يكن كلدانيًّا ولا كان يونانيًّا.

تضافرَت في بناء بيتي هذا، قبل ثلاثين سنة، أيادٍ كثيرة. وقد جئت ببنّائين ونجّارين من كافّة بلدات الجليل.

كان لكلّ منهم مهارته وفنّه في البناء، وكنت راضيًا عن كلّ ما فعلوه ومرتاحًا إليه.

ولكن، تعال الآن وتطلّع إلى بابَين ونافذة من صنع يسوع الناصريّ. فالثلاثة بما يتجلّى فيها من رسوخ، إنّما تفضح كلّ ما عداها في هذا البيت.

ألا ترى أنّ هذَيْن البابَيْن يختلفان عن الأبواب الأخرى؟ وهذه النافذة المفتوحة على الشرق، أليست مختلفة عن النوافذ الأخرى؟

جميع أبوابي ونوافذي آخذة في الإنصياع لعوامل الزمن ما عدا هذه التي من صُنْعِه. إنّها وحدها تقف بعناد في وجه العناصر. لاحِظ هذين العمودين المصلّبين كيف أرساهما؛ وهذه المسامير، كيف أنها دقّت في جانب من اللوح فأطلّت من الجانب الآخر حيث تمّ التقاطُها ولَزْمُها بإحكام.

والعجيب في الأمر أنّ ذلك العامل الذي كان يستحقّ أجرة عاملين اثنَين، تقاضى فقط أجرةَ واحدٍ، وأنّ هذا العامل إيّاه، يُعتبر اليوم نبيًّا في إسرائيل.

لو كنت أعرف يومها أنّ ذلك الشاب ذا المنشار والرابوخ هو نبيّ، لرَجَوْتُه أن يتكلّم بدل أن يعمل، ولكُنْتُ ضاعفت له الأجر مقابل كلماته.

ما زال عندي اليوم الكثير من الفعلة الذين يعملون في بيتي وفي حقولي. كيف لي أن أعرف أيًّا منهم يده على الأداة التي معه، وأيًّا منهم يده تمسك بها يد الله؟

نعم! كيف لي أن أعرف يد الله؟

راعٍ في جنوب لبنان

كان الصَّيف يومها في أواخره عندما شوهد هو وثلاثة آخرون يسيرون على ذلك الدرب، هناك، وكان الوقت مساء. وعندما بلغ طرف المرج، توقّف عن السَّيْر متفحّصًا المكان.

كنتُ ساعتها، أعزف على شبّابتي والقطيع يرعى من حولي. لكنّي عندما رأيته يتوقّف، نهضتُ وسرتُ إليه ووقفت أمامه.

فسألني، «أين يقع قبر إيليّا، أليس قريبًا في مكان ما من هذه الناحية؟»

فأجبته، «إنّـه هناك يا سيّـدي تحت تلك الرُّجْـمة الهائلة من الحجارة. كان كلّ عابر سبيل في الماضي، وحتّى في يومنا هذا كذلك، يلتقط حجرًا ويضيفه إلى تلك الرُّجْمة.»

شكرني، ثمّ مضى في سبيله، ومن ورائه الرجال الثلاثة.

وبعد ثلاثة أيّام أخبرني جمائيل، وهو أيضًا راع مثلي، أنّ ذلك الرّجل الذي مرّ من هنا نبيّ من اليهوديّة، إلّا أنّني لم أصدّقه. ومع ذلك، ظلّ ذلك الرّجل يشغل أفكاري لأيّام وأيّام.

وعندما أقبل الربيع، مرّ يسوع ثانية بهذا المرج، إلّا أنّه هذه المرّة كان وحده.

لم أكن في ذلك النهار ألعبُ على شبّابتي، كنتُ وقد أضعتُ إحدى نعاجي، يتملّكني الحزن وقلبي منفطر في صدري.

مشيت إليه ووقفت أمامه، لأنّي كنت بحاجة إلى عزاء.

نظر إليّ ثمّ قال، «أراك لا تعزف على شبّابتك هذا النهار. لماذا هذه الكآبة في عينيك؟»

فأجبته، «لقد أضعت إحدى نعاجي. بحثت عنها في كلّ مكان، فلم أجدها ولست أعرف ماذا أفعل.»

أطرق هنيهة، ثمّ ابتسم لي وقال، «إنتظرني قليلًا هنا، وسأجد لك النعجة». وما إن غادرني حتّى غاب بين التلال.

وبعد ساعة من الزمن، عاد إليّ والنعجة إلى جانبه ملتصقة به. وفيما كان واقفًا أمامي، كانت عينا النعجة على وجهه تمامًا كما كانت عيناي، ولم ألبث من فرحي أن عانقتها.

وضع يده على كتفي ثمّ قال، «سترى منذ اليوم أنّك ستحبّ هذه النعجة أكثر من أيّ خروف آخر في القطيع، ذلك لأنّها كانت ضالّة فوُجِدت».

عدتُ من فرحي فعانقتُ نعجتي مرّة أخرى، فاستسلمت لي وغلب عليّ السكوت.

لكنّي عندما رفعت عينيّ لأشكر يسوع، كان قد مشى وابتعد، ولم أجد في نفسي الجرأة لألحق به.

يوحنّا المعمدان

إلى واحد من تلاميذه

لن أبقى ساكتًا في هذه الزنزانة العفنة بينما صوت يسوع يرتفع في ساحة المعركة. من غير المقبول أن أكون معتقَلًا ومحتجَزًا فيما هو طليق.

يخبرونني أنّ أفاعينا تلتفّ حول حَقْوَيه، فأجيب: الثعابين ستزيد من قوّته، وسيسحقها بنعليه.

أنا مجرّد رعد بالنسبة إلى بروقه. ومع أنّي تقدّمته متكلِّمًا، إلّا أنّه هو «الكلمة» والمحجّة.

قبضوا عليّ على حين غرّة، وربّما سيقبضون عليه هو أيضًا. لكنّ ذلك ليس قبل أن يكون قد قال كلمته بالتمام. وسيكون هو المنتصر.

ستمرّ عربته عليهم وستدوسهم حوافر خيوله وسيؤول النصر إليه.

سيبرزون له بالسيف والرّمح، ولكنّه سيتصدّى لهم بقوّة الروح.

سيجري دمه على الأرض، لكنّهم هم أنفسهم سيعانون الجراح وما تستتبعه من ألم، وسيتعمّدون بماء دموعهم إلى أن تُغسل خطاياهم ويطهروا.

ستهاجم فيالقهم مدنه بمدكّات من حديد، إلّا أنّهم في زحفهم سيغرقون في نهر الأردنّ.

ستغدو أسواره وقِبَبُه أكثر علوًّا وستزداد دروع فرسانه توهّجًا تحت أشعّة الشمس.

يقولون إنّي متطابق معه، وإنّ مخطّطنا هو حضّ الشعب على الإنتفاض والثورة على مملكة يهوذا.

وأجيب، متمنّيًا لو أنّ لي ألسنة لهب مكان الكلمات؛ إذا كانوا يعدّون هذه البؤرة من المظالم مملكةً، فلتتحوّل إذًا إلى خراب وتنعدم. وليكن لها مصير سدوم وعمورة، ولتُمحَ هذه السلالة من ذاكرة الله وتغدُ أرضها رمادًا.

أجل! إنّي، من وراء جدران سجني هذا، الحليف الأكيد ليسوع الناصريّ. فهو الذي سيتولّى قيادة عَساكِري، مشاةً وفرسانًا. ومع أنّي أنا نفسي قائد، لست أهلًا لأحلّ سيور حذائه.

إنطلقوا إليه وانقلوا له ما أقول، وتمنّوا عليه باسمي أن يمنحكم العون والبركة.

لن يستمرّ بقائي هنا طويلًا. ففي الليل، ما بين استفاقة وأخرى، أشعر بأقدام وئيدة وخطى موقّعة تدوس على جسدي. وعندما أرهف السمع يتناهى إليّ صوتُ المطر وهو يتساقط على قبري.

إذهبوا إلى يسوع وقولوا له إنّ يوحنّا الذي من قدرون والذي تحتشد في روحه الظلال ثمّ لا تلبث أن تجلُوَ، يصلّي من أجلك، بينما على خطوات منه، يقف حفّار القبور منتظرًا، فيما يقف السيّاف مادًّا يده لاستيفاء أجرته.

يوسف الّذي من الرامة

تستطيعون أن تعرفوا الغاية الأمّ التي سعى إليها يسوع، كما أنّ في مستطاعي أنا أن أخبركم بها. لكنّ أحدًا لا يستطيع أن يشير بالإصبع إلى الحياة التي للكرمة القدّوس، ولا أن يرى بالعين ماء الحياة الذي يغذّي أغصانها.

ومع أنّي أكلتُ من العنب وتذوّقتُ الخمرة البكر في المعصرة، أجِدُني غير قادر أن أحيطكم علمًا بما يتعدّى ذلك.

أستطيع فقط أن أروي ما أعرفه عنه.

عاش سيّدنا وحبيبنا فقط ثلاثة مواسم نبويّة. فكانت هذه، ربيع أغنيته، وصيف نشوته، وخريف آلامه؛ وكان الموسم الواحد منها بمثابة ألف سنة.

أمضى ربيع أغنيته في الجليل، فهناك جمع حوله مريديه، وعلى شاطئ البحيرة الزرقاء تكلّم لأوّل مرّة عن الآب، وعن انعتاقنا وحرّيتنا.

عند شاطئ طبريّا، كان لنا أن نضيع أنفسنا من أجل أن نجد الطريق إلى الآب؛ عجبًا لتلك الخسارة الزهيدة مقابل مكسب كذلك المكسب.

هناك كان للملائكة أن رتّلوا في آذاننا ودعونا إلى مغادرة الأرض الجديبة طلبًا لجنّة على مقاس أشواق القلوب.

تكلّم عن حقول ومراع خضر؛ عن منحدرات لبنان حيث الزنابق البيضاء الذاهلة في أعاليها، وعن القوافل العابرة عند السفح يلفّها غبار الطريق.

تكلّم عن الورد البرّي الذي يبتسم للشمس ويهدي أريجه للنسمة العابرة.

كأن يقول، «الزنابق والورود البرّية قد لا تعيش سوى نهار فقط، إلّا أنّ ذلك النهار هو في حقيقته أبديّة من حياة حرّة.»

ذات مساء، فيما كنّا جالسين قرب الساقية، قال لنا، «تطلّعوا إلى هذا الجدول وانصتوا إلى موسيقاه. إنّه أبدًا ينشد البحر. ومع أنّه سيبقى ساعيًا أبدًا، فإنّه لا ينفكّ يعلن سرّه ليلًا بعد ليل، ونهارًا بعد نهار.

«حبّذا لو أنّكم تنشدون الآب كما ينشد الجدول البحر.»

وأقبل، بعد هذا، صيفُ نشوتِهِ وأحاق بنا حزيرانُ حُبِّه. فلم يعد عندها يتحدّث إلّا عن الإنسان الآخر؛ عن الجار، عن رفيق الطريق، عن الغريب، عن شركائنا في ألعابنا من رفاق الطفولة.

تحدّث عن المسافر الآتي من الشرق إلى مصر، وعن الغلام العائد مَعَ ثَوْرَيه إلى بيته عند العشيّة، وعن ضيف المصادفة الذي يقوده الغسق إلى بابنا.

كان يقول، «جارك هو ذاتك غير المنظورة، وقد برزت للعيان. من شأن وجهه أن ينعكس على صفحة مياهك الهادئة، حتّى إذا أنعمتَ النظر في ذلك الوجه، بدا أنه ليس سوى وجهك.

«وأنت إذا أصغيت ليلًا سمعته يتكلّم، ولن تكون كلماته سوى نبضات قلبك.

«كن له ما تودّ أن يكونه هو بالنسبة إليك.

«هذه شريعتي أعلنها لكم ولأبنائكم، ومنهم إلى أبنائهم، حتّى انقضاء الدّهر، فلا أجيال بعد ذلك.»

وقال ذات يوم آخر، «أنت لن تكون مجرّد ذاتك وحدها. أنت موجود في مآتي الآخرين، كما أنّهم هم، وإن على غير وعي منهم، موجودون في مَعِيَّتك على امتداد جميع أيّامك ولياليك.

«فهم لا يرتكبون جرمًا إلّا وتكون يدك في جملة أيديهم، كما أنّ ما من سقطة يسقطونها إلّا وتسقط أنت أيضًا معهم.

«طريقهم إلى الهيكل هي أيضًا طريقك، وعندما يسعون إلى الأرض البوار ستكون أنت أيضًا شريكهم في ذلك السعي.

«أنت وجارك حبّتا بذار في الحقل؛ معًا تنموان ومعًا ستتمايلان مع الريح. فالحقل لن يكون لأيّ منكما. ذلك لأنّ البذرة في طريق نموّها لا تملك حتّى نشوتها وهي في ذلك الطريق.

«أنا اليوم معكم وغدًا أتوجّه غربًا؛ ولكنّي أقول لكم قبل أن أذهب، إنّ جاركم هو ذاتكم المقنّعة وقد ظهرت للعيان. فَاسْعوا إليه بمحبّة كَيْما تتعرّفوا إلى أنفسكم، ذلك أنّ من شأن معرفتكم هذه وحدها أن تجعلكم إخوتي.»

وأقبل من بعد هذا خريف آلامه.

تحدّث إلينا عن الحرّية، بالكلام نفسه الذي تكلّمه في الجليل أيّام ربيع نشوته؛ إلّا أنّ كلماته الآن كانت تخاطب الأعمق في إدراكنا.

تكلّم على الأوراق التي تغنّي فقط عندما تهبّ الريح وتحملها على بساطها؛ وعلى الإنسان، تلك الكأس التي يملأها ملاك يقوم بدور كهانة يومه، من أجل أن يطفئ بها عطش ملاك آخر. ولكن سواء كانت تلك

الكأس ملآنة أو فارغة، فإنّها ستمثُلُ بكلّ بلّوريّتها على مائدة الذي هو أعلى العليّين.

وقال، «أنتم الكأس كما أنّكم أنتم الخمرة. فاشربوا من أنفسكم حتّى الثمالة؛ وإلّا افتقدوني في ذاكرتكم فينطفئ عطشكم.»

قال ونحن في طريقنا جنوبًا، «إنّ أورشليم التي تشرف بكلّ تيهٍ من الأعالي، ستهوي إلى أعماق جهنّم حيث وادي العتمة، وسأجدني في عزّ دمارها واقفًا وحدي.

«فالهيكل ركام، ومن حول الرواق سيتناهى إليكم نواح الأرامل واليتامى. وأمّا الرجال، فلن يستطيع واحدهم، في التراكض طلبًا للنجاة، أن يعرف وجه أخيه، لأنّ الهلع سيكون مسيطرًا على الجميع.

«ولكن حتّى هناك، إذا كان لِاثنين منكم أن يلتقيا ويتلفّظا باسمي وينظرا إلى الغرب، فستشاهدونني، وسيكون لكلماتي هذه أن تطرق آذانكم من جديد.»

وعندما بلغنا تلّة بيت عنيا، قال، دعونا نذهب إلى أورشليم، فالمدينة تنتظرنا. سأدخل البوّابة ممتطيًا مهرًا وسأتكلّم إلى الجموع.

«بينهم الكثيرون ممّن يريدون أن يكبّلوني، كما أنّ بينهم من يودّ أن يطفئ ما فيّ من لهب. أمّا أنتم فستكون لكم في موتي حياةٌ وستتحرّرون.

«هم يستهدفون نسمة الحياة التي ترفرف ما بين القلب والعقل كما يرفرف الدوريّ ما بين عشّه والحقل. لكنّ نسمة حياتي قد فاتتهم ولم تعد فيّ. وهكذا لن يكون لهم أن يتغلّبوا عليّ.

«الأسوار التي شيّدها أبي من حولي لن تسقط، وأرضي في داخلي التي قدّسها لن يطالها دنس.

«وعندما يطلّ الفجر، ستكلِّلُ الشّمسُ هامَتي، وسآتي إليكم لملاقاة النهار. وسيكون ذلك النهار طويلًا، ولن يشهد له العالم انقضاء.

«يزعم الكتبة والفرّيسيّون أنّ الأرض عطشى لدمي. إنّ فيّ أن أطفئ بدمي عطشَ الأرض. إلّا أنّ قطراته ستُبعث سنديانًا وقيقبًا، وستحمل الريح الشرقيّة بلّوطها إلى الأراضي الأخريات.»

وعاد فقال، «تتطلّع اليهوديّة إلى ملك، فتزحف على جحافل روما.

«لن أكون أنا ملكها. ذلك أنّ تيجان صهيون أَضْيَق من أن تتّسع لرأسي، وخاتم سليمان أصغر من مقاس إصبعي.

«تطلّعوا إلى يدي، ألا ترونها أقوى من أن تحمل صولجانًا، وأشدّ عصبًا من أن تمتشق المعهود من السيوف؟

«لا، لستُ لأقود لحمًا سوريًّا ضدّ لحم رومانيّ. بل إنّكم أنتم، مسلّحين بكلماتي، ستوقظون تلك المدينة، أُورشليم، فتخاطب روحي فجرها الثاني.

«ستكون كلماتي عسكرًا غير منظور بِخَيْلِه وعرباته. وإنّي من غير سيف ومن غير رمح سأقهر كلًّا من قيصر وكهنة أورشليم.

«لن أجلس على عرش سبق أن جلس عليه عبيد يحكمون عبيدًا. ولا أنا لأثور على أولاد إيطاليا.

«بل إنّي سأكون زوبعة في سمائهم، وأنشودة في أرواحهم.

«وستمكث فيهم ذكراي.

«وسيدعونني يسوع المسيح.»

هذه الأمور قالها ونحن خارج أسوار أورشليم قبل أن ندخل المدينة.

وكلماتُهُ محفورةٌ كما بالأزاميل.

ثنائيل

يقولون عن يسوع الناصريّ إنّه كان متواضعًا وقنوعًا.

يقولون، مع أنّه كان رجلًا عادلًا ومستقيمًا، فقد كان ركيكًا، وغالبًا ما كان يرتبك أمام الأقوياء وذوي السلطان. فهو عندما مَثلَ قُدَّام أهل السلطة كان مجرّد حَمَلٍ بين أسود.

أمّا أنا فأقول إنّ يسوع كان له سلطان على الناس، وإنّه كان يدرك مواطن قوّته، وقد أعلنها صراحة في جبال الجليل وفي حواضر اليهوديّة وأنحاء فينيقيا.

أيّ ليّن أو مذعن من الناس يمكن أن يقول «أنا هو الحياة، وأنا هو الطريق إلى الحقّ؟»

أيّ ضعيف ومتّضع من الناس يمكن أن يقول، «أنا في الله الآب، والله الآب فيّ؟»

أيّ غافل عن مدى القوّة التي فيه، يمكن أن يقول، «من لا يؤمن بي، لا يؤمن لا بهذه الحياة ولا بالحياة الأبديّة.»

أيّ إنسان على غير ثقة بالغد يمكن أن يعلن، «عالمكم يزول ويستحيل هباءً، قبل أن تتلاشى كلماتي.»

أكان على غير ثِقةٍ بنفسه عندما قال للّذين أرادوا إرباكه بشأن إحدى الزانيات، «من كان منكم بلا خَطيئة فَلْيَرمِها بحجر.»

هل كان خائفًا من سلطة، عندما طرد الصيارفة من فناء الهيكل، رغم أنّهم كانوا مجازين من الكهنة؟

هل كان مقصوص الجناح عندما صرخ عاليًا، «مملكتي أرفع من مملكتكم هذه التي من الأرض!»

هل كان يختبئ خلف كلماته عندما ردّد المرّة تلو المرّة، «أنقضوا هذا الهيكل وأنا أعيد بناءه في ثلاثة أيام!»

هل كان جبانًا ذاك الذي هزّ قبضته في وجه السلطات، ووصفهم «بالكذب والحقارة والقذارة والإنحطاط؟»

هل لرجلٍ كان من الجرأة بحيث يقول هذه الأشياء لهؤلاء الذين كانوا حكّام اليهوديّة، أن يوسم بالضعف والضعة؟

قطعًا لا! فالنسر لا يبني عشّه في «الصفصاف المستحي»، ولا يتّخذ الأسدُ لنفسه عرينًا بين الخنشار.

إنّي لأتقيّأ وتثور أمعائي في داخلي، عندما أسمع ذوي القلوب الخائرة ينعتون يسوع بالضعة والتخاذل كَيْما يبرّروا الضعف في قلوبهم هم المتداعية؛ وعندما يتحدّث المداسون المنسحقون في فقرهم إلى العزاء والسلوى، عن يسوع، وكأنّه دودة مضيئة إلى جانبهم.

أجل! إنّ قلبي ليتقزّز من هؤلاء الناس. فالذي أبشّر أنا نفسي به، هو ذاك القنّاص العاتي وتلك الروح العصيّة التي ليس تقهر.

سابا الذي من أنطاكية

استمعتُ هذا النهار إلى شاوول الطرسوسيّ يبشّر يهود هذه المدينة بالمسيح.

هو الآن يُسَمّي نفسه بولس، الرسول إلى الأمم.

كنت أعرفه أيّام الشباب، وكان يومها يضطهد أتباع الناصريّ. أذكر إنشراحه عندما قامت جماعته برجم ذلك الفتى المتوقّد الذي يُدعى إستيفانوس.

بولس هذا، هو فعلًا رجل غريب، وروحه ليست روح إنسان حرّ.

يبدو أحيانًا وكأنّه حيوان في غاب، وقد أصيب بجرح من صيّاد، فراح يفتّش عن كهف يُخفي فيه آلامه عن الناس.

هو لا يتكلّم عن يسوع، ولا يردّد أقواله، بل يكرز عن المسيح الذي أكّدت مجيئَه النّبوءات.

ومع أنّه هو عالِمٌ يهوديّ، فإنّه يخاطب أقرانه من اليهود باليونانيّة؛ علمًا أنّ يونانيّته تعيقه وتجعله يسيء اختيار كلماته.

إلّا أنّه رجل يملك قدرات خفيّة وله من قوّة الحضور ما يشهد له أولئك الذين يتحلّقون من حوله. وهو أحيانًا يؤكّد لهم أمورًا هو نفسه غير متأكّد منها.

نحن الذين عرفنا يسوع واستمعنا إلى تعاليمه نقول، إنّه هدى الإنسان إلى تحطيم السلاسل التي تكبّله وتحول دون تحرّره من عبوديّة ماضيه.

أمّا بولس، فهو الحدّاد الذي يعدّ السلاسل لإنسان الغد؛ هو يضرب على السندان بمطرقته هو، إنّما باسم واحد ليست له معرفة به.

فالناصريّ يريد لنا أن نحيا ساعتنا بشوق ونشوة.

أمّا ابن طرسوس، فيريد لنا أن نبقى أُمَناء للشرائع المدوّنة في بطون الكتب القديمة.

يسوع أحيا بأنفاسه الموتى الذين بلا أنفاس. وإنّي، وأنا وحدي في لياليّ، أؤمن وأفهم.

كان إذا جلس إلى المائدة، روى قصصًا تبعث الفرح في نفوس الجُلّاس وتكون التابل الذي يطيّب الطعام والنبيذ.

أمّا بولس، فيفرض علينا كأسنا ورغيفنا.

فدعوني إذن أتحوّل الآن بعينيّ إلى الطريق الآخر.

سالومي

إلى امرأة صديقة

كان كالحَوْرِ الذي يومض تحت الشمس؛
وكَبُحيرة تتألّق تحت الشمس، بين التلال التي بلا دروب؛
وكالثلج على قمم الجبال، يرغّ، أبيض، أبيض تحت عين الشمس.

بلى! كان هذه جميعًا.
وكنت أحبّه.
إلّا أنّي كنت أتهيّب حضوره.
ولا تقوى قدماي على النهوض بما تحملان من حبّي
كي آتي وأطوّق بذراعيّ قدميه.

كنت لأقول له،
«لقد قتلتُ صديقك في ساعة نزوة.
ألا فاغفر لي خطيئتي،
واعتق برحمتك صباي
الذي أضحى رهين عمل طائش،
كَيْما يستطيع المسير على هدي نورك.»

أعرف أنّه كان لِيَغفر لي رقصي
لقاء رأس صديقه القدّوس.
أعرف أنه كان لِيَرى فيَّ موضعًا لتعاليمه.
ذلك أنّ ما من هوّة جوع في النفس، كان يعصى عليه عبورها،
وما من صحارى عطش كان يمتنع عليه اجتيازها.

بلى، كان فعلًا كَمِثل أشجار الحَوْر،
وكَمِثل البحيرات ما بين التلال،
وكالثّلج فوق لبنان.
وكان بودّي لو أبرّد شفتيّ في ثنايا ردائه.

لكنّه كان على مسافة منّي،
وكنت مرتبكة.
كما كانت أمّي تشدّني دونه
عندما كانت تتملّكني الرغبة في الذهاب إليه.

كلّما صادف أن كان عابرًا، أَوجَعَت حلاوتُه قلبِيَ المَشوق،
لكنّ أمّي كانت تقطّب بازدراء،
وتسارع إلى جذبي عن النّافذة إلى غرفة نومي،
مؤنّبةً بصوت رفيع قائلةً،
«هل هو غير واحد من أكلة الجراد هؤلاء، الآتين من البادية؟

«هل هو سوى مهرّج ومرتدّ؟
«وسـوى مـشاغب ومحـرّض ممتهن، همّـه أن يسلبنا التاج والصولجان،
«ويأتي بثعالب بلاده اللعينة وجئلانها
«ليرفعوا عواءهم في صالاتنا ويتسلّموا عروشنا؟
«إذهبي وحوّلي وجهك عن اليوم الحاضر،
«وتطلّعي إلى اليوم الذي سيشهد سقوط رأس هذا الإنسان،
«ولكن ليس على طبقك».

هذا ما قالته أمّي.
ولكن ما كان لِقَلبي أن يحفل بكلامها.
كنت في سرّي أُحبّه،
وكان نومي مزنّرًا باللهيب.

لكنّه الآن قد مضى.
كما أنّ شيئًا فِيَّ كذلك، هو أيضًا قد مضى.
لعلّه صباي
الذي لم يشأ أن يبقى هنا،
بعد أن كان ربّ الصبا قد ذُبِح.

راحيل

امرأة من تلميذاته

كثيرًا ما أتساءل عمّا إذا كان يسوع إنسانًا مثلنا من لحم ودم، أو فكرًا في الذهن من غير جسد، أو مجرّد خاطرة تزور الإنسان في الخيال.

كثيرًا ما يلوح لي، أنّه لم يكن غير حُلُم حَلِمَه في وقت واحد عددٌ لا يُحصى من الرجال والنساء، في نوم أعمق من النوم وفجر أكثر رواء من أيّ فجر.

والظاهر، أنّنا في روايتهم الواحد للآخر لهذا الحُلُم، بدأنا نحسبه حقيقة واقعةً قد حصلت بالفعل؛ ولمّا كان أنّا أعطينا هذا الحُلُمَ جسدًا من صنع تصوّرنا، وصوتًا من أمانينا، فقد جاء من الجَبلة عينها التي منها جُبِلنا.

لكنّ الواقع أنّ يسوع لم يكن حلمًا. عرفناه طوال ثلاث سنوات، ورأيناه بأمّ عيوننا وفي عزّ الظّهيرة.

لمسنا يدَيْه، وتبعناه من مكان إلى آخر. إستمعنا إلى كرازته وشاهدنا أعماله. أيُعقل أنّنا كنّا فكرًا يلاحق مزيدًا من فكر، أو حُلُمًا في عالم أحلام؟

الأحـداث العظمى تبدو لِحَياتنا اليوميّة دائمًا غريبة، مع أنّ طبيعتها قد تكون مجذّرة في طبيعتنا. ومع أنّ هذه تبدو مفاجئة في قدومها كما في ذهابها، فإنّ مداها الفعليّ يمتدّ إلى أجيال وسنين.

يسوع الناصريّ كان ذاته الحدث العظيم. هذا الرجل الذي نعرف أباه وأمّه وإخوته، إنّما كان هو ذاته، معجزة تمّ حصولها في اليهوديّة. وفي الواقع إنّ جميع المعجزات التي صنعها هو نفسه، إن هي وُضِعَت عند قدَمَيه، لن ترقى تراتبًا إلى مستوى كاحِلَيه.

لو تضافرت جميع أنهار السنين على امتدادها، لتطيح بذكراه من نفوسنا لَما استطاعت.

كان من جهة، جبلًا يشتعل في قلب الظلام، وكان من جهة أخرى ومضةً أنيسة تلوح من وراء التلال. كان عاصفة في الجوّ، كما كان الهمسة التي ينشقّ عنها سديم الفجر أوّل انبثاق النور.

كان سيلًا جارفًا يتدافع من الأعالي نزولًا إلى السهول ليودي بكلّ ما يعترض سبيله. إلّا أنّه كان أيضًا الضحكة على شفاه الأطفال.

كنت كلّ سنة أنتظر الربيع في زيارته لهذا الوادي؛ أنتظر الزنابق وبخّور مريم، إلّا أنّ نفسي في داخلي كانت سنويًّا تبقى حزينة؛ كنت دائمًا أريد أن أبتهج مع الربيع فلا أستطيع.

لكن عندما أقبل يسوع إلى مواسمي، كان ربيعًا عن حقّ، وكان الوعد الذي يتمخّض عنه جميع المُقبِل من السنين. لقد ملأ قلبي فرحًا، وغَدَوتُ شيئًا كالزنابق، ينمو في خفر أمام النور الذي كانه مجيئه.

والآن، مهما تبدّلت الفصول، فصول العوالم التي ليست بعد عوالمنا، فإنّها لن تستطيع أن تذهب بروائه من هذا العالم الذي هو عالمنا.

لا، لم يكن يسوع طيفًا، ولا تخيّلًا من تخيّلات الشعراء. كان إنسانًا مثلي ومثلك، إنّما فقط في أنّه يرى ويسمع ويحسّ، أمّا في ما عدا ذلك فكان على غير شاكلتنا.

كان رجل فرح، وإنّه لَمِن باب الفرح، كان يأتي إلى أحزان الناس، تمامًا كما كان يطلّ من ذرى أحزانه ليستجلي أفراحهم.

كان يرى رؤى نحن لا نراها، ويسمع أصواتًا نحن لا نسمعها. يتكلّم وكأنّه يخاطب جموعًا خفيّة، وغالبًا ما كان يخاطب من خلالنا سلالات بشريّة ما وُلِدَت بعد.

كان يسوع في غالب الأحيان متوحّدًا، كأن يكون بيننا من غير أن يكون واحدًا منّا. كان على الأرض، إلّا أنّه كان سماويًّا. فقط عندما تلفّنا نحن الوحدة يصبح بإمكاننا أن نزور دنيا وحدته.

أحبّنا حبًّا حانيًا، فكأنّ قلبه معصرة، يمكن لكلّ منّا أن يقترب منها بكوبه فيملأه ويشرب.

شيء واحد في يسوع لم أكن أقدر على فهمه. كان يمازح سامعيه فيروي الفكاهات ويلعب على الكلمات ويضحك بملء قلبه، على الرغم من الأغوار التي تشغل عينيه والحزن الذي يمازج صوته. إلّا أنّني اليوم أفهم.

كثيرًا ما أرى الأرض امرأةً حبلى بمولودها الأوّل. وعندما ولد يسوع كان ذلك المولود. كما أنّه عندما مات، كان أوّل إنسان يموت.

أما تهيّأ لكم أنّ الأرض جُمِّدت يوم الجمعة، ذلك اليوم المجلّل بالسواد، وأنّ السماوات كانت في حرب مع السماوات؟

أما شعرتم ساعة غاب وجهه عن عيوننا، كما لو أنّنا لسنا سوى ذكريات تتهادى في الضباب؟

كليوبا الذي من البترون

عندما كان يسوع يتكلّم، كان العالم كلّه يسكت من أجل أن يصغي. فكلماته لم تكن لآذاننا، بل الأصحّ أنّها كانت للعناصر التي منها كوّن الله العالم.

كان يتكلّم للبحر، أمّنا الأرحب التي منها ولدنا. كان يتكلّم للجبل، شقيقنا الأكبر، بقمّته التي هي لنا بمثابة الوعد.

كما تكلّم إلى الملائكة الذين هم أبعد من البحر ومن الجبل، والذين أَوْكَلنا إليهم أحلامنا، زمانًا قبل أن يجفّ الطين فينا ويقسُوَ أمام وجه الشمس.

وإنّ كلامه ما يزال يرقد في صدورنا كأغنية حبّ نصف منسيّة، تلتهب أحيانًا، فتحرق ما يحول بينها والذاكرة.

كان خطابه بسيطًا وفرحًا، وكان رجع صوته كماء بليلة في أرض عطشى.

رفع مرّة يده في وجه السماء فبانت أصابعه كأغصان في شجرة من البيلسان؛ ثمّ قال بصوت عظيم:

«سبق أن تكلّم إليكم الأنبياء الماضون، وامتلأت آذانكم بما قالوا. أمّا أنا فأقول لكم أفرِغوا آذانكم ممّا سمعتموه.»

هذه الكلمات ليسوع، «أمّا أنا فأقول لكم»، لم تصدر عن إنسان ينتمي إلى جنسنا وإلى عالمنا؛ بل عن حشد من السيرافيم العابرين في سماء اليهوديّة.

كان يورد المرّة بعد المرّة، اقتباسات من الشريعة والأنبياء، ثمّ يُتبِعها بقوله، «أمّا أنا فأقول لكم».

آهٍ، أيّ كلمات من لهب هي هذه، أيّ أمواجِ بُحورٍ لا عهد بها لشواطئ أذهاننا، «أمّا أنا فأقول لكم».

أيّ أنجم تُراها، ساعية إلى ذرى النفس، بل أيّ أنفس مؤرّقة هي، في انتظار أن يطلّ الفجر.

أن تخبر عن كلام يسوع يقتضيك أن يكون لك كلامه هو، أو صدى من ذلك الكلام.

وأنا لا أملك ذلك الكلام ولا رجع صداه.

فرجائي ألّا تؤاخذوني على أنّي بدأت قصّة لست أستطيع إنهاءها. ذلك أنّ نهايتها ليست بعد على شفتيّ. إنّها ما تزال أغنية حبّ على كفّ الريح.

نعمان الغدريني

أحد أصدقاء أُستيفانوس

تلامذته تفرّقوا. أعطاهم الألـم ميراثًا قبل أن يُحكم عليه هو نفسه بالموت. فهم اليوم يُطارَدون كالغزلان وكجئلان الحقول، وما تزال حقيبة مصطادهم عامرة بالسهام.

لكنّهم عندما يُقبض عليهم ويُقتادون إلى الموت، يمتلئون فرحًا، وتُشرق وجوههم كوجه العريس في وليمة عرسه. ذلك لأنّـه أعطاهم الفرح أيضًا ميراثًا.

كان عندي صديق من جهات الشمال اسمه أُستيفانوس. ولأنّه صرّح أنّ يسوع هو ابن الله، اقتادوه إلى ساحة المدينة، ورجموه.

وعندما سقط استيفانوس أرضًا، مدّ ذراعيه عن جانبيه وكأنّه شاء أن يموت ميتة سيّده. كانت ذراعاه ممدودتان وكأنّهما الجناحان المستعدّان للتحليق. وفيما كانت الومضة الأخيرة تخبو في عينيه، شاهدت بأمّ عينيّ الاثنتَين إبتسامةً تطفو على شفتيه. كانت الابتسامة تلك، بمثابة ذلك النسيم الذي يهبّ قُبَيل نهاية الشتاء وكأنّه التعهّد الواعد بأنّ الربيع على الأبواب.

كيف لي أن أصف تلك الابتسامة.

بدت وكأنّ استيفانوس كان يقول، «إذا كان أن جئت عالمًا آخر، وكان لأشخاص فيه آخرين أن يقتادوني إلى ساحة مدينة أخرى ليرجموني، فإنّي سأنادي به حتّى هذه المرّة أيضًا، من أجل الحقّ الذي تمثّل فيه، ومن أجل ذلك الحقّ عينه الذي هو فيّ الآن».

وقد لاحظت أيضًا أنّ شخصًا ما كان يقف قريبًا، ويُراقب رجم استيفانوس بلذّة ظاهرة.

واسم ذلك الرّجل شاوول، من مدينة طرسوس. كان هو الذي سلّم استيفانوس إلى الكهنة وإلى الرومان والشعب، من أجل أن يُرجم.

كان شاوول أقرع الرأس وقصير القامة. في كتفيه اعوجاج وفي قسماته تنافر أشعرني بانقباض نحوه.

قيل لي إنّه هذه الأيام يُبشّر بيسوع من على السطوح، لكن من الصعب أن أصدّق.

لكنّ القبر لن يحول دون يسوع ومجيئه إلى مخيّم أعدائه، من أجل أن يروّض أولئك الذين عارضوه وأن يأخذهم أسرى إليه.

ما زلت لا أحبّ ذلك الرجل الذي من طرسوس، على الرّغم ممّا بلغني من أنّه بعد مقتل استيفانوس، لم يلبث أن دُجّن وهُزم وهو في طريقه إلى دمشق. إلّا أنّ رأسه أكبر بكثير من قلبه بحيث يُستبعد أن يكون قلبَ تلميذ عن حقّ.

قد أكون، مع ذلك، مخطئًا، وكثيرًا ما أكون كذلك.

توما

قال جدّي مرّة، وقد كان محاميًا، «علينا أن نخضع للحقيقة ولكن، فقط بعد أن يتمّ إظهارها لنا».

عندما دعاني يسوع، استجبت له. ذلك أنّ أمره كان أكثر فِعلًا من إرادتي؛ إلّا أنّي مع ذلك احتفظت بِخَياري.

عندما كان يتكلّم فيتمايل معه الآخرون كأغصان في الرّيح، كنت أنا أستمع من غير أن يحرّكني. ومع ذلك أحببته.

غادَرَنا منذ ثلاث سنوات تاركًا لنا وراءه جماعة متفرّقة تسبّح لاسمه وتحمل بشارته إلى الأمم.

كانوا يدعونني يومها توما الشكّاك. كان شبح جدّي آنئذٍ ما زال يظلّلني، فأَشتَرِطُ في الحقيقة مثولها.

كنت أعمد حتّى إلى وضع إصبعي في جرحي أنا نفسي، فأتحسّس دمي، قبل أن أصدّق أنّي أتألّم.

ولكنّ إنسانًا يحبّ بقلبه ويحتفظ مع ذلك بشكّ في عقله، ليس سوى عبد في شِراعيّة؛ يسكع فوق مجذافه ويحلم بحرّيته، إلى أن توقظه جَلْدة من كرباج مخدومه.

أنا نفسي كنت ذلك العبد، وكنت أحلم بالحرّية، لكنّ نوم جدّي لا نومي أنا، هو الذي كان يتحكّم بي. لحمي كان في حاجة إلى كرباجِ اليومِ الذي أنا نفسي فيه.

كنت، حتّى في حضور الناصريّ، أطبق عينيّ لأرى يديّ المشدودتين إلى المجذاف.

الشكّ ألمٌ، هو من الوحدة القاسية بحيث لا يُدرِك أنّ الإيمان هو شقيقه التوأم.

الشكّ لقيط بائس ضالّ. حتّى لَوْ وَجَدَته أمّه نفسها التي ولدته واحتضنته، فإنّه سينكمش على ذاته دونها، حَذَرًا وتَخَوُّفًا.

ذلك أنّ الشكّ لن يعرف الحقّ، إلّا بعد أن تلتئم جراحه هو وتندمل.

شككت بيسوع إلى أن جعل نفسه يمثل قدّامي، فأضع إصبعي أنا نفسي في قلب جرحه.

عندها آمنت حقًّا، وتخلّصت بعد ذلك من أمسي وأماسي الجدود.

دفنَ الموتى فيّ موتاهم؛ وأُعطي للأحياء أن يحيوا للمسيح الملك، وحتّى لذاك الذي كان يُدعى ابن الإنسان.

قالوا لي أمس، عليّ أن أذهب وأنادي باسمه بين الفرس والهندوس.

وإنّي سأذهب. كما إنّي، صباحًا ومساءً، من اليوم وحتّى يومي الأخير، سأشاهد سيّدي ينهض بجلال من الموت، وسأستمع إليه يتكلّم.

المقدّم المنطقي

أنت تطلب إليّ التكلّم عن يسوع الناصريّ، وأنا عندي الكثير لأقوله، لكنّ الوقت لم يحن بعد. إلّا أنّ أيّ شيء أقوله عنه الآن هو الحقيقة؛ إذ لا قيمة لأيّ كلام على الإطلاق إلّا إذا هو كشف الحقّ.

نحن أمام إنسان متمرّد، ثائر على كلّ نظام، عائش على الصدقات، رافض لكلّ تملّك، سكّير لا تطيب له المنادمة إلّا مع المتشرّدين والمنبوذين.

لم يكن ابن الدولة المعزّز، ولا كان المواطن في الإمبراطوريّة، المتمتّع بحمايتها؛ لذلك كان يضمر الحقد على الدولة وعلى الإمبراطوريّة كلتيهما.

كان يُؤثر أن يعيش حرًّا من غير واجبات، كطيور السماء، وهكذا كان أن أنزله الصيّادون بسهامهم إلى الأرض.

لا يمكن لإنسان أن يُقدم على دكّ أبراج الأمس، وأن ينجو في الوقت نفسه من الحجارة الساقطة.

لا يمكن لأحد أن يفتح مصرف السدّ العرم عند أسلافه من غير أن يغرق. إنّها الشريعة. ولأنّ ذلك الناصريّ نقض الشريعة، إنتهى هو وأتباعه المهووسون إلى لا شيء.

عرفَتِ الحياة كثيرين من أمثاله، أناسًا أرادوا تغيير مجرى أقدارنا. وكان أنّهم هم الذين تغيّروا وكانوا الخاسرين.

هناك عريشة لا عنب عليها تنمو لصق حائط المدينة. تزحف صعودًا متشبّثة بحجارة البناء. لو كان لهذه العريشة أن تقول في سرّها، «إنّ لي من قوّتي ومن ثقلي ما سأهدم به هذه الجدران». فماذا ستقول عنها النباتات الأخرى؟ أليس أنها ستسخر حتمًا من جنونها؟

وأنا يا سيّدي لا أملك إلّا أن أسخر الآن من هذا الإنسان ومن حماقة تلاميذه.

إحدى المَرْيَمات

كان دائمًا مرفوع الرأس، والشعلة الإلهيّة في عينيه.

غالبًا ما كان يبدو حزينًا، إلّا أنّ كآبته كانت الحنان الذي يبديه للمتألّمين وكانت المؤانسة لِمَن يعانون الوحدة.

عندما كان يبتسم، كانت ابتسامته كجوع أولئك الذين يُبرّح بهم الشوق إلى المجهول، وكانت كغبار النجوم في تساقطه على جفون الأطفال، وكانت كلُقمة خبز في الحلق.

كان كئيبًا. إلّا أنّها كانت الكآبَة التي ترقى إلى الشفتين فتغدو ابتسامة.

كانت كَنِقاب ذهبيّ في الغابة والدنيا خريف، كما كانت أحيانًا كضياء القمر وهو ينهلّ على شطّ البحيرة.

كان يبتسم كما لو أنّ شفتيه تتحفّزان للغناء في وليمة عرس.

إلّا أنّه كان كئيبًا كآبة المجنّح الذي يأبى التحليق أعلى من رفيقه.

رومانوس

شاعر يوناني

كان شاعرًا. يرى نيابة عن عيوننا ويسمع بالأصالة عن آذاننا، وعلى شفَتَيه كلماتُنا غير المحكيّة؛ أمّا أنامله فكانت تتحسّس ما لم يكن بمقدور حواسنا أن تُحسّه.

كان يطير من قلبه شمالًا وجنوبًا ما لا يُحصى من الطيور المغرّدة. كما كانت الأزاهير الطفلة على جنبات التلال تُخبّئ آثار خطاه في دربه إلى السماء.

كثيرًا ما شاهدته ينحني ليتلمّس أوراق العشب وسمعته في سرّي يقول، «أنتنّ أيتها الصغيرات الخضراوات ستكوننّ معي في ملكوتي، تمامًا كسنديانات بيشان وأرز لبنان.

كان يتعشّق جميع الأشياء الحلوة، من وجوه الأطفال الخجولة، إلى المرّ واللّبان الآتيين من الجنوب.

كان يفرح برمّانة أو كوب نبيذ يقدّمان إليه، لا فرق أأتيا من غريب في نزل أو من مضيف ثريّ.

كان يحبّ زهر اللوز في تفتّحه؛ رأيته مرّة يجمع من هذه الأزاهر في كفّيه ثمّ يرفعها إلى وجهه ويُغطّيه ببتلاتها وكأنّ بِوِدّه هكذا، لو يُعانق بحبّه جميع أشجار الدنيا.

كان يعرف البحر والسماوات؛ فيتحدّث عن لآلئ لها من الضوء ما لا عهد لأضوائنا به، وعن نجوم هي أبعد ممّا تعهده ليالينا.

كان يعرف القمم معرفة النسور لها، ويعرف الأودية كما تعرفها السواقي والجداول. يسكت، فإذا سكوته صحراء، ويتكلّم، فإذا كلامه جنينة.

بلى، كان شاعرًا ذا قلب يقيم في صومعة وراء الجبال.

ومع أنّ أغانيه كانت تغنّي لآذاننا، فإنّها أيضًا كانت موجّهة إلى آذان أخرى وإلى أناس في دنيا أخرى، حيث العمر أبدًا شباب، وحيث الزمن دائمًا شروق.

كان زمن كنت أعهد نفسي فيه شاعرًا. إلّا أنّي عندما وقفت في حضرته ببيت عنيا، عرفت ماذا يعني أن تكون عازفًا على آلة بِوَتَر واحد، أمام رجل يجيد العزف على الآلات كلّها. كان في صوته ضحكة الرّعد ودموع المطر، وفرح الأشجار وهي ترقص للريح.

ومن بعد أن تنبّهت إلى أنّ قيثارتي هي بِوَتر واحد لا غير، وأنّ ما يحيكه صوتي ليس في نسيجه تذكارات الأمس الذي عَبَرَ ولا آمال الغد الذي بعد لم يأت، وضعتُ قيثارتي جانبًا وسألزم الصمت. إلّا أنني سأحرص مع كلّ غروب، على أن أصغي وأستمع إلى الشاعر الذي هو مليك الشعراء إطلاقًا.

لاويّ
أحد التلامذة

مرّ ذات مساء ببيتنا، فاحتركت روحي في داخلي.

كلّمني قائلًا، «تعال يا لاويّ، تعال واتبعني».

وكان أن تبعته في ذلك النهار.

وفي مساء اليوم التالي، توسّلت إليه أن يدخل بيتي وأن أستضيفه. فاجتاز هو وأصحابه عتبتنا، وباركنا أنا وزوجتي وأولادي.

كان عندنا في البيت ضيوف آخرون، من جباة الضرائب ومن المتفقّهين الذين كانوا يتنكّرون له في قلوبهم.

وفيما كنّا جالسين إلى المائدة، توجّه أحد الجباة إلى يسوع سائلًا، «هل صحيح أنّكم، أنت وتلاميذك، تخالفون الشريعة فتوقدون نارًا يوم السبت؟»

فأجابه يسوع قائلًا، «نحن بالتأكيد نشعل نارًا يوم السبت، بودّنا أن نلهب السبت، وأن نحرق بمشعلنا كلّ هذا القشّ اليباس الذي ينبذه حصيد سائر الأيّام».

وتكلّم جابٍ آخر فقال، «نُمِيَ إلينا أنّكم في الحان، تشربون الخمرة مع أنجاس القوم.»

فأجابه يسوع، «أجل، فهؤلاء أيضًا علينا أن نتعهّدهم. وهل كان مجيئنا إلّا لنشارك الساقطين والخطأة بينكم، كوبهم ولقمتهم؟

«قليلون، أجل قليلون جدًّا، هم أولئك الذين يجرؤون على اعتلاء الريح وهم بعد بلا ريش، وكثيرون جدًّا هم الذين لهم الريش ولهم الجناحان ولكنّهم يلزمون العشّ. إلّا أنّنا نزقّهم جميعًا بمنقارنا، البليد منهم والسريع.»

وقال جابٍ ثالث، «أما تناهى إليّ أنّكم تقفون إلى جانب بغايا أورشليم؟»

ولمحت عندها كأنّ شواهق لبنان تجلّت في وجهه، فقال، «هذا صحيح.

«هؤلاء النسوة سيمثلن يوم الحساب أمام عرش أبي، وسيغتسلن بدمعهنّ فيطهُرن. أمّا أنتم فستظلّون مشدودين إلى تحت بسلاسل الأحكام عينها التي بها تدينون.

«لم تسقط بابل وتندثر بسببٍ من بغاياها، بل إنّها استحالت رمادًا كي لا يعود لعيون منافقيها أن تبصر ضوء النهار».

ثمّة أسئلة أخرى كانت ستأتيه من جباة آخرين، لولا أنّي أشرت إليهم بالسكوت. ذلك لأنّي كنت أعرف أنّه سيخزيهم؛ لقد كانوا في ضيافتي وما كنت أرضى لهم أن يُعابوا.

وعندما انتصف الليل غادر الجباة منزلي بنفوس عرجاء.

عندها أغمضت عينيّ فأبصرت، كما في رؤيا، سبع نساء بثياب بيض يُحِطن بيسوع. كنّ مكتوفات الأيدي على صدورهن ومَحْنِيّات الرؤوس. وفيما كنت أوغل أعمق فأعمق مخترقًا ضباب الرؤيا، أبصرت وجه واحدة من النساء السبع، وإذا به يشعّ في عتمتي.

كان ذلك وجه إحدى الصبايا التي كانت تسكن في أورشليم. وعندما فتحت عينيّ ونظرت إليه، رأيته يبتسم لي وللباقين الذين كانوا ما زالوا على المائدة.

وأغمضت عينيّ من جديد فإذا بي أرى سبعة رجال بثياب بيضاء يحيطون به، وأبصر وجه واحد من السبعة.

لقد كان وجه ذلك اللّص الذي صُلِب لاحقًا عن يمينه.

ومن بعد ذلك غادر يسوع ورفاقه بيتي وأخذوا الطريق.

أرملة في الجليل

كان ابني أوّل مواليدي ووحيدهم. ظلّ يكدّ في الحقل بكلّ قناعة ورضى، إلى أن سمع ذلك الإنسان، الذي اسمه يسوع، يخاطب الجموع.

إذ ذاك تغيّر ابني فجأة كأنّ روحًا جديدة، غريبة ومؤذية، قد عانقت روحه.

غادر الحقل والبستان، مثلما غادرني، وتحوّل إلى مخلوق تافه من أبناء الطرقات.

ذلك الرّجل، يسوع الناصريّ، لا شكّ إنسان شرّير. أَيُمكِن لرجل صالح أن يُقدِم على سلخ ولد عن أمّه؟

إنّ آخر ما قاله لي ابني كان هذا: «أنا ذاهب مع أحد تلامذته الى الشمال. لقد اتّخذتُ من الناصريّ ركنًا لحياتي. أنتِ ولدتني، وأنا شاكر لك ذلك. لكن عليّ أن أذهب. أليس أنّي تارك لك أرضنا الغنيّة، وكلّ ما نملك من فضّة وذهب؟ فأنا لن آخذ معي سوى عصاي والثوب الذي عليّ».

هذا ما قاله ولدي ثمّ مضى.

وها قد ألقى الرومان والكهنة القبض على يسوع وصلبوه؛ وحسنًا ما فعلوا.

إنّ رجلًا يُقدِم على التفريق بين ولد وأمّه، لا يمكن أن يكون إلهيًّا.

الإنسان الذي يتسبّب بإرسال أبنائنا إلى مدن الأمم، لا يمكن أن يُعدّ صديقًا.

أعرف أنّ ابني لن يعود أبدًا إليّ. رأيت ذلك في عينيه. لذلك أكره يسوع الناصِريّ الذي تسبّب ببقائي وحدي في هذا الحقل الذي لم يمسّه محراث، وهذا البستان الذي اعتراه الذبول.

كما أكره جميع الذين يمتدحونه.

ذكروا لي قبل أيّام، أنّ يسوع قال مرّة، «أبي وأمّي وإخوتي هم أولئك الذين يستمعون إلى كلامي ويتبعونني».

ولكن لماذا على الأبناء أن يهجروا أمّهاتهم من أجل أن يقتفوا خطواته؟

لماذا على حليب صدري أن يعتريه النسيان باسم ينبوع لم يُعرف بَعد مذاقه؟ وأن يُهجَر دفء ذراعيّ طلبًا لشمال عدائيّ بارد؟

بلى، أكره الناصريّ، وسأكرهه حتّى آخر أيّامي، ذلك أنّه سلبني ابني الأوّل والوحيد.

يهوّذا

ابن خالة يسوع

كنّا ذات ليلة من ليالي آب بصحبة المعلّم في أحد المروج على مقربة من البحيرة. وكان المرج يُدعى قديمًا «مرج الجماجم».

كان يسوع ممدّدًا على العشب وعيناه إلى النجوم.

وفجأة، إذا برجُلَين اثنين يقبلان مسرعَين نحونا وهما يلهثان. بدا كأنّهما في كربة، وللتوّ وقعا بقامتيهما على قدمي يسوع.

ووقف يسوع وسألهما، «من أين جئتما؟»

وأجاب أحدهما، «من مخاريوس.»

فالتفت إليه يسوع سائلًا باضّطراب، «يوحنّا! ما به؟»

فأجابه الرّجل، «ذُبِح هذا النهار. قطعوا رأسه في زنزانته داخل السجن.»

ورفع يسوع رأسه على الأثر، ثمّ ابتعد بضع خطوات عنّا ليعود بعد لحظات ويقف بيننا من جديد قائلًا،

«كان بإمكان الملك أن يذبح النبيّ قبل هذا اليوم. لكنّ الملك في الحقيقة، قد راعى رغبة رعيّته. فالملوك من قديم، لم يكونوا بهذا التباطؤ في إعطاء رأس نبيّ إلى طلّاب الرؤوس.

«أنا لا أحزن من أجل يوحنّا، بل من أجل هيرودس، الذي ترك للسيف أن يهوي. مسكين الملك، لكأنّه الحيوان الذي يُقبض عليه ويُتلّ ويقاد بِرَسَن مشدود إلى طوقه.

«لهفي على أولئك الحكّام الرُبعيّين الصغار، الضائعين في عتمات ذواتهم، حيث يتعثّرون ويسقطون. ولكن هل يُتَوَقّع من بحر آسن غير أسماك ميتة؟

«أنا لا اعتراض لي على الملوك. فليحكموا الناس، ولكن فقط عندما يكونون أحكم من الناس.»

وبعد أن انتقل بعينيه من الوجهين المفجوعين إلينا، قال من جديد، «وُلِد يوحنّا جريحًا. ودم الجرح الذي فيه كان يجري في كلماته. لقد كان الحرّية التي لم تتحرّر بعد من ذاتها، وكان طويل الأناة ولكن فقط مع المستقيمين والعادلين.

«كان عن حقّ، صوتًا صارخًا في عالم الطرشان؛ وقد أحببته في تألّمه وفي توحّده.

«وأحببتُ كبرياءه التي تؤثر أن تعطي رأسها للسيف، قبل أن تسلّمه للتراب.

«الحقّ أقول لكم، إنّ يوحنّا بن زكريّا كان الأخير بين أبناء جنسه، وإنّه كأسلافه، قُتِل ما بين عتبة الهيكل والمذبح».

وابتعد عنّا يسوع ثانية.

ثمّ رجع فأضاف، «منذ البدء وحكّام الساعات يذبحون حكّام السنين. النهج هو إيّاه، تجري محاكمة، وتصدر إدانة بحقّ إنسان ما وُلِد بعد، وقرار بإعدامه قبل ارتكابه الجريمة.

ابن زكريّا سيحيا معي في مملكتي، وطويلًا سيمتدّ به نهاره.»

وتحوّل إلى تلميذَي يوحنّا فقال، «لكلّ صنيع غده. وإنّي أنا نفسي قد أكون غد هذا الصنيع. إرجعوا إلى أصحاب صاحبي وقولوا لهم إنّي سأكون معهم».

وغادَرَنا الرجلان وقلباهما، كما بدا، أقلّ سوادًا.

وعاد يسوع فاستلقى على العشب من جديد، باسطًا ذراعيه عن جنبيه ومتأمّلًا في النجوم.

كان الوقت قد تأخّر، وكنت مستلقيًا على مقربة منه على أمل الاسترخاء، إلّا أنّ يدًا ما كانت تقرع باب رقادي فظللتُ هكذا مستقيظًا الى أن دعاني الفجر ويسوع إلى الطريق.

رجل من البادية

كنتُ غريبًا في أورشليم. أتيت إلى المدينة المقدّسة من أجل أن أرى الهيكل العظيم، وأقدّم على المذبح، ذبيحة على نيّة زوجتي التي أضافت إلى قبيلتنا توأمَين ذكرَين.

وبعد أن قدّمت ذبيحتي، وقفت في رواق الهيكل ألقي نظرة إلى أسفل على الصيارفة وبائعي الحمام للراغبين في الأضاحي، وأستمع إلى الجلبة الكبيرة في الساحة.

وفيما كنت واقفًا هناك، إذا بِرَجُل يُقبِل فجأة ويدخل في وسط الصيارفة وبائعي الحمام.

كان رجلًا ذا مهابة، وكان دخوله سريعًا.

كان في يده حبل من جلد الماعز؛ وإذا به يعمد إلى قلب موائد الصيارفة وإلى جَلدِ تجّار الطيور بذلك الحبل.

وسمعته يقول بصوت عالٍ، «أعيدوا هذه الطيور إلى الفضاء الذي هو عشّها».

كان الرجال والنساء يفرّون من أمام وجهه، وكان هو يجول بينهم كما تدور الزوبعة بتلال الرمول.

كلّ ذلك حدث بلحظة، فإذا الهيكل يفرغ من الصيارفة. الرجل وحده ظلّ واقفًا هناك، في حين وقف رفاقه على مسافة منه.

وأدرتُ وجهي فإذا رجل آخر في رواق الهيكل، فمشيتُ إليه وقلت، «يا سيّد، من ذاك الرّجل هناك الذي يقف وحده وكأنّه هو الآخر هيكلٌ؟» فأجابني، «هذا يسوع الناصريّ، نبيّ ظهر مؤخّرًا في الجليل. هنا في أورشليم، جميعهم يكرهونه».

فقلت، «قلبي كان من القوّة بحيث يقف إلى جانب سوطه، ومن الإذعان بحيث يرتمي عند قدميه.»

وتوجّه يسوع نحو رفاقه الذين كانوا ينتظرونه. إلّا أنّه قبل أن يصل إليهم، طارت مجدّدًا ثلاث من حمامات الهيكل، فحطّت واحدة على كتفه الأيسر والثانيتان الأخريان عند قدميه. فمرّ بيده عليهنّ بحنان، ثمّ استأنف سيره، وكانت في كلّ خطوة من خطواته فراسخ.

والآن قولوا لي، بأيّ سلطة أقدم على مهاجمة المئات من الرجال والنساء وعلى تفريقهم من دون أيّ مقاومة؟ قيل لي إنّ جميعهم يكرهونه، إلّا أنّ أحدًا لم يقف في وجهه ذلك النهار. هل إنّه اقتلع مخالب الكراهية وهو في الطريق إلى ساحة الهيكل؟

بطرس

ذات مرّة، بلغ بنا يسوع عند الغروب قرية بيت صيدا. كنّا شلّة متعبة يعلوها غبار الطريق.

وبلغنا بيتًا فخمًا قائمًا في وسط حديقة، كان صاحبه واقفًا عند بوّابتها.

فقال له يسوع، «هؤلاء الرّجال متعبون، وأقدامهم متقرّحة. فدعهم ينامون في بيتك. فاللّيل بارد وهم بحاجة إلى دفء وراحة.»

فأجابه الرجل الثريّ، «لا نَوْمَ لهم في بيتي.»

وقال يسوع، «دعهم ينامون في الحديقة.»

فأجاب الرجل، «لا، ولا في حديقتي.»

عندئذٍ مال يسوع نحونا وقال، «هذا ما سيكون عليه غدكم، وحاضركم هذا كمستقبلكم. فجميع الأبواب ستكون مقفلة في وجوهكم، ولا حتّى الحدائق التي تحت قبّة الفلك ستسمح بأن تفترشوها.

«إذا كان لأرجلكم أن تصبرِ على الطريق وأن تكملوا معي، فقد تجدون لكم طست ماء وسريرًا وربّما أيضًا خبزًا ونبيذًا.

أمّا إذا حدث أن لم تجدوا شيئًا من هذا، فلا يغيبنّ عن بالكم أنّكم بذلك قد اجتزتم إحدى صحاريّ.

«تعالوا نذهب».

أمّا الرجل الثريّ فقد اعتراه الإضطراب، وتغيّرت سحنته وغمغم لنفسه كلمات لم أستطع سماعها؛ وانسلّ من أمامنا إلى داخل الحديقة.

وتبعنا نحن يسوع في الطريق.

ملاخي الذي من بابل

فلكيّ

تسألونني بشأن معجزات يسوع.

في كلّ ألف ألف سنة، يلتقي كلّ من الشمس والقمر وأرضنا هذه وجميع أخواتها من الأجرام الأخرى في خطّ مستقيم، فيتشاورون لحظة ثمّ يفترقون في انتظار أن تنقضي ألف ألف أخرى من السنين.

ليس من خوارق بالنسبة إلى المواقيت، إلّا أنّنا، أنتم وأنا، لا نلمّ بجميعها. ماذا لو كان لميقات ما أن يتجلّى على صورة إنسان؟

لقد كان للعناصر التي منها أجسادنا وأحلامنا أن تلتقي بموجب الميقات في شخص هو يسوع. فكلّ الذي كان من غير زمن قبله أضحى متزامنًا فيه.

يقولون إنّه أعطى العميان بصرًا والكسحاء القدرة على السير، وإنّه طرد الشياطين من المسكونين.

قد لا يكون العمى سوى فكرة مظلمة يمكن التغلّب عليها بفكرة أخرى متألّقة. وإنّ ذبولًا في طرف من أطراف الجسد، قد لا يكون سوى تكاسل يمكن تسريعه عن طريق مدّه بالطاقة. ولعلّ الشياطين، هذه العناصر في حياتنا التي لا تعرف الإستكانة، إنّما يمكن طردها بإيقاظ ما فينا من ملائكة الاستكانة والهدوء.

يقولون إنّه ردّ الأموات إلى الحياة. إذا كان في استطاعتكم أن تقولوا لي ما هو الموت، استطعت عندها أن أقول لكم ما هي الحياة.

تأمّلت في الحقل مرّة بلّوطة، بدت هكذا شيئًا جامدًا لا شأن له في الظاهر. لكنّني في الربيع، رأيت تلك البلّوطة ترخي جذورًا في التربة وتنهض لملاقاة الشمس في طريقها إلى أن تصبح شجرة بلّوط.

ستحسبون هذا من غير شكّ عجيبة، لكنّه عجيبة تحصل ألف ألف مرّة كلّما اعترى النعاس فصل الخريف، وأيقظ الشوق فصل الربيع.

ماذا يمنع أن تحلّ مثل هذه العجيبة في القلب البشريّ؟ ألا يحدث أن تتلاقى الفصول على يد إنسان مسيح أو على شفتَيه؟

إذا كان الله قد أعطى الأرض فنّ أن تحتضن البذرة وتنبتها وهي في ظاهرها شيء ميت، ماذا يمنع أن يكون قد أُعطِيَ لقلب بشريّ أن ينفخ حياة في قلب بشريّ آخر، حتّى وإن بدا في ظاهره ميتًا؟

تكلّمت على هذه العجائب التي أعتبرُها صغيرة نسبة إلى العجيبة الأعظم التي هي ذلك الرجل نفسه؛ عابر السبيل هذا، الذي حوّل المعادن في ذاتي من مجرّد نفايات إلى ذهب خالص، والذي علّمني أن أحبّ مبغضيّ، فوهبني في ذلك الطمأنينة وملأ منامي أحلامًا عذبة.

هذه هي العجيبة التي حلّت في حياتي.

كانت نفسي عمياء، كانت نفسي عرجاء. كنت مسكونًا بالأرواح المتخبّطة، كنت شيئًا ميتًا.

لكنّني الآن قد صرت أرى بوضوح، صرت أمشي مستقيمًا بلا عرج، يغمرني السلام وأحيا كلّ ساعة من ساعات نهاري، شهادةً لذلك وإقرارًا به.

لكنّني لست من أتباعه، أنا مجرّد فلكيّ عتيق يزور أمداء الفضاء، مرّة كلّ فصل، ويعي ما تخضع له هذه الأمداء من قوانين وما يتمثّل فيها من عجائب.

أنا مِن عمري في عشيَّته. ولكنّي كلّما عدت بي إلى فجري، عدت في الحقيقة إلى شباب يسوع.

دأب الشيخوخة أن تتطلّع أبدًا إلى الشباب. أمّا بالنسبة إليّ الآن فإنّها المعرفةُ فِيَّ تتطلّع إلى الرؤيا.

أحد الفلاسفة

عندما كان بيننا، كان يحدّق فينا وفي عالمنا بعينَين مدهوشتَين، ذلك أنّ عينَيه لم تكونا مغشّاتين بغشاوة السنين المتقادمة، فالذي كان يراه كان كلّه واضحًا في ضوء فتوّته.

ومع أنّه كان يعي عمق الجمال، كان يدهشه أبدًا ما في الجمال من سلام وجلال؛ كان يمثُلُ أمام الأرض وكأنّه أوّل إنسان في أوّل نهار له يدرج عليها.

نحن الذين تبلّدت حواسّنا إنّما نحدّق في عزّ النهار ولا نرى، ونَصْلي آذاننا جيّدًا ولا نسمع؛ ونمدّ أيدينا على مداها فلا نلمس. حتّى لو أُحرق بخور الجزيرة العربيّة كلّه، لأكملنا طريقنا من غير أن نشمّ.

نحن لا نرى الفلّاح وهو عائد من حقله عند العشيّة، ولا نسمع شبّابة الراعي وهو عائد بقطيعه إلى الحظيرة؛ ولا نمدّ ذراعنا من أجل أن نتلمّس المغيب؛ أمّا أنوفنا فلم تعد تحسّ أيّ جوع إلى ورود شارون.

لا، نحن لا نقدم على تمجيد الملوك إلّا إذا كانت لهم ممالك؛ ولا نسمع صوت القيثارات إلّا إذا نقرت أوتارَها أصابع؛ لا ولا نرى ولدًا يلعب تحت زيتون بستاننا كما لو أنّه شجرة زيتون فتيّة. ونحن إذا لم تتلفّظ بالكلام شفاه من لحم ودم، حسبنا واحدنا الآخر أخرس وأصمّ.

نحن في الحقيقة نحدّق ولا نرى، ونصغي ولا نسمع، نأكل ونشرب ولا نتذوّق، وفي هذا مكمن الفرق بيننا وبين يسوع الذي من الناصرة.

كانت حواسّه جميعها تتجدّد باستمرار، فإذا عالمه دائمًا جديد.

إنّ لثغة طفل بالنسبة إليه ليست أقلّ من صرخة الإنسانيّة مجتمعة، في حين أنّها بالنسبة إلينا مجرّد لثغة.

وإنّ جذر زنبقة بالنسبة إليه هو ظاهرة حنين إلى الله، في حين أنّه بالنسبة إلينا ليس سوى مجرّد جذر.

أُوريّا

رجل مسنّ من الناصرة

كان غريبًا بيننا، وكانت حياته مقنّعة بأقنعة سود.

لم يسلك الطريق الذي اختطّه لنا إلهنا، بل تبع درب الخطأة والأشرار.

كانت طفولته تقيّؤًا ورفضًا لحليب طبيعتنا الحلو.

وكان صباه أجيج نار عشب يابس يحترق في الليل.

وعندما بلغ الرّجولة، شَهَرَ سلاحه في وجهنا جميعًا.

أشخاص كهؤلاء إنّما يصدف أن تحبل بهم أمّهاتهم، وبحر المعروف عند البشر في منتهى جزره. أمّا ولادتهم، ففي عواصف شيطانيّة يولدون؛ إلّا أنّهم يحيون في العواصف يومًا ثمّ ينتهون إلى الأبد.

ألا تذكرونه صبيًّا مزهوًّا بنفسه يجلس إلى كبار حكمائنا فيجادلهم ويهزأ من وقارهم؟

ألا تذكرونه فتى يعتاش من منشاره وإزميله، كيف أنّه لم يكن ليترافق مع أبنائنا وبناتنا أيّام الأعياد، بل يصرّ على أن يمشي منفردًا؟

لم يكن ليردّ التحيّة للّذين يحيّونه فكأنّه آت من عَلُ.

التقيته أنا نفسي مرّة في الحقل، وألقيت عليه التحيّة، فاكتفى بابتسامة رأيت فيها العجرفة والاحتقار.

ولم يطل الأمر بعد ذلك، أن ذهبت ابنتي مع رفيقاتها إلى قطاف العنب في الكروم، فتكلّمت هي الأخرى إليه، إلّا أنّه لم يبادلها الكلام.

توجّه بالكلام إلى قاطفي العنب كمجموع، وكأنّ ابنتي لم تكن بينهم.

عندما هجر قومه وتحوّل إلى متشرّد، انتهى به الأمر إلى ثرثار معتوه، حتّى إذا تكلّم، اخترق صوته لحومنا كالمخلب. وإنّ رجع ذلك الصوت ما زال حتّى الآن وجعًا في ذاكرتنا.

فهو ما كان يجيء على ذكرنا وذكر آبائنا وأجدادنا إلّا بالشرّ، فكأنّ لسانه السّهم المسموم الذي دأبه أن يخترق صدورنا.

هذا ما كانه يسوع.

لو أنّه كان ابني، لألحقته بالفيالق الرومانيّة المرسَلة إلى جزيرة العرب، ولتوسّلت إلى القائد أن يضعه في الخطّ الأماميّ عسى أن يوفّق به رماة العدوّ فأتحرّر من وقاحته.

لكنّني لا ولد لي، ولعلّ ذلك من حسن طالعي. فماذا لو كان ولدي عدوًّا لشعبه فجلب الذلّ إلى لحيتي البيضاء، وجعل شيبتي، وهي في طريقها الآن إلى التراب، مخضوبة بالعار.

نيقوديموس الشاعر
أصغر شيوخ المجلس سنًّا

كثيرون هم المغفّلون الذين يزعمون أنّ يسوع هو من وقف في وجه ذاته واعترض طريقها؛ ذلك أنّه لم يكن يعرف ما الذي يريده، وفي غياب هذه المعرفة اختلط عليه الأمر.

كثيرون حقًّا هم الذين شأنهم شأن البومة التي لا يحلو لها من جميع الأغاني إلّا نعيبها.

أنتم وأنا لا ننخدع بالذين دأبهم اللعب على الكلام، هؤلاء الذين لا يقرّون إلّا من كان أكثر تلاعبًا منهم، هم أناس يحملون رؤوسهم بسلال إلى السوق، ويبيعونها لأوّل مثمّن يصدفونه.

نحن نعرف الأقزام الذين يستهينون بمن رأسه يجاور السماء، ونعرف ما يمكن للعشبة الطفيليّة أن تقول في الأرزة والسنديانة.

إنّي أشفق عليهم في عجزهم عن السموّ إلى فوق.

أشفق على الشوكة التي تغار في تَغضُّنها من شجرة الدردار التي تتحدّى الفصول.

إلّا أنّ الشفقة، حتّى وإن غُلّفت بتأسّف الملائكة جميعًا، لن تعود عليهم بأيّ نور.

أعرف فزّاعة الغربان التي ترفّ ثيابها المتهرّئة في حقل الذرة، لكنّها في ذاتها، ميتة بالنسبة إلى الذرة وإلى النسيم المغنّي من خلال القصب.

أعرف الرتيلاء التي، وهي من غير جناح، تحوك شباكها لكلّ الذين يطيرون.

أعرف طارِقي الأتناك ونافخي الأبواق وضاربي الطبول الذين، في طغيان ما يثيرونه هم أنفسهم لأنفسهم من جَلَبة، لا يستطيعون أن يسمعوا صوت القبّرة، ولا هيمنة الريح الشرقيّة في الغابة.

أعرف الذي دأبه أن يجذّف عكس جميع التيّارات، لكنّه أبدًا لا يدرك المنبع. والذي يجري دائمًا مع الأنهار، إلّا أنّه لا يجرؤ أبدًا على ركوب البحر.

أعرف ذاك الذي يضع يديه غير المدرّبتين في تصرّف باني الهيكل، حتى إذا جاءه رفض البنّاء، قال في قرارة نفسه المتجهّمة، «سأهدمَنَّ كلّ هذا الذي سيُبنى.»

أعرف جميع هؤلاء. إنّهم أولئك الذين اعترضوا على قول يسوع ذات يوم، «أحمل إليكم سلامًا»، وقوله في يوم آخر، «أحمل إليكم سيفًا».

هم لا يستطيعون أن يفهموا أنّ حقيقة ما قاله هي، «إنّي آتي بالسلام إلى حسني الإرادة، وإنّي ألقي سيفًا بين الذي يرجو سلامًا وبين الذي يريد السيف».

هم يعجبون كيف أنّ القائل، «مملكتي ليست من هذا العالم»، هو نفسه الذي يقول، «أعطوا لقيصر ما لقيصر»؛ فهم لا يدركون أنّه في حال أرادوا حقًّا أن تكون لهم حرّية الدخول إلى مملكتهم المنشودة،

سيترتّب عليهم ألّا يقاوموا القيّم على ضروراتهم. إذ يتعيّن عليهم أن يؤدّوا عن طيبة خاطر صدقة الدخول إلى تلك المملكة؟.

هؤلاء هم الذين يقولون، «لقد بشّر بالرفق والعطف ومحبّة القريب. إلّا أنّه مع ذلك لم يمتثل لأمّه وإخوته عندما طلبوه في شوارع أورشليم.»

هم لا يعرفون أنّ أمّه وإخوته كانوا يريدون له، بدافع انشغالهم عليه، أن يعود إلى دكّة النجارة، في حين كان هو منشغلًا في فتح أعيننا على فجر حياة جديدة.

أمّه وإخوته كانوا يؤثرون له العيش في ظلّ الموت، في حين أنّه هو كان يتحدّى الموت على تلك التلّة كَيْما يحيا في ذاكرتنا التي لا تعرف النوم.

إنّني أعرف هذه الخلدان التي تحفر أنفاقًا لا تُفضي إلى مكان. أليسوا هم الذين يتّهمون يسوع بتمجيد نفسه في قوله للجموع، «أنا هو الطريق والباب إلى الخلاص»، حتّى إنّه ذهب إلى أنّه هو نفسه الحياة والقيامة.

لكنّ يسوع لم يكن بذلك يدّعي لنفسه أكثر ممّا يدّعيه شهر نوّار في عزّ روائه.

أيُفترض به ألّا ينطق بالحقيقة الساطعة، فقط لأنّها كانت بهذا السطوع؟

لقد قال فعلًا أنّه هو الطريق والحياة وقيامة القلب؛ وها أنا نفسي أشهد أنّه هو الحقّ.

ألا تذكروني أنا، نيقوديموس، الذي ما كان يؤمن إلّا بالشرائع والأحكام مع تقيُّدٍ مستمرّ بالأعراف؟

وها أنا الآن كما ترون، رجل يسير مع الحياة، ويضحك للشمس، من لحظة ابتسامتها وهي تطلّ من وراء الجبل، إلى حين خلودها إلى فراشها خلف التلال.

لماذا تتسمّرون أمام كلمة خلاص؟ أنا نفسي قد حصلت من خلاله على خلاصي.

أنا لا أهتمّ لِما سيحلّ بي غدًا، لأنّي أعرف أنّ يسوع قد أخصب لياليّ وجعل لي من أحلامي البعيدة صحبًا ورفاقًا في الطريق.

أتُراه انتقص من الرّجل فيّ، أنّي آمنت برجل أهمّ؟

لقد كان لحواجز اللحم والعظم أن انهارت عندما كلّمني شاعر الجليل؛ روحٌ ما، حلّت فيّ فإذا بي أرتفع إلى فوق، وإذا بجناحيّ وأنا في الجوّ، يستجمعان أنشودة الحنين.

حتّى عندما ترجّلت عن ظهر الريح وعدت إلى المجمع حيث اقتُصّت قوادم جناحي، حتّى عند ذلك، ظلّت أضلعي وجناحاي العاريان من الريش تحتفظ بالأنشودة وتتعهّدها. وإنّ عوز الأرض الدنيا كلّه لا يستطيع أن يسلبني هذا الكنز.

يكفي ما قلته الآن. وليدفن الطرشان دندنة الحياة في آذانهم الميتة. أنا مكتفٍ بلحن قيثاره الذي حمله وضرب على أوتاره، فيما كانت يدا جسده مسمّرتين داميتين.

يوسف الذي من الرامة

بعد عشر سنوات

جدولان اثنان كانا يجريان في قلب الناصريّ: جدول القُربى من الله، الذي كان يسمّيه الآب، وجدول الغبطة الذي كان يسمّيه مملكة العالم العلويّ.

كنتُ في وحدتي أفكّر فيه وأتتبّع هذين الجدولين في قلبه.

على ضفاف أحدهما التقيت روحي أنا نفسي؛ كانت روحي هذه شحّاذة أحيانًا ومتشرّدة، كما كانت أحيانًا أخرى وكأنّها الأميرة في حديقتها.

وتتبّعت بعدها الجدول الثاني في قلبه، فالتقيت في طريقي أحدهم وقد ضُرب وسُلب منه ذهبه، وكان يبتسم. وإذ أكملت طريقي رأيت السارق الذي سلب الرّجل وعلى خدّيه دموع لم تكن قد ذُرِفت بعد.

ولم ألبث أن سمعت خرير هذين الجدولين في صدري أنا أيضًا، فسررت.

عندما زرت يسوع قبل أن ألقى بيلاطس والأحبار القبض عليه بيوم واحد، تحدّثنا طويلًا وتوجّهت إليه بعدد من الأسئلة، فأجاب عن

تساؤلي بلطف؛ وعندما غادرته أيقنت أنّه هو ربّ هذه الأرض، أرضنا، وسيّدها.

مرّ زمان على سقوط شجرة الأرز، إلّا أنّ شذاها ما زال باقيًا وسيظل أبدًا على انتشار في جهات العالم الأربع.

جاورجيوس الذي من بيروت

شاهدته هو وأصحابه في غابة الصنوبر التي وراء سياجنا، وكان يتحدّث إليهم.

وقفت قرب السياج وأصغيت، فعرفت من يكون. ذلك أنّ شهرته كانت قد بلغت هذه الشواطئ قبل أن يكون هو قد زارها.

عندما توقّف عن الكلام، اقتربت منه قائلًا، «هل لك يا سيّدي أن تدخل بيتي مع هؤلاء الناس فتُشرّف بيتي وتشرّفني؟»

فتبسّم لي ثمّ قال، «ليس اليوم يا صديقي، ليس هذا النهار».

كان ثّمت تبريك في كلماته، فأحسست بصوته يلفّني كمعطف في ليلة باردة.

وتحوّل إلى أصحابه قائلًا، «هاكم إنسانًا لا يحسبنا غرباء، ومع أنّه لم يرنا قبل اليوم، فإنّه يدعونا إلى أعتابه.

«الحقّ أقول لكم، ليس من غرباء في مملكتي. حياتنا هي حياة كلّ الناس، وإنّما أُعطيناها من أجل أن نعرف الناس أجمعين، وفي معرفتنا لهم أن نحبّهم.

«ما أعمال الناس سوى أعمالنا نحن، الظاهر منها والخفيّ.

«أطلب إلى كلّ منكم ألّا يكون نفسًا واحدة بل أنفسًا كثيرة؛ نفس الذي له مسكن والذي لا بيت له، نفس حارث الحقل والدوريّ الذي يلتقط من حبّات البذار قبل أن تغفو في التراب، نفس المُعطي الذي يبذل بامتنان، ونفس المُعطى له الذي يأخذ العطيّة بكرامة وشكران.

«جمال يومكم ليس فقط في ما ترونه، بل أيضًا في ما يراه الآخرون.

«من أجل هذا اخترتكم من بين الكثيرين الذين اختاروني.»

ثمّ تحوّل نحوي ثانية قائلًا وهو يبتسم، «أقول هذه الأشياء لك أنت أيضًا، فأنت أيضًا ستتذكّرها».

وتوسّلت إليه عندها قائلًا، «سيّدي، ألا تسمح فتدخل بيتي؟»

فأجاب، «أنا أعرف قلبك، وها قد زرت بيتك الأرحب.»

وفيما كان يغادر هو وتلاميذه، توجّه إليّ قائلًا، «تصبح على خير، وليكن لبيتك من الرحابة بحيث يتّسع لجميع المشرّدين في البلاد».

مريم المجدليّة

فمه كان أشبه بقلب الرمّانة، وبعيدة كانت الظلال في عينيه.

كان وديعًا وداعة رجل واثق من قوّته.

ولقد أبصرت في أحلامي ملوك الأرض منتصبين تهيّبًا في حضرته.

بودّي لو أتحدّث عن وجهه، ولكن كيف لي ذلك؟

كان وجهه كاللّيل ولكن من غير عتمة، وكالنهار من غير ضجيج النهار.

كان وجهًا حزينًا، وكان وجهًا فرحًا.

وإنّي لأذكر جيّدًا كيف أنّه رفع مرّة يده نحو السماء، فإذا أصابعه المنفرجة كأنّها أغصان شجرة الدردار.

أذكره يقضي المساء متمشّيًا. لم يكن يمشي بل كان هو نفسه طريقًا فوق الطريق؛ أو قل كان كسحابة فوق الأرض، تبغي الهبوط نحو الأرض من أجل أن تحييها.

لكنّي عندما وقفت أمامه وتحدّثت إليه كان رجلًا، وكان وجهه ذا جبروت للناظر. قال لي، «ماذا تريدين يا مريم؟»

لم أُعطِه جوابًا، لكنّ جناحيّ انطويا على سرّي وأحسست أنّني أُدفئت.

ولأنّني لم أعد أستطيع أن أتحمّل المزيد من نوره، أدرت وجهي وانصرفت، إنّما من غير شعور بالإثم. كنت فقط مرتبكة وفي نفسي لو أنفرد بأنامله الضاربة على أوتار قلبي.

يوثام الذي من الناصرة

إلى أحد الرومان

أنت يا صديقي، شأنك شأن سائر الرومان، تُؤْثِر أن تفكّر بالحياة على أن تحياها. أنتم تُؤْثِرون أن تحكموا بلدنا على أن تكونوا محكومين من الروح.

تؤثرون أن تُخضِعوا الشعوب وأن تتلقّوا لعناتها، على أن تَلزَموا روما وتكونوا مباركين وسعداء.

أنتم لا تفكّرون إلّا بالجيوش الزاحفة والأساطيل التي تشقّ البحار.

من أين لك إذًا أن تفهم يسوع الناصريّ، هذا الإنسان البسيط المتوحّد الذي جاء من دون جيوش أو أساطيل ليؤسّس مملكة في القلب البشريّ، وإمبراطوريّة في أرجاء النفس الطليقة.

كيف لك أن تفهم هذا الرجل، الذي لم يكن محاربًا، بل أقبل متسلّحًا بجبروت الأثير.

لم يكن إلهًا بل إنسانًا كأيّ واحد منّا؛ لكنّه الإنسان الذي نهض فيه مرّ الأرض ليلتقي لُبان السماء؛ والذي جاءت كلماته لتجعل لثغنا نحن البشر، يعانق همسات الذي عزّ أن يُرى؛ وجاء صوته لنسمع فيه أغنية أبعد من أن يحدّها فضاء.

أجل، كان يسوع إنسانًا لا إلهًا، وفي ذلك مكمن العجب والاندهاش.

لكنّكم أنتم الرومان، لا يستثير عجبكم إلّا الآلهة، ولا يدهشكم إنسان. لذلك لا يمكنكم أن تفهموا الناصريّ.

كان انتماؤه إلى الذّهن يومَ الذهن في شبابه، في حين أنّكم أنتم تنتمون إلى شيخوخته.

أنتم تحكموننا اليوم ولكن ماذا عنكم بعده.

من يدري أنّ هذا الإنسان الذي لا جيوش عنده ولا أساطيل، لن يكون حاكم اليوم الآتي؟

نحن أهل الروح، سيتصبّب عرقنا دمًا ونحن نسعى وراءه، أمّا روما فستنتهي هيكلًا عظميًّا أبيض مرميًّا في حمّارة الشمس.

سنتحمّل نحن عذابات جمّة، إلّا أنّنا مع ذلك سنصبر وسنحيا. أمّا روما فقدرها أن تهوي إلى الرغام.

لكن في حال شاءت روما، عهد ذلّها وخضوعها، أن تنادي باسمه، فإنّه سيستجيب للنداء ويبعث في عظامها نسمة حياة جديدة، فتنهض ثانية وتأخذ مكانها مدينة بين سائر مدائن المعمورة.

لكنّه سيحقّق كلّ هذا من غير فيالق ولا عبيد على مجاذيف الأساطيل. سيكون بمفرده.

أفرايم الذي من أريحا

عندما عاد ثانيةً إلى أريحا، أتيتُ إليه وقلت، «يا سيّدي، إنّ ابني سيتّخذ لنفسه زوجة غدًا، هل لك أن تشرّفنا فتأتي إلى العرس، كما شرّفت عرس قانا الجليل؟»

فأجاب قائلًا، «صحيح أنّي استُضفت مرّة إلى أحد الأعراس، لكنّي لا أرغب في أن أُستضاف ثانية، ذلك أنّي الآن أنا نفسي العريس.»

فقلت، «أتوسّل إليك يا سيّدي أن تأتي إلى عرس ولدي.»

فتبسّم ابتسامة من يريد أن يعنّفني، ثمّ قال، «لماذا التوسّل إليّ، أليس عندكم ما يكفي من الخمر؟»

فقلت، «جرارنا ملآنة يا سيّدي، ولكنّي مع ذلك أرجوك أن تأتي إلى عرس ولدي.»

فأجاب، «من يدري؟ ربّما أتيت، ربّما آتي بالفعل في حال كان قلبك مذبحًا في هيكلك.»

وتكلّل ابني في اليوم التالي، إلّا أنّ يسوع لم يأتِ إلى العرس. ومع أنّ ضيوفنا كانوا كثيرين، كنت أشعر كما لو أنّ أحدًا لم يحضر.

وبصريح العبارة، أنا نفسي الذي كنتُ أستقبل الضيوف، لم أكن هناك.

لعلّ قلبي لم يكن مذبحًا عندما كنتُ أتوجّه إليه بالدعوة، لعلّي كنت أُمنّي النفسَ بمعجزة ثانية.

برقا

تاجر من صور

لا الرومان ولا اليهود في اعتقادي فهموا يسوع، ولا حتّى تلاميذه الذين يكرزون باسمه هذه الأيّام.

الرومان قتلوه، وتلك كانت زلّة. والجليليّون جعلوا منه إلهًا، وذلك كان خطأ.

كان يسوع وليد القلب البشريّ.

زرت في سفني البحورَ السبعة وتعاملتُ مع الملوك والأمراء، ومع المحتالين والشطّار في ساحات المدن القصيّة؛ إلّا أنّي لم ألتقِ قط إنسانًا فهم التجّار كما فهمهم هو.

سمعته مرّة يتلو هذا المثل:

«غادر تاجر بلده مرّة إلى أرض غريبة. وكان عنده خادمان، فأعطى كلًّا منهما قبضة من الذهب قائلًا: ‹عليكما، أسوة بي وأنا منطلق، أن تنطلقا أنتما أيضًا في طلب الربح. ما عليكما إلّا المبادلة، وأن تحرصا في أخذكما وعطائكما على أنّكما تؤدّيان خدمة أو أخرى›.

«وعاد التاجر بعد عام.

«وسأل خادِمَيه عمّا فعلاه بالذهب.

«فقال الخادم الأوّل: ها إنّي يا سيدي قد بعت واشتريت وحقّقت أرباحًا.

«فأجابه التاجر: ما ربحته سيكون من نصيبك، لأنّك قد أحسنت فعلًا وكنت وفيًّا لي ولنفسك.

«وجاء دور الثاني فقال: لقد خفت على ذهبك يا سيّدي، فلم أشترِ ولَمْ أَبِعِ، وها إنّه بعدُ سليمٌ في هذا الكيس.

«واستردّ التاجر الذهب قائلًا: يا ضعيف الإيمان، أن تبادر فتخسر خيرٌ من أن تبقى من غير مبادرة. فكما تذرو الرّيح البذور ثمّ تنتظرها ريثما تثمر، هكذا على جميع التجّار أن يفعلوا. فالأفضل لك من الآن فصاعدًا أن تخدُمَ الآخرين».

عندما قال يسوع هذا، علمًا أنّه لم يكن تاجرًا، أماط اللثام عن حقيقة التجارة.

أضف إلى ذلك أنَّ أمثالَهُ غالبًا ما حمَلَتْ ذهني إلى أصقاع هي أبعد ممّا وصلَتْهُ أسفاري وأدنى في الوقت نفسه إليّ من بيتي وبضاعتي.

لكنّ هذا الناصريّ الشاب لم يكن إلهًا؛ ومن المؤسف أنّ تلامذته يسعون إلى صنع إله من مثل هذا الحكيم.

فوميّة

رئيسة كاهنات صيدا، إلى الكاهنات الأخريات

خُذْنَ قيثاراتكنّ ودعنني أغنّي.
إضربن أوتاركنّ، الفضّيّ منها والذهبيّ؛
فأنا سأغنّي الرجل الذي لا يعرف الخوف
الذي صرع تنّين الوادي
ثمّ تطلّع بعينَين مشفقتين
إلى ذلك الشّيء الذي صرعه.

خُذْنَ قيثاراتكنّ وغَنّينَ معي
السنديانةَ الشامخةَ فوق الذُّرى،
الرجلَ الذي قلبه السماء وكفّه المحيط،
الذي قبّل الموت على شفتيه المُمتَقِعتين،
ولكنّه على ذلك، يقف الآن مرتعشًا أمام فم الحياة.

خذن قيثاراتكنّ ودعننا نغنّي
القنّاص العاتي بأرض الوعر،
الـذي سـدّد على الـوحش وأطلق سهمه الـذي لا يملك النظر،
فأنزله، قرنًا ونابًا، إلى التراب.

خُذْنَ قيثاراتكنّ وغَنّين معي
الفتى الجسور الذي اجتاح مدائن الجبال،
ومدائن السهول المتلوّية كالأفاعي في الرمال.

هو لم يحارب الأقزام بل تصدّى للآلهة
الذين جوعهم إلى لحومنا، وإلى دمائنا يعطشون.

وهو، «كالصّقر الذهبيّ» الأوّل،
ليس يباري إلّا النسور؛
جناحاه شاسعان أَنوفان
فلا يأبهان لِذَوي الأجنحة الدّون.

خُذْن قيثاراتكنّ وغنّينَ معي
أغنية المرَح التي للبحر والصخور.
فالآلهة ميّتون،
وهم مُسَجّون بلا حراك
في الجزر المنسيّة لبحر منسيّ.
وذاك الذي قتلهم، ها هو جالس على عرشه.

كان بعدُ فتًى.
والربيع لم يكن بعد قد أكمل له عارضيه،
أمّا صيفه فكان لمّا يزل حدثًا في حقله.

خُذْنَ قيثاراتكنّ وغَنّينَ معي
العاصفةَ في الغابة
التي تحطّم الغصن اليباس والأملود الذي بَعدُ لم يورق،
لكنّها، على ذلك، تدفع الجذر الحيّ إلى أن ينغلّ أعمق فأعمق في صدر الأرض.
خُذْنَ قيثاراتكنّ وغنّين معي
أُغْنية معشوقنا التي لا تعرف الموت.

لا! بل أوقفن أيديكن يا عذاراي.
وضعن قيثاراتكنّ جانبًا.
فنحن لا نستطيع أن نغنّيه الآن.
كيف لِهَمْسِ أغنيتنا الوئيد أن يتناهى إلى عاصفته،
أو أن يخترق جلال صمته.

ضَعْنَ قيثاراتكنّ جانبًا وتحلّقن أقرب من حولي،
فأتلو عليكنّ كلماته،
وأخبركنّ عن مآتيه،
وإنّ رَجْعَ صوته لأعمق من أشواقنا.

بنيّمين

الكاتب

قيل إنّ يسوع كان عدوّ روما وعدوّ اليهوديّة،

إلّا أنّي أقول إنّ يسوع لم يكن عدوّ أيّ إنسان أو أيّ عرق.

سمعته يقول، «عصافير الفضاء ورؤوس الجبال لا تلقي بالًا للثعابين في أوجارها المظلمة.

«دعوا الموتى يدفنون موتاهم. كن أنت نفسك في عداد الأحياء، وحلّق عاليًا».

لم أكن واحدًا من تلامذته. كنت فقط واحدًا من الكثيرين الذين أقبلوا عليه ليتطلّعوا إلى وجهه.

كان ينظر إلى روما، وإلينا نحن الذين هم عبيد لروما، كما ينظر والد إلى أولاده وهم يلهون بلعبهم ويتخاصمون فيما بينهم حول من يستأثر باللعبة الأكبر، وكان في عليائه يضحك.

كان أعظم من دولة أو من عِرْق؛ كان أعظم من ثورة.

كان منفردًا ووحيدًا، وكان يقظة.

لقد بكى جميع دموعنا التي ما ذرفناها، وابتسم جميع غضبنا.

عرفنا أنّه كان بمقدوره أن يولد مع جميع الذين لم يولدوا بعد، وأن يجعلهم يرون لا بأعينهم بل برؤاه.

كان يسوع مستهلّ مملكة جديدة على الأرض. وتلك المملكة مقدور لها البقاء.

لقد كان الابن والحفيد لجميع الملوك الذين ابتنوا مملكة الروح.

ووحدهم ملوك الروح هم من حكم عالمنا.

زكّا

أنتم تصدّقون ما تسمعونه يُقال. حريّ أن تصدّقوا ما لا يُقال، ذلك أنّ صمت الناس هو أقرب من أقوالهم إلى الحقيقة.

تسألون عمّا لو أنّ يسوع كان بإمكانه أن يتحاشى موته المُخزي، وأن يجنّب أتباعه ما لحقهم من اضطهاد.

وجوابي، إنّه كان بإمكانه أن ينجُوَ لو شاء، لكنّه لم يكن يبغي السلامة ولا كان في باله أن يحمِيَ قطيعه من ذئاب الليل.

كان يعرف قدره والغد الذي ينتظر محبّيه. لقد رأى مسبقًا ما هو مقدور أن يصيب كلّ واحد منّا وتنبّأ به. هو لم يرغب في الموت؛ إلّا أنّه قَبِلَ به قبول المزارع الذي يكفّن حبّات الذُّرة في التراب، لفصل الشتاء، حتّى إذا جاء، لَبِثَ ينتظر الربيع والغلال؛ أو قبول البنّاء الذي يَدفُنُ في الأساسِ، الأضخمَ بين حجارته.

كنّا بمجملنا جماعة من الجليل ومن منحدرات لبنان. وكان بوسع سيّدنا أن يعود بنا إلى ديارنا، فنتفيّأ شبابه في حدائقنا، إلى أن يحين أَجَلُ الشيخوخة فتعود بنا همسًا إلى مطاوي السنين.

هل كان ثمّة ما يعترض درب عودته إلى معابد قرانا حيث كان آخرون يقرأون الأنبياء ويبوحون إثر ذلك بما في قلوبهم؟

أما كان بمقدوره أن يقول، «ها أنا ذاهب الآن شرقًا مع الرّيح الغربيّة»، ثمّ أن يصرفنا إثر ذلك بابتسامة على شفتيه؟

أجل، كان باستطاعته أن يقول، «إرجعوا إلى أهاليكم، فالعالم ليس بعد مهيّأ لي. سأعود بعد ألف سنة من الآن، فعلّموا أولادكم أن ينتظروا قدومي».

كان بإمكانه أن يفعل هذا لو شاء.

لكنّه كان يعرف أنّ عليه، كي يبنِيَ الهيكلَ غير المنظور، أن يجعل ذاته حجر الزاوية، وأن يتّخذ منّا الحصوات الصغيرة التي يقتضي البناءُ أن تُرصّ عن جوانب ذلك الحجر.

كان يعرف أنّ نسغ شجرته السماويّة لا بدّ له أن يسري صعدًا انطلاقًا من الجذور، فَسَكَب دمه على جذور تلك الشجرة؛ وكان ذلك بالنسبة إليه، ليس من باب التضحية، بل من باب الكسب.

الموت كشّاف المخبّأ، وموت يسوع أظهر حياته.

لو أنّه فرّ منكم ومن مضّطهديه، لكنتم أنتم أسياد العالم. لذلك لم يفرّ.

وحده الذي يبغي كلّ شيء، يعطي كلّ شيء.

نعم، كان بوسع يسوع أن يهرب من خصومه ويحيا حتّى الشيخوخة. لكنّه كان يعرف دورة الفصول، وأنّ له أغنية يترتّب عليه أن يغنّيها.

هل من إنسان يواجه عالمًا مسلّحًا، لا يرضى بهزيمة مؤقّتة كَيْما يتمكّن بعدها من الغَلَبة على مدى الدهور؟

وتسألون الآن من هو حقًّا قاتِلُ يسوع، أَهُم الرومان أم كهنة أورشليم؟

لا الرومان قتلوه ولا الكهنة. العالم بأسره وقف ليمجّده على تلك التلّة.

يوناثان

كنتُ وحبيبتي ذات يوم نجذّف في بحيرة المياه الحلوة، ومن حولنا جبال لبنان.

مررنا قرب شجرات الصفصاف الخجول وظلالها المترجرجة عميقًا حولنا في الماء.

وفيما كنت أنا أتولّى بمجذافي قيادة الـزورق، أخذت حبيبتي المزمار وغنّت هكذا:

أيُّ زهرة تعرف الشمس والمياه، كزهرة اللوتس؟

أيُّ قلب يعرف الاثنين، الأرضَ والسماءَ، كقلب اللوتس؟

تلك الزهرة المذهّبة! تأمّل يا حبيبي كيف تطفو بين عالمِ الأعالي وعالم الأعماق.

تمامًا كما نطفو أنت وأنا، بين الحبّ الذي كان منذ البدء والذي هو باق إلى الأبد.

إغمس مجذافك يا حبيبي
ودعني أتلمّس أوتاري.
ولنقتفِ درب الصفصاف من غير أن نغادر زنابق الماء.

في الناصرة هنالك شاعرٌ، كزهرة اللوتس قلبه.
حلّ زائرًا في روح المرأة،
فهو يعرف عطشها النابع من الماء
ويعرف جوعها للشَّمس، رغم أنّ شفاهها جميعًا مشبعة.
يقولون هو يتمشّى في الجليل.
وأقول هو معنا ممسك بالمجذاف.
ألستَ ترى وجهه يا حبيبي؟
ألستَ ترى حيث يلتقي غصن الصفصاف وظلّه في الماء،
وهو يتحرّك إذ نتحرّك؟

جميل يا حبيبي أن نعرف الحياة في فتوّتها.
جميل أن نعرف فرحها المغنّي.
حبّذا لو نكون، أنت دائمًا على المجذاف،
وأنا إلى أوتار قيثارتي،
حيث اللوتس يضحك للشمس،
والصفصاف يداعب الماء،
وصوته هو يعانق أوتاري.

إغمس مجذافك يا حبّي
ودعني ألامس أوتاري
ففي الناصرة شاعر
يعرفنا، أنت وأنا، ويحبّنا.
إغمس مجذافك يا عاشقي،
ودعني أتلمّس أوتاري.

حنّه التي من بيت صيدا
العام 73

غادرتنا شقيقة والدي وهي بعد صبيّة، لتقيم في كوخ قرب كرم قديم لوالدها.

كانت تعيش بمفردها وكان أهل الأرياف يقصدونها في أمراضهم فتداويهم بالأعشاب الخضراء وبالجذور والأزهار المجفّفة في الشمس.

كانوا يعتبرونها عرّافة؛ ولكنّ منهم من اعتبرها ساحرة ومشعوذة.

وذات يوم قال لي أبي، «خذي هذه الأرغفة من خبز الحنطة إلى شقيقتي، وهذا الحقّ من النبيذ وهذه السلّة من الزبيب.»

كانت هذه جميعًا محمّلة على ظهر مهر، فسلكت الطريق إلى الكرم وإلى شقيقة والدي في الكوخ، ففرِحَت بقدومي.

وفيما كنت وإيّاها جالستَين معًا عند ابتراد العشيّة، مرّ رجل في الطريق وحيّا شقيقة والدي قائلًا، «مساء الخير، عسى لِبَرَكَة الليل أن تحلّ عليك».

فنهضَت على الأثر ووقفت أمامه بإجلال قائلة، «مساء الخير لك، يا سيّد جميع الأرواح الخيّرة، وقاهر جميع الأرواح الشرّيرة».

نظر إليها الرّجل بعينين حانيتين، ثمّ استأنف طريقه.

ضحِكتُ في سرّي، لاعتقادي أنّ شقيقة أبي مجنونة.

إلّا أنّي اليوم أعرف أنّها لم تكن مجنونة، بل كنت أنا التي لم تفهم.

هي لم تَفُتها ضحكتي مع أنّها كانت مكتومة.

توجّهت إليّ ولكن من غير انفعال قائلة، «إستمعي يا بنيّتي واصغي واحفظي كلمتي للذكرى: الرّجل الذي مرّ منذ قليل، وكأنّه ظلّ طائر محلّق ما بين الأرض والسماء، هو الذي سينتصر على القياصرة وعلى إمبراطوريّة القياصرة. إنّه سيتصارع مع الثور الكلدانيّ المتوّج، ومع أسد مصر ذي الرأس الآدميّ، وسيصرعهما، وستكون له رئاسة العالم.

«أمّا هذه البلاد التي يطأ الآن ثراها هنا، فسائرة إلى زوال؛ وأمّا أورشليم المتربّعة على هضبتها بكلّ غرور، فستنحلّ دخانًا تجري به الرّيح إلى التلاشي.»

عندما تكلّمت أخت أبي هكذا، تجمّدت فيّ ضحكتي ولزمتُ الصمت. وبعد قليل سألت، «من هو هذا الرّجل ومن أيّ بلد أو قبيلة كان مجيؤه، وكيف سيكون له أن ينتصر على الملوك وإمبراطوريّات الملوك؟»

فأجابت، «هو واحد من مواليد هذه الأرض هنا، إلّا أنّنا حبلنا نحن به في أشواقنا منذ مبدأ السنين. هو يتحدّر من القبائل كلّها ولكنّه مع ذلك لا يتحدّر من أيّ قبيلة واحدة. أمّا انتصاره فبالكلمة التي تخرج من فمه وبالوهج الذي يأتلق في روحه.»

وفجأةً نهضت وانتصبت كقبّة من صخر وقالت، «فَلْيَغفر لي ملاك الربّ إذ أتفوّه أيضًا بهذه الكلمات: إنّه سيُقْتَل، ويُلَفُّ شبابه بكفن، وسيُضجَع في سكون إلى جانب قلب الأرض الذي هو صامت أيضًا. وستبكيه عذارى اليهوديّة».

ثمّ رفعت يديها إلى السماء وأضافت قائلة، «ولكنّه سيُقْتَل فقط بالجسد.

«أمّا بالروح، فإنّه سينهض ويمضي في قيادة أتباعه من هذا المقلب من الأرض حيث تولد الشمس، إلى المقلب الآخر حيث تُذبَح عند العشيّة.

«وسيبقى اسمه، الأوّلَ بين العالمين.»

كانت قد أصبحت عرّافة عجوزًا عندما نطقت بهذه الأمور، وكنت لم أزل بعد ابنة يافعة، أو حقلًا لم يعرف بعد محراثًا، بل حجرًا لم يدخل بعد في بنية حائط.

لكنّ جميع ما رأته يومها في مرآة ذهنها، قد تحقّق في أيّامي.

لقد نهض يسوع الناصريّ من الموت وقاد رجالًا ونساء إلى شعوب مغرب الشمس. والمدينة التي سلّمته إلى المحاكمة قد أفضى بها الأمر إلى خراب؛ أمّا قاعة القضاء حيث حوكم وصدر عليه الحكم فتنعب فيها البومة لحنها الجنائزيّ، بينما يذرف المساء ندى قلبه دمعًا يسيل على الرّخام المتهدّم.

أنا اليوم امرأةٌ عجوز، أحنتني السنين. فقَوْمي لم يبقَ منهم أحد، والعِرق الذي أنتمي إليه قد أضمحلّ.

رأيته مرّة أخرى واحدة بعد ذلك اليوم، ومرّة أخرى سمعتُ صوته. كان ذلك على رأس تلّة حيث وقف يتكلّم إلى أصحابه وتابعيه.

وها أنا الآن هَرِمة ووحيدة، لكنّه ما زال يزورني في منامي.

يأتي كملاك أبيض مجنّح يهدهد برحمةٍ رُعبِيَ من العتمة، وينتشلني عاليًا إلى أحلام قصيّة.

أنا ما زلت حقلًا ما عرف المحراث؛ ما زلت ثمرة ناضجة تعاند السقوط. وأثمن ما أملكه هو دفء الشمس وذكرى ذلك الرّجل.

أعلم أنّ قومي لن يقوم بينهم ملك أو نبيّ أو كاهن بعد اليوم، تمامًا كما تنبّأت شقيقة والدي.

سيجري بنا الزّمن جَرْيَ الأنهار فلا يبقى لنا ذِكْر.

إلّا أنّ أولئك الذين صلبوه في مجرى التيّار، ستبقى ذكراهم، فقط لأنّهم صلبوه في مجرى التيّار.

منسّى

محامٍ في أورشليم

أجل كنت أسمعه يتكلّم، كانت هناك دائمًا كلمة جاهزة على شفتيه.

إلّا أنّي كنت أُعجَب به كإنسان أكثر منه كقائد. كان يعظ بأشياء أبعد من أن أتذوّقها، بل ربّما أبعد من أن يستسيغها عقلي. أنا لا أحبّ أن أتلقّى عظة من أحد.

أُخِذْتُ بصوته وإيماءاته الإلقائيّة، لا بمادّة خطابه. كان يسحرني ولكنّه أبدًا لم يكن يقنعني؛ ذلك أنّه كان أشدّ غموضًا وأشدّ ابتعادًا وإبهامًا من أن يبلغ إدراكي.

عرفت أناسًا آخرين على شاكلته. فهم لا يعرفون ثباتًا، ودائمًا على تناقض. يجتذبون أذنك والعابرَ من خواطرك، بفصاحتهم لا بما يصدر عنهم من مبادئ. أمّا الأعمق في قلبك، فيبقى غير معنيّ.

مؤسف حقًّا أن يتصدّى له خصومه ويجعلوا من ذلك قضيّة. لم يكن من ضرورة لذلك. في اعتقادي أنّ من شأن عدائيّتهم أن تزيد في قامته وتحوّل الركاكة فيه إلى قوّة.

أليس غريبًا أنّك في معارضتك أحدهم إنّما تهبه جرأة؟ وفي عرقلتك قَدَمَيه إنّما تزوّده بجناحَين؟

أنا لا أعرف خصومه، لكنّي متأكّد أنّهم في خوفهم من إنسان لا ضرر متوقّعًا منه، قد أعاروه قوّة وحوّلوه إلى إنسان خطر.

يفتاح الذي من قيصريّة

هذا الإنسان الذي يشغل نهاركم ويسكن ليلكم يثير اشمئزازي، ومع ذلك تصرّون على إرهاق أذنيَّ بأقواله، وعقلي بمآتيه.

لقد مللت كلماته وكلّ الذي أتى به من أعمال. مجرّد اسمه يزعجني، كما يزعجني اسم الريف الذي منه كان قدومه. لا أريد أن أسمع بشيء يتعلّق به.

لماذا تصنعون نبيًّا من رجل كان مجرّد ظلّ؟ لماذا ترون قبّة في هذا الذي ليس أكثر من كثيب؟ أو تتمثّلون بحيرة في قطرات مطر تجمّعت في دعسة خلّفها حافر بهيمة؟

أنا لا أستخفّ بالصدى، تردّده كهوف الأودية، ولا بالظلال الطِّوال تطرحها الشمس الغاربة؛ لكنّني لن أُدير أذني إلى همهمات هذه الخُزعبلات التي تدور في رؤوسكم، ولن أتدارس هذه الظلال التي تعكسها عيونكم.

هل من كلمة نطق بها يسوع، لم يسبق أن قالها هلئيل؟ هل كشف عن أيّ حكمة لم تكن حكمة جملئيل؟ وأين اللّثغ، لثغه من صوت فيلون؟ أيّ صنوج ضربها لم تكن قد ضُرِبَت زمانًا قبل أن يأتي هو إلى الوجود؟

أُنصِت إلى الصدى الآتي إلى سكينة الأودية من الكهوف، وأتأمّل الظلال المستطيلة عند الغروب، لكنّي لن أطيق أن أسمع قلب هذا الرّجل يردّد صدًى لقلب إنسان آخر، ولن أطيق من هو مجرّد ظلّ للرائين، أن يَعتَبِر نفسه نبيًّا.

هل لأحد من كلام بعد أن تكلّم إشعيا؟ ومن له الجرأة أن يرنّم بعد داود؟ وهل من حكمة أن تولد اليوم بعد أن انضمّ سليمان إلى أجداده؟

بل ماذا عن أنبيائنا الذين كانت ألسنتهم سيوفًا وشفاههم ألسنة من نار؟

هل خلّفوا في الحصاد وراءهم ولو قشّة واحدة لهذا اللاقط من الناصرة؟ أو ثمرة ناثرة في بستانهم لهذا الشّحّاذ من مناطق الشمال؟ لم يبقَ من شيء له سوى أن يكسر الخبز الذي خبزه أسلافنا، وأن يسكب الخمر من أعناب الماضي التي سبق أن داستها في المعصرة أقدامُهم المقدّسة.

إجلالي هو للفخّاريّ وليس للّذي يبتاع الإناء.

إجلالي هو لأولئك الذين يجلسون قدّام النول، لا للمتشاوف الذي يلبس الثوب.

من كان هذا اليسوع الذي من الناصرة وما هو؟ هو رجل لم تكن له الجرأة أن يعيش أفكاره. لذلك تلاشى ولفّه النسيان، فكانت هذه نهايته.

أرجوكم لا تثقلوا أذنيّ بكلماته أو بذكر أعماله. لقد ملأ أنبياؤنا الماضون قلبي إلى ما فوق سعته، وفي ذلك ما يكفي.

يوحنّا

التلميذ الحبيب في شيخوخته

ترغبون إليّ التحدّث عن يسوع، ولكن أنّى لي أن أغري أنشودة أشواق الكون على اتّساعه، بأن تنحشر في تجويف قصبة لمزمار؟

كان إحساس يسوع بالآب يلازمه في كلّ حال من أحوال النهار. كان يراه في الغيوم وفي ظلال الغيوم وهي عابرة فوق وجه الأرض. يرى وجهه منعكسًا في مياه الأحواض الهادئة، ويرى الآثار الباقية لقدميه على الرمال؛ وكثيرًا ما كان يُغمض عينيه من أجل أن يحدّق في العينين القُدسِيَّتين.

كان الليل يتحدّث إليه بصوت الآب، وكان في خلواته يسمع ملاك الربّ ينده إليه. وعندما كان يخلد إلى النوم، كان يتناهى إلى سمعه في أحلامه همس السموات.

غالبًا ما كان مرحًا معنا ويدعونا إخوته.

تصوّروا! هو الذي كان الكلمة البدء، يدعونا إخوته، نحن الذين لم نكن سوى مقاطع كلمة لم يُنطق بها إلّا البارحة.

تسألونني لماذا أدعوه الكلمة البدئيّة؟

إستمعوا إليّ فأجيب: في البدء تحرّك الله في المكان، ومن تحرّكه الذي لا مقاس له، وُلِدَت الأرض ومعها الفصول.

ثمّ تحرّك الله ثانية فانبجست الحياة، وكان للحياة بما تنطوي عليه من توق، أن سعت إلى العلوّ وإلى الأعماق طلبًا للمزيد من ذاتها.

ثمّ تكلّم الله، فكان الإنسان كلماته؛ روحًا مولودًا من روح الله.

وإذ تكلّم الله هكذا، كان المسيح أولى كلماته، وكانت هذه الكلمة الأولى كاملة؛ وعندما أقبل يسوع الناصريّ إلى العالم، كان الكلمة الأولى يُنطق بها إلينا نحن البشر، فاستحال الصوت جسدًا من لحم ودم.

فيسوع الذي مُسح، كان كلمة الله الأولى التي نطق بها إلى الإنسان، كَمِثْلِ أن تبرعم وتزهر شجرة تفّاح في بستان، قبل رفيقاتها بنهار، وذلك النهار في بستان الله كان يعادل دهرًا.

نحن جميعًا أبناء العليّ الأرفع وبناته، إلّا أنّ المسيح كان بكر مواليده الذي تجسّد في يسوع الناصريّ، ومشى بيننا وشاهدناه.

أقول هذا كلّه، كَيْما تفهموا، لا بالعقل فقط، بل أيضًا بالروح. العقل يَزِنُ ويقيس، لكنّ الروح وحدها هي التي تنفذ إلى قلب الحياة فتعانق السرّ؛ وإنّ بذرة الروح لا يطالها الموت.

للرّيح أن تهبّ وأن تهدأ، وللبحر أن ينتفخ وأن يسترخي، لكنّ قلب الحياة كرة هادئة ومستكينة، والضوء الذي يتكوكب فيها ثابت إلى الأبد.

منّوس الذي من پومپايي

إلى أحد اليونانيّين

اليهود، مثلهم مثل جيرانهم الفينيقيّين والعرب، لن يدعوا إلههم يرتاح ولو لحظة على أجنحة الريح.

فهم شديدو الانشغال بإلههم، وواحدهم بالآخر من حيث صلاته وتعبّده وذبائحه.

ففي حين نبني، نحن الرومانيّين، المعابد الرخاميّة لآلهتنا، يلجأ هؤلاء القوم إلى البحث في طبيعة إلههم. وعندما نبلغ نحن حالًا من النشوة الروحيّة، نلجأ إلى الغناء والرقص حول مذابح جوبيتر وجونو ومارس وفينوس؛ أمّا هم، فيلبسون في استجاباتهم الروحيّة المُسوح ويذرون على رؤوسهم الرّماد – حتّى إنّهم يندمون على اليوم الذي ولدوا فيه.

وأتى المسيح معلنًا أنّ الله هو إله فرح، فعمدوا إلى تعذيبه وانتهوا إلى قتله.

هؤلاء القوم لا يفرحهم إلهُ فَرَح. فهم لا عهد لهم إلّا بآلهة أَوْجاعِهم.

حتّى أصدقاء يسوع وتلامذته الذين كان لهم أن عرفوا مرحه وسمعوه يضحك، إنّما يعمدون إلى تكوين صورة حزينة عنه، وإلى التعبّد لتلك الصورة.

وهم في تعبّدهم هذا، لا يرتفعون إلى معبودهم، بل يشدّون به نزولًا إليهم.

لكنّي أعتقد مع ذلك، أنّ هذا الفيلسوف يسوع، الذي لم يكن مختلفًا عن سقراط، ستكون له السيادة على بني جنسه، وربّما أيضًا على أجناس أخرى.

إنّنا جميعًا أبناء كآبة وريبات صغيرة. وعندما يقول لنا أحدهم «هلمّوا نتهلّل مع الآلهة»، لا نملك إلّا أن نستجيب لصوته. ولكن غريب كيف أنّ تألُّمَ هذا الإنسان قد حُوّل إلى شعيرة.

لَكَأنّ هذه الشعوب قد عثرت على أدونيس آخر، على إله ذُبح في الغابة وهم يحتفون بذبحه. مؤسف حقًّا أنّهم لا يعيرون ضحكته انتباهًا. ولكن، دعنا نحن أيضًا نعترف كرومان إلى يونان: هل نسمع نحن أنفسنا، ضحكة سقراط في شوارع آثينا؟ هل استطعنا يومًا أن ننسى كأسَ السُّمِّ، حتّى على مسرح ديونيسيوس؟

أليس أنّ آباءنا ما زالوا يتوقّفون عند زوايا الشوارع، ليتبادلوا مرويّات الأحداث ويستلذّوا ولو لبرهة، ذكر النهايات المحزنة لرجالاتنا العظام؟

بيلاطس البنطيّ

كانت زوجتي قد تَكَلَّمَتْ عنه غير مرّة قبل أن جاؤوا به إليّ، إلّا أنّني لم أحفل للأمر.

زوجتي من النّوع الحالم، الذي يُؤخذ، كما هي حال رومانيّات كثيرات من طبقتها، بالعبادات والطقوس الشرقيّة. وهذه العبادات خطرة على الإمبراطوريّة؛ فعندما تجد مثل هذه العبادات طريقها إلى قلوب نسائنا، تصبح هدّامة.

فمصر بلغت نهايتها عندما جاءها هيكسوس الجزيرة العربيّة بإله باديتهم الواحد الأحد. وهُزمت اليونان وسقطت إلى الحضيض عندما أقبلت إليها عشتروت وعذاراها السّبع من الشواطئ السوريّة.

أمّا بالنسبة إلى يسوع، فأنا لم يسبق أن وقع بصري عليه قبل أن أتوا به إليّ كمجرم، وكعدوّ لبني قومه وأيضًا لروما.

جاؤوا به إلى قاعة المحاكمة وذراعاه مشدودتان بأمراس إلى جانبيه.

كنت جالسًا على المنصّة، عندما وقف ومشى إليّ بخطوات عريضة وثابتة، ثمّ وقف منتصبًا برأس مرتفع إلى أعلى.

لا أستطيع أن أسبر ما اعتراني في تلك اللحظة؛ لقد اعترتني رغبة مفاجئة، وإن يكن من غير إرادة، أن أنهض وأنزل عن المنصّة وأجثو قدّامه.

شعرت كأنّ القيصر قد دخل القاعة؛ كأنّ الداخل إنسان أعظم حتّى من روما نفسها.

لكنّ هذا لم يلبث إلّا لحظة، عدتُ بعدها فرأيتُ بكلّ بساطة أنّ أمامي رجلًا متّهمًا من قِبَل قومه بالخيانة، وأنّي أنا حاكمه المسؤول وقاضيه.

استجوبته فلم يرضَ أن يجيب. كان فقط ينظر إليّ وفي عينيه إشفاق كما لو أنّه هو كان حاكمي وقاضيّ.

وارتفع في الخارج صياح الناس، إلّا أنّه ظلّ ساكتًا واستمرّ ينظر إليّ بعينَين مشفقَتَين.

ومشيتُ إلى درج القصر خارجًا، حتّى إذا رآني الناس توقّف صياحهم، فقلت لهم، «ماذا تريدونني أن أفعل بهذا الإنسان؟»

وصاحوا كأن من حنجرة واحدة، «نريد له أن يُصلب. فهو عدوّنا وعدوّ روما.»

وارتفعت أصواتُ بعضهم قائلةً، «أما سبق له أن قال إنّه سيهدم الهيكل؟ أليس هو الذي ادّعى لنفسه المُلْك؟ نحن لن نقبل ملكًا إلّا قيصر.»

عندها تركتهم وعدت إلى صالة المحكمة من جديد، فرأيته ما يزال واقفًا هناك، وحده، برأس ما يزال مرفوعًا إلى فوق.

فتذكّرت ما كنتُ قد قرأته عن أحد فلاسفة اليونان حيث يقول، «أقوى الناس هو الإنسان المتوحّد». وكان الناصريّ في تلك اللحظة أعظم من أمّته.

لم أشعر برحمة تجاهه، كان أبعد من رحمتي.

وتوجّهتُ إليه سائلًا، «هل أنت ملك اليهود؟»

لكنّه لم يجب بكلمة.

وسألته ثانية، «ألم يسبق أن قلت إنّك ملك اليهود؟»

فتطلّع إليّ.

ثمّ أجاب بصوت هادئ، «أنت نفسك أعلنتني ملكًا. لعلّي من أجل ذلك وُلِدتُ، وبسبب من ذلك جئت كي أكون شاهدًا للحقّ.»

تصوّروا! إنسانًا يتكلّم على الحقّ في مثل هذا الموقف الذي هو فيه.

قلتُ بصوت عالٍ وقد نفد صبري، حتّى كأنّني أتوجّه إلى نفسي قَدْرَ توجّهي إليه، «ما هو الحقّ؟ ما هو الحقّ بالنسبة إلى البريء وهو تحت يد الجلّاد؟»

فأجاب يسوع بسلطويّة، «لن يتمّ لأحد إخضاع العالم إلّا بالروح وبالحقّ.»

فسألته، «هل أنت آت من الرّوح؟»

فأجاب، «ومجيئُك أنت أيضًا، مع أنّك لا تعلم ذلك.»

ولكن ما الرّوح وما الحقّ عندما نُقدِمُ، أنا في سبيل الدولة، وهم بسبب من غيرتهم على شعائرهم، على تسليم إنسان بريء إلى حتفه؟

لا رجل ولا عرق ولا إمبراطوريّة يمكن أن يصدّ حقيقة في طريقها إلى تحقيق ذاتها.

قلتُ ثانية، «هل أنت ملك اليهود؟»

فأجاب، «أنت نفسك تقول هذا. إنّي قهرت العالم قبل حلول هذه الساعة.»

فقط هذا، في كلْ ما سبق له من كلام، بدا غير لائق، نظرًا إلى أنّ روما وحدها هي التي قهرت العالم.

وبدأت أصوات الناس الآن ترتفع من جديد، وعلا الضجيج أكثر من قبل.

فنزلتُ عن مقعدي وقلت له «إتبعني».

وقفت من جديد على درج القصر ووقف هو إلى جانبي هناك.

وتعالى جئير الشعب عندما أبصروه، كهدير الرعد، ولم أستطع أن أتبيّن على وقع جلبتهم سوى شيء واحد، «اصْلبه، اصلبه».

عندها سلّمته إلى الكهنة الذين كانوا قد سلّموه إليّ وقلت لهم، «إفعلوا ما شئتم بهذا الرّجل الصالح، وخذوا معكم إذا أحببتم، جنودًا رومانيّين لحراسته».

فأخذوه، وكان قراري الصادر أن يُكتب على الصليب فوق رأسه، «يسوع الناصريّ، ملك اليهود». وكان الأحرى أن أقول عوض ذلك، «يسوع الناصريّ، ملك».

وكان أن نُزعت عن الرجل ثيابه وجُلد وصُلب.

كان في استطاعتي ضمن صلاحيّاتي أن أخلّصه، ولكنّ تخليصه كان من شأنه أن يُحدث ثورة؛ فمن الحكمة دائمًا لحاكم مقاطعة رومانيّة، أن يراعي الوساوس الدينيّة عند جماعة عرقيّة مقهورة.

قناعتي حتّى الساعة، أنّ الرّجل كان أكثر من مجرّد مشاغب. ما أصدرته من قرار لم يكن إرادتي، بل جاء في الواقع، مراعاةً لروما.

لم يَطُلْ بنا الأمر فغادرنا سوريّا، ولم تزل زوجتي منذ ذلك اليوم امرأة مكتئبة. وأحيانًا ألمح، حتّى ونحن في هذا البستان، ظلّ مأساة على وجهها.

وقد بلغني أنّها تُكثِر الحديث عن يسوع وهي مع أخريات من نساء روما.

تصوّر كيف أنّ الرّجل الذي أصدرتُ قراراي بموته، يعود الآن من عالم الظلال ويدخل بيتي.

وأتساءل في نفسي المرّة بعد المرّة، ما هو الحقّ، وما الذي ليس حقًّا؟

أمِنَ الممكن أن يكون هذا السوريّ ماضيًا في إخضاعنا إبّان سكون ساعات الليل؟

لا يجوز فعلًا أن يكون الأمر كذلك.

فعلى روما أن تكون لها الهيمنة على الكوابيس الليليّة لنسائنا.

بارثولوماوس في أفَسُس

يقول خصوم يسوع، إنّه كان يتوجّه بدَعْوَتِه إلى العبيد والمنبوذين، بغية تحريضهم على أسيادهم. فلأنّه كان ينتمي حسب زعمهم إلى الأدنين، كان يتوسّل من هم على شاكلته، مع التستّر في الوقت نفسه على مَنشِئه.

ولكن دعونا نتوقّف عند أتباع يسوع ودوره القياديّ.

عمد في بداية أمره إلى اختيار رفاقه من منطقة الشمال، وكان هؤلاء رجالًا أحرارًا، أقوياء البنية وعزيزي النفوس. وكانت لهم الشجاعة خلال هذه العقود الأربعة الأخيرة، أن يواجهوا الموت عن طيب خاطر وعن تحدّ.

أفي تقديرك أنّ مثل هؤلاء كانوا من العبيد والمنبوذين؟

أفي تقديرك أنّ الأمراء الأُباة للبنان وأرمينيا، قد تناسوا، في تقبّلهم يسوع نبيًّا من عند الله، مقاماتهم.

أم يخطر في بالك أنّ شرفاء أنطاكية وبيزنطية وآثينا وروما، رجالًا ونساءً، يمكن أن يجتذبهم صوتٌ آتٍ من قائِدٍ لِعَبيد؟

لا، لم يكن الناصريّ مع خادم ضدّ سيّده؛ ولا كان مع السيّد ضدّ خادمه. لم يكن مع أيّ إنسان ضدّ إنسان آخر.

كان إنسانًا فوق الناس، والجداول الجارية في نسيج كيانه كانت تغنّي معًا بكلّ ما يَعتَمِل في ذلك الكيان من شوق ومن جبروت.

إذا كان النُّبْل يقتضي الحذر، فإنّه كان أنبل الناس. وإذا كانت الحرّية هي في الفكر والكلمة والفعل، فإنّه كان أكثرهم حرّية. وإذا كان شرف المحتد يتمثّل بالأنفة التي لا تنحني إلّا للمحبّة، وبالتوحّد المقترِنِ أبدًا باللطف والكياسة، فإنّه بين كلّ الناس، أشرفهم محتدًا.

لا يغيبنّ عن البالِ أنّ السّريعين والأقوياء فقط هم الذين يفوزون بالسباق وبالأكاليل، وأنّ يسوع قد تُوِّجَ لا مِنْ قِبَل الذين أحبّوه فقط بل من قِبَل أعدائه أيضًا من حيث لا يعلمون.

وهو يُتَوَّج كلّ يوم حتّى الآن، من قِبَل كاهنات أرتميز في مطارِحِ معبدِها السرِّية.

متّى

مرّ يسوع ذات مساء قرب سجن في برج داود، وكنّا نحن نسير وراءه.

وفجأةً توقّف وألصق خدّه بحجارة حائط السجن، وتكلّم هكذا:

«يا إخوة يومي الذي من القِدَم، قلبي ينبض مع قلوبكم خلف القضبان. حبّذا لو فيكم أن تكونوا أحرارًا في حرّيتي وتمشوا معنا أنا والرفاق.

«أنتم محتجَزون، ولكن ليس وحدكم. فكثيرون هم السجناء الذين يخطرون في شوارعنا الطليقة. أجنحتُهم ليست مقصوصة، إلّا أنّ مثلهم مثل الطاووس الذي يصفّق بجناحَيه، ولكن من غير قدرة على أن يطير.

«يا إخوة يومي الثاني، قريبًا وأزور زنزاناتِكُم وأُشرِك كتفي بأعبائكم. ذلك أنّه لا فاصل بين الأبرياء والمذنبين، بل هم كعظمتَي الساعِد، لا فسخ أبدًا بينهما.

«يا إخوة هذا اليوم الذي هو يومي، لقد سبَحْتُم عكس تيّار قناعاتهم فتمّ إيقافكم. يقولون إنّي أنا أيضًا أسبح عكس ذلك التيّار، ولعلّه لا يطول بي الأمر، فأصبح معكم كاسِرَ قانونٍ بين كُسّار قوانين.

«يا إخوة يوم بعدُ لم يأتِ، هذه الجدران ستهوي، وستُستحدَثُ من حجارتها أشكال أخرى على يد ذاك الذي مطرقَتُه الضوءُ وإزميلُه الرّيحُ، وستقفون أنتم أحرارًا في حرّية يومي الجديد الآتي».

قال يسوع هذا وأكمل طريقه مبقيًا يده ملامسة جدار السجن إلى أن عبر البرج.

أندراوس

مرارة الموت أخفّ مرارة من عيشٍ بدونه. أُسكِتَتِ الأيّامُ وجُمِّدَتْ يومَ أُسْكِت. وحده الصدى في ذاكرتي يردّد كلماته، ولكن من غير صوته.

سمعته مرّة يقول: «تقدّموا، بما فيكم من حنين، إلى الحقول واجلسوا قرب الزنابق، وستسمعونها ترنِّم أمام وجه الشمس. إنّها لا تحيك لتستر عريها ولا تجمع حطبًا أو حجارة لتدبير مأوى، ولكنّها مع ذلك تغنّي.

«ذلك الذي يعمل في الليل هو الذي يلبّي حاجاتها، وعلى بتلاتها، صبحًا، يلتمع ندى رحمته.

«ألستم أنتم أيضًا في عهدته، هو الذي لا يتعب ولا يكِنّ؟»

وسمعته مرّة يقول، «طيور السماء مُحصاةٌ ومسجَّلَةٌ عند أبيكم تمامًا كما شعر رؤوسكم مُحصًى. فَلن يقع عصفورٌ بسهمِ صائِدٍ، كما لن تَبْيَضَّ شعرةٌ في رؤوسِكم أو تسقط في هوّة الشيخوخة المفرغة، إلّا بإذنه.»

وقال مرّة أيضًا، «سمعتكم تهمسون في قلوبكم: إلهنا سيكون أكثر رأفة بنا نحن أبناء ابرهيم، ممّا سيكون مع أولئك الذين لم يكن لهم علم به منذ البدء.

«لكنّي أقول لكم، إنّ مالك الكرمة الذي يدعو أجيرًا في الصباح ليعمل في جمع الغلال، ثمّ يدعو آخر للعمل نفسه عند الغروب، معطيًا هذا الأخير الأجرة نفسها التي يعطيها للأوّل – هذا المالك مبرَّرٌ تمامًا. أليس أنّه يدفع من كيسه الخاصّ ويدفع بملء إرادته؟

«هكذا هو شأن أبي الذي سيفتح بوّابة داره، سواء أَقَرَعها أمَمِيّ أو يهوديّ مثلكم. ذلك أنّ أذنه ستستسيغ النَّغم المستجدّ بالشغف نفسه الذي تحسّه تجاه الأغنية المعهودة، بل ربّما بترحيبٍ خاصّ بالمستجدّ، لأنّه ابن الوتر الأفتى بين أوتار قلبه.»

وسمعته مرّة أخرى يقول، «تذكّروا هذا: اللصّ إنسان محتاج، والكذّاب إنسان خائف؛ والمقتحِمُ الذي يطارده حارسُ ليلِكَ هو أيضًا مطارَدٌ من قِبَل حارس العتمة التي فيه.

«أودّكم أن تشفقوا عليهم جميعًا.

«وإذا حدث أن طرقوا بابكم، إحرصوا على أن تجلسوهم إلى مائدتكم. ذلك أنّكم إن لم تتقبّلوهم، لن تتحرّروا أنتم من إثمكم في ما ارتكبوه».

تبعته ذات يوم إلى السّوق في أورشليم كما تبعه الآخرون. فروى لنا مَثَل الابن الضالّ ومَثَل التاجر الذي باع جميع ما يملك من أجل أن يبتاع لؤلؤة.

ولكن فيما هو يتكلّم، أتى الفرّيسيّون إلى وسط الجموع بامرأة قالوا عنها إنّها زانية. فبادروا يسوع بقولهم، «إنّها دنّست قسمها الزوجيّ وضُبِطت بالجرم المشهود».

تطلّع إليها بتمعّن؛ ثمّ وضع يده على جبينها ونظر مليًّا في عينيها.

ثمّ استدار نحو الذين أتوا بها إليه ونظر إليهم طويلًا وانحنى بعد ذلك إلى الأرض وبدأ يخطّ بإصبعه على التراب.

كتب اسم كلّ فرد منهم مدوّنًا قبالته الخطيئة التي ارتكبها صاحبه.

وفيما كان يكتب، انسحبوا بخجل إلى الطرقات.

وقبل أن ينتهي من الكتابة، كنّا نحن والمرأة الوحيدين الباقين من حوله.

ونظر مرّة أخرى في عينَيْ المرأةِ وقال، «أنتِ أحببتِ بإفراط، وأولئك الذين أتوا بك إلى هنا إنّما أحبّوا بالتقتير. لكنّهم ما جاؤوا بك إليّ إلّا كأحبولة أرادوا إيقاعي في شركها.

«فاذهبي الآن بسلام.

«لم يبقَ أحدٌ منهم هنا لإدانتك. وإذا كان بودّك أن تكوني حكيمة كما أنت محبّة، فاسترشدي بي، لأنّ ابن الإنسان لن يدينك»».

وتساءلت يومها، هل قال لها ذلك لأنّه هو نفسه لم يكن بغير خطيئة.

لكنّي فكّرت طويلًا منذ ذلك الحين. وأنا اليوم أعرف أنّ أنقياء القلوب وحدهم يعرفون كيف يغفرون ذلك العطش الذي يفضي إلى المياه الآسنة.

ثابتو الأقدام هم وحدهم القادرون على إقالة عثرة المتعثّر.

مرّة أُخرى وأُخرى أُعيد القول إنّ مرارة الموت أخفّ مرارة من عيشٍ بدونه.

أحد الأغنياء

كان يَذْكُر الأغنياء بالسوء، فسألته ذات يوم قائلًا، «ماذا أستطيع أن أفعل يا سيّدي، لأحصل على السلام الروحيّ؟»

فدعاني إلى أن أوزّع ما أملك على الفقراء وآتي فأتبعه.

إلّا أنّه هو لا يملك شيئًا؛ فلا يعرف بالتالي، مدى ما ينطوي عليه التملّك من شعور بالحرّية والطمأنينة، فضلًا عن الإحساس الداخليّ بالكرامة واحترام الذات.

ففي بيتي مئة وأربعون من العبيد والوكلاء؛ بعضهم يعمل في بساتيني وكرومي، وآخرون يقودون سفني إلى الجزائر القصيّة.

فلو أنّي سمعت منه ووزّعت ما أملك على الفقراء، ماذا كان سيحلّ بعبيدي وخدّامي وزوجاتهم وأولادهم؟ أليس أنّهم سيتحوّلون إلى مستعطين عند أبواب المدينة أو في أروِقَة الهيكل؟

لا، لم يسبر ذلك الإنسان الطيّب سرّ التملّك. ولأنّه هو وأتباعه كانوا يعيشون على سخاء الآخرين، اعتَقَدَ أنّ على جميع الناس أن يحْيَوا هم هكذا.

أليس في الأمر تناقض وغرابة؛ أَلِلأثرياء أن يهبوا ثراءهم للفقراء فينعم هؤلاء بشراب الغنيّ وخبزه قبل أن يستضيفوه على مائدتهم؟

أَعَلى مالك البرج أن يستضيف الأجراء لديه، قبل أن يعتبر نفسه مالك المكان وسيّده؟

إنّ النملة التي تخزن مؤونتها للشتاء، هي أحكم من الجندب الذي يغنّي يومًا ويجوع آخر.

قال أحد أتباعه السبت الماضي في ساحة المدينة، «على عتبة الجنّة حيث ليسوع أن يخلع حذاءه، ما من إنسان آخر أهل لأن يضع رأسه.»

ولكنّي أتساءل، على عتبة أيّ بيت كان بوسع ذلك المتسكّع الصادق أن يخلع صندله؟ فهو نفسه لم يكن له يومًا بيت، أو عتبة؛ وغالبًا ما مشى من غير صندل.

يوحنّا في پاتمُس

بِوِدّي مرّة أخرى أن أتكلّم عنه.

فالله أعطاني الصوت والشفتين اللاهبتين، ولكن ليس هبة الخطاب.

لست أهلًا للكلمة الأكثر امتلاءً، لكنّي سأعمد إلى استدعاء قلبي إلى شفتيّ.

يسوع أحبّني. إلّا أنّي لم أعرف لماذا.

لكنّي أحببته لأنّه كان ينشّط في روحي التسامِيَ إلى أعالٍ فوق مقاسي وإلى أغوارٍ أعمق من مدى مسباري.

الحبّ سرّ مقدّس.

إنّه عند الذين يحبّون، يبقى أبدًا من غير كلام؛

أمّا عند غير المحبّين، فقد لا يكون سوى تمظهر من غير لبّ.

كنّا أنا وأخي نكدح في الحقل، عندما دعانا يسوع إليه.

كنت شابًّا يومها لا يقرع أذنيّ سوى نداء الفجر.

إلّا أنّ صوته والنّاي الذي في صوته، كانا النهاية لِكَدْحي والبداية لِوُلوعي.

لم يعد عليّ من شيء عندها، سوى أن أتمشّى في الشمس وأتعبّد لجمال ما أنا فيه.

هل بالإمكان تصوُّرُ جلالة هي أرأف من أن تكون جليلة؟ وجمالًا هو أكثر ألقًا من أن يبدُوَ جميلًا؟

هل فيك أن تسمع في أحلامك صوتًا خجلًا من الانتِشاء الذي هو فيه؟

دعاني فتبعتُه.

رجعتُ تلك الليلة إلى بيت والديّ لأخذ معطفي الآخر.

فقلتُ لأمّي، «يريدني يسوع الناصريّ أن أكون في صحبته.»

فقالت، «أسلك في طريقه يا ابني تمامًا كما فعل أخوك.»

وكان أن سرت في رفقته.

طيبُه دعاني وتحكّم بي، ولكن فقط من أجل أن يُطلِقَ سراحي.

الحبّ مضيف كريم مع ضيوفه، أمّا لغير المدعوّين فبيته يستحيل هُزأة وسرابًا.

تطلبون إليّ أن أشرح معجزات يسوع.

نحن جميعًا التمظهر العجائبيّ للّحظة القائمة؛ وكان سيّدنا ومعلّمنا محور تلك اللّحظة.

لكنّه لم يكن يودّ لتمظهراته أن تشيع.

سمعته يقول للأعرج، «إنهض واذهب إلى بيتك، ولكن لا تقل للكهنة أنّي أنا أرجعتك صحيحًا».

لم يكن ذهن يسوع مع المقعدين؛ بل كان مع الأقوياء والمستقيمين.

كان ذهنه يسعى إلى الأذهان الأخرى ويعضدها، كما كانت روحه المكتملة تحلّ على أرواح أخرى.

وفي عمله هذا، كانت روحه تعدّل في هذه الأذهان وتلك الأرواح.

كان هذا يبدو عجائبيًا، أمّا بالنسبة إلى سيّدنا ومعلّمنا، فكان بمثابة التعاطي مع الهواء الذي نتنفّس.

دعوني الآن أتكلّم في شؤون أخرى.

كنّا ذات يوم نتمشّى وحدنا، هو وأنا، في أحد الحقول. كنّا كِلَينا جائعَين، فجئنا إلى شجرة تفّاح.

كان عليها تفّاحتان لا غير، متدلّيتان من أحد الغصون.

أخذ جذع الشجرة بأحد ذراعيه وهزّها، فسقطت التفاحتان على الأرض.

التقط الإثنتين وأعطاني إحداهما، وأبقى الأخرى في يده.

ولأنّي كنت جائعًا، أكلتُ تفّاحتي؛ وأكلتها بسرعة.

والتفتّ إليه فإذا به ما زال يحمل التفّاحة الأخرى بيده.

وأعطاني إيّاها قائلًا، «كُلْ هذه أيضًا».

فأخذتُ التفّاحة بدافع من جوعي الذي لا يعرف الخجل، وأكلتها.

وفيما كنّا نكمل سيرنا التفتّ إلى وجهه.

ولكن من أين لي أن أعبّر عمّا رأيت؟

ليلًا بِلَألاءِ مصابيح على مدّ الفضاء،

حلمًا أبعد من مطالنا؛

ظهيرةً، والرعاة جميعًا في فرحة مطمئنّة إلى أنّ قطعانهم سكرى في مراعيها؛

مَسْوةً، وسكينةً، وخطى العائدين إلى البيت؛

واستسلامًا بعدها للنوم وللأحلام.

كنتُ أرى كلّ هذه في وجهه.

أعطاني التفّاحتَين كلتَيهما، وكنتُ أعرف أنّه هو كان جائعًا كَمِثل ما كنت.

إلّا أنّي الآن أعرف أنّه بإعطائهما لي كان يشعر أنّه قد شبع، كان بذلك قد طال ثمارًا أخرى عن شجرة من نوع آخر.

كنت أودّ أن أخبركم عنه المزيد. ولكن أنّى لي ذلك.

فالحبّ إذا بلغ مداه، غَدا أبعد من مطال الكلمة.

وكلّما أصبحت الذاكرة مثقلة فوق طاقتها، لجأت إلى صمت الأعماق.

بطرس

وذات مرّة في كفرناحوم، تكلّم سيّدي ومعلّمي هكذا:

«ما جاركم سوى ذاتكم الأخرى المقيمة وراء جدار. وعندما يتمّ الفهم تسقط الجدران كلّها.

«أبَعيد ألّا يكون جارك سوى ذاتك الأكمل، وقد ارتدت جسدًا غير جسدك؟ فاحرص أن تحبّ ذلك الجار محبّتك لنفسك.

«ذلك أنّه هو أيضًا تعبير عن الذات العلويّة، وأنت بعد لم تتعرّف إليه.

«جارك هو الحقل الذي فيه يتمشّى ربيع آمالك بحلله الخضر، وحيث يحلم شتاء أمانيك بالذُّرى المكلّلة بالثلوج.

«جارك مرآة فيها ستتملّى وجهك وقد جمّله فرحٌ أنت نفسك لم تكن تدري به، وحزنٌ أنت نفسك لم تشارك فيه.

«أريد لكم أن تحبّوا جاركم تمامًا كما أحببتكم.»

وسألته قائلًا، «كيف لي أن أحبّ جارًا هو لا يحبّني، بل يطمع بالذي هو لي؛ جاراً يريد أن يمدّ يده إلى مقتنياتي؟»

فأجاب، «عندما يعمد خادمك وأنت تقوم بالحراثة، إلى إلقاء البذار في الثلم من ورائك، أتحرص على التوقّف والنّظر إلى الخلف

لتنتهر عصفورًا دوريًّا يلتقط بعض حُبَيبات البذار ليقتات بها؟ أنت إن فعلت ذلك لن تكون مستحقًّا لمردود حصادك الوفير.»

عندما قال يسوع هذا، أحسستُ بالخجل ولُذْتُ بالسكوت. ولكن من غير أن يخالجني وَجَلٌ، فهو كان يقول لي كلّ ذلك وهو يبتسم.

إسكافيّ في أورشليم

أنا ما أحببتُه، ولكنّي لم أحمل له كرهًا. كنت في الواقع أصغي إليه لا لأسمع كلماته، بل لألتقط الجَرْس الذي في صوته، فصوته كان يُمتعني.

أقواله كانت كلّها مبهمة بالنسبة إلى إدراكي، إلّا أنّ موسيقى كلامه كانت تجيء صافية إلى أذنيّ.

في الحقيقة، إنّه لولا ما قاله لي الآخرون عن تعاليمه، لَما كنت حتّى عرفت ما إذا كان هو مع اليهوديّة أو ضدّها.

سوسن التي من الناصرة

إحدى جارات مريم

كنتُ أعرف مريم، أمّ يسوع، قبل أن تصبح زوجة يوسف النجّار، ويوم كنّا بعد في العزوبيّة.

كانت مريم في تلك الأيّام ترى رُؤًى وتسمع أصواتًا، وتتحدّث عن أرواح سماويّة تزورها في المنام.

وقد استرعى ذلك انتباه أهل الناصرة، فكانوا يلاحظونها في رواحها ومجيئها، ويتطلّعون إليها بأَعْيُن عطوفة، لِما كان في جبينها من أعالٍ وفي خطواتها من مسافات.

لكنّ بعضهم كان يقول، إنّها مسكونة. يقولون هذا لأنّها كانت لا تذهب إلّا في مهمّات خاصّة بها وحدها.

بدت لي كبيرة في حين كانت بعد فتيّة، ذلك لأنّه كان في إزهارها حصاد، وفي ربيعها ثمار ناضجة.

إنّها ولدت وتربّت بيننا، إلّا أنّها مع ذلك، كانت تبدو كغريبة آتية من بلاد الشمال. كان في عينيها دائمًا، استغراب مَنْ لَمْ يألف بعد وجوهنا.

وكانت متغطرسة، غطرسة مريم الأيّام الخوالي، التي ارتحلت بصحبة أخويها من النيل إلى البرّيّة.

وكان أن خُطِبَت مريم إلى يوسف النجّار.

فلمّا حبلت مريم بيسوع، صارت تمشي ما بين التلال وتعود مساءً وفي عينيها مسحة من ألم وعذوبة.

وعندما وُلِد يسوع قالت مريم لأمّها، على حدّ ما أُخبِرتُ، «ما أنا سوى شجرة، تمّ قطافها. فتدبّري أنت هذه الثمرة.» مَرْتا القابلة سَمِعَتْها تقول ذلك.

وزرتُها بعد ثلاثة أيّام، كان في عينيها تيهان وفي صدرها خفقان، وذراعها محتضنة طفلها البكر احتضان الصدفة للّؤلؤة.

أحببنا جميعنا طفل مريم، وكانت عيوننا عليه. كان ثمّت دفء في كيانه الذي كان ينبض على وقع خطى حياته.

ومرّت الفصول، وأصبح الطفل صبيًّا ضاحكًا بكلّيّته للحياة، مع شيء من الشرود. لم يكن أحد منّا يعرف ماذا يمكن أن يصدر عنه من تصرّف؛ ذلك أنّه كان دائمًا خارج حلبتنا. إلّا أنّه، على طبيعته البالغة الجرأة والمغامرة، لم يوجَّه إليه يومًا أيّ توبيخ.

كان هو الذي يلعب مع الصبية الآخرين عوض أن يلعبوا هم معه.

كان في الثانية عشرة عندما شوهِدَ مرّةً يأخذ بيد أحد العميان ويجتاز به السّاقية إلى الطريق العموميّة الآمنة.

فسأله الأعمى بامتنان، «من أنت يا صغيري؟»

فأجابه، «أنا لست صغيرًا، أنا يسوع.»

فسأله الرجل الأعمى، «من هو أبوك؟»

فأجابه، «الله هو أبي.»

فضحك الأعمى وردّ قائلًا، «أحسنت القول يا صغيري، ولكن من تكون والدتك؟»

فأجابه يسوع، «أنا لست صغيرك. الأرض هي أمّي.»

قال الأعمى، «فَلنَذْكُر إذن أنّ الذي أمسك بِيَدي وقادني عبر الساقية، هو ابن الله والأرض.»

فأجاب يسوع، «مستعدٌّ أن أقودك إلى أيّ مكان تريده، وستواكب عيناي خطاك.»

وربِيَ هكذا كشجرة نخيل كريمة في حدائقنا.

حتّى إذا بلغ التاسعة عشرة، بدا كالأيّل في بديع طلعته؛ بعينين عسليّتين يملؤهما دَهش النهار،

وبفم يعلوه عطش القطيع في الصحارى إلى البحيرة.

يمشي الحقول وحيدًا، فتلاحقه عيوننا وعيون عذارى الناصرة. إلّا أنّنا كنّا نشعر بحياء إزاءه.

الحبّ أبدًا خجول أمام الجمال، إلّا أنّ الجمال سيظلّ أبدًا طريد الحبّ.

وما لبثت السنون أن جاءت به متكلّمًا في الهيكل وفي بساتين الجليل.

وتبعته مريم أحيانًا لتصغي إلى كلامه ولتستمع إلى إيقاع ذلك الصوت الآتي من قلبها هي. ولكن عندما كان هو والذين تعشّقوه ينزلون إلى أورشليم، كانت هي تحجم عن الذهاب.

فنحن أبناء المناطق الشماليّة غالبًا ما كانوا يتهكّمون علينا في شوارع أورشليم، حتّى ونحن محمّلون بتقدماتنا إلى الهيكل.

ومريم كانت أكثر إباء من أن تنصاع لمنطقة الجنوب.

زار يسوع مناطق أخرى شرقًا وغربًا. نحن لم يكن لنا علم بما زار من مناطق، لكنّنا كنّا نتتبّعه بقلوبنا.

إلّا أنّ مريم كانت تجلس على عتبة بيتها كلّ مساء، وعينها على الطريق منتظرة رجوعه.

فتأتي إلينا قائلة إثر رجوعه، «إنّه أرحب من أن يكون ولدي، وأفصح ممّا لقلبي الصامت أن يحيط به، فكيف لي أن أدّعيه؟»

وبدا لنا أنّ مريم لم يكن بوسعها أن تصدّق أن السّهل قد ولَد جبلًا؛ فهي لم تستطع، على بياض قلبها، أن ترى كيف أنّ التلّة عند السفح هي درب صعود إلى القمّة.

كانت تعرف الرّجل، ولكنّها بسبب كونه ابنها، لم تجرؤ على معرفته.

وذات يوم، وقد انطلق يسوع إلى البحيرة ليكون مع الصيّادين، قالت لي: «هل الإنسان إلّا ذلك الكائن القلق الطالع من التراب، وهل هو إلّا ذلك الشَّوْق الذي يتطلّع إلى معانقة النجوم؟

ليس ابني سوى شوق. إنّه نحن مجتمعين في شوقنا إلى النّجوم.

هل قلت هو ابني؟ فليسامحني الله. إلّا أنّي عميقًا في قلبي أريدني أمّه».

صَعْبٌ في الواقع، التحدّث عن مريم وابنها، إلّا أنّي، بغضّ النظر عن الحسك الذي سيشوّك حنجرتي، وعن كلماتي التي ستصلكم وكأنّها العُرْج على عكّازاتهم، سأخبر عمّا رأيته وسمعته.

كان العام بعدُ في فتوّته وشقائق النعمان تكلّل التلال، عندما دعا يسوع تلامذته قائلًا لهم، «تعالوا معي إلى أورشليم واشهدوا الحَملَ وهو يُذْبَح من أجل الفصح».

في ذلك اليوم بالذات، أتت مريم إلى بابي قائلة، «إنّه ذاهب إلى المدينة المقدّسة. هل لك أن تأتي معي لنلتحق به مع النساء الأخريات؟»

وتبعنا مريم وابنها في ذلك الدرب الطويل، إلى أن بلغنا أورشليم. فرحّبت بنا عند البوّابة مجموعة من الرجال والنساء، ذلك أنّ مجيئه كان قد أُشيع بين جماعة محبّيه.

لكن يسوع في تلك الليلة ذاتها، غادر المدينة برفقة تلاميذه.

قيل لنا إنّه ذهب إلى بيت عنيا.

وبقيت مريم معنا في الخان بانتظار رجوعه.

لكنّه قُبِضَ عليه عشيّة الخميس التالي خارج الأسوار وأُودِع السّجن.

عندما بَلَغَنا خبر سجنه، لم تنبس مريم بكلمة، بل تجلّى في عينيها ذلك الموعود من وجع وغبطة، الذي كنّا نعهده فيها وهي بعد عروسٌ في الناصرة، وقد تحقّق.

إنّها لم تنتحب، بل كانت تتحرّك بيننا كأمٍّ شبح، لا تريد أن تنتحب على شبح ولدها.

جلسنا أرضًا، لكنّها هي ظلّت منتصبة تذرع الغرفة مجيئًا ورواحًا.

تقف قرب النافذة وتتطلّع نحو الشّرق، ثمّ تعمد بأصابع يديها إلى كشح شعرها الى الوراء.

كانت عند الفجر ما زالت بيننا، واقفة كأنّها بَيْرَق أوحد في برّية ولا من يسترشدون.

كنا ننوح لأنّا عرفنا ما يحمل الغد لابنها؛ لكنّها هي لم تنح لأنّها عرفت أيضًا ماذا سيحلّ به.

كانت كما لو أنّ عظامها من البرونز وأعصابها من الدردار العتيق، أمّا عيناها فكانتا كالسماء، واسعتين وجريئتين.

أَسَبَقَ أن سمعتم طائرًا يغرّد، فيما تأكل عشّه نار تنفخ فيها الريح؟

هل عهدتم امرأة حزنها أعمق من الدموع، أو قلبًا جريحًا يعمد إلى التسامي إلى ما فوق الألم الذي فيه؟

لا، ما رأيتم امرأة مثل هذه، ذلك لأنّكم لم يسبق أن وقفتم في حضرة مريم، ولا كان لكم أن طوَّقَتْكُم «الأمّ غير المنظورة.»

في تلك اللحظة الساكنة عندما تدقّ حوافر الصّمت الملفّعة على صدور المؤرَّقين، أتى ابن زبدي الأصغر، يوحنّا، وقال: «مريم، أمّي، يسوع ماضٍ في طريقه. تعالَوا نمضِ وراءه».

وألقت مريم يدها على كتف يوحنّا وخرجا، فتبعناهما.

وعندما بلغنا برج داود، بدا لنا يسوع حاملًا صليبه، ومن حوله حشد عظيم من الناس.

وكان هناك رجلان يحمل كلّ منهما أيضًا صليبه.

ومشت مريم معنا في موكب ابنها بخطى ثابتة ورأس مرفوع.

ومن خلفها مشت روما وصهيون، بل مشى العالم كلّه، كي يثأر لنفسه من إنسان واحد حرّ.

وعندما بلغنا التلّة، كان هو قد رُفع عاليًا على الصليب.

وتطلّعتُ إلى مريم، فإذا وجهها ليس وجه امرأة مصابة، بل وجه الأرض الخصيبة، التي تلد أبدًا من غير توقّف، وأبدًا تدفن أولادها.

ووثبت إلى عينيها صورة طفولته، فقالت رافعة صوتها عاليًا، «يا ولدي الذي ليس ولدي، يا رجلًا عَبَرَ مرّةً رحمي، إنّي بقوّتك أتمجّد. أعرف أنّ كلّ نقطة دم تتقطّر من يديك، ستغدو معين أمّة لا ينضب.

«تموت في هذه العاصفة تمامًا كما مات قلبي مرّة مع الغروب، وإنّي لن أحزن».

وددت في تلك اللحظة، لو أدفن وجهي في معطفي وأهرب إلى منطقة الشمال. لكنّي فجأة سمعت مريم تقول، «يا ولدي الذي ليس ولدي، ماذا قلت للرجل الذي إلى يمينك حتّى غدا فرحًا في عزّ محنته؟ وأصبح ظلّ الموت شفيفًا فوق وجهه، إلى حدّ أنّه لم يعد قادرًا أن يشيل عنك عينيه؟

«أنت الآن تبسم لي، ولأنّك تبتسم أعرف أنّك قد تمت لك الغلبة».

وتطلّع يسوع إلى أمّه وقال، «مريم! كوني ابتداءً من هذه الساعة، أمًّا ليوحنّا».

وقال ليوحنّا، «كن ابنًا محبًّا لهذه المرأة. تردّدْ على بيتها ودع ظلّك يعبر فوق العتبة حيث كنت يومًا أقف. إفعل ذلك إحياء لذكراي.»

ورفعت مريم نحوه يدها اليمنى، فبدت كشجرة بغصن واحد. ورفعت مرّة أخرى صوتها قائلة، «يا ولدي الذي ليس ولدي، إن يكن هذا من الله فليعطنا الله الصبر والمعرفة التي يمليها الصبر.

«وإن يكن من الإنسان فليشمله الله بمغفرته إلى الأبد.

«إن يكن هذا من الله، فثلج لبنان سيغدو كَفَنَك؛ وإن يكن هذا من عمل هؤلاء الكهّان وحدهم وهؤلاء الجنود، فعندي إذًا هذا الثوب كساء لعريك.

«يا ولدي الذي ليس ولدي، ذلك الذي يبنيه الله هنا لن يكون له زوال؛ أمّا ذاك الذي يقصد الإنسان هَدْمَه فسيبقى مبنيًّا، لكن خارج مطال رؤيته».

وفي تلك اللحظة أسلَمَتهُ السماوات للأرض مجرّد صرخة ونسمة.

وأسلمته مريم أيضًا إلى الإنسان، مجرّد جرح وبلسم.

وقالت مريم، «ها إنّه الآن قد ذهب. بلغت المعركة نهايتها. النجم قد أرسل نوره، والمركب قد دخل الميناء. وذاك الذي نام ذات يوم على دقّات قلبي هو الآن ينبض على وسع المدى.»

والتففنا أكثر فأكثر من حولها، فقالت لنا، «حتّى وهو في قبضة الموت، يبتسم. لقد تمّت له الغلبة، ويجمل بي حقًّا أن أكون أمًّا لفاتح».

وعادت مريم إلى أورشليم متوكّئة على يوحنّا، التلميذ الفتيّ؛

عادت امرأة وقد بلغت تمامها.

وإذ بلغنا باب المدينة، تطلّعتُ في وجهها فأخذني العجب، ذلك أنّ رأس يسوع يومها كان الأعلى بين الرجال، في حين أنّ رأس مريم لم يكن أقلّ علوًّا.

حدث كلّ هذا في ربيع تلك السنة.

ونحن الآن في الخريف، وقد عادت مريم أمّ يسوع إلى مسكنها وهي فيه وحدها.

كان قلبي منذ سبتَيْن ماضيَيْن كأنّه الحجر في صدري، غادرني ابني قاصدًا سفينة في صور، لأنّه مزمع أن يكون بحّارًا.

قال إنّه لن يعود.

فقصدتُ ذات مساء مريم.

عندما دخلت بيتها وجدتها جالسة إلى نَولِها ولكن من غير أن تكون منشغلة بالحياكة. كانت تنظر إلى السماء بعيدًا من الناصرة.

قلت لها، «مرحبًا يا مريم.»

فمدّت ذراعها نحوي قائلة، «تعالي واجلسي إلى جانبي لنرقب الشمس وهي تسكب دمها على التلال».

وجلستُ إلى جانبها على المقعد الخشبيّ مسرّحةً وإيّاها النظر إلى الغرب من خلال النافذة.

وقالت مريم بعد هنيهة، «تُرى من الذي يصلب الشمس هذه العشيّة.»

فقلت، «جئت إليك للترويح عن النفس. لقد غادرني ابني إلى الحياة البحريّة وأنا الآن وحدي في بيتنا عبر الطريق.»

وقالت مريم، «بودّي أن أريحك، ولكن كيف لي ذلك؟»

فأجبتُ، «فقط لو تحدّثيني عن ابنك لأشعرتني بالراحة.»

إبتسمت مريم لي ثمّ ألقت بيدها على كتفي قائلة، «سأكلّمك عنه، فالذي يؤاسيك أيضًا يؤاسيني».

وتكلّمت عن يسوع، كما تحدّثت طويلًا عن كلّ الذي كان من البداية.

وبدا لي أنّها في كلامها لم تكن ترى فرقًا بين ابنها وابني.

ذلك أنّها قالت، «ابني هو أيضًا بحّار. لمَ لا تكلين ابنك للأمواج تمامًا كما أنا وكلته.»

«قدر المرأة أن تكون إلى الأبد رحمًا ومهدًا، ولكن ليس أبدًا قبرًا. نحن نموت في سبيل أن نهدي حياة إلى الحياة، تمامًا كما تغزل أصابعنا خيطانًا لِرداء نحن قط لن نلبسه.

«نحن نلقي شباكنا من أجل أسماك أبدًا لن نذوقها.

«في هذا يكمن حزننا وفيه، رغم هذا، يكمن فرحنا كذلك.»

هكذا قالت لي مريم.

فتركتها ورجعت إلى بيتي، ومع أنّ ضوء النهار كان قد خبا، جلستُ إلى نَوْلي لأضيف إلى ما كنتُ قبلًا أحوكه.

يوسف
الملقّب بـِ«يوستُس»

يقولون إنّه كان سوقيًّا، نتاجًا وضيعًا لبذرة وضيعة؛ رجلًا فظًّا وعنيفًا.

يقولون إنّ شَعره لم يعرف غير الرّيح مشطًا. وأنّ ما من مؤلّف بين جسمه ولباسه سوى المطر.

يحسبونه مجنونًا ويعزون كلامه لأرواح فيه.

لكن فلنعترف أنّ الرجل على ازدرائنا له، قد أطلق تحدّيًا، وأنّ صدى ذلك التحدّي لن يكون له انتهاء.

لقد غنّى أغنية، وإنّ أحدًا لن يستطيع أن يوقف رجع ألحانها. فهي ستنداح من جبل إلى جبل، وستطفو عاليًا فلكًا بعد فلك، شاهدة للشفاه التي ولدتها وللآذان التي كانت لها سريرًا.

لقد كان غريبًا. أجل، كان غريبًا؛ عابر سبيل في طريقه إلى معبد ما؛ زائرًا قرع أبوابنا، بل ضيفًا آتيًا من بلاد قصيّة.

ولأنّه لم يلقَ المضيف الأنيس، قفل راجعًا إلى دياره.

فيلبّس

عندما مات حبيبنا، ماتت الإنسانيّة جميعها، ولفترة اعترى سائر الكائنات جمود وتوشّحت بلون الرّماد. عندها حلّ على الشرق سواد، وهبّت منه عاصفة اجتاحت وجه الأرض. فتحت السماء عينيها وأطبقتهما، فهطل المطر ميازيب غسلت الدّم السّائل من يدَيْه ورجلَيْه.

ومتّ أنا أيضًا. إلّا أنّي سمعته في عزّ ذهولي يتكلّم فيقول، «إغفر لهم يا أبتي لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

وتناهى صوته إلى روحي وهي تعاني الغرق، فإذا بي أُرَدّ إلى الشاطئ.

ولمّا فتحتُ عينيَّ، أبصرتُ جسده الأبيض متدلّيًا وخلفه الغيوم. فإذا كلماته التي سمعتها قبل حين، تستحيل كيانًا في داخلي، فأصبح إنسانًا جديدًا. ولم أعد أشعر بالأسى.

فَمَن ذا الذي يأسى لبحر يكشح عن وجهه الحجب أو لجبل يضحك في وجه الشمس؟

مثل تلك الكلمات الأخيرة، أكان لأيّ قلب بشريّ على الإطلاق أن ينطق بها وهو يُطعن؟

هل من قاضٍ آخر سبق له أن عفا عمّن يقاضونه؟ وهل سبق للمحبّة يومًا أن تحدّت البغضاء بمثل هذه القوّة الواثقة من نفسها؟

هل سبق أن سُمع ما بين السماوات والأرض صوتُ بوق مثل هذا البوق؟

هل سبق لقتيل في ما مضى أن أشفق على قاتليه؟ أو لنيزك أن تباطأ في خطواته كُرمى لِخِلْد؟

الفصول تكلّ والسنون تشيخ قبل أن تُستنفد هذه الكلمات: «إغفر لهم يا أبتي لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون.»

ونحن، أنا وأنتم، مهما تكرّرت ولاداتنا، سنظلّ محتفظين بها.

والآن أَدْخُلُ بيتي، فأقف شحّاذًا ممجّدًا عند أعتاب صليبه.

بربارة التي من اليمّونة

كان يسوع صبورًا مع البلداء والأغبياء، تمامًا كما يصبر الشتاء في انتظار الربيع.

كان صبورًا كالجبل مع الرّيح.

يُجيب بلطافة على تساؤلات خصمه الفجّة، ذلك لأنّه كان قويًّا، وبمستطاع القويّ أن يكون جَلودًا.

إلّا أنّ يسوع كان أيضًا بَرِمًا ضيّق الصدر.

لم يوفّر المنافقين قطّ.

ولم يتهاون مع أهل المكر أو مع المتلاعبين بالكلام.

ولا كان يرضى بأن يُؤخذ.

كان برمًا بأولئك الذين لا يؤمنون بالنور، فقط لأنّهم أنفسهم من أهل الظلام؛ وبأولئك الذين يَنشدون علامات في السّماء عوض أن يلتمسوها في قلوبهم.

كان بَرِمًا بأولئك الذين يزِنون نهارهم وليلهم ويقيسونهما، قبل أن يأتمنوا ليلهم ونهارهم على ما يراودهم من أحلام.

يسوع كان صبورًا.

لكنّه في الوقت نفسه كان أضيق الناس صدرًا.

يرضى منك أن تحيك الثوب حتّى وإن أخذك ذلك ما بين النول والخيطان، السّنين الطويلة.

لكنّه لن يصبر على أحد يُقدِم على تمزيق بوصةٍ واحدة من الحياكة.

زوجة بيلاطس

إلى سيّدة رومانيّة

كنت أسيرُ مع وصيفاتي في الغياض خارج أورشليم، عندما رأيتُهُ مع عدد من النساء والرجال الجالسين من حوله؛ كان يتحدّث إليهم بلغة لم أكن أفهم إلّا بعضها.

لكنّ واحدنا لا يحتاج إلى لغة كي يتمكّن من رؤية عمود من نور أو جبل من بلّور. فالقلب يعرف ما قد لا ينطق به أبدًا لسان، أو تسمع به أبدًا أُذن.

كان يتحدّث إلى رفاقه عن المحبّة والقوّة. أعرف أنّ حديثه كان عن الحبّ من النغم الذي كان في صوته؛ وأعرف أنّه كان يتحدّث عن القوّة لأنّ في إيماءاته كانت تتحرّك جيوش. وكان رقيقًا، مع أنّ زوجي نفسه ما كان له أن يتكلّم بمثل ذلك السّلطان.

عندما رآني مارّةً توقّف لحظة عن الكلام ونظر إليّ نظرة عطوفة، فاعتراني شعور بالإتّضاع؛ وعرفت في أعماق روحي أنّي مررتُ بإله.

ومنذ ذلك اليوم، تزورني صورته في خلواتي عندما لا أكون منشغلةً بزائرين أو زائرات؛ تَجوبُ عيناه أرجاء روحي كلّما كانت عيناي مغمضتين. ويتحكّم صوته بالسكينة التي تغمر لياليّ.

أحسّني مُثبّتة نهائيًّا إلى غير ما تَحوُّل؛ فهناك سلام في تألّمي وهناك تحرّر في دموعي.

أنت يا صديقتي الحبيبة، ما رأيت قطّ ذلك الإنسان، كما أنّكِ قطّ لن تريه.

لقد غدا أبعد من مَطالِ حواسّنا، إلّا أنّه بين الرجال جميعًا، أقربهم الآن إليّ.

رجل من خارج أورشليم

عن يهوّذا

أتى يهوّذا إلى بيتي مساء ذلك الجمعة. وهو عشيّة الفصح؛ وقرع بابي بقوّة.

نظرتُ إليه عند دخوله فإذا وجهه بلون الرّماد. يداه ترتجفان كالأماليد اليابسة في الرّيح، وثيابه مبلّلة كما لو أنّه قد خرج لتوّه من نهر؛ ذلك أنّ تلك العشيّة كانت تشهد عواصف مهولة.

نظر إليّ، وإذا محاجر عينَيْهِ ككهفين معتمين والعينان محتقنتان دمًا.

قال لي، «لقد سلّمت يسوع الناصريّ لأعدائه ولأعدائي.»

ثمّ فرك يهوّذا يَدَيْهِ قائلًا، «أعلن يسوع أنّه سيقهر جميع أعدائه وأعداء شعبنا. هكذا صدّقته وسرت وراءه.

«عندما دعانا في البداية، وعدَنا بمملكةٍ جبّارة ومترامية، وهكذا سعينا إلى مرضاته أملًا في أن تكون لنا مكانة مشرّفة في بلاطه.

«رأينا أنفسنا أمراء يتعاملون مع هؤلاء الرومان كما تعاملوا هم معنا. فيسوع تكلّم الكثير عن مملكته، فخُيِّل إليّ أنّه اختارني قائدًا لعرباته ونافذًا في محاربيه. وهكذا تبعت خطاه بكلّ إرادتي.

إلّا أنّه تبيّن لي أنّ يسوع لم يكن ساعيًا إلى مملكة، ولا كان همّه تحريرنا من الرومان. مملكته كانت مملكة القلب. سمعته يتكلّم عن المحبّة والإحسان والغفران، فيستمع إليه نساء السبيل بكلّ سرور، فيما يزداد قلبي مرارةً وأزدادُ قساوة.

«وبدا أنّ مَلِكي الموعود على اليهوديّة قد تحوّل فجأة، إلى نافخ في مزمار من أجل أن يُرَفِّه عن عقول الشذّاذ والمشرّدين.

«أحببته على قدر ما أحبّه الآخرون من جماعتي. رأيتُ فيه أملَ خلاصٍ من نير الغرباء. لكنّه عندما لم يحرّك ساكنًا في سبيل تحريرنا من ذلك النّير، بل ارتضى حتّى أن يُعطِيَ قيصر ما لقيصر، انتابني اليأس وقُضِيَ على آمالي. فقلت في نفسي «على قاتل آمالي أن يُقتَل، لأنّ تطلّعاتي وآمالي المعقودة، أثمن من حياة أيّ فرد.»

ثمّ صرّ يهوذا بأسنانه، وأحنى رأسه. وعندما عاد إلى الكلام قال، «لقد أسلمته. وصُلِب هذا النهار... لكنّه مع ذلك، إذ مات على الصليب، مات كملك. مات وسط العاصفة كما يموت المخلّصون؛ كما يموت الرجال العراض الذين يعيشون أبعد من الكفن ومن الحجر.

«كان طوال فترة احتضاره سموحًا، كما كان عطوفًا، ينضح قلبه بالرحمة. كان يشعر بالرحمة حتّى نحوي أنا الذي سلّمته».

قلت لزائري، «لقد اقترفتَ يا يهوذا خطأً فظيعًا.»

فأجاب، «لقد مات ملكًا. فَعَلامَ لم يعِشْ ملكًا؟»

فأعدت القول، «لقد اقترفت خطأً فظيعًا.»

فجلس على المقعد، هناك، واعتراه الجمود فكأنّه الحجر.

كنتُ أتمشّى ذهابًا وإيابًا في الغرفة، فكرّرت القول، «لقد اقترفتَ خطيئة عُظمى».

لكنّ يهوذا لم ينبس بكلمة، بل ظلّ صامتًا كالتراب.

وبعد لحظات وقف في مواجهتي فبدا أطول ممّا كان، وعندما تكلّم جاء صوته كصوت إناء مشعور؛ فقال، «لم يكن قلبي يضمر الخطيئة. أنا هذه الليلة ساعٍ إلى مملكته، سأقف في حضرته وأطلب مغفرته.

«مات هو كملك، وأموت أنا كمجرم. لكنّي أعرف في قرارة نفسي أنّه سيغفر لي.»

بعد أن قال هذا، جمع معطفه المبلّل حول جسمه وقال، «كان خيرًا أنّي أتيتُ إليك هذه الليلة، رغم أنّي جلبت إليك المتاعب. هل لك أن تسامحني؟

«قل لأبنائك ولأبناء أبنائك: يهوّذا الإسخريوطيّ أسلم يسوع الناصريّ إلى أعدائه لأنّه اعتقد أنّ يسوع كان عدوًّا لأبناء قومه.

«وقل أيضًا، إنّ يهوّذا في اليوم نفسه الذي فيه ارتكب غلطته الرهيبة، تبع الملك إلى درجات عرشه من أجل أن يسلّم إليه روحَه ويُحاسَب.

«سأقول له إنّ دمي كان هو الآخر شديد الشوق إلى التراب، وإنّ روحي مشوقة إلى أن تتحرّر.»

وأسند يهوّذا رأسه إلى الحائط ثمّ رفع صوته عاليًا،

«أيّها الله الذي ليس لإنسان أن يتلفّظ باسمه المخوف، قبل أن تلمس أصابع الموت شفتَيهِ، لماذا أحرقتني أنا بنار ليس لها نور؟

«لماذا زوّدت الجليليّ بالشوق إلى أرض لم تطأها قدمٌ، وأثقلتني أنا بشهوة من النوع الذي لا يسمح بالذهاب أبعد من الأهل والمدفأة؟ ومن يكون ذلك الإنسان، يهوّذا، صاحب اليدين المغموستَين بالدماء؟

«أعرني يدًا كي ألقي به بعيدًا؛ ثوبًا باليًا وبَرذعة مهلهلة.

«ساعدني أن أقوم بذلك هذه الليلة.

«ودعني مرّة أخرى أقف خارج هذه الجدران

«ملّت نفسي هذه الحرّية التي بلا أجنحة. بنفسي زنزانة أوسع.

«بنفسي لو أنساب جدولًا من دموع إلى بحر المرارة. أوثر أن أكون ابن رحمتك على أن أبقى هكذا، واحدًا يقرع على بوّابات قلبه».

قال يهوّذا هذا، ثمّ فتح الباب وعاد إلى العاصفة من جديد.

جئتُ بعد ثلاثة ايّام في زيارة إلى أورشليم، فسمعتُ بكلّ ما جرى. وسمعتُ أيضًا أنّ يهوّذا قد ألقى بنفسه من على قمّة «الصخرة العالية».

فكّرتُ طويلًا منذ ذلك النهار، فأنا أفهم يهوّذا. لقد حقّق حياته الصغرى التي كانت تهوّم كالضباب على هذه الأرض المستعبدة من قِبَل الرومان، في حين كان النبيّ العظيم يتسلّق الأعالي.

إنسان تائقٌ إلى مملكة يكون فيها أميرًا.

وإنسان آخر يرنو إلى مملكة يكون فيها الجميع أمراء.

سركيس

راعٍ يونانيّ شيخ يلقّبونه بالمجنون

رأيتُ في الحلم كلًّا من يسوع وإلهي أنا «پام» جالسين معًا في قلب الغابة.

كان الواحد منهما يضحك لكلام الآخر على إيقاع كركرة الجَدْوَل القريب، فتطغى ضحكة يسوع بمرحها على ضحكة رفيقه. واستمرّ الحديث طويلًا بينهما.

كان كلام «پام» عن الأرض وأسرارها؛ عن أشقّائه ذوي الحوافر وشقيقاته ذوات القرون؛ وعن الأحلام. تكلّم عن الجذور وكيف تنغَلّ في التربة، وعن النّسغ الذي يستفيق عميقًا فلا يلبث أن يجري صعدًا إلى أن يطلّ ويبادرَ الصيف بالغناء.

وتكلّم يسوع عن الأماليد النديّة في الغابة، وعن الأزاهير والثّمار، والبذور التي سيحملنها في الموسم الذي بعدُ لم يأتِ.

تكلّم عن الطيور في الأجواء وعن شَدْوِها في الأقاليم العلويّة.

روى عن أيائل بيضاء ناصعة في الصحراء حيث يتولّى الله رعايتها.

واستطاب «پام» الحديث عن الله الجديد، واختلج له منخراه.

ولم ألبث في الحلم إيّاه أن رأيت «پام» ويسوع يلجآن إلى الصمت ويسكنان تمامًا سكينة الظلال الخضراء.

وأخذ «پام» بعد ذلك قصباتِه المزماريّة وعزف عليها ليسوع.

فاهتزّت الأشجار وارتجف الخنشار، واعتراني نوع من الخوف.

قال يسوع، «أنت يا أخي الطيّب تجمع في قصباتك بين السّهب الدانية والقمم الممتنعة.»

وأعطى «پام» قصباته ليسوع قائلًا، «إعزف أنت الآن، جاء دورك».

فقال يسوع، «قصباتك هذه أكثر من أن يتدبّرها فمي. عندي هذه الشبّابة.»

ثمّ أخذ شبّابته وعزف.

فسمعتُ صوت المطر في أوراق الشجر وأهازيج السواقي بين التلال، وتساقط الثلوج على رؤوس الجبال.

إنّ نبض قلبي الذي كان ذات يوم يخفق مع الرّيح، أُعيد إلى الرّيح من جديد، وإنّ أيّام ماضِيَّ على تعدّد أمواجها، أقبلت إلى شاطئ، فإذا أنا سركيس الراعي من جديد، وإذا شبّابة يسوع تستحيل ناياتٍ ما لا يُحصى من الرّعيان، تنادي قطعانًا لا يحيط بها عدّ.

فقال «پام» ليسوع، «شبابك أشدّ تواصلًا مع القصب من سنيني. وأنا، زمانًا قبل هذا، كنتُ في سَكَناتي أسمع نشيدك والتمتمات التي تهمس باسمك.

«لِاسْمِكَ رَجْعُ صوت عذب؛ لَشَدَّ ما يجمل به أن يرافق النسغ صعودًا إلى الغصون، وأن يتراكض مع ذوات الحوافر ما بين التلال.

«وهو ليس غريبًا بالنسبة إليّ، رغم أنّ أبي لم يسمّني بهذا الاِسم. إنّها شبّابتك التي استرجعته إلى ذاكرتي.

«فدعنا الآن نعزف على قصباتنا معًا.»

وعزفا معًا.

فَخَضَّت موسيقاهما الوجود أرضًا وسماءً، وضرب الهلع الكائنات الحيّة جميعها.

سمعتُ جئير البهائم وجوع الغابة. كما سمعتُ صراخ المَوْحودين، وتَفجُّع أولئك الذين يتوقون إلى ما لا يعلمون.

سمعتُ تنهُّد الصبيّة اشتياقًا إلى حبيبها، والصيّاد العاثر في لهاثه وراء الطريدة.

ثمّ دخلَت موسيقاهما نفحة من سلام، فإذا الأرض والسماء معًا ترتّلان.

رأيتُ في منامي هذا كلّه، وسمعتُه.

حنّان

رئيس الكهنة

كان من رُعاع القَوْم؛ قاطِع طريق ودجّالًا ومطبّلًا للذات. كان لا يروقُ إلّا للفاسدين وللمحرومين من الناس. فاقتضاه ذلك أن يسلُك الطريق الذي يأخذه جميع الموصومين والملوّثين.

جعل منّا ومن شرائعنا أُلعوبَةً، فطعن شرفنا وهَزِئ من كرامتنا، وبلغ حدّ أن قال إنّه قادر أن يهدم الهيكل وينتهك حرمة الأماكن المقدّسة. كان لا يعرف الحياء، ولذلك كان عليه أن يموتَ ميتة مُخجِلة.

كان مجيئُه من جليل الأمم، غريبًا، من تلك البلاد الشماليّة حيث ما زال يُنسب لأدونيس وعشتروت قوى تقف في وجه إسرائيل وإله إسرائيل.

كان لسانهُ يعتدل عندما كان ينطق بكلام أنبيائنا، لكنّ صوتَه كان يعلو فيثقب الأذن عندما كان يتكلّم اللغة الهجينة التي للسّفلة والسوقيّين.

أيّ خيار كان لي سوى أن أقضي بموته؟

ألستُ حارسًا للهيكل؟ ألستُ حاميًا للشريعة؟ أكانَ بِوِسعي أن أدير ظهري له قائلًا بكلّ تسليم: «هو مجنون بين مجانين. فلنترُكْهُ

لحاله يقضي على ذاته بالهذيان، لأنّ الخوت والمجانين والمسكونين بالشياطين، لن يكون من أمرهم شيء بالنسبة إلى مسيرة إسرائيل؟»

أكان بوسعي أن أدير له أذنًا صمّاء، عندما دعانا كذّابين ومرائين وذئابًا وأفاعي وأبناء الأفاعي؟

لا لم يكن بإمكاني أن أكون إزاءه أصمّ. ذلك لأنّه لم يكن مجنونًا. كان مالكًا نفسه؛ وكان بعقلانيّته الضاجّة بذاتها، إنّما يقرّع فينا ويتحدّانا.

من أجل ذلك حرصتُ على أن يُصلَب، وكان صلبه إشعارًا وإنذارًا للآخرين الذين يحملون الدمغة الملعونة ذاتها.

أعرف جيّدًا أنّي تعرّضت للملامة بسبب هذا، حتّى من قِبَل بعض الشيوخ في المجلس. إلّا أنّي كنتُ أعي يومها كما أعي الآن، أنّ التضحية برجل واحد في سبيل الناس، خيرٌ من أن ينقاد الناس لإنسان واحد ينتهي بهم إلى الضياع.

لقد تمّ إخضاع إسرائيل من قِبَل عدوّ خارجيّ، وإنّي سأحرص على ألّا يتمّ إخضاع إسرائيل ثانية، ولكن من قِبَل عدوّ داخليّ.

لن يكون لأيّ آتٍ من الشمال اللّعين أن يصل إلى قدس أقداسنا، ولا أن يطرح ظلّه على تابوت العهد.

إمرأة

واحدة من جارات مريم

في اليوم الأربعين من مماته، أتى جميع جارات مريم إلى بيتها لتعزيتها وللمشاركة في النَّدْب.

ورتّلت واحدة من النساء هذه النُدبة:

إلى أين يا ربيعي، إلى أين؟
وإلى أيّ أمداء أخرى يتصاعد أريجك؟
في أيّ حقول أخرى ستخطو؟
وإلى أيّ سماء ستسمو برأسك كي تبوح بمكنونات قلبك؟

قاحلةً ستغدو هذه الوهاد،
ولن يبقى لنا سوى سهول يابسة جديبة.
ستشوي الشمس كلّ شيء أخضر
فلا تردُّ علينا بساتينُنا سوى حامض التفّاح
وكرومُنا سوى مرّ العنب.
فيا عطشنا إلى نبيذك،
ويا شوق أنوفنا إلى عبيرك.

إلى أين، يا زهرة ربيعنا الأوّل، إلى أين؟
وهل أنّك أبدًا لن تعود؟
أما لياسمينك من زيارة أخرى إلينا؟
و«لِبخور مريمك» أن يلوّح لنا عن جنبات الدروب
فيخبرنا أنّا نحن أيضًا لنا جذورنا التي تمتدّ عميقًا في التربة،
وأنّ أنفاسنا التي لا تتوقّف، ستستمرُّ أبدًا في التوجّه
صعدًا إلى السماء؟

إلى أين يا يسوع، إلى أين،
يا وليد جارتي مريم،
ويا رفيق وليدي؟
إلى أين يا ربيعنا الأوّل، وإلى أيّ حقول تُرى، غير حقولنا؟
هل من رجوع لك ثانية إلينا؟
وهل لك في موجة من محبّتك، أن تزور شواطئ أحلامنا المجدبة؟

آحاز البدين
صاحب الفندق

أذكر جيّدًا آخر مرّة رأيتُ فيها يسوع الناصريّ. أتى إليّ يهوّذا في ظهر ذلك الخميس بالتّمام، وطلب إليّ أن أهيّئ العشاء ليسوع ورفاقه.

أعطاني قطعتَين من الفضّة وقال، «إشترِ كلّ ما ترى أنّه يلزمك من أجل العشاء».

وبعد انصرافه قالت لي زوجتي، «هذا حقًّا تشريفٌ لنا.» فيسوع كان قد غدا نبيًّا واجترح عددًا من المعجزات.

وعند الغروب، أقبل هو وأتباعه وجلسوا حول المائدة في العلّية، إلّا أنّهم كانوا صامتين وهادئين.

لقد سبق لهم أن أتوا في السنة الماضية والتي قبلها، ولكنّهم كانوا يومها فرحين. كسروا الخبز وشربوا النبيذ وغنّوا ألحاننا القديمة؛ كما كان حديث يسوع معهم يمتدّ حتّى منتصف الليل.

كانوا بعد ذلك يتركونه وحده في العلّية وينصرفون إلى غرف أخرى، لأنّه كان يرغب بعد منتصف الليل أن يكون وحيدًا.

كان يبقى مستيقظًا؛ ذلك أنّي كنت أسمع وقع خطواته وأنا نائم في فراشي.

لكنّهم هذه المرّة لم يكونوا، هو ورفاقه، فرحين.

حضّرَت لهم زوجتي سمكًا من بحيرة طبريّة، وحجالًا من حوران محشيّة بالأرزّ وحبّ الرمّان، وحملتُ أنا إليهم ألفيّة من نبيذي القبرصيّ.

ثمّ تركتهم، لشعوري بأنّهم يريدون أن يكونوا وحدهم.

لبثوا إلى أن عتّمت تمامًا، ثمّ نزلوا جميعهم معًا من العلّية، إلّا أنّ يسوع تأخّر لحظة عند أسفل السلّم. نظر إليّ وإلى زوجتي واضعًا يده على رأس بنيّتي، وقال، «تصبحون كلّكم على خير. نحن راجعون إلى العلّية ولا ننوي المغادرة في هذا الوقت المبكر. سنبقى هنا إلى أن تشرق الشمس وتعلو الأفق.

«قليلًا ثمّ نعود ونطلب المزيد من الخبز والنبيذ. كنتَ أنتَ وزوجتك مضيفين كيّسين، وسنذكركما عندما نأتي إلى نزلنا نحن ونجلس إلى مائدتنا هناك».

قلت، «كان شرفًا لنا يا سيّدي أن نقوم بخدمتكم. مديرو الفنادق الأخرى يحسدونني على زياراتكم، فأبتسِمُ لهم باعتزاز كلّما صدفتهم في ساحة المدينة. حتّى إنّي بعض الأحيان أقابلهم بوجه متشاوف.»

فقال، «على جميع أصحاب الفنادق أن يعتزّوا في أنّهم يخدمون. فالذي يقدّم الخبز والنبيذ هو أخ للّذي يحصد ويجمع الأغمار إلى البيدر، وللّذي يدوس العنب على المعصرة. فأنتم جميعًا طيّبون، تعطون من موفوركم حتّى أولئك الذين يأتونكم وليس عندهم سوى جوعهم وعطشهم.

ثمّ استدار نحو يهوّذا الإسخريوطيّ، الذي كان أمين صندوق الجماعة، وقال، «أعطني شاقلَين».

فأعطاه يهوّذا شاقلَين قائلًا، «هذان هما آخر فضّيتين باقيتين في الصندوق».

ونظر إليه يسوع ثمّ قال، «قليلًا، قليلًا جًّدا، ويمتلئ صندوقك بالفضّة.»

ثمّ وضع قطعتَي الفضّة في كفّي قائلًا، «إشتر بهما شريطة حريريّة حمراء لابنتك واطلب إليها أن تلبسها نهار الفصح تذكارًا منّي».

وبعد أن نظر ثانية إلى وجه بنيّتي، انحنى وقبّل جبينها، وكرّر علينا ثانية دعاءه، «تصبحون جميعًا على خير».

ثم تحوّل ومشى.

أُخبرت أنّ ما قاله لنا قد دُوِّن من قِبَل أحد رفاقه على رقّ، لكنّي أرويه لك تمامًا كما سمعته من شفتيه.

لن أنسى أبدًا رجع صوته وهو يقول، «تصبحون جميعًا على خير».

إذا كنت تريد زيادة عنه فاسأل بنيّتي. إنّها اليوم امرأة، ولكنّها تكنز ذكرى ولوديّتها. وكلماتها أقرب تناولًا من كلماتي.

باراباص

كلمات يسوع الأخيرة

أطلقوا سراحي واختاروه. وكان أنّه قام وأنا سقطت.

أوقفوه ضحيّة وأُضحية من أجل الفصح.

حلّوا عنّي سلاسلي فمشيتُ مع الحشد وراءه، لكنّي كنت إنسانًا حيًّا يسعى إلى قبره.

كان ينبغي لي أن أهرب إلى الصحراء، حيث تحرق الشمس الخِزْيَ فيترمّد.

لكنّني سرت مع أولئك الذين اختاروه من أجل أن يحمل جريمتي.

عندما سمّروه على الصليب كنتُ واقفًا هناك.

رأيتُ وسمعتُ، ولكنّي كنتُ أبدو خارج جسدي.

قال له اللصّ الذي صُلِب عن يمينه، «أأنت تدمى معي! أنت، يسوع الناصريّ، ما غير؟»

وأجابه يسوع قائلًا، «لولا هذا المسمار الذي يثبّت يدي، لكنت أمدّها إليك وأشدّ على يدك.

«نحن صُلِبنا معًا. حبّذا لو أنّهم جعلوا صليبك أقرب.»

ثمّ تطلّع نزولًا ونظر إلى أمّه وإلى شابّ يقف إلى جانبها.

وقال، «هوذا ابنك يا أمّي واقفًا إلى جانبك.

«هوذا يا امرأة رجل سيحمل قطرات دمي هذا إلى أرض الشمال.»

وإذ تناهى إلى سمعه عويل نساء الجليل قال، «ها إنّهن يَعْوِلن فيما أنا عطشان.

«أنا مرفوع أعلى من أن أطول دموعهنّ.

«وإنّي لن أتناول الخلّ والعلقم لأطفئ هذا العطش.»

وما لبثت عيناه أن انفتحتا واسعًا نحو السماء وجاء صوته، «يا أبتي، لماذا تخلّيت عنّا؟»

ثمّ قال بحنان، «إغفر لهم يا أبتي، لأنّهم لا يعرفون ماذا يفعلون.»

عندما نطق بهذه الكلمات خُيِّل إليّ أنّي رأيت الناس جميعًا سُجّدا أمام الله طالبين المغفرة عن صلب هذا الفرد.

وعاد فقال بصوت عظيم: «يا أبتي، إلى يدك أُرجع الوديعة.»

ورفع رأسه أخيرًا قائلًا، «لقد تمّ، إنّما حتّى هذه التلّة فقط.»

ثم أغمض عينيه.

فإذا البروق تمزّق عتمة السماء ويدوّي في إثرها رعد عظيم.

أعرف الآن أنّ الذين قتلوه بدلًا عني قد تسبّبوا بعذابي الذي ليس له نهاية.

صَلْبُه لم يستغرق أكثر من ساعة.

أمّا أنا فصليبي سيأخذني العمر كلّه.

كلوديوس

قائد مئة رومانيّ

بعد أن قبضوا عليه، أوكلوه إليّ. وكان أمر بيلاطس البنطيّ أن يبقى تحت الحراسة حتّى صباح اليوم التالي.

إقتاده الأنفار بإمرتي سجينًا، وكان مطيعًا.

وعند منتصف الليل، غادرتُ زوجتي وأولادي لأتفقّد المعسكر. كان من عادتي التجوّل للتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام بالنسبة إلى معسكراتنا في أورشليم؛ واتّفق أن زرتُ ذلك الليل المعسكر حيث كان هو موقوفًا.

كان جنودي وبعض فتيان اليهود يتهكّمون عليه. خلعوا عنه ثوبه ووضعوا على رأسه إكليلًا من شلوح الورد البرّيّ الشائك من مخلّفات السنة الماضية.

كانوا قد أجلسوه إلى جانب أحد الأعمدة وأخذوا يرقصون ويتصايحون أمامه. وقد أعطوه قصبة يحملها بيده.

وعند دخولي صاح أحدهم: «أيّها النقيب! إليك ملك اليهود.»

وقفتُ أمامه وتطلّعتُ إليه، فاعتراني الخجل من غير أن أعرف لماذا.

سبق لي أن حاربت في بلاد الغال وفي إسبانيا وواجهت مع رجالي الموت. لكنّي لم أعرف يومًا الخوف أو الجبن. إلّا أنّي عندما وقفت أمام ذلك الإنسان ونظر إليّ، شعرت بقلبي يخونني. بدا وكأنّ شفتيّ قد خُتِم عليهما، فلم أستطع أن أنطق بكلمة.

فغادرت المعسكر على الفور.

حصل هذا قبل ثلاثين سنة. أبنائي الذين كانوا أطفالًا يومها أصبحوا اليوم رجالًا في خدمة قيصر وخدمة روما.

إلّا أنّي كنت غالبًا في إرشادي لهم، أتكلّم عنه، عن إنسان يواجه موته؛ على شفتَيه إكسير الحياة، وفي عينيه الرأفة بقاتليه.

بلغتُ الآن الكبر وشبعت من السنين. وإنّي على يقين أنّ لا پومپايوس ولا قيصر بلغ من العظمة القياديّة مبلغ هذا الرجل من الجليل.

ذلك أنّه منذ قبوله الموت من غير مقاومة، انشقّت الأرض له عن جيش يقاتل من أجله... وهم يخدمونه ميتًا أفضل ممّا عرفه يومًا قيصر، أو پومپايوس، وهو في قيد الحياة.

يعقوب

شقيق السيّد

ألف مرّة تردّدَتْ ذكرى تلك الليلة عليّ. وأعرف الآن أنّها ستتردّد لألف مرّة أخرى.

ستنسى الأرض الأثلام التي مزّقت صدرها، والنساءُ آلام الولادة وأفراحها، قبل أن أنسى أنا تلك الليلة.

كنّا بعد الظهر ما نزال خارج أسوار أورشليم، وكان يسوع قد قال: «دعونا ندخل المدينة الآن ونتناول عشاءنا في النزل».

كانت قد أظلمت عندما بلغنا النزل وكنّا جائعين. حيّانا صاحب النزل وقادنا إلى علّية.

وطلب إلينا يسوع أن نجلس حول المائدة، أمّا هو نفسه فظلّ واقفًا وعيناه تتملّيانِنا.

وتكلّم مع صاحب النزل قائلًا، «جئني بطست وإبريق ماء، ومنشفة».

ثمّ نظر إلينا ثانية وقال بحنوّ، «إخلعوا صنادلكم».

لم نفهم الأمر، إلّا أنّنا خلعناها استجابةً لطلبه.

وجاء صاحب النزل بالطست والإبريق، فقال يسوع، «أنا الآن سأغسل أرجلكم. ذلك أنّ عليّ أن أُحرّر أرجلكم من غبار الدرب القديمة، وأهبها حرّية السبيل الجديد».

فارتبكنا جميعًا وعرانا الخجل.

إلّا أنّ سمعان بطرس نهض وقال، «كيف لي أن أدع معلّمي وسيّدي يغسل قدميّ؟»

فأجابه يسوع، «أغسِلُ قدمَيك علّك تبقى ذاكرًا أنّ من كان للناس خادمًا غدا في الناس أعظمهم.»

ثمّ نظر إلى كلّ واحد منّا وقال: «إنّ ابن الإنسان الذي اختاركم له إخوة، والذي دُهنت قدماه البارحة بطيب بلاد العرب وجُفّفتا بشعر امرأة، يرغب الآن في غسل أقدامكم».

وأخذ الطست والإبريق ثمّ انحنى على ركبتَيه وغسل أرجلنا ابتداءً بيهوّذا الإسخريوطيّ.

ثمّ انضمّ إلينا على المائدة؛ فكان وجهه كفجر ينبلج على ساحة المعركة بعد ليلٍ من القتال وسفك الدماء.

وأقبل صاحب النزل وزوجته حاملين الطعام والنبيذ.

ومع أنّي كنت جائعًا قبل أن ينحني يسوع على قدميّ، فإنّ معدتي بعد ذلك لم تعد تطلب الطعام. بل كان في حلقي لسان لهب لا أريد له أن يُطفأ بالنبيذ.

وأخذ يسوع رغيفًا وكسر وأعطانا قائلًا، «قد لا نكسر الخبز ثانية. فدعونا نأكل هذه اللقمة ذكرى لأيّامنا في الجليل».

وسكب من الفخاريّة نبيذًا في كأس، فشرب ثمّ أعطانا لنشرب قائلًا، «إشربوا هذا تخليدًا لذكرى عطش عانيناه معًا، واشربوه أيضًا أملًا بالخمرة الجديدة. عندما أُطوى ولا أعود بينكم، وكلّما اجتمعتم هنا أو

في مكان آخر، إكسروا الخبز واسكبوا النبيذ وكلوا واشربوا تمامًا كما نفعل الآن. ثمّ التفِتوا حولكم؛ فقد ترونني جالسًا معكم إلى المائدة».

قال هذا ثمّ بدأ يوزّع علينا قطعًا من لحوم السمك وطير الدُّرُّج، كما لو أنّه العصفورة التي تزُقّ فراخها.

أكلنا القليل ولكنّه أشبعنا؛ ولم نشرب سوى القطرة، ذلك لأنّنا أحسسنا كما لو أنّ الكأس مدًى يفصل بين هذه الأرض وأرض أخرى.

وقال يسوع، «دعونا قبل أن نترك هذه المائدة، نقف ونرتّل تراتيل الجليل الفرحة.»

وقفنا ورتّلنا معًا، وكان صوته أعلى من أصواتنا، وكان ثمّة رنين في كلّ كلمة من كلماته.

ثمّ تطلّع في وجوهنا جميعًا واحدًا واحدًا وقال، «والآن أستودعكم الله. دعونا نطلّق هذه الجدران. دعونا نذهب إلى الجثمانية».

فقال يوحنّا بن زبدي، «يا معلّم، لماذا تقول لنا وداعًا هذه الليلة؟»

فأجابه يسوع، «لا تدَعوا قلوبكم تضطرب، فأنا لا أغادركم إلّا لأُهيّئ لكم مكانًا في بيت أبي. لكنّكم إذا احتجتموني، فسأعود إليكم. فحيثما دعوتموني هناك سأسمعكم، وحيثما طلبتني أرواحكم فهناك سأكون.

«لا تنسَوا أنّ العطش يقود إلى معصرة النبيذ، والجوع إلى وليمة العرس.

«وحده الشوق فيكم هو الذي من شأنه أن يهديكم إلى ابن الإنسان. ذلك أنّ الشوق هو ينبوع النشوة الغامرة وهو الطريق المفضي إلى الآب.»

وتكلّم يوحنّا ثانية فقال، «إن كنت مزمعًا على مغادرتنا، فكيف لنا أن نكون مرحين؟ ولماذا تأتي على سيرة الفراق؟»

فقال يسوع، «الأيّل المطارد يعرف سهم الصيّاد قبل أن يحسّه في صدره؛ والنهر على وعي بالبحر قبل أن يبلغ شاطئه. وابن الإنسان قد خبر مسالك البشر.

«قبل أن تفتح شجرة لوز أخرى أزاهرها أمام وجه الشمس، تكون جذوري في أهبة التمدّد إلى قلب حقل آخر.»

فقال سمعان بطرس، «يا معلّمي، لا تغادرنا الآن، ولا تحرمنا فرحتنا بوجودك. نذهب حيث تذهب، وحيث تحلّ فهناك أيضًا سيكون حلولنا.»

ووضع يسوع يده على كتف سمعان بطرس وابتسم له قائلًا، «من يدري أنّك لن تتنكّر لي قبل نهاية هذه الليلة، وأنّك لن تغادرني قبل أن أغادرك؟»

ثمّ قال فجأة، «دعونا الآن نذهب من هنا».

غادر النزل وتبعناه، لكنّا عندما بلغنا باب المدينة، لم يعد يهوّذا الإسخريوطيّ بيننا. وعبرنا وادي جهنّم؛ يسوع بعيدًا في المقدّمة، ونحن نسير متلاصقين واحدنا جنب الآخر.

وعندما بلغ بستانًا من الزيتون توقّف واستدار نحونا قائلًا، «إستريحوا لساعة هنا».

كان المساء معتدل البرودة، مع أنّ الربيع كان في ريعانه؛ التوت يفتّق براعمه، وشجرات التفّاح في عزّ إزهارها، والحدائق في رواء.

قصد كلٌّ منّا جذع شجرة وتمدّد تحتها. وأنا من جهتي التففت بردائي واستلقيت تحت واحدة من شجرات الصنوبر.

أمّا يسوع فتركنا ومشى لوحده في بستان الزيتون. وكنت أنا أراقبه فيما الآخرون نيام.

كان يجمد فجأة في مكانه، ثمّ يعود فيستأنف السير صعودًا ونزولًا. تكرّر ذلك معه عدّة مرّات.

ثمّ رأيتُه يرفع وجهه نحو السماء ويمدّ ذراعيه إلى الشرق وإلى الغرب.

قال ذات مرّة، «السماء والأرض، وكذلك جهنّم هي من الإنسان.» وأذكر الآن قوله هذا، فأدرك أنّ ذاك الذي كان يذرع بستان الزيتون كان السماء وقد استحالت إنسانًا؛ وخطر لي أنّ رحم الأرض ليس البداية ولا هو النهاية، بل الأصحّ أنّه عربة، أو وقفة استراحة، أو لحظة تعجّب واندهاش؛ ورأيت جهنّم متمثّلة أيضًا بذاك الوادي المسمّى جهنّم، الذي كان يفصل بينه متمشّيًا في بستان الزيتون، وبين المدينة المقدّسة.

وفيما هو واقف هناك وأنا ملتفّ بردائي ومستلقٍ، تناهى إليّ صوته متكلّمًا. إلّا أنّه لم يكن يتكلّم إلينا. سمعته ثلاثًا يتلفّظ بكلمة أبتي، وكان هذا كلّ ما سمعت.

وبعد قليل هبطت ذراعاه ووقف جامدًا كشجرة من السرو ما بين عينَيَّ والسماء.

وأخيرًا التحق بنا مجدّدًا وقال لنا، «استفيقوا وانهضوا، فقد أتت ساعتي. العالم منقضّ علينا الآن، شاهرًا سلاحه للمعركة».

ثمّ عاد فقال، «سمعتُ منذ برهة صوت أبي. تذكّروا، إن لم أركم ثانية، أنّ المهاجم لن يعرف السلام إلّا إذا هُزِم.»

وعندما نهضنا واقتربنا منه، كان وجهه كسماء منجّمة فوق الصحراء.

قبّل كلّ واحد منّا على خدّه. وعندما لامست شفتاه خدّيّ كانتا ساخنتَين كَيَدِ طفل محرور.

فجأة سمعنا عن بعد جلبة عظيمة كأنّها لأفراد عدّة، لكنّها إذ اقتربت تكشَّفَت عن مجموعة من الرجال يتقدّمون نحونا حاملين المصابيح والعصيّ. وكانوا على عجلة من أمرهم.

وعندما بلغوا حافّة البستان، تركَنا يسوع وتقدّم لملاقاتهم. وكان على رأسهم يهوّذا الإسخريوطيّ.

كان بينهم جنود رومانيّون مسلّحون بالسيوف والرماح، ورجال من أورشليم يحملون الهراوات والنبابيت.

وتقدّم يهوّذا إلى يسوع وقبّله، ثمّ قال للمسلّحين، «هذا هو الرّجل».

فقال يسوع ليهوّذا، «لقد صبرتَ عليّ يا يهوّذا. كان يمكن لهذا أن يحصل البارحة.»

ثمّ استدار نحو المسلّحين قائلًا: «إقبضوا عليّ الآن، لكن تأكّدوا أن يكون قفصكم من الرحابة بحيث يتّسع لهذه الأجنحة».

عندها انقضّوا عليه فأوقفوه، وكانوا جميعهم يتصايحون.

أمّا نحن فهربنا خائفين، طلبًا للنجاة. ركضت وحيدًا في بساتين الزيتون، وعلى غير هدى. فما من صوت كان يعلو في داخلي ليخاطبني، سوى الرعب.

فخلال الساعتين أو الثلاث المتبقّية من الليل، لم يكن لي من شاغل سوى الهرب والتخفّي. وعند الفجر وجدتُني في إحدى القرى قرب أريحا.

أمّا لماذا تركته، فلست أدري. لكنّي، بكلّ أسف، تركته. كنت جبانًا وهربت من وجه أعدائه.

كنت في أعماقي مريضًا وخجلًا. عدت إلى أورشليم لكنّه كان سجينًا، وما من صديق كان يستطيع أن يكلّمه.

صُلِب، وكان لِدَمِه أن جعل من الأرض طينة جديدة.

أنا ما زلت في قيد الحياة؛ والذي أحيا به هو قرص الشهد الذي كانته حياتُه الحلوة.

سمعان القَيرَوانيّ

كنتُ في طريقي إلى الحقول عندما رأيته حاملًا صليبه؛ وتمشي في أثره جماهير.

عندها مشيت أنا أيضًا إلى جانبه.

أوقفه عبئه عدّة مرّات، ذلك أنّ جسده كان منهكًا.

فاقترب منّي جنديّ رومانيّ قائلًا، «أنت قويّ ومتين البنية؛ تعال واحمل صليب هذا الرّجل».

عندما سمعت هذه الكلمات، كبر قلبي في داخلي وأحسست بالإمتنان.

وحملت له صليبه.

كان ثقيلًا، لأنّه كان مصنوعًا من خشب الحور المشبَع بأمطار الشتاء.

وتطلّع إليّ يسوع، فإذا العرق يتصبّب من جبينه نزولًا إلى لحيته.

ونظر إليّ ثانية ثمّ قال، «أأنت أيضًا تشرب هذه الكأس؟ أنت فعلًا ستشفّ معي حافّتها حتّى نهاية الزمن».

وإذ قال هذا، وضع يده على كتفي الحرّة، ومشينا معًا نحو تلّة الجمجمة.

إلّا أنّي هكذا، لم أعد أشعر بثقل الصليب. كنت فقط أشعر بيده. وقد كانت كأنّها جناح عصفور على كتفي.

ووصلنا إلى رأس التلّة، حيث كان مزمعًا أن يُصلَب.

عندها أحسست بثقل الشجرة.

لم ينبس بكلمة وهم يدقّون المسامير في يدَيه ورجلَيه، ولا صدر عنه أيّ صوت.

ولا اهتزّت أطرافه تحت المطرقة.

بدا وكأنّ يدَيه ورجلَيه قد ماتت فلا مجال لأنْ تعود إلى الحياة إلّا بأن تستحمّ بالدماء. كما بدا أيضًا وكأنّه هو كان يسعى إلى المسامير سعي الأمير إلى الصولجان؛ وأنّه كان يتلهّف إلى أن يُرفع إلى فوق.

لم يخطر لقلبي أن يرقّ لحاله، فالذي اعتراني من دهشٍ كان أقوى من أن أنشغل بذلك.

محصّلتي الآن أنّ الرّجل الذي حملت صليبه قد غدا صليبي.

لو قالوا لي ثانية، «إحمل صليب هذا الرجل» لَحَملتُه إلى أن تفضي بي نهاية الطريق إلى القبر.

ولَكُنتُ توسّلت إليه أن يضع يده على كتفي.

حدث كلّ هذا منذ سنين عديدة؛ لكنّي ما أزال كلّما تتبّعت خطّ الأثلام في الحقل، أو كلّما كنت في تلك اللحظة الناعسة ما قبل المنام، أفكّر دائمًا بذلك الإنسان الحبيب.

كما أحسّ بيده المجنّحة، هنا، على كتفي اليسرى.

سيبوريا

أمّ يهوّذا

كان ولدي رجلًا صالحًا ومستقيمًا، يعاملني برقّة وحنان، ويحبّ أهله ومواطنيه. كما كان يكره أعداءنا، هؤلاء الرومان الملاعين، الذين يلبسون الأرجـوان، في حين أنّهم ما غزلوا خيطًا ولا جلسوا إلى نَـوْلٍ؛ والذين يحصدون ويجمعون حيث لم يحرثوا ولا ألقَوا بذارًا.

كان ولدي في السّابعة عشرة عندما مسكوه وهو يرمي السهام على فيلق رومانيّ عابر في كرمنا.

كان حتّى وهو في تلك السنّ يتحدّث إلى الفتيان الآخرين عن مجد إسرائيل، فيتفوّه بكثير من الأشياء الغريبة التي لم أكن أفهمها.

كان ابني، ولدي الوحيد.

شرب الحياة من هذين النهدين قبل أن تحوّلا اليوم إلى يباس، وخطا خطواته الأولى في هذه الحديقة، متشبّثًا بهذه الأصابع التي غدت اليوم قصبًا يرتجف.

بهاتين اليدين عينهما، وقد كانتا يومها فتيّتين ويانعتين كأعناب لبنان، لففتُ فردتَي صندله الأوّل بمنديل قطنيّ كانت أمّي قد أهدتني إيّـاه، وخبّأتُهما. وإنّـي ما زلت أحتفظ بهما في ذلك الصّندوق قرب النافذة.

كان مولودي الأوّل، وعندما خطا خطواته الأولى، خَطَوْتُ أنا أيضًا أولى خطواتي. ذلك لأنّ النساء لا يعرفن السفر إلّا عندما يقودهنّ أولادهنّ.

يقولون لي الآن إنّه أمات نفسه بيده؛ إنّه رمى بنفسه ندمًا من على «الصخرة العالية»، لأنّه خان صديقه يسوع الناصريّ.

أعرف أنّ ابني قد مات. ولكنّي أعرف أنّه ما خان أحدًا؛ ذلك لأنّه كان محبًّا لِذَوي القربى، وما حمل كراهية إلّا للرومان.

كان ولدي يسعى إلى عزّة إسرائيل، فلا نطقت شفتاه ولا انشغلت أفعاله إلّا بتلك العزّة.

عندما التقى يسوع على الطريق العامّ، تركني ليسير في ركابه. لكنّي في أعماق قلبي كنت أعرف أنّ من الخطأ له السير في ركاب أيّ إنسان.

عندما ودّعني قلت له إنّه مخطئ، لكنّه لم يستمع إليّ.

أولادنا لا يستمعون إلينا؛ إنّهم كالمدّ العالي لِمَوج اليوم، لا يسترشدون بالمدّ العالي لموج الأمس.

أتوسّل إليكم لا تسألوني زيادة عن ولدي.

أحببته وسأحبّه إلى ما لا نهاية. لو أنّ المحبّة كانت في لحمنا لَكُنْتُ أشويها شيًّا بالحديد الحامي وأستريح. لكنّ المحبّة في الروح وليس إلى الروح سبيل.

والآن، لست أقول زيادة. إذهبوا واطرحوا أسئلتكم على امرأة أخرى أعلى شرفًا من أمّ يهوّذا.

إذهبوا إلى أمّ يسوع. السهم في قلبها هي أيضًا، فهي تخبركم عنّي، وستفهمون.

المرأة التي من جُبَيل

تفجّعن معي، أنتنّ يا بنات عشتروت، أنتنّ يا جميع عاشقات تمّوز.

ولتذُب قلوبُكُنَّ وتصعد إلى المآقي، ولتنسَكِب دموعًا من دماء.

فذاك الذي كان قد صيغ من عاج وإبريز، قد أودى به الموت.

في الغابة المظلمة دَهَمه الخنزير البرّي،

وأنياب الخنزير البرّي مزّقت لحمه.

ها هو راقد مبقّعًا بأوراق خريف مضى،

ولن يكون لخطواته بعدُ أن توقظ البذور الغافية في حضن الربيع.

لن يأتي صوته مع الفجر إلى شبّاكي،

وأنا، وحيدةً سأبقى مدى الحياة.

تفجَّعنَ معي، أنتنّ يا بنات عشتروت، ويا جميع عاشقات تمّوز،

لقد مال عنّي حبيبي؛

ذاك الذي كان يتكلّم كما الأنهار تتكلّم؛

الذي كان صوته والزمان توأمين؛

الذي كان فمه الأحمر وجعًا صُيّر حلاوة؛
والذي يستحيل العلقم عسلًا على شفتيه.

تفجّعن معي، يا بنات عشتروت، وأنتنّ يا عاشقات تمّوز.
إبكينَ معي حول نعشه كما تبكي النجوم،
وكما تتناثَرُ بتلاتُ القمر على جسمه المدمّى.
بلّلن بدموعكنّ أغطية الحرير على سريري،
حيث في حلمي أضطجع مرّة حبيبي،
وعندما استفقت من حلمي ولّى وعبر.

أحلّفكنّ يا بنات عشتروت، وأنتنّ يا جميع عاشقات تمّوز.
إكشِفْنَ عن صدوركُنّ وانتحِبن وآسينَني،
لأنّ يسوع الذي من الناصرة قد أخذه الموت.

مريم المجدليّة

بعد ثلاثين سنة

مرّة أخرى أقول إنّ يسوع قد قهر بموته الموت، ونهض من القبر روحًا وسلطانًا. تمشّى في وحدتنا وعرّج على بساتين أشواقنا.

هو لا يرقد هناك وراء حجر في تلك الصخرة المشقّقة.

نحن الذين نحبّه شاهدناه بأمّ أعيننا هذه، التي مكّنها هو من أن تبصر؛ ولمسناه بهذه الأيدي، أيدينا التي علّمها هو كيف تتلمّس.

أعرفكم أنتم الذين لا تؤمنون به. كنت يومًا واحدة منكم، وأنتم كُثر؛ إلّا أنّ عددكم سيتناقص.

هل يقتضيكم الأمر أن تُحطّموا قيثارتكم وعودكم كي ينكشف لكم ما ينطويان عليه من موسيقى؟

أم أنّ عليكم أن تقطّعوا الشجرة قبل أن تؤمنوا بأنّها تثمر؟

أنتم تكرهون يسوع، لأنّ إنسانًا من منطقة الشمال كان له أن يقول إنّه ابن الله. لكنّكم تكرهون واحدكم الآخر، لأنّ كلًّا منكم يحسب نفسه أعظم من أن يكون أخًا للّذي يليه.

تكرهونه لأنّ أحدهم قال، إنّه مولود من عذراء لا من بذار رجل.

إلّا أنّكم لا تعرفون الأمّهات اللّواتي ينزِلْن إلى القبر وهّن بعد عذارى، ولا الرّجال الذين يهبطون إلى مدافنهم وعطشهم ما يزال آخذًا بحلوقهم.

أنتم لا تعرفون أنّ الأرض قد زُفَّت إلى الشمس، وأنّ الأرض إيّاها هي التي تبعث بنا إلى الجبل وإلى الصحراء.

ثمّة هوّة فاغرة بين أولئك الذين يحبّونه وبين الذين يكرهونه، بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون.

ولكن عندما تفرغ السنون من بناء الجسر فوق تلك الهوّة، ستدركون أنّ ذاك الذي عاش فينا، ليس للموت، وأنّه كان ابن الله على غرار ما نحن أبناء الله؛ وأنّه وُلِد من عذراء على نحو ما الأرض لا زوج لها.

إنّه لغريب أنّ الأرض لا تهب مَن لا يؤمِنون، الجذورَ التي تمتصّ ثدييها، والأجنحةَ التي بها يحلّقون عاليًا فيشربون ويرتوون من ندى جوّها المحيط.

أمّا أنا، فأعرف ما أعرف، وفيه الكفاية.

رجل من لبنان
بعد تسعة عشر قرنًا

يا سيّدي، أيّها المُنشِد الأعظم،
يا سيّد الكلمات التي أبعدُ من النطق،
سبع مرّات ولدتُ منذ زيارتك العُجلى وترحيبنا القصير،
وسبع مرّات دُفنتُ
وها أنا أحيا من جديد،
وفي الذاكرة نهار وليلة بين التلال،
عندما تسامى بنا مدّ موجك.
تقاذفتني من بعدُ، أراضٍ ومحيطات كثيرة،
ولكن أنّى قادني التجوالُ إن على صهوة أو سفين،
كان اسمك صلاة أو قضيّة،
كان الناس يباركونك، أو كانوا يلعنونك؛
اللّعنة حجّة منهم في وجه الفشل،
والمباركة، ترنيمة القنّاص
العائد من التلال
وفي يده زاد لرفيقته.

أصحابك ما يزالون معنا تعزية وعونًا،
وأعداؤك أيضًا ما يزالون، تقويةً وتوكيدًا.
أمّك معنا؛
وقد شاهدتُ بشرة وجهها في محيّا جميع الأمّهات؛
برفق تهزّ يدُها الأسرَّةَ
وبحنان تطوي يدُها الأكفان.
ومريم المجدليّة ما تزال بيننا،
تلك التي شربت خلّ الحياة ومن بعده خمرها.
ويهوّذا، رجل الألم والطموحات الصغيرة،
هو أيضًا ما زال يجوب الأرض؛
هو حتّى الآن يفترس ذاته عندما يعضّه الجوع ولا يجد أمامه سواها،
ويسعى إلى ذاته الكبرى عن طريق تحطيم ذاته.

ويوحنّا، ذاك الذي شبابه تعشّق الجمال، ها إنّه هنا،
يواصل الغناء مع أنّ ما مِن سميع.
وسمعان بطرس المتهوّس، الذي أنكرك علّه يحيا زيادة من أجلك،
هو أيضًا يجلس حول مواقدنا.
قد ينكرك ثانية قبل بزوغ فجر آخر،
إلّا أنّه يتقبّل لنفسه الصلب من أجل مقصدك، ويحسب نفسه غير جدير بهذا الشرف.
قيافا وحنّان، ما يزالان كلاهما يعيشان يومهما، ويحاكمان المذنِبَ والبريء.
ينامان، كلّ على فراش من ريش، فيما الذي حاكماه يجلد بالعصيّ.

والمرأة التي أُخذت بِالزِّنا،
هي أيضًا تجوب شوارع مدننا،
وتجوع إلى خُبْزٍ بعدُ لم يخبز،
وتحيا وحيدة في بيت مهجور.
وبيلاطس البُنطيّ، هو أيضًا هنا:
يقف بتهيّب أمامك ويستجوبك كما في الماضي،
إلّا أنّه لا يجرؤ على المخاطرة بمنصبه، أو على تحدّي محكوميه الذين من عِرْقٍ غريب؛
وهو ما يزال يغسل يديه.
وحتّى الآن، ما تزال أورشليم تَحمِلُ الطست وروما الإبريقَ،
وبين الإثنتين تُغسَل آلاف الأيدي إلى أن تبيَضّ.

يا سيّدي، أيّها الشاعر الأعظم
يا سيّد الكلمات نطقًا وإنشادًا،
بنوا لاسمك المعابد كي يحتووك،
وعلى كلّ مرتفع رفعوا صليبك،
رفعوه رمزًا وعلامة من أجل هِدايَةِ أرجلهم التائهة،
ولكن ليس من أجل مرضاتك.
فرحك هو مُرتَفَع أعلى من مطال رؤاهم،
فلا يحمل إليهم عزاء.

فَهُم، يكرّمون الإنسان الذي لا يعرفونه.
وهل من تعزية في إنسان هو مثلهم؛ إنسان يرأف بمثل الرأفة التي يملكون،

بل إلهٍ محبَّتُه من جِنْسِ محبّتهم،
ورحمته هي من الرّحمة التي يعرفون؟
هم لا يمجِّدون الإنسان، الإنسان الحيّ،
الإنسان الذي كان أوّل من فتح عينَيه وحدّق في الشمس
بأجفان ثابتة.
أجل، إنّهم لا يعرفونه، ولا يتطلّعون إلى أن يكونوا مثله.

دأبُهُم أن يكونوا مجهولين، يسيرون في موكب المجهول.
يتحمّلون الحزن، حزنهم،
ولا يجدون تعزيَةً في فرحك.
فقلبهم الموجَع لا يلتمس تعزية في كلماتك، ولا في الأغنية الطالعة من تلك الكلمات.
وألَمُهم، في بكمه وهلاميّته،
يجعل منهم مخلوقات موحودة لا تُفتقد.
ومع أنّهم محاطون بأهليهم وبني جنسهم،
فَهُم في عيشهم خائفون ولا رفاق؛
لكنّهم في حرصهم ألّا يكونوا وحدهم،
يعمدون إلى أن يميلوا شرقًا، إذا جاء من الغرب هبوب الرّيح.
يدعونك ملكًا،
ويبغون الحلول في بلاطك.
يعلنونك مسيحًا، ويُؤثِرون أن يُمسَحوا هم أنفسهم بالزيت المقدّس.
أجل، يريدون أن يحيوا على حساب حياتك.

يا سيّدي، أيّها المُنشد الأعظم،
كانت دموعك كالشتوات في نوّار،
وضحكاتك كموجات البحر الأبيض.
عندما كنت تتكلّم، كانت كلماتك الهمسات القصيّة لشفاههم،
عندما كان على هذه الشفاه أن تلهبها النار؛
كنت تضحك للنخاع في عظامهم الذي لم يكن بعدُ جاهزًا للضحك؛
وكنت تبكي من أجل عيونهم التي كانت بعدُ على جفاف.
صوتك كان الوالد الذي تعهّد أفكارهم ومداركهم.
صوتك كان الأمّ التي نشّأت كلماتهم وأنفاسهم.

سبع مرّات وُلِدتُ، وسبع مرّات عَرَفتُ الموت،
وها أنا أحيا من جديد فأراك،
المقاتل بين مقاتلين،
وشاعر الشعراء،
وملكًا فوق جميع الملوك،
إنسانًا نصف عارٍ مع رفاق دربك.
في كلّ يوم ينحني الأُسقف برأسه
كلّما تلفّظ باسمك.
وفي كلّ يوم يردّد الشحّاذون قولهم:
«كرمى ليسوع
ولو درهمًا لنبتاع خبزًا».
نحن ننده بعضنا إلى بعض،
لكنّا في الحقيقة إنّما ننده إليك،

كمدّ موج في ربيع اشتهائنا واحتياجنا،
وكجَزْر ذلك الموج إذ يدركنا الخريف.
ولكنّ اسمك على شفاهنا، أفي مدّ كنّا أم جَزْر،
أنت يا سيّد الرأفة غير المتناهية.

سيّدي، يا سيّد ساعاتنا الموحدة،
هنا وهناك ما بين المهد والكفن، ألتقي إخوانك الصامتين،
الرجال الأحرار الذين بلا أصفاد،
أبناء الأرض أمّك، والمدى.
الذين هم كطيور السماء،
وكزنابق الحقول.
يحيون حياتك ويفكّرون أفكارك،
ويُرجّعون صدى نشيدك.
لكنّهم مُفرغو الأيدي،
وليسوا مصلوبين الصَّلب الأعظم.
وفي ذلك تألّمهم.
العالم يصلبهم كلّ يوم،
ولكن بطرق كلّها بسيط.
فلا السماء تهتزّ،
ولا الأرض تعاني مخاضًا عن موتاها.
هم يُصلبون، وليس من أحد يشهد جلجلتهم.
يديرون وجههم يمينًا وشمالًا
ولا يصدفون ولو واحدًا يعدهم بمكان في مملكته.

لكنّهم مع ذلك يرتضون أن يُصلَبوا المرَّةَ بعد المرَّةَ
علّ إلهك يكون إلههم،
وأباك يكون أيضًا أباهم.

سيّدي، يا سيّد العاشقين،
الأميرة داخل مهجعها المعطّر في انتظار مجيئك،
وكذلك المرأة المتزوّجة من غير زواج، داخل قفصها؛
البغيّ الساعية إلى خبزها في شوارع خزيها،
والراهبة التي لا زوج لها، في محبستها؛
المرأة التي بلا أولاد، هي أيضًا في انتظارك على شبّاكها
حيث الصقيع يخطّط الغابة على لوح الزجاج،
هي تتبيّنك في ذلك المخطّط وتريد لو تتعهّدك بأمومتها وتتعزّى.

سيّدي، يا سيّد الشعراء،
يا سيّد رغائبنا الخرساء،
قلب العالم يختلج على إيقاع قلبك،
ولكنّه لا يواكب نشيدك فيشتعل.
العالم يجلس مصغيًا إلى صوتك ومسترخيًا في استمتاع،
لكنّه لا ينهض من مقعده
من أجل أن يتسلّق شاهقات جبالك.
للإنسان أن يحلم حلمك، لكنّه ليس فيه أن يستفيق على فجرك
الذي هو حلمه الأعظم.
له أن يُبصِر بإبصارك،
ولكنّه لن يُقدِم على جرّ أقدامه المتثاقلة إلى عرشك.

كثيرون مع ذلك هم الذين نُصّبوا باسمك
واستقووا بقوّتك،
وتحوّلوا بزيارتك الذهبيّة
إلى تيجان لرؤوسهم وصولجانات لأيديهم.

سيّدي، يا سيّد النور،
الذي تسكن عينه أصابع العميان المتلمّسة،
أنت ما تزال موضع هزء وازدراء،
إنسانًا أضعف وأعجز من أن يكون إلهًا،
وإلهًا أكثر تأنّسًا من أن يستثير التعبّد.
قدّاسهم وترنيمتهم،
سرّهم المقدّس، وسُبّحَتهم، هي من أجل ذاتهم السجينة.
أنت ذاتهم، ولكنْ ذاتهم التي ما زالت بعد ممتنعة؛ أنت نداؤهم الأبعد وشوقهم الذي بعد لم يتبَلْوَر.

لكن يا سيّدي، يا قلبًا سماويًّا ويا فارس الأجمل من أحلامنا،
أنت ما زلت رائد يوم نحن فيه؛
فلا السِّهام ولا الرماح قادرة على وقف خطاك.
أنت تخترق جميع سهامنا.
تبتسم لنا من عليائك،
وتظلّلنا، على الرّغم من أنّك الأصغر بيننا جميعًا،
برحيم أبوّتك.

يا شاعرًا، يا منشدًا ويا قلبًا عظيمًا،
فليبارك اسمَك الربّ إِلهنا،
والرحم التي حملتك، والثديَين اللّذين مدّاك باللبن.
وليغفر الله لنا جميعًا.

التائه

The Wanderer, 1932

التائه

التقيته عند تقاطع الطرقات، ولم يكن له إلّا عكّازه والبُرد الذي يرتديه، وكانت على وجهه سحابة من ألم. حيّيته وحيّاني وقلت له، «تعال إلى بيتي وكن ضيفي».

وأتى.

استقبلتنا زوجتي عند العتبة ومن حولها أولادي فابتسم هو لهم واغتبطوا هم بقدومه.

وجلسنا جميعنا معًا إلى المائدة وكنّا فرحين بهذا الإنسان، لِما كان فيه من لغز ومن سكون.

وبعد العشاء، تحلّقنا حول النار فسألته عن تجوالاته.

قصَّ علينا حكايا كثيرة تلك الليلة، وكثيرًا غيرها في اليوم التالي، والذي أدوّنه الآن هو وليد المرارة في أيّامه، على الرغم من أنّه هو نفسه كان رقيقًا. وهذه الحكايات هي بعض من مجالدات طريقه ومن غبارها.

وعندما غادرَنا بعد ثلاثة أيّام، لم نشعر أنّه كان ضيفًا ومضى. بل كأنّ واحدًا منّا ما يزال في الحديقة خارجًا ولمّا يدخل بعد.

ثياب

كان يوم التقى فيه القبح والحلاوة على الشاطئ فقال واحدهما للآخر، «تعال نستحمّ في البحر» وخلعا ثيابهما ونزلا في الماء.

وبعد فترة عاد القبح إلى الشاطئ فارتدى ثياب الحلاوة ومضى في سبيله.

وخرجت الحلاوة هي الأخرى من الماء فلم تجد ثيابها. وإذ خجلت من أن تظلّ عارية، ارتضت أن ترتدي ثياب القبح وأن تمضي في سبيلها.

وما زال الناس رجالًا ونساء حتّى هذا اليوم يخلطون بين واحدهما والآخر.

إلّا أنّ هناك أفرادًا رأوا وجه الحلاوة فعرفوها على الرغم من ثيابها، كما أنّ بينهم من يعرفون وجه القبح فلا تخفيه الملابس عن عيونهم.

النسر والقبّرة

التقى نسر وقبّرة على صخرة فوق تلّة عالية فقالت القبّرة، «أُسعدت صباحًا يا سيّدي»، فحدجها النسر بنظرة متعالية وأجاب بكلّ برودة، «صباح الخير».

وقالت القبّرة، «أرجو أن يكون كلّ شيء لديك يا سيّدي على ما يرام.»

«أجل»، قال النسر، «كلّ شيء عندنا بخير، ولكن ألا تعلمين أنّنا ملك الطيور، وأنّه لا يليق أن تتوجّهي إلينا بالكلام قبل أن نكون نحن قد أخذنا المبادرة؟»

فقالت القبّرة، «لكن في اعتقادي أنّنا من عائلة واحدة». والتفت النّسر إليها بازدراء قائلًا، «من ذا الذي قال يومًا إنّا نحن وأنت ننتمي إلى عائلة واحدة؟».

«ولكن»، قالت القبّرة، «دعني أُذكّرك بشيء وهو أنّي أستطيع التحليق على قدر ما تستطيعه أنت، كما أنّ باستطاعتي أن أغنّي وأمنح البهجة لسواي من الكائنات الأخرى على الأرض، في حين أنّك أنت لا تمنح لذّة ولا بهجة.»

عندها استشاط النسر غيظًا وقال، «لذّة وبهجة! أنتِ أيّتها المخلوقة المدّعية! ضربة واحدة من منقاري، وتصبحين هباء. بحجم قدمي أنت، كلّك مجتمعة».

عندها طارت القبّرة. فحطّت على ظهر النسر وبدأت تُعمل منقارها في ريشه. فانزعج النسر وأقلع سريعًا وعاليًا كي يتخلّص من الطائر الزهيد. إلّا أنّه لم ينجح في ذلك. فكان أن عاد وحطّ من جديد على الصخرة عينها فوق التلّة المرتفعة، الغضب يتأكّله والمخلوق الحقير باق على ظهره، وهو يلعن الحال وساعتها.

وحدث في تلك اللحظة أنّ سلحفاة كانت مارّة في طريقها فأضحكها المنظر وأضحكها إلى حدّ أن كادت تستلقي على ظهرها.

وحدج النسر السلحفاة بنظرة متعالية قائلًا، «وأنتِ أيّتها البطيئة الزاحفة، اللصيقة أبدًا بالتراب، ما الذي يُضحكُكِ؟».

وقالت السلحفاة، «عجبًا! أراك قد استحلت حصانًا، وأنّ عندك طائرًا صغيرًا يعتليك، والصغير فيكما هو الطائر الأجود.»

وأجابها النسر، «لكِ شأنك فانصرفي إليه. أمّا هذه فمسألة عائليّة بيني وبين أختي القبّرة.»

أُغنية الحبّ

كتب شاعر مرّة أغنية حبّ. وكانت الأغنية جميلة. فاستنسَخ عنها عددًا من النسخ أرسلها إلى أصدقائه ومعارفه رجالًا ونساء، وحتّى إلى فتاة شابّة تسكن وراء الجبال، لم يكن قد التقاها سوى مرّة واحدة.

وخلال يوم أو يومين أتاه موفد من الفتاة الشابّة يحمل إليه رسالة تقول فيها، «دعني أؤكّد لك أنّ قصيدة الحبّ التي كتبتها لي قد حرّكت أعماقي. تعال الآن، وكلّم أبي وأمّي فنباشر التحضير للزّفاف.»

وأجابها الشاعر على رسالتها فقال، «تلك كانت يا صديقتي مجرّد أغنية حبّ صادرة عن قلب شاعر، يغنّيها مطلق رجل لمطلق امرأة».

وكتبت إليه ثانية قائلة، «أيّها الدجّال المخادع في الكلام. إنّني من يومي هذا وحتّى الكفن سأكره بسببك جميع الشعراء.»

دموع وضحك

إلتقى ضبعٌ تمساحًا على شاطئ النيل عند المساء، فتوقّفا يتبادلان التحيّة.

وتكلّم الضبع قائلًا، «كيف كان نهارك يا سيّدي؟»

وأجاب التمساح فقال، «لقد كان سيّئًا. ذلك أنّي كثيرًا ما أنوح ألمًا وحزنًا فإذا بهم يقولون، «ما هذه سوى دموع تمساح». وهذا ما يحزّ في نفسي إلى أقصى الحدود.»

فردّ الضبع قائلًا، «أنت تتكلّم على ألمك وحزنك. ألا تفكّرت فيّ أنا أيضًا ولو للحظة، كيف أنّي إذ أُجيل الطرف في جمال هذا الوجود وفي عجائبه ومعجزاته، أضحك في حبور خالص تمامًا كما يضحك النهار. إلّا أنّهم في عالم الأدغال يقولون، «ما هذه سوى ضحكة ضبع».»

في السوق

أقبلت إلى السوق من الريف فتاة في منتهى الحسن. في وجهها سوسنة ووردة، وفي شعرها مغيب، وعلى شفتيها فجر يتبسّم.

ما كادت هذه الحلوة الغريبة تلوح لأنظار الشبّان حتّى شدّوا إليها وتحلّقوا حولها. هذا يرغب في مراقصتها وذاك يقطع الحلوى على شرفها، وكلّهم يتمنّون لو يحظون بقبلة من خدّها. ثمّ، أليس أنّه السوق؟

إلّا أنّ ذلك صدم الفتاة وأجفلها، وظنّت بالشبّان من حولها سوءًا، فعنّفتهم وذهبت إلى حدّ أن صفعت واحدًا منهم أو اثنين، وانتحت متولّية عنهم.

وفي طريقها إلى البيت ذلك المساء كانت تقول في سرّها، «أشعر بالتقزّز. هؤلاء الرجال كم أنّهم عديمو اللّياقة والتهذيب. إنّه لأمر فوق أن يُطاق».

ومرّ عام كانت هذه الفتاة الحسناء عينها قد تفكّرت كثيرًا في الأسواق وفي الرجال. وحدث أن جاءت ثانية إلى السوق، السوسنة والوردة في خدّها والمغيب في شعرها وعلى شفتيها فجر يبتسم.

لكنّ الشبّان ما أن عاينوها حتّى انصرفوا عنها، فظلّت طوال النهار مهملة ووحيدة.

وعند المساء فيما كانت تسير في طريقها إلى البيت، صرخت في أعماقها، «أشعر بالتقزّز، هؤلاء الشبّان كم أنّهم عديمو اللياقة والتهذيب. إنّه لأمر فوق أن يُطاق».

الأميرتان

كان في مدينة شواكس أمير محبّب من الجميع، رجالًا ونساء وأولادًا. حتّى الحيوانات في الحقول كانت تُقبِل عليه بالترحاب.

إلّا أنّ الناس جميعًا كانوا يقولون إنّ زوجته الأميرة لم تكن تحبّه، بل إنّها كانت تكرهه.

وكان أنّ أميرة المدينة المجاورة أتت ذات يوم لزيارة أميرة شواكس، فجلستا تتحدّثان معًا، وجرّ الحديث إلى الكلام عن زوجيهما.

فقالت أميرة شواكس بانفعال، «إنّي أحسدك على سعادتك مع زوجك الأمير، على الرغم من هذه السنين العديدة التي مرّت على زواجكما. فأنا أكره زوجي. ذلك أنّه لا يخصّني أنا وحدي. فأنا حقًّا امرأة في منتهى التعاسة.»

وأطالت الأميرة الزائرة النظر فيها ثمّ قالت، «الحقيقة يا صديقتي إنّك تحبّين زوجك، بل إنّك ما زلت تنطوين على شوق إليه غير مستهلك، هو للمرأة حياة كما الربيع نسبة إلى الحديقة. فأشفقي أنت عليّ وعلى زوجي، ذلك أنّنا فقط نتحمّل واحدنا الآخر بصبر جلود. لكنّك وغيرك مع ذلك، تعتبرون هذا سعادة».

ومضة البرق

كان أسقف مسيحيّ ذات يوم عاصف في كاتدرائيّته عندما جاءت امرأة غير مسيحيّة فمثلت بين يديه وقالت، «إنّي لست مسيحيّة فهل لي خلاص من نار جهنّم».

ونظر الأسقف إلى المرأة ثمّ أجابها قائلًا، «كلّا، ما من خلاص إلّا للّذين تعمّدوا بالماء وبالروح القدس».

وما كاد يُتمّ كلامه حتّى سقطت من السماء صاعقة مدوّية على الكاتدرائيّة فامتلأت نارًا.

وأتى رجال المدينة راكضين فخلّصوا المرأة. أمّا الأسقف، فذهب طعمًا للنار.

الناسك والبهائم

حدث أنّ ناسكًا كان يعيش بين التلال الخضراء، وكان تقيّ الروح، نظيف القلب حتّى أنّ جميع حيوانات البرّ وطيور الجوّ كانوا يأتونه أزواجًا فيكلّمهم. كانوا يستمعون إليه بسرور ويتحلّقون حوله فلا يغادرون حتّى حلول الظلام عندما كان يصرفهم موكلًا أمرهم مع تبريكاته للرّيح وللغابات.

وذات مساء وفيما كان الناسك يتكلّم في الحبّ، رفعت نمرة رأسها وقالت له: «إنّك تحدّثنا عن التحابب. هلّا قلت لنا يا سيّدي، أين رفيقتك؟»

وأجابها الناسك، «ليس لي رفيقة.»

عندها تصاعدت من جماعة الطيور والبهائم صيحة استهجان وبدأوا يقولون فيما بينهم، «كيف له أن يحدّثنا عن التحابب والتزاوج في حين أنّه هو لا يعرف شيئًا عنهما؟». ثمّ انسحبوا بازدراء تاركينه وحيدًا.

ونام الناسك تلك الليلة على وجهه فوق حصيره وهو ينتحب بمرارة ويضرب على صدره بكلتَي يديه.

النبيّ والطفل

التقى النبيّ شاريا ذات يوم طفلًا في حديقة. فركض الطّفل إليه قائلًا، «عم صباحًا يا سيّدي».

وردّ النبيّ، «عم صباحًا يا سيّدي»، ثمّ أضاف بعد هنيهة، «أراك وحيدًا.»

وردّ الطفل ضاحكًا ومبتهجًا، «إستغرقني كثيرًا أن تخلّصت من مرضعتي، فهي تتوهّم أنّني وراء السياجات هناك، ولكن ألست ترى أنّي هنا؟». ثمّ حدّق مليًّا في وجه النبيّ وأضاف، «أنت أيضًا وحدك. ماذا فعلت بمرضعتك؟»

وأجاب النبيّ قائلًا، «مهلًا! الأمر هنا مختلف. فالحقيقة أنّني غالبًا ما لا أتمكّن من تضليلها. إلّا أنّها إذ جئت إلى هذه الحديقة كانت تبحث عنّي خلف السياجات.»

وصفّق الطفل بيديه صائحًا، «إذًا أنت مفقود مثلي! أليس رائعًا أن تكون مفقودًا؟» ثمّ أضاف، «من أنت؟»

وأجاب الرّجل، «إنّهم يدعونني النبيّ شاريا. لكن قل لي، من أنت؟»

«أنا فقط نفسي»، قال الطفل، «ومرضعتي جادّة في طلبي، إلّا أنّها لا تعرف أين أنا.»

عندها سرح النبيّ بناظريه في المدى قائلًا، «وأنا أيضًا قد هربت من مرضعتي لبعض الوقت. إلّا أنّها ستجدني.»

وقال الطفل، «أعرف أنّ مرضعتي هي الأخرى ستجدني.»

في تلك اللحظة سُمع صوت امرأة تنده على الطفل باسمه فعلّق قائلًا، «أرأيت؟ قلت لك إنّها ستجدني.»

وفي اللحظة عينها سُمع صوت آخر يقول، «شاريا! أين أنت؟»

فقال النبيّ، «أرأيت يا بنيّ، إنّهم هم أيضًا قد عرفوا مكاني.»

وأجاب شاريا رافعًا وجهه إلى فوق، «ها أنا ذا.»

اللؤلؤة

قالت صدفةٌ لصدفة مجاورة، «ينتابني في داخلي وجع رهيب، أُحسُّه ثقيلًا ومستديرًا. وإنّي في اضطراب.»

وأجابتها الصّدفة الأخـرى بغطرسة المغتبط بنفسه، «الحمد للسّماوات وللبحر، فأنا لا وجع عندي بل أشعر بالصحّة وتمام العافية، في الداخل كما في الخارج.»

وفي هذه الأثناء كان سرطانٌ مارًّا بالقرب من الصدفتين فسمعهما وقال للّتي تشعر بالصحّة وتمام العافية في الداخل كما في الخارج، «أجل، أنت سليمة معافاة، إلّا أنّ الألم الذي تعانيه جارتك هو لؤلؤة فائقة الجمال.»

جسدًا وروحًا

جلس رجل وامرأة إلى نافذة تطلّ على الربيع. كانا يجلسان متجاورين الواحد لصق الآخر. وقالت المرأة، «إنّي أحبُّك، فأنت وسيم، وأنت ثريّ، وأنت دائمًا أنيق.»

وقال الرّجل، «إنّي أحبّك. فأنت خاطرة جميلة أبعد من مطال اليد، أنت أنشودة في أحلامي.»

إلّا أنّ المرأة أعرضت عنه مغضبة وقالت، «إليك عنّي الآن يا سيّدي، أرجوك، فأنا لست خاطرة ولا أنا شيء يمرّ في أحلامك. بل أنا امرأة كنت أودّك أن تشتهيني زوجة وأمًّا لأولاد يأتون».

وكان أنّهما افترقا.

أما الرّجل فكان يقول في سرّه، «ها إنّ حلمًا آخر يتحوّل لتوّه إلى ضباب.»

وأمّا المرأة فكانت تقول، «عجبًا، أيّ رجل هو هذا الذي يتحوّل بي إلى حلم وإلى ضباب؟»

الملك

أحاط أهالي مملكة صادق بقصر مليكهم وهم يصيحون في ثورة عليه. فهبط الملك درجات القصر حاملًا تاجه في يد وصولجانه باليد الأخرى. وسكتت الجماهير بفعل جلال هيبته فوقف أمامهم وقال، «يا أصدقائي الذين ليسوا بعد اليوم رعاياي، ها إنّي أُسلّمكم تاجي وصولجاني طلبًا لأن أغدو واحدًا منكم. ما أنا غير فرد، وكفرد سأعمل بالتعاون معكم في سبيل أن تتحسّن حالنا. ما من حاجة إلى مليك. فلنذهب إذن إلى الحقول والكروم ونعمل يدًا بيد. عليكم فقط أن ترشدوني إلى الحقل أو الكرم الذي عليّ أن أتوجّه إليه. فالآن أنتم جميعًا الملك.»

وأخذ الناس العجب، وغشيهم السكوت. ذلك أنّ الملك الذي كانوا يعتبرونه مصدر استيائهم قد سلّم إليهم تاجه وصولجانه وأصبح واحدًا منهم.

وتفرّقوا جميعًا كلّ في طريقه، وسار الملك برفقة أحدهم إلى حقل من الحقول.

إلّا أنّ مملكة صادق لم يحسن حالها بذهاب الملك، وظلّ ضباب الإستياء يخيّم على البلاد. فراح الناس يصيحون في السّاحات مطالبين

بحكم يخضعون له وبملك يتولّى شؤونهم. وجاء كلامهم شيوخًا وأحداثًا وكأن بصوت واحد، «لا بدّ أن يكون لنا ملكنا».

وذهبوا في إثر الملك فوجدوه مكبًّا على العمل في الحقل. فأتوا به إلى كرسيّه وردّوا إليه تاجه وصولجانه قائلين، «تولّ الآن حكمنا بالبأس وبالعدل».

وقال الملك، «إنّني قطعًا سأحكمكم بالبأس، وعسى أن يساعدني الآلهة في السماوات وعلى الأرض على أن يجيء حكمي أيضًا عادلًا.»

وحدث أنّ رجالًا ونساءً مثلوا بين يديه وكلّموه في نبيل يسيء معاملتهم ويعتبرهم أقنانًا. وللحال استقدم الملك النبيل إليه وقال، «لا زنة لحياة إنسانٍ في ميزان اللّه أكبر من أخرى. وبما أنّك لا تعرف كيف تزن حيوات أولئك الذين يعملون في حقولك وكرومك، فأنت منفيّ وعليك أن تغادر هذه المملكة إلى الأبد».

وفي اليوم التالي أتت جماعة أخرى إلى الملك، وتكلّمت على فظاظة إحدى الأميرات في ما وراء التلال وكيف أنّها قد انتهت بهم إلى البؤس. وعلى الفور أُحضرت الأميرة إلى القضاء فأصدر الملك الحكم عليها أيضًا بالنفي قائلًا، «إنّ أولئك الذين يحرثون حقولنا ويتعهّدون كرومنا هم أنبل منّا نحن الذين يأكلون الخبز الذي يخبزون، ويشربون الخمر الذي يعتصرون. وبما أنّك لا تفهمين ذلك، فعليك أن تغادري هذه الأرض وتبقي قصيّة عن هذه المملكة».

وأقبل رجال ونساء يقولون إنّ الأسقف يكلّفهم جلب الحجارة وتقطيعها من أجل الكاتدرائيّة ولا يدفع لهم شيئًا، مع العلم أنّ خزنة الأسقف مليئة بالذهب والفضّة في حين أنّهم هم يتضوّرون من الجوع.

وأرسل الملك في طلب الأسقف، حتّى إذا حضر خاطبه الملك قائلًا، «هذا الصليب الذي تحمله على صدرك ينبغي أن يرمز إلى بذل

الحياة من أجل الحياة. لكنّك أنت قد أخذت من الحياة حياة ولم تُعطِ شيئًا. لذلك عليك أن تغادر هذه المملكة إلى غير رجعة».

وهكذا كلّ يوم وعلى امتداد هلال كامل، كان الرجال والنساء يأتون إلى الملك ليخبروه عن الأثقال التي يرزحون تحتها. وفي كلّ يوم، نهارًا بعد نهار طوال هلال كامل كان متسلّط أو آخر يُطرد من البلاد.

وكان الأهلون في مملكة صادق يأخذهم الذهول وتملأ البهجة قلوبهم.

وذات يوم جاؤوا، شيوخًا وفتيانًا، فأحاطوا ببرج الملك ونادوا عليه. فنزل إليهم حاملًا تاجه بيد وصولجانه في اليد الأخرى. وكلّمهم قائلًا، «والآن، ماذا تريدون منّي. ها إنّي أُعيد إليكم ما رغبتم إليّ في استبقائه.»

إلّا أنّهم صاحوا قائلين، «كلّا، كلّا. أنت مليكنا الشرعيّ. لقد رددت أرض الثعابين نظيفة وأحلت الذئاب إلى هباء. وإنّنا آتون لنرتّل لك آيات الشكران. التّاج تاجك في الجلال والصولجان صولجانك في المجد.»

فقال الملك، «ما ذاك بفضلي، ما ذاك بفضلي. المَلِكُ هو أنتم أنفسكم. عندما حسبتموني ضعيفًا ومخلًّا بالحكم، كنتم أنتم أنفسكم ضعفاء ومخلّين بالحكم. والآن، البلاد ناشطة لأنّ ذلك كامن في صُلب إرادتكم. ما أنا إلّا مجرّد فكرة في مجمّع أذهانكم، فلا وجود لي إلّا فيما تقومون به أنتم من أعمال.

ليس ثمّة شخص هو الحاكم. هناك فقط المحكومون الذين يوجدون من أجل أن يحكموا أنفسهم.»

وقفل الملك راجعًا بتاجه وصولجانه إلى برجه. أمّا الجماعة، شيبًا وشبّانًا، فتفرّقوا كلّ في طريقه، وكانوا مطمئنّين.

وكان كلّ فرد فيهم يحسّ في قرارة نفسه أنّه ملك يحمل في إحدى يديه تاجًا وفي الأخرى صولجانًا.

على الرمال

قال رجل لآخر، «كان البحر في أعلى مدّه عندما، من زمان، كتبت بطرف عصاي سطرًا على الرّمال، وما زال الناس حتّى اليوم يتوقّفون لقراءته ويحرصون على ألّا يأتيه شيء فيمحوه؟

وقال الرجل الآخر، «وأنا أيضًا كتبت سطرًا على الرّمال، إلّا أنّ البحر كان في جزره فلم تلبث أمواجه المترامية أن أتت فجرفته. لكن قل لي، ماذا كتبت؟»

وأجاب الرجل الأوّل قائلًا، «هذا ما كتبت: «أنا هو الذي هو»، وأنت ماذا كتبت؟»

وقال الرجل الآخر، كتبت هذا: «ما أنا غير قطرة من هذا المحيط الأعظم».»

الهدايا الثلاث

حدث أن كان في مدينة بشرّي أمير كريم عادل، وكان محبوبًا ومحترمًا من كافّة رعاياه.

إلّا أنّ فقيرًا معدمًا بينهم كان يحقد على الأمير ويطيل لسانه المسموم باستمرار في ذمّه.

كان الأمير يعرف ذلك ويصبر عليه.

إلّا أنّه أخيرًا أعمل فكره في الرّجل، فأوفد إلى بابه ذات ليلة ماطرة أحد خدمه حاملًا كيسًا من الطّحين، وجعبة من الصّابون وكوزًا من السكّر.

وقال له الخادم، «يرسل الأمير إليك هذه الهدايا عربون استذكار.»

وتاه الرجل فرحًا، ظنًّا منه أنّ الهدايا علامة ولاء له من الأمير. فذهب يحدوه الغرور إلى الأسقف وأخبره بما كان من الأمير قائلًا، «ألا ترى كيف أنّ الأمير يتوسّل مراضاتي؟»

لكنّ الأسقف قال: «عجيب كم أنّ الأمير كثير الحكمة وكم أنّك قليل الفهم. إنّه يخاطبك بالرّموز. أمّا الطحين فلمعدتك الخاوية، وأمّا الصابون فلجلدك القذر، وأمّا السّكر فلتحلية لسانك المرّ.»

ومن ذلك الحين فصاعدًا اعترى الرجل خجل حتّى من نفسه. فتفاقمت كراهيته للأمير أكثر من أيّ يوم مضى، وكره أكثر من ذلك، الأسقف الذي كشف له حقيقة الأمير.

إلّا أنّه من بعد ذلك لزم السكوت.

السِّلم والحرب

كان ثلاثة كلاب يتحدّثون فيما هم مستسلمون للشمس.

فقال الأوّل حالمًا، «كم هو رائع حقًّا أنّنا نحيا في عصر الكلبنة هذا. تأمّلوا اليسر الذي به نسافر تحت البحر وفي البرّ وحتّى في الجوّ. تفكّروا ولو للحظة في الإختراعات التي طُوّرت من أجل راحة الكلاب، بل حتّى من أجل عيوننا وآذاننا وأنوفنا.»

وتكلّم الكلب الثاني فقال، «نحن اليوم أكثر تنبّهًا للفنون. إنّنا ننبح على القمر بإيقاع أفضل ممّا كان يراعيه أجدادنا. وعندما نتأمّل أنفسنا في الماء نرى أنّ قسماتنا أوضح ممّا كانت في الأيّام الخوالي.»

وتكلّم الكلب الثالث قائلًا، «إنّ أكثر ما يبهجني ويفتن لبّي هو هذا التفاهم الهادئ الذي يسود العلاقات الكلابيّة.»

والتفتوا في تلك اللحظة بالذات، فإذا المكلّف التقاط الكلاب السّائبة يقترب.

وقفز الكلاب الثلاثة وانسلّوا نزولًا في الشارع. وفيما كانوا يركضون قال الكلب الثالث، «أسرعوا بحقّ اللّه وانجوا بحياتكم، فالمدنيّة في أعقابنا.»

الراقصة

أتت أمير برقاشة مرّة راقصة يرافقها موسيقيّوها. فأُدخلت البلاط ورقصت في حضرة الأمير على أنغام العود والناي والقانون.

رقصت رقصة اللّهب ورقصة السّيوف والحراب؛ رقصت رقصة النجوم ورقصة المدى. ورقصت أخيرًا رقصة الأزاهر في الرّيح.

ووقفت بعد ذلك قـدّام عرش الأمير وانحنت بجسدها أمامه. فأشار إليها الأمير بأن تقترب وقال لها، «أيّتها المرأة الجميلة، يا ابنة الرشاقة والبهجة، أنّى لك فنّك. وكيف لك هذا التحكّم بكلّ العناصر في إيقاعاتك؟»

وانحنت الراقصة ثانية أمام الأمير وأجابت، «أيّها الأمير الكريم الجبّار، أنا لا أملك جوابًا على تساؤلاتك. أعرف فقط هذا:

نفس الفيلسوف تسكن رأسه، ونفس الشاعر قلبه، ونفس المغنّي تراوح ناحية حلقه، أمّا نفس الراقصة فتستوطن جسدها بجمعه.»

الملاكان الحارسان

التقى ملاكان في إحدى الأماسي عند باب المدينة، فحيّا واحدهما الآخر وراحا يتحدّثان.

وقال أحد الملاكين، «ماذا تعمل هذه الأيّام، وما المهمّة الموكلة إليك؟»

فأجابه الآخر، «لقد أوكل إليّ أن أكون الملاك الحارس لرجل ساقط يسكن نزولًا في الوادي. إنّه آثم كبير ومنحطّ إلى أقصى الحدود. دعني أؤكّد لك أنّها مهمّة خطيرة وأنّي أعمل بجهد.»

قال الملاك الثاني، «هذه مهمّة بسيطة. فأنا كثيرًا ما عرفت خطأة، وعملت حارسهم غير مرّة. لكنّ ما أنا مكلّف به الآن، هو أن أكون حارس ذلك القدّيس الطيّب الذي يسكن هناك بعيدًا في كوخ. وإنّي أؤكّد لك أنّها مهمّة في منتهى الصعوبة وغاية في الدقّة.»

وقال الملاك الأوّل، «هذا مجرّد إدّعاء. إذ كيف لحراسة قدّيس أن تكون أصعب من حراسة آثم؟»

فأجابه الآخر، «كيف تجرؤ أن تسمّيني مدّعيًا. فأنا لم أقل إلّا الحقيقة. إن يكن من مدّع في اعتقادي فهو أنت!؟

وراح الملاكان يختصمان ويقتتلان، بالكلام أوّلًا وبالقبضات والأجنحة بعد ذلك.

وفيما كانا يتعاركان مرّ أحد رؤساء الملائكة، فباعد بينهما قائلًا، «لماذا تقتتلان، وما القضيّة؟ ألا تعرفان أنّه لا يليق البتّة بالملائكة الحرّاس أن يختصموا عند باب المدينة؟ أخبراني ما موضوع الخلاف؟»

وتكلّم الملاكان كلاهما في وقت معًا، كلّ يزعم أنّ ما أوكل إليه هو العمل الأصعب وأنّه هو الجدير بالإعتبار الأهمّ.

وهزّ رئيس الملائكة رأسه متفكّرًا في سرّه ثم قال، «لا أستطيع الآن، يا صاحبيّ، أن أحكم في أيّ منكما هو الأجدر بالشرف والمكافأة ولكن، استنادًا إلى السلطة المعطاة لي، وخدمة للسلام وحسن الحراسة، فإنّي أنقل مهمّة الواحد منكما إلى الآخر، طالما أنّ كلًّا منكما مصرّ على أنّ مأموريّة صاحبه هي الأسهل. فانصرفا الآن واطمئنّا إلى عمليكما.»

وحال تلقّى الملاكان الأمر ذهب كلّ في طريقه. إلّا أنّ كلًّا منهما التفت وراءه إلى رئيس الملائكة بغضب مضاعف قائلًا في سرّه، «تبًّا لرؤساء الملائكة هؤلاء، فهم في كلّ يوم يجعلون حياتنا نحن الملائكة أكثر فأكثر شقاء.»

إلّا أنّ رئيس الملائكة لبث واقفًا. وبعد أن تفكّر ثانية بينه وبين نفسه، قال في سرّه، «لا مناص من أن نبقى متيقّظين وأن نواصل الحراسة على ملائكتنا الحارسين.»

التمثال

حدث أن كان عند رجل يسكن بين التلال، تمثال من صنع أحد المثّالين القدماء. كان التمثال ملقى عند باب الرجل ووجهه إلى أسفل من غير أن يكون في ذلك ما يثير اهتمامه.

وذات يوم مرّ ببيته رجل من المدينة، رجل ذو معرفة. وإذ رأى التمثال سأل صاحبه ما إذا كان يبيعه.

وضحك المالك قائلًا: «من تراه يرغب، باللّه عليك، في شراء ذاك الحجر التّافه المتّسخ؟»

وقال الرجل الذي من المدينة، «أعطيك فيه قطعة الفضّة هذه.»

دهش الرجل الآخر لذلك وكان شاكرًا.

ونُقل التمثال إلى المدينة على ظهر أحد الفيلة. وبعد عدد من الأهلّة جاء رجل التلال المدينة زائرًا، وفيما كان يجوب الشوارع، رأى الناس متجمهرين أمام أحد الحوانيت، وسمع أحدهم يصيح عاليًا، «هلمّوا ادخلوا وتأمّلوا أجمل تمثال وأروعه في العالم. فقط قطعتان من الفضّة لقاء إلقاء نظرة على هذا العمل الفذّ من إزميل أستاذ.»

واستجاب الرجل المقبل من التلال، فدفع قطعتين من الفضّة ودخل الحانوت ليرى التمثال الذي كان هو نفسه قد باعه بقطعة واحدة.

المبادلة

التقى مرّة عند تقاطع الطرقات، شاعر فقير وغنيّ غبيّ وتبادلا الحديث. والذي قالاه لم يكن في مجمله سوى تعبير عن استيائهما.

ومرّ بهما ملاك الطريق، فوضع يده على كتف كلّ منهما، وإذا بمعجزة تحصل: تبادل الرجلان لتوّهما الحظوظ.

وكان أن افترقا. إلّا أنّ الغريب في الأمر، هو أنّ الشاعر تطلّع في يده فلم يبصر سوى رمال جافّة متحرّكة، وأنّ الغبيّ أغمض عينيه فلم يشعر بسوى غيم يتحرّك في قلبه.

حبّ وكره

قالت امرأة لرجل، «إنّي أحبّك.» فقال الرجل، «منى قلبي أن أكون أهلًا لحبّك.»

وقالت المرأة، «إنّك لا تحبّني؟» فاكتفى الرجل بالتطلّع إليها ولم يقل شيئًا.

وصرخت المرأة عاليًا، «إنّي أكرهك.» فقال الرجل، «إذن منى قلبي ايضًا أن أكون أهلًا لكرهك.»

أحلام

حلم رجل حلمًا، وعندما أفاق ذهب إلى عرّافِه وتمنّى عليه أن يفسّر له حلمه.

وقال العرّاف للرجل، «تعال إليّ بالأحلام التي تراها في يقظتك فأفسّر لك معناها. أمّا أحلام منامك فهي لا تمتّ إلى حكمتي ولا إلى تصوّراتك.»

المجنون

كان ذلك في حديقة مارستان عندما التقيت شابًّا ذا وجه شاحب وحلو وبالغ الإثارة.

جلست إلى جانبه على المقعد وقلت، «لماذا أنت هنا؟»

وتطلّع إليّ باستغراب قائلًا، «إنّه سؤال نشاز، لكنّي مع ذلك سأجيبك. طموح أبي أن يجعل منّي نسخة مطابقة عن نفسه. ويصحّ ذلك أيضًا في عمّي. وتريدني أمّي صورة عن والدها اللّامع. أمّا شقيقتي فترفع لي زوجها البحّار كمثل أعلى أحتذيه. ويرى أخي أنّ عليّ أن أكون مثله بطلًا رياضيًّا.

«وأساتذتي أيضًا، الدكتور في الفلسفة، ومدرّس الموسيقى وأستاذ المنطق، هم أيضًا كانوا حازمين، كلّ يريدني انعكاسًا لوجهه كما في مرآة.

«فكان أن جئت إلى هذا المكان. فأنا أجده أقرب إلى العقل. على الأقلّ أستطيع فيه أن أكون أنا نفسي.»

وفجأة استدار نحوي قائلًا، «لكن قل لي، هل دُفعت أنت أيضًا إلى هذا المكان بفعل التربية والنّصح الرشيد؟»

فأجبته، «كلّا، أنا مجرّد زائر.»

فقال، «فهمت، أنت من أولئك الذين يقيمون في المارستان الذي إلى الجهة الأخرى من الجدار.»

الضفادع

قال ضفدع لرفيقه ذات يوم صيفي، «أخشى أن يكون المقيمون في البيت هناك عند الشاطئ منزعجين من أغانينا الليليّة.»

فأجاب رفيقه قائلًا، «ولكن، أليس أنّهم في تخاطبهم يكدّرون سكوتنا أثناء النهار؟»

وقال الضفدع، «وعلينا نحن ألّا ننسى أنّنا قد نكون مكثرين في غنائنا ليلًا.»

وأجابه رفيقه، «ولنتذكّر أنّهم هم يكثرون الثرثرة والصّياح أثناء النهار.»

وقال الضفدع، «ماذا عن الضّفدع الفحل الذي يقلق الجوار كلّه بدويّ صوته المنكر؟»

فأجابه رفيقه، «أجل، ولكن ما قولك بالسياسيّ والكاهن والعالم الذين يؤمّون هذه الشواطئ ويشحنون الفضاء بجلبة أصوات نشاز؟»

فقال الضفدع، «حسنًا، ولكن دعنا نكون أفضل من هذه المخلوقات البشريّة. دعنا نكون هادئين ليلًا فنُبقي أناشيدنا في قلوبنا حتّى وإن طالب بإيقاعاتنا القمر واشتاقت لقوافينا النجوم. دعنا على الأقلّ نبقى صامتين لليلة أو ليلتين أو حتّى لليلات ثلاث.»

وقال رفيقه، «حسن جـدًّا. أنا موافق. ولنر ما ستعود به علينا أريَحيَّة قلبك.»

ولاذ الضفادع تلك الليلة بالصمت، كما سكتوا في الليلة التي تلتها. وأيضًا في الليلة الثالثة.

لكنّ الغريب في القصّة، أنّ المرأة الثرثارة التي كانت تسكن البيت قرب البحيرة، نزلت في ذلك اليوم الثالث إلى فطورها ونادت على زوجها قائلة، «لم يأتني نوم خلال هذه الليالي الثلاث. كان النوم يأتيني أكيدًا على جلبة الضفادع في أذنيّ.

لقد طرأ طارئ لا بدّ. ثلاث ليال وهم لا ينقّون، وأنا أكاد أجنّ من الأرق.»

وسمع الضفدع ذلك فتحوّل إلى رفيقه وهو يغمز بعينه قائلًا، «ونحن كدنا نجنّ من السكوت. أليس كذلك؟»

فأجابه رفيقه، «أجل، كان سكون الليل ثقيلًا علينا، ولست أرى ضرورة لان نوقف غناءنا من أجل راحة أولئك الذين هم بحاجة أبدًا إلى أن يملأوا فراغهم بالضجيج.

وفي تلك الليلة طالب القمر بإيقاعاتهم فلم يذهب مطلبه عبثًا، ولا ذهب عبثًا من أجل قوافيهم مطلب النجوم.

الشرائع والإشتراع

كان في سالف الأزمان ملك عظيم، وكان حكيمًا. فشاء أن يضع لرعيّته شريعة.

فاستدعى ألف رجل حكيم موزّعين على ألفٍ من القبائل المختلفة، ليمثلوا إلى مبنى الأمّة ويسنّوا الشرائع.

وكان له ما أراد.

ولكن ما أن جيء بالقوانين الألف المكتوبة على الرّق إلى الملك وقرأها، حتّى بكى في نفسه بمرارة. ذلك أنّه لم يكن يدري بوجود ألف صنف من الجريمة في مملكته.

فاستدعى كاتبه والإبتسامة على فمه وأملى عليه هو بنفسه شريعة. واقتصر ما أملاه على سبعة قوانين.

وكان من الحكماء الألف أن غادروه غاضبين وعادوا بما كانوا قد سنّوه إلى قبائلهم، فسارت كلّ قبيلة على شريعة حكمائها.

وهكذا كان لهم من حينه حتّى يومنا هذا، ألف شريعة.

إنّها لبلاد عظيمة، إلّا أنّ فيها ألف سجن، والسجون مليئة برجال ونساء أخلّوا بألف شريعة.

فعلًا هي بلاد عظيمة، إلّا أنّ أناسها هم أحفاد لألف مشترع ولملك حكيم واحد فقط.

البارحة واليوم وغدًا

قلت لصديقي، «أترى كيف إنّها حانية على ذراع ذلك الرجل، البارحة لا أبعد كانت حانية بالطريقة نفسها على ذراعي.»

قال صديقي، «وإنّها في الغد ستحنو على ذراعي.»

قلت، «أنظر إليها جالسة قريبًا إلى جنبه. أمس لا أبعد كانت جالسة قريبًا إلى جنبي.»

فأجاب، «وهي غدًا ستجلس إلى جنبي.»

قلت، «أنظر، إنّها تشرب الخمر من كأسه، في حين أنّها البارحة كانت تشرب من كأسي.»

فأجاب، «وغدًا من كأسي.»

فقلت، «أنظر كيف ترنو إليه بشغف، وبعينين مستسلمتين، والبارحة كانت هكذا تنظر إليّ.»

وقال صديقي، «وإنّها إليّ غدًا سترنو.»

قلت، «ألا تسمعها الآن كيف تهمس في أذنيه ألحان الهوى؟ فقط البارحة كانت تهمس هذه الأغنيات عينها في أذني.»

وقال صديقي، «وغدًا ستهمسها في أذني.»

قلت، «ألست ترى، أنّها تعانقه، وكانت فقط أمس تعانقني؟»

وقال صديقي، «وستعانقني أنا في الغد.»

فقلت، «يا لها من امرأة غريبة.»

فأجاب، «إنّها كالحياة مملوكة من كلّ الرجال، وهي كالموت قاهرة كلّ الرجال، وهي كالأبديّة تلفّ الرجال أجمعين.»

الفيلسوف والإسكاف

حدث أن أتى فيلسوف بحذائه المتآكل إلى حانوت إسكاف. فقال الفيلسوف للإسكاف، «أرجوك أن تصلح لي حذائي.»

وقال الإسكاف، «أنا الآن أصلح حذاء رجل آخر، وما زالت لديّ أحذية أخرى أرقّعها قبل أن أنتهي إلى حذائك. فاترك الحذاء هنا والبس اليوم مكانه هذا الآخر، وعد غدًا من أجل حذائك.»

فامتعض الفيلسوف ثمّ قال، «إنّي لا ألبس حذاءً غير حذائي.»

وقال الإسكاف، «عجب، كيف تكون فيلسوفًا حقًّا، ولا تستطيع أن تتدبّر قدميك في حذاء رجل آخر؟ في هذا الشارع بالذات إسكاف آخر يفهم الفلاسفة خيرًا منّي. فاذهب من أجل التصليح إليه.»

بُناة جسور

في أنطاكية حيث يجري العاصي إلى ملاقاة البحر، ابتُني جسر ليدني نصف المدينة من نصفها الآخر. وتمّ بناؤه بحجارة ضخمة احتُملت من التلال على ظهور بغال أنطاكية.

وعندما أُنجز الجسر حُفر على أحد أعمدته باليونانيّة والآراميّة، «بنى هذا الجسر الملك أنطيوخوس الثاني.»

وكان الناس جميعًا يعبرون الجسر المكين من فوق نهر العاصي الكبير.

وذات مساء نزل إلى العمود حيث الكلام المحفور، فتى كان يعتبره بعضهم ذا لوثة، فغطّى المحفورات بالفحم، وكتب فوقها «لقد احتُملت حجارة هذا الجسر من التلال على ظهور البغال. فأنتم بذهابكم ومجيئكم من فوقه إنّما تركبون ظهور بغال أنطاكية، الذين هم بُناة هذا الجسر.»

وعندما قرأ الناس ما كتبه الفتى، ضحك بعضهم وتعجّب آخرون، وبينهم من قال، «أجل، نحن نعرف من فعل هذا. أليس أنّه على شيء من الجنون؟»

إلّا أنّ بغلًا قال ضاحكًا لبغل آخر، «ألا تذكر أنّنا فعلًا قد نقلنا هذه الحجارة؟ ومع ذلك فإنّهم حتّى اليوم يقولون أنّ بناء الجسر يعود إلى الملك أنطيوخوس.»

حقل زاد

التقى مسافر على طريق زاد رجلًا كان يسكن إحدى القرى المجاورة. وسأل المسافر الرّجل وهو يشير بيده إلى حقل فسيح، قائلًا، «ألم يكن هذا ساحة المعركة التي انتصر فيها الملك أحلام على أعدائه؟»

وأجاب الرّجل فقال، «لم يكن هذا يومًا ساحة معركة، بل هو الحقل الذي كانت تقوم عليه في الماضي مدينة زاد العظيمة قبل أن تحرق وتتحوّل إلى رماد. أمّا اليوم فهو حقلٌ صالحٌ أليس كذلك؟»

ثمّ افترق المسافر والرّجل.

وما كاد المسافر يجتاز نصف ميل حتّى التقى رجلًا آخر، فأشار إلى الحقل ثانية وقال، «إذن هذا هو المكان حيث كانت مدينة زاد قائمة ذات يوم؟»

وقال الرّجل، «لم يسبق قطّ أن وجدت مدينة في هذا المكان. بل الذي كان يومًا موجودًا هو دير دمّرته شعوب بلاد الجنوب.»

وبعد قليل، التقى المسافر على طريق زاد نفسها رجلًا ثالثًا. فأشار مرّة أخرى إلى الحقل الفسيح قائلًا، «أليس صحيحًا أنّ ديرًا عظيمًا كان يومًا يقوم في هذا المكان؟»

إلّا أنّ الرجل أجاب، «لم يسبق لدير قطّ أن وجد في هذه المناطق. لكنّ آباءنا وآباء آبائنا رووا لنا عن نيزك عظيم سقط مرّة في هذا الحقل.»

وأكمل المسافر طريقه متحيّرًا في سرّه، إلى أن التقى شيخًا طاعنًا في السنّ. وبعد أن ألقى التحيّة قال، «يا سيّدي، لقد التقيت في هذا الطريق ثلاثة رجال ممّن يسكنون في هذا الجوار وسألت كلًّا بمفرده عن هذا الحقل. إلّا أنّ الواحد منهم كان ينفي ما قاله الآخر، ويخبرني كلّ واحد حكاية جديدة لم يروها الذي سبقه.»

فرفع الشيخ راسه وأجاب، «هؤلاء الرجال، قد أخبروك كلّ بمفرده بما كان حقًّا كذلك، لكن قليلون بيننا هم الذين يستطيعون أن يجمعوا واقعًا إلى آخر مختلف، وأن يصوغوا من كلّ ذلك حقيقة.»

الحزام الذهبيّ

حدث ذات يوم أنّ رجلين جمعت بينهما الطريق، كانا يسيران معًا نحو سلاميس، مدينة الأعمدة. ووصلا عند العصر إلى نهر عريض لا جسر عليه للعبور. فكان عليهما إمّا السباحة أو العثور على طريق أخرى كانا يجهلانها.

فقالا واحدهما للآخر، «دعنا نسبح، فالنهر على أيّ حال ليس بالغ العرض.» ورميا بنفسيهما في الماء وراحا يسبحان. إلّا أنّ أحدهما، وكان قد سبق ان أَلِف الأنهار وسبل الأنهار، بلغ وسط التيّار وبدأ فجأة يفقد توازنه وينجرف مع الماء الهادر، في حين أنّ الثاني الذي لم يسبق له أن سبح في حياته، عبر النهر بكلّ يسر ووقف على الضفّة المقابلة. وإذ رأى رفيقه ما زال يصارع التيّار، ألقى بنفسه ثانية في الماء وانتهى به سالمًا إلى الشاطئ.

فقال الرجل الذي كان قد جرفه التيّار، «لكنّك قلت لي إنّك لا تحسن السباحة. فكيف كان لك أن قطعت النهر بمثل تلك الثقة؟»

وأجابه الرجل الثاني، «يا صديقي، أترى هذا الحزام الذي يطوّقني؟ إنّه مليء بالقطع الذهبيّة التي جمعتها لزوجتي وأولادي. هي حصيلة

سنة كاملة من العمل. إنّ ثقل هذا الحزام الذهبيّ هو الذي حملني عبر النهر إلى زوجتي وأولادي. فزوجتي وأولادي كانوا على كتفيّ وأنا أسبح.»

وأكمل الرجلان طريقهما معًا نحو سلاميس.

الأرض الحمراء

قالت شجرة لرجل، «جـذوري ضاربة في عميق التربة الحمراء، وإنّي سأُعطيك من ثماري.»

وقال الرّجل للشجرة، «كم نحن متشابهان. فجذوري أنا أيضًا ضاربة في عميق التربة الحمراء. الأرض الحمراء تعطيك القوّة لتمنحيني من ثمارك، والأرض الحمراء تعلّمني أن أتقبّل منك مع الشكران.»

البدر

أطلّ القمر البدر بجلاله على البلدة فبدأ جميع كلاب تلك البلدة ينبحون القمر.

كلب واحد فقط لم ينبح، بل قال لهم بصوت أجشّ، «لا توقظوا السكينة من نومها، ولا تنزلوا القمر بنباحكم إلى الأرض.»

وتوقّف الكلاب جميعهم، في سكون رهيب، عن النباح. لكنّ الكلب الذي تكلّم إليهم، واصل النّباح من أجل السكون، فيما تبقّى من الليل.

النبيُّ الناسك

كان هناك مرّة نبيّ ناسك، وكان خلال كلّ هلال ينزل ثلاث مرّات إلى المدينة العظمى ويكرز للناس في الساحات عن الأخذ والعطاء. وكان بليغًا، فطارت شهرته في كلّ البلاد.

وذات ليلة أقبل إليه في منسكه ثلاثة رجال، فرحّب بهم وبادروه بقولهم، «درجت على الكرازة في الأخذ والعطاء بغية أن تعلّم الذين يملكون الكثير ان يعطوا الذين يملكون قليلًا، ولسنا نشكّ في أنّ شهرتك قد فاءت عليك بالثروات. فهات أعطنا شيئًا من ثرواتك لأنّنا محتاجون.»

فأجاب الناسك قائلًا، «يا صاحبيّ، إنّي لا أملك سوى هذا الفراش وهذا الحصير وهذا الإبريق من الماء. فاحملوها إذا شئتم، فأنا لا أملك ذهبًا ولا فضّة.»

عندها نظروا إليه نظرة ازدراء وتحوّلوا بوجوههم عنه، وكان من أخيرهم أن توقّف لحظة في الباب وقال، «إيه أيّها المخادع! أيّها الدجّال! تُعلّم وتعظ في الأمور التي أنت نفسك لا تمارسها.»

الخمرة العتيقة، العتيقة

كان هناك ذات مرّة رجل غبيّ وكان يفاخر عن جدارة بقبو الخمر الذي عنده وبما يختزن فيه من خمور. وبين هذه إبريق نبيذ معتّق كان يحتفظ به لمناسبة لا يعرفها إلّا هو.

وأتاه حاكم الولاية في زيارة فتفكّر في نفسه قائلًا، «لن يُفتح هذا الإبريق، فقط من أجل مجرّد حاكم.»

وأتاه مطران الأبرشيّة زائرًا، ولكنّه قال في نفسه، «لا، لن أفتح الإبريق. فهو لن يعرف قيمته. ولن يبلغ أريجه منخريه.»

وأتاه أمير الناحية وتعشّى معه، فقال في سرّه، «هذه الخمرة هي من الملوكيّة بحيث لا يستأهلها مجرّد أمير.»

حتّى في يوم زواج ابن أخيه هو بالذات قال لنفسه، «لا، ولا من أجل هؤلاء المدعوّين سيؤتى بالإبريق.»

ومرّت السنون، فمات الرجل في سنّ متقدّمة، ودفن كما تدفن أيّ بذرة أو ايّ بلّوطة.

وفي اليوم الذي دفن فيه، أُخرج الإبريق في جملة أباريق أخرى فتوزّع خمرته فلّاحو الجوار، وأحدٌ منهم لم يعرف كم هي معتّقة.

فبالنسبة إليهم، كلّ ما يسكب في كأس هو مجرّد خمرة.

القصيدتان

التقى في الطريق إلى آثينا قبل قرون عديدة شاعران. وسرّهما أن يرى واحدهما الآخر.

وسأل أحد الشاعرين الآخر قائلًا، «ماذا نظَمت مؤخّرًا، وكيف حال قيثارتك؟»

وأجاب الشاعر الآخر فقال، «لقد انتهيت لتوّي من أعظم قصائدي، بل لعلّها أعظم قصيدة تكتب باليونانيّة حتّى الآن. إنّها ابتهال إلى زُوس، جلّ جلاله.»

وأخرج من تحت عباءته رقًّا قائلًا، «إليك فانظر، هي معي وبودّي أن أقرأها لك. تعال ودعنا نجلس في ظلّ تلك السروة البيضاء.»

وقرأ الشاعر قصيدته. وكانت قصيدة طويلة.

وقال الشاعر الآخر بتودّد، «هذه قصيدة عظيمة ستخلد على مدى الأجيال، وإنّك بها ستمجّد.»

فقال الشاعر الأوّل بهدوء، «وماذا كنت أنت تكتب في هذه الأيّام الأخيرة؟»

فأجابه الآخر، «لم أكتب إلّا القليل، فقط ثمانية أسطر في ذكرى طفل يلعب في حديقة.» وتلا الأبيات.

فقال الشاعر الأوّل، «ليست بالغة السّوء، ليست بالغة السّوء.» وافترقا.

والآن بعد مرور ألفي سنة، تُقرأ أبيات الشاعر الثمانية بكلّ اللغات، وتلقَى الحبّ والإقبال.

ومع أنّ القصيدة الثانية قد حُفظت فعلًا خلال العصور في المكتبات وفي أقبية الباحثين، وعلى الرغم من أنّه يُؤتى على ذكرها، فهي لا تُحَبُّ ولا تُقرأ.

السيّدة راعوث

كان ثلاثة رجال ذات مرّة ينظرون من بعيد إلى بيت أبيض قائم بمفرده على تلّة خضراء. فقال أحدهم، «ذاك بيت السيّدة راعوث. إنّها ساحرة عجوز.»

وقال الرجل الثاني، «أنت مخطئ. فالسيّدة راعوث امرأة جميلة تعيش هناك منصرفة كلّيًّا إلى أحلامها.»

وقال الرجل الثالث، «كلاكما مخطئ. فالسيّدة راعوث تمتلك هذه الأرض الشاسعة، وتستخرج دماء من الأقنان عندها.»

وواصلوا سيرهم وهم يتباحثون في السيّدة راعوث.

وعندما بلغوا تقاطعًا في الطريق، التقوا رجلًا مسنًّا فسأله أحدهم قائلًا، «هلّا أخبرتنا من فضلك عن السيّدة راعوث التي تسكن البيت الأبيض على التلّة؟»

ورفع الرجل المسنّ رأسه وابتسم لهم قائلًا، «أنا في التسعين من سنّي، وأذكر السيّدة راعوث عندما كنت بعد صبيًّا. لكنّ السيّدة راعوث ماتت منذ ثمانين عامًا وبيتها الآن خال ينعب فيه البُوم أحيانًا، فيقول الناس إنّ المكان مسكون.»

الفأر والهرّ

التقى شاعر ذات مساء فلّاحًا. وكان الشاعر مُعتدًّا والفلّاح خجولًا. ومع ذلك فإنّهما تبادلا الحديث.

فقال الفلّاح، «دعني أخبرك قصّة صغيرة سمعتها مؤخّرًا. احتُجز فأر في مصيدة. وفيما كان يتلذّذ أكل الجبنة الملقاة هناك، إذا بهرّ يقف إزاءه. ارتعد الفأر هنيهة، لكنّه كان يعلم أنّه وهو داخل المصيدة في أمان.

فقال له الهرّ، «أنت الآن، يا صاحبي، تأكل وجبتك الأخيرة.»

وأجاب الفأر، «أجل، واحدة هي الحياة التي لي، فموتي إذن واحد. ولكن ماذا عنك؟ يقولون لي إنّ لك تسع حيوات. ألا يعني ذلك أنّ عليك أن تموت تسع مرّات؟»

والتفت الفلّاح إلى الشاعر قائلًا، «أليست هذه قصّة غريبة؟»

إلّا أنّ الشاعر لم يجب، بل انصرف مغادرًا وهو يقول في أعماقه، «إنّ لنا بالتأكيد تسع حيوات، تسع حيوات بالتأكيد. وإنّا سنموت تسع مرّات، تسع مرّات سنموت. ربّما كان من الأفضل لو أنّ لنا حياة واحدة وإن في مصيدة – حياة فلّاح مع قليل من الجبنة كوجبة أخيرة. ومع ذلك أليس أنّا وأسود البراري والأدغال، أنسباء؟»

اللعنة

قال لي بحّار قديم مرّة، «إنّها ثلاثون سنة منذ أن هرب بحّار مع ابنتي، فلعنت كليهما في قلبي. ذلك أنّي لم أكن أعشق في الدنيا كلّها سوى بنيّتي.

«ولم يطل الأمر حتّى غرق البحّار الشاب بسفينته إلى أعماق البحر، ومعه خسرت ابنتي الحبيبة.

«فانظر إذن وعاين فيّ سفاحًا أودى بحياة شاب وصبيّة. هي كانت لعنتي التي أهلكتهما. والآن، وأنا في طريقي إلى القبر، أسأل الله الغفران.»

هذا ما قاله العجوز. إلّا أنّ كلماته كانت تحمل نبرة من التباهي. فالظاهر أنّه ما زال فخورًا بما للعنته من سلطان.

الرمّانات

يُحكى أنّ رجلًا كان عنده في بستانه مرّة عدد وافر من شجر الرمّان. ودرج لبضع سنين إبّان الخريف أن يضع رمّاناته على صَوانٍ من فضّة خارج مسكنه، ويجعل فوق الصواني لافتات يكتب عليها هو نفسه، «خذ واحدة مجّانًا، فأهلًا بك.»

إلّا أنّ الناس كانوا يمرّون ولا يمسّون الثمار.

وتفكّر الرجل في نفسه، فأقلع ذات خريف عن وضع الرمّان على صوان من فضّة خارج مسكنه ورفع في المقابل، هذه اللافتة بخط عريض، «عندنا هنا أجود رمّان في البلاد، إلّا أنّنا نبيعه، بفضّة أزود من سعر أيّ رمّان آخر.»

وكان أنّ جميع رجال المحلّة ونسائها تهافتوا على الشراء.

اللّه وآلهة متعدّدون

وقف سفسطائيّ على درجات الهيكل في مدينة كلافس وكرز في تعدّد الآلهة. فقال الناس في قلوبهم، «نحن نعرف كلّ هذا، أليس أنّهم يعيشون معنا ويتتبّعوننا كيفما اتّجهنا؟»

ولم يطل الأمر بعدها، حتّى وقف رجل آخر في ساحة المدينة وكلّم الناس قائلًا، «ليس إله». فسرّ كثيرون ممّن سمعوه بهذه البشارة، ذلك أنّهم كانوا يخافون الآلهة.

وذات يوم آخر، أقبل رجل فائق البلاغة فقال، «لا وجود إلّا لإله واحد.» فكان أن ارتعب الناس، لأنّهم في دخيلتهم كانوا يخشون حساب الإله الواحد أكثر من خشيتهم حساب آلهة متعدّدين.»

وفي ذلك الموسم عينه أتى أيضًا رجل آخر فقال للناس، «ثمّة آلهة ثلاثة، وهم يحيون على سطح الرّيح كواحد، وإنّ لهم أُمًّا كُلّيَّة رؤوم، هي أيضًا أختهم وزوجتهم.»

عندها تعزوا جميعًا، ذلك أنّهم قالوا في سرّهم، «لا بدّ لآلهة ثلاثة في واحد أن يختلفوا حول خطايانا. ثمّ إنّ والدتهم الرؤوم ستكون من غير شكّ، المحامية عنّا نحن الضعفاء المساكين.»

ولكن ما يزال في مدينة كلافس حتّى اليوم أناس يتجادلون ويتشاحنون بعضهم مع بعض حول الآلهة المتعدّدين واللا إله والإله الواحد، والآلهة الثلاثة في واحد، وحول أمّ للآلهة رؤوم.

تلك التي كانت طرشاء

كان هناك مرّة رجل غنيّ، وكانت له زوجة فتيّة. إلّا أنّها كانت طرشاء حتّى الصمم.

وذات صباح، فيما كانا يكسران صيامهما تحدّثت إليه فقالت، «رحت البارحة إلى السّوق ورأيت في المعروضات ثيابًا حريريّة من دمشق وأغطية من الهند وقلائد من فارس وأساور من اليمن. ويبدو أنّ هذه الأشياء كانت قد وصلت لتوّها مع القوافل إلى مدينتنا. أنظر كيف أنّي، وأنا زوجة رجل ثريّ، في أسمال. أريد أن يكون لي بعضٌ من هذه الأشياء البديعة.»

وأجاب الزوج وهو بعد منشغل بقهوته الصباحيّة، «لا شيء يا عزيزتي يحول دون نزولك إلى السّوق وابتياع كلّ ما ترغب فيه نفسك.»

فقالت الزوجة الصمّاء، ««لا! » أنت دائمًا تقول «لا، لا». أمحتوم عليّ أن أظهر بهذه الخرق بين أصحابك فأُلحق الخزي بثروتك وبأهلي؟»

وقال الزوج، «إنّي لم أقل «لا». بإمكانك أن تتوجّهي على هواك إلى السّوق وتبتاعي أجمل ما وفد إلى المدينة من ألبسة ومن مجوهرات.»

إلّا أنّ الزوجة أساءت للمرّة الثانية قراءة كلماته، فأجابت، «ليس أبخل منك بين جميع الأغنياء. فأنت تضنّ عليّ بكلّ ما هو كيّس وجميل،

في حين أنّ الأخريات ممّن هنّ في سنّي يرفلن في حدائق المدينة بأثمن الثّياب.»

وأخـذت بالنّواح. وفيما كانت دموعها تتدحرج على صدرها صاحت ثانية، «دائمًا يجيء قولك لي، «كلّا، كلّا»، كلّما اشتهيت ثوبًا أو حلية.»

وتحرّك الزوج شفقة، فانتصب واقفًا وأخرج من كيسه قبضة من الذّهب ووضعها بين يديها قائلًا بصوت رقيق، «انطلقي إلى السوق يا حبيبتي وابتاعي كلّ ما تشائين.»

ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، درجت الزوجة كلّما اشتهت حاجة، على أن تَمثُل أمام زوجها وفي عينها دمعة لؤلؤيّة، فيُخرج لها في هدوء قبضة من ذهب ويلقي به في حضنها.

وحدث أن وقعت المرأة الشابّة في حبّ فتى من عادته أن يقوم بأسفار طويلة. فكانت كلّما غاب تجلس عند نافذتها وتنتحب.

وكان الزوج كلّما رآها هكذا تنتحب يقول في سرّه، «لا بدّ أنّ في السوق قافلة جديدة، وأثوابًا حريريّة ومجوهرات.»

فيخرج قبضة من الذهب ويلقي به إليها.

الإستكشاف

التقى منذ ألف سنة على أحد منحدرات لبنان فيلسوفان، فقال أحدهما للآخر، «إلى أين وجهتك؟»

وأجابه الآخر، «إنّني قاصد معين الشباب الذي أعرف جيّدًا أنّه ينبع بين هذه التلال. لقد وقعت على كتابات تخبر عن هذا الينبوع المنبجس كزهرة في وجه الشمس. وأنت، إلى أين تقصد؟»

أجاب الرجل الأوّل، «إنّني أبحث عن سرّ الموت.»

واعتبر كلّ من الرجلين رفيقه مقصّرًا في حقله الخطير، وراحا يتشاحنان ويتّهم واحدهما الآخر بالإنغلاق الروحيّ.

وفيما كان صوتاهما يتعاليان في الهواء مرّ بهما رجل غريب، رجلٌ كان يُعتبر ساذجًا في قريته، وعندما سمع الإثنين في جدالهما المحتدم، توقّف لهنيهة وأصغى إلى المحاججة.

ثمّ اقترب منهما وقال، «يبدو لي يا عزيزيّ أنّكما كليكما تنتميان في الحقيقة إلى مذهب فلسفي واحد وأنّكما تنطقان بالشيء نفسه إنّما بكلام مختلف. فأحدكما يطلب ينبوع الشباب والآخر يبحث عن سرّ الموت. ولكنّ الإثنين في الحقيقة واحد، وهما كواحد، يقيمان في كلّ منكما.»

ثم تحوّل الرجل الغريب عنهما قائلًا، «وداعًا أيّها الحكيمان.» وعلت وجهه فيما كان يغادر، ضحكة سمحاء.

ونظر الفيلسوفان واحدهما إلى الآخر هنيهة في سكوت، ثمّ ضحكا هما أيضًا. وتكلّم أحدهما فقال، «والآن، ألن نسير فنبحث معًا؟»

الصَّولجان

قال ملك لزوجته، «أنت يا سيّدتي لست حقًّا ملكة. فأنت من السّوقية والفظاظاة بحيث لا تصلحين قرينة لي.»

فقالت الزوجة، «أنت يا سيّدي تحسب نفسك ملكًا، والحقّ أنّك لست سوى ضجيج على خواء.»

فكان أنّ هذه الكلمات أغاظت الملك، فأخذ صولجانه المذهّب بيده وضرب الملكة على جبهتها.

وفي تلك اللحظة دخل وزير البلاط فقال، «مهلًا، مهلًا، يا صاحب الجلالة! هذا الصولجان هو من تصميم أعظم الصنّاع في البلاد. سيأتي يوم، مع الأسف، تصبح فيه أنت والملكة نسيا منسيًّا، أمّا هذا الصولجان فسيبقى تحفة جمالٍ جيلًا بعد جيل. والآن يا سيّدي بعد أن أدميت به رأس جلالتها، سيصبح الصولجان موضعًا أكبر للتقدير وللإستذكار.»

الطريق

كانت امرأة وابنها يسكنان بين التلال، وكان الولد بكرها ووحيدها.

ومات الولد بالحمّى فيما الطبيب واقف إلى جانبه.

وأفقد الحزن المرأة صوابها فصرخت إلى الطبيب ترجوه قائلة، «قل لي، قل لي، ما الذي شلّ خطاه وتحوّل بأغانيه إلى سكوت؟»

فقال الطبيب، «كانت الحمّى.»

وقالت الأم، «وما هي الحمّى؟»

وأجاب الطبيب، «لا أستطيع شرحها لك. إنّها شيء دقيق في منتهى الصغر، تنتاب الجسد وليس باستطاعة أعيننا البشريّة أن تبصرها.»

ثمّ غادرها الطبيب. وظلّت هي تردّد لنفسها، «شيء في منتهى الصغر، ليس باستطاعة أعيننا البشريّة أن تبصره.»

وأتى الكاهن عند المساء ليعزّيها فناحت ورفعت صوتها عاليًا تقول، «آهٍ، لماذا كان عليّ أن أخسر ولدي، وحيدي وبكري؟»

وأجابها الكاهن، «إنّها، يا ابنتي، إرادة الله.»

فقالت المرأة، «ما هو الله وأين هو الله؟ وددت لو أراه لأمزّق صدري أمامه وأسكب دماء قلبي عند قدميه. قل لي أين لي أن أحظى به.»

وقال الكاهن، «الله واسع بلا حدود. ولا تمكُن رؤيته بعيننا البشرية.»

فصاحت المرأة، «اللامتناهي صغرًا قد قضى على ولدي بإرادة اللامتناهي في الكبر! فماذا إذن نحن؟ ماذا إذن نحن؟»

ودخلت والدة المرأة في تلك اللحظة إلى الغرفة تحمل كفنًا للصبيّ الميت، فسمعت كلام الكاهن كما سمعت صرخة ابنتها. فألقت بالكفن من يدها وأخذت يد ابنتها براحتيها ثمّ قالت، «نحن يا ابنتي هم اللامتناهون في الصغر واللامتناهون في الكبر ونحن الطريق بين الإثنين.»

الحوت والفراشة

حدث أن جمعت بين رجل وامرأة ذات مساء، عربة جياد. وكان قد سبق لهما أن التقيا من قبل.

كان الرجل شاعرًا، وخطر له فيما كان جالسًا إلى جانبها أن يسلّيها بالقصص التي كان بعضها من نسجه هو وبعضها لسواه.

إلّا أنّ المرأة غفت وهو بعد ماضٍ في الكلام. وفجأة تمايلت العربة فاستفاقت وقالت، «يعجبني أداؤك لقصة يونان والحوت.»

فقال الشاعر «ولكنّي يا سيّدتي كنت أقصّ عليك حكاية من عندي أنا، عن فراشة ووردة بيضاء وكيف كانت الواحدة تتعامل مع الأخرى.»

سلام مُعدٍ

قال غصين مزهر لغصينة أخرى مزهرة في جواره، «هذا نهار بليد وفارغ.» فأجابت الغصينة، «إنّه حقًّا فارغ وبليد.»

وفي تلك اللحظة حطّ دوريّ على أحد الاثنين، ولم يلبث أن حطّ دوريّ آخر على مقربة منه.

وسقسق أحد الدوريّين فقال، «لقد هجرتني رفيقتي.»

وصاح الدّوري الآخر «ورفيقتي هي الأخرى قد غادرت ولن تعود. وما همّي؟»

ثمّ عمد الإثنان إلى السقسقة وإلى التأنيب، وما لبث أن شبّ بينهما خصام شحن الهواء بالزّعيق.

وفجأة أقبل دوريان آخران متهاديين على الهواء فحطّا هادئين إلى جانب الإثنين المترجرجين، فساد الهدوء وساد السلام. وما لبث الأربعة أن طاروا اثنين اثنين.

فقال الغصن الأوّل لجارته، «ذاك كان تعرّجًا صوتيًا حادًّا.» وأجابته قائلة، «سمّه ما شئت، إلّا أنّ الجوّ حاليًّا هادئ ورحيب. وإذا كان للأجواء العلوية أن تصنع السلام فحريّ بالقاطنين في ما دونها أن يعقدوا سلامهم هم أيضًا. ألا تمايلت قليلًا في الهواء فدنوت منّى؟»

وقال الغصن الأوّل، «أجل، ولو من أجل السلام، قبل أن يتصرّم الربيع.»

ثمّ مال بنفسه مع الريح العاتية كي يعانقها.

الظلّ

قال العشب لظلّ شجرة الدّردار ذات نهار من حزيران، «أنت تبالغ في التمايل ذات اليمين وذات اليسار، فتقلق راحتي.»

وأجاب الظلّ قائلًا، «ما ذاك أنا، ما ذاك أنا، تطلّع نحو الفضاء، فثمّة شجرة تتمايل في الهواء شرقًا وغربًا ما بين الشمس والأرض.»

وتطلّع العشب إلى فوق فإذا به يبصر الشجرة لأوّل مرّة. فقال في سرّه، «عجبًا، هوذا عشب أعظم منّي.»

ثمّ لاذ العشب بالسكوت.

سبعون

قال الشاعر الفتى للأميرة، «أحبّك.» فأجابته الأميرة، «وأنا أيضًا أحبّك، يا بنيّ.»

«لكنّني لست ولدك. أنا رجل وأنا أحبّك.»

فقالت، «أنا أمّ لبنين وبنات هم أيضًا آباء وأمّهات لبنات وبنين. ولواحد من أبنائي ابن هو أكبر سنًّا منك.»

وقال الشاعر الفتى، «لكنّني أحبّك.»

ولم يطل بالأميرة أن ماتت بعد ذلك. ولكنّها قبل أن يعود آخر نَفَس لها فينضمّ إلى نَفَس الأرض الأكبر، قالت في أعماقها، «يا حبيبي، يا وحيدي، قد يُتاح أن يأتي يوم نعود فيه فنلتقي ثانية، ولا أكون في السبعين.»

نُشدان اللّٰه

كان رجلان يسيران في الوادي، فأشار أحدهما بإصبعه إلى أحد السفوح قائلًا، «أترى إلى تلك الصومعة؟ إنّها معتكف إنسان طلّق العالم من زمان. إنّه ينشد الله ولا شيء آخر سواه على وجه الأرض.»

فقال الرجل الآخر، «إنّه لن يحظى بالله إلّا حين يهجر صومعته وَتَوحُّد صومعته، فيعود إلى عالمنا ليشاطرنا الفرح والألم ويرقص مع راقصينا في وليمة العرس، وينوح مع النائحين حول نعوش موتانا.»

وكان الرجل الآخر مقتنعًا بذلك في قلبه إلّا أنّه رغم اقتناعه أجاب، «إنّي أوافقك في كلّ ما تقول، ولكنّي مع ذلك أؤمن بأنّ الناسك رجل طيّب. ألا يعقل فعلًا أن يحقّق رجل واحد طيّب عن طريق اعتكافه، ما هو خير من هذه الطِّيبة المموّهة عند هذه الكثرة من الناس؟»

النَّهر

التقى في وادي قاديشا، حيث يتدفّق النهر العظيم، جدولان صغيران، فتكلّم واحدهما مع الآخر.

قال أحد الجدولين، «من أين كان قدومك يا صديقي، وكيف كان طريقك؟»

فأجاب الآخر، «كان طريقي في منتهى التعثّر. فدولاب الطاحونة كان محطومًا، والمُزارع الرئيس الذي كان يتحوّل بي من قناتي إلى مزروعاته، توفّي. وهكذا جاهدت نزولًا وأنا أنضح بقذارات أولئك الذين لا عمل لهم سوى القعود وتلويح تكاسلهم في الشمس. وأنت يا أخي، كيف كان طريقك؟»

وأجاب الجدول الثاني قائلًا، «لقد كان طريقي مختلفًا. جئت منحدرًا على التلال بين الأزاهر الفوّاحة والصفصاف الخجول، فكان الرجال والنساء يشربون منّي بكؤوس فضّيّة والأولاد يجذّفون عند حافتيّ بأقدامهم المتورّدة، وكان هناك ضحك من حولي وكانت أغنيات عذاب. مؤسف حقًّا أنّ طريقك لم تكن بهذه السعادة.»

عندها تكلّم النهر بصوت مرتفع قائلًا، «هلمّا إليّ، هلمّا، نحن ذاهبون إلى البحر. هلمّا إليّ، هلمّا، وتوقّفا عن الكلام. كونا الآن

معي، فنحن ذاهبون إلى البحر، هلمّا معي هلمّا، فأنتما فيّ ستنسيان تطوافاتكما، حزينة أكانت أم سعيدة. هلمّا إليّ، هلمّا. وسننسى أنتم وأنا دروبنا عندما نبلغ قلب أمّنا، عندما نبلغ البحر.»

الصيّادان

التقى الفرح والحزن ذات يوم من أيّار قرب البحيرة، فحيّا واحدهما الآخر وجلسا يتحدّثان قرب المياه الهادئة.

وتكلّم الفرح عن الجمال الذي على الأرض وعن عجائب الحياة المتمثّلة كلّ يوم في الغابات وعلى التلال، وعن الأناشيد التي تُسمع عند كلّ فجر وكلّ مساء.

وتكلّم الحزن فوافق الفرح في كلّ ما ذهب إليه، ذلك أنّ الحزن كان يعي سحر ما هما فيه، والجمال الذي ينطوي عليه. فالحزن كان بليغًا عند الكلام على أيّار الحقولِ وأيّارِ ما بين التلال.

تكلّم الفرح والحزن معًا طويلًا، وكان بينهما توافق في كلّ ما كانا يعرفانه من أمور.

وفيما هما كذلك، مرّ إلى الجانب الآخر للبحيرة صيّادان. وإذ التفتا عبر الماء قال أحدهما، «تُرى، من الشخصان هناك؟» فقال الآخر «هل قلت اثنين؟ أنا لا أرى إلّا واحدًا.»

وقال الصيّاد الأوّل، «لكنّ هناك اثنين.» فقال الثاني، «هناك، كما يتبيّن لي واحد فقط. والظلّ في الماء هو أيضًا واحد.»

«كلّا، هناك اثنان.» قال الصيّاد الأوّل، «والإنعكاس في الماء الساجي هو لشخصين.»

وقال الصيّاد الثاني مكرّرًا، «ما أراه هو فقط واحد.» وأعاد الثاني القول، «بل أرى اثنين بكلّ وضوح.»

وما زال أحد الصيّادين حتّى هذا التاريخ يقول إنّ الآخر مصاب بازدواجيّة في الرؤية. في حين يقول الآخر، «إنّ رفيقي على شيء من العمى.»

التائه الآخر

حدث ذات مرّة أن التقيتُ رجلًا ثانيًا من أهل الطرقات. وكان هو الآخر على شيء من الجنون، فبادرني بقوله، «أنا تائه. وغالبًا ما يبدو أنّني أسير في الأرض بين أقزام. ولمّا كان رأسي أبعد عن الأرض من رؤوسهم بسبعين ذراعًا، كان أنّه يولّد من الأفكار ما هو أسمى وأرحب.

«والحقّ أنّني لا أسير بين الرجال بل فوقهم. وكلّ ما يستطيعون أن يروه منّي هو آثار أقدامي على امتداد حقولهم المترامية.

«وكثيرًا ما سمعتهم يتناقشون ويختلفون حول شكل هذه الآثار وحجمها. ذلك أنّ فيهم من يقول، «هذه آثار كائن عملاق كان يجوب الأرض في سالف الأزمان»، فيقول آخرون، «لا، بل هي أطلال نيازك سبق أن سقطت من أنجم قصيّة».»

«لكنّك أنت، يا صاحبي، لا بدّ عارف جيّدًا أنّها ليست سوى آثار أقدام لتائه.»

آلهة الأرض

The Earth Gods, 1931

مقدّمة

إنَّها لمفارقة غريبة أن تكون لجبران هذه الشهرة العريضة في وطنه لبنان وفي سائر أوطان اللغة العربيّة، في حين أنَّ آثاره التي من أجلها استحقّ الشهرة حقًّا ويستحقّها ما زالت في معظمها شبه غائبة عن العربيّة وممتنعة على القارئ العربيّ. إنّها آثار جبران الإنكليزيّة ابتداءً بـ«المجنون» الصادر سنة 1918 مرورًا بـ«السّابق» و«النبيّ» و«رمل وزبد» و«يسوع ابن الإنسان» و«التائه» وانتهاء بـ«آلهة الأرض»، آخر مؤلّفاته الذي صدر سنة 1931 قبل موت صاحبه ببضعة أيّام[1]. فجبران الذي تحوّل في مطلع الثلاثينات من عمره إلى الإنكليزيّة كوسيلة للتعبير عن نفسه، لم يصدر طوال هذه المرحلة الأخيرة من حياته، مرحلة الرجولة والاختمار والنضوج، أيّ مؤلّف باللغة العربيّة. إنَّ «العواصف» آخر كتبه العربيّة صدر سنة 1920، وهو مجموعة متفرّقات تعود في معظمها إلى ما قبل هذا التاريخ بسنوات. أمّا كتابات جبران العربيّة بعد «العواصف» فقد نشأت في ظلّ أعماله الإنكليزيّة التي فيها صبّ قدراته الأصيلة وعليها

[1] صدر لجبران بعد موته التائه 1932 وحديقة النبيّ 1933. أمّا الأوّل فيعود تأليفه إلى ما قبل آلهة الأرض وأمّا الثاني فمعظمه مقطوعات متفرّقة، وترجمات من عربيّات جبران بقلم غير قلمه.

سلّط أضواءه. وهكذا قُدِّر لها في هذا الظلّ أن تنبت سقيمة لا توحي بالعافية. وقد اقتصرت هي أيضًا على متفرّقات غالبًا لم تكتب لذاتها بل وفاء لواجب أدبيّ نحو واحدة أو أخرى من صحف المهجر والعالم العربيّ. فها هو مثلًا يكتب من بوسطن سنة 1921 إلى صديقه ميخائيل نعيمه [ميشا] في نيويورك تحت إلحاح إحدى الجمعيّات الأدبية في دمشق على استكتاب رجالات الرابطة القلميّة فيقول:

«عندما تركت نيويورك لم أضع في حقيبتي سوى «النبيّ» وبعض الملابس أمّا دفاتري العتيقة فما برحت في زوايا تلك الغرفة الصامتة[2]. فماذا يا ترى أفعل لأرضيك وأُرضي الرابطة الأدبيّة في دمشق». ثمّ يعود ليقترح مستحييًا: «ولكن إذا كان لا بدّ من أن تظهر الرابطة النيويوركيّة كاملة مكمّلة أمام الرابطة الدمشقيّة فما قولك في أن يترجم نسيب أو عبدل أو ميشا[3] (إذا كان ذلك ممكنًا) قطعة من المجنون أو السابق؟ هذا رأي سقيم، بل وقد يكون سخيفًا، ولكن ما العمل يا ميخائيل وأنا في هذه الحالة؟»[4]

ولا عبرة في أنَّ جبران هنا يقيم اعتذاره على اعتبارات صحيّة لا تسمح له بالكتابة. إذ أنّ اختياره الصريح، حيث سمحت إمكاناته الصحيّة بعد ذلك، كان العمل بالإنكيزيّة لا بالعربية وذلك بشهادة ما صدر له لاحقًا من مؤلّفات هي جميعًا بالإنكليزيّة.

إنَّ كتبًا عربيّة ظهرت باسم جبران خلال هذه الفترة وبعدها مثل «البدائع والطرائف» و«مناجاة أرواح» وغيرهما، لا تعدو كونها في مجملها، مختارات جمعها بعضهم من كتابات جبران الباكرة مع بعض مقطوعات جديدة هي في معظمها من هذا النوع الذي كتب رفعًا لعتب

---

2 صومعته في نيويورك.

3 نسيب عريضه وعبد المسيح حداد وميخائيل نعيمه.

4 نعيمه، ميخائيل، جبران خليل جبران، بيروت 1934، ص 280.

أو وفاء بواجب صحفيّ. وغالبًا ما لم يكن لجبران يد في انتقاء موادّ الكتاب أو اختيار الاسم[5].

صحيح أنَّ عددًا من كتابات جبران العربية المتأخّرة – وهذا قليل جدًّا – يتّسم بنوع من الجدّة التي لم نعهدها متكاملة في كتاباته المبكرة في مرحلة ما قبل «العواصف». ذلك كما في مقطوعتيه مثلًا «الرجل غير المنظور»[6] و«ملك البلاد وراعي الغنم»[7]. ولكنّ الصحيح أيضًا أنّ هذه الجدّة، أيًّا تكن، ليست نابعة من صلب هذه الكتابات، بل هي متسرّبة إليها من الأجواء التي كان يعيشها جبران في أعماله الإنكليزيّة لهذه الفترة. إنّها بالتالي جدّة مستعارة لا تفهم في حقيقتها إلّا بالرجوع إلى آثار جبران الإنكليزيّة. فالمقطوعتان المذكورتان مثلًا، هما كناية عن حواريّتين في ثوب مسرحيّ يعتمد فيهما جبران تلك اللاواقعيّة المموّهة بالواقعيّة التي اشتهر بها أسلوبه في «المجنون» و«النبيّ» و«يسوع ابن الإنسان» و«آلهة الأرض»، والتي بها كان يحاول أن يحقّق للقارئ تلاقيًا مقنعًا على المسرح الواحد، وعلى تفاوت كبير في النجاح من أثر إلى أثر، بين الحياة في تبدّياتها الطبيعيّة والحياة في مرموزاتها الماورائيّة. وهكذا يجتمع المرئيّ باللّامرئيّ، ويلتقي الحيّ الرّاحل إلى الموت، بالميت المقبل على التقمّص، وينزل الآلهة إلى الأرض مثلما يرتفع أبناء الأرض إلى التألّه.

هذا الأسلوب، وإن تكن بعض معالمه قد ظهرت في كتابات جبران العربيّة الباكرة، لم يتسنَّ له أن يبلغ مرحلة التكامل والنضج إلّا في المؤلّفات الإنكليزيّة عندما تكاملت رجولة صاحبه واستوت شخصيّته ونضج. فلا سبيل إلى معرفة حقيقة الشخصيّة الجبرانيّة وعبقريّتها إلّا

5 راجع جبران، جبران خليل، المجموعة الكاملة، بيروت 1949، ص 40.

6 راجع السائح الممتاز لعام 1927، نيويورك 1927، ص 17-24.

7 نعيمه، ميخائيل، جبران خليل جبران، ص 293-301.

بالرجوع إلى تلك المؤلّفات. ولعلّ الدليل القاطع في هذا المجال هذه الشهرة التي قامت لجبران خارج العالم الناطق بالعربيّة. إنّها شهرة حظِيَ بها عند أناس اطّلعوا على أعماله الإنكليزيّة دون أن يكون لهم في الأساس أيّ معرفة بعربيّاته. فعربيّاته إذن لا حصّة لها في هذه الشهرة على الإطلاق. فلو أنّ جبران لم يكتب في حياته حرفًا واحدًا بالعربيّة، أو أنّ نازلة حلّت بمؤلّفاته العربيّة فأزالتها تمامًا من الوجود، لما اهتزّت شهرته خارج العالم العربيّ قيد شعرة ولا طرأ على مكانته عند غير العرب من عارفيه أيّ ترجرج على الإطلاق. بل لعلّ صورة جبران عند أولئك الذين عرفوه من خلال مؤلفاته الانكليزيّة كانت تنجو من هذه الاهتزازات المشينة التي أحدثها بعض «الغيارى» العرب من ناقلي عربيّات جبران المراهقة إلى العالم الانكلوساكسونيّ وكأنّها الشهادة الإضافيّة عندهم على رفيع نتاجه. يكفي من باب التدليل مثلًا أن نشير إلى التعليق التهكّمي اللاذع الذي كتبه أحد محرّري «التايمز» في مدينة لوس أنجلوس الأميركيّة، السيّد «كيفين توماس» بمناسبة عرض رواية جبران «الأجنحة المتكسّرة» مصوّرةً على مسرح «فليز». ففيه أنّ العرض «مقرف» و«ثقيل» وأنّه «من غير شكّ أقبح ما شوهد على هذا المسرح منذ سنوات»، وأنّ عاطفيّاته تبدو وكأنّها سرقت من دفتر طالب في المدرسة. و«إنّه يستحيل عليك أن تحزر من هذا العرض لجبران أنّه هو صاحب النبيّ الذي يبيع اليوم خمسة آلاف نسخة أسبوعيًا»[8].

وإنّه لعجيب حقًّا أن نعرف بأنّ فيضًا من الدراسات عن جبران تصدر بالعربيّة عندنا من قِبَل أناس لا إلمام لهم يذكر بالانكليزيّة من قريب أو من بعيد، وأنّ معوّلهم الوحيد في التعرّف إلى هذا الشاعر الكبير من بلادنا وفي إصدار الأحكام له أو عليه هو تلك المحاولات العربيّة

8 Los Angeles Times، عدد الثلثاء 21 كانون الأوّل 1965.

المراهقة عينها التي استحال على الكاتب الأميركي تصوّر انتمائها إلى صاحب النبيّ. فكأنّ هؤلاء، وقد تناهى إليهم عن غربيّين ومستغربين بأنّ جبران مهمّ، عكفوا على الذي بين أيديهم من عربيّات جبران يتدارسونها مقتنعين سلفًا بأنّها لا بدّ مهمّة، وبأنّ عليهم، مجاراة للرأي السائد، أن يقولوا فيها وعنها كذلك، وإلّا حكموا على أنفسهم بالغباء. وهكذا أصبحت «الأجنحة المتكسّرة» نموذجًا للرواية المهمّة و«خليل الكافر» و«يوحنّا المجنون» مذهبًا في الثورة الاجتماعية والفكريّة والدينيّة، و«المواكب» فتحًا ملحوظًا في الشعر الرّفيع، و«رماد الأجيال والنار الخالدة» طريقة في التصوّف وموقفًا جديدًا من الزمن، وعاطفيّات جبران النسائيّة مثلًا ممتازًا على «عقدة أوديب»، إلى غير ذلك من التمحّلات. مَثلُ الكثيرين من هؤلاء مثلُ سائح ساذج نزل في لبنان بهاجس أنّه مُقبل إلى بلد الأرز فراح يلتقط الصور مندهشًا لكلّ صنوبرة أو سروة أو سنديانة في الطريق كي تكون الشاهد لما سيستفيض به لاحقًا عند بني قومه حول الخصائص الفريدة لأرز الربّ.

ليس خافيًا بالطبع أنّ جميع مؤلّفات جبران الانكليزيّة قد ترجمت إلى العربية ونشرت مجموعة[9] في مطلع الستينات بعد أن سبق نشرها فرادى قبل ذلك بثلاثة عقود ويزيد. وهذه الترجمات التي تضمّها المجموعة كان قد قام بها الأرشمندريت أنطونيوس بشير[10] معاصر جبران وزميله في الهجرة. إلّا أنّ طموحات الأرشمندريت، على ما له من فضل وحقّ سبق في نقل جبران الانكليزيّ إلى لسان بني قومه، كانت كما يبدو، أوسع وأضخم من إمكاناته. فلا هو استطاع أن ينفخ في لغته نسمة من الروح الشعريّة والجرس التوراتيّ في لغة جبران، ولا استطاعت مقاصد

[9] المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران المعرّبة عن الانكليزية، بيروت 1964.

[10] المطران أنطونيوس لاحقًا.

الشعريّة الروحية في مؤلفات جبران ان تنفذ متكاملة إلى الأرشمندريت وأن تتجسّد. ذاك بالضبط ما أحسّه جبران نفسه على ما يبدو، عندما كان يراجع بعض ما عرضه عليه الأرشمندريت من ترجمات. فكان أن كبح تمرّده على الترجمة بدافع ما دغدغ رضاه من اندفاع المترجم ومن تلويحه بإقحام نسيب عريضه وميخائيل نعيمه في إنجاح المهمّة. ففي رسالة إلى «أخيه العزيز ميشا» تعود إلى 11 آب 1923 يقول جبران:

«لقد صرفت الساعات الطوال مع الأرشمندريت بشير بمراجعة ترجمة «المجنون» و«السابق» ورغم تمرّدي فقد أعجبت بحماسة الرجل وعزمه. وقد قال لي عندما فرغنا من المراجعة والتصحيح «سوف أدفع ترجمة الكتابين إلى ميخائيل نعيمه ونسيب عريضه وأطلب منهما نقدًا صارمًا»، فاستحسنت كلمته هذه وعرفت أنّه بالحقيقة يريد الاستفادة».

ويعلّق ميخائيل نعيمه على هذه الفقرة من رسالة جبران قائلًا: «أطلعني الأرشمندريت بشير على ترجمة لقطعة أو لقطعتين. فرأيت أنّ عناء «المساعدة» أشقّ من الترجمة. وتركته يترجم بمعرفته ولغته دون أقلّ تدخّل منّي»[11]. أمّا أنّ نعيمه قد وضع كلمة «مساعدة» في تعليقه هذا بين عازلين، فتشديدًا على رداءة الترجمة وإيحاء بأنّ أيّ محاولة جادّة لتصحيحها ستقتضي إلغاءها كلّيًّا والقيام بترجمة جديدة. ولعلّ هذا ما دفع ميخائيل نعيمه في الخمسينات إلى أن يتولّى هو نفسه وضع ترجمة جديدة للنبيّ. وذلك من منطلق الحرص على أن يكون في متناول القارئ العربيّ ولو واحد من مؤلّفات جبران الانكليزيّة، وأقلّه أن يكون ذلك المؤلّف أبرزَها.

ليس المقصود من هذه الترجمة الجديدة «لآلهة الأرض» أن تكون محاولة تصحيحيّة في تعريب آثار جبران الانكليزيّة تضاف إلى محاولتي

---

[11] راجع نعيمه، ميخائيل، جبران خليل جبران، ص 285.

ميخائيل نعيمه ويوسف الخال المرضيتين في النبيّ. مع أنّها في واقع الأمر كذلك. ولا الهدف منها، وقد وقع الاختيار من باقي الآثار الجبرانيّة على آخر عمل صدر للمؤلّف في حياته، أن توحي بأنّ هذا الكتاب هو ثاني النبيّ من حيث الجودة. ولعلّه أيضًا في واقع الأمر شيء من ذلك. بل الهدف أن تيسّر للقارئ العربيّ وقد تسنّى له أن يرى صاحب النبيّ من خلال النبيّ، أن يتعرّف إلى ذلك الوجه الآخر لجبران الذي يطلّ به من خلال «آلهة الأرض» وحده دون غيره من مؤلّفاته، والذي قلّ أن تنبّه له أو تعرّف إليه أيّ باحث حتّى الآن. والذي يزيد في أهميّة هذا الوجه أنّه الصورة الأخيرة التي كان عليها جبران في خاتمة حياته قبل أن يرتحل والتي كانت في جملة ما واجه به ربّه عندما ارتحل. ألّا نتعرّف إلى الوجه الذي كان لجبران في تلك الصورة الختاميّة، فنقتصر فقط على ما رأيناه له في مؤلّفاته الأخرى وعلى رأسها النبيّ، يعني أنّ جبران قد مات مجهولًا وما برح كذلك.

«آلهة الأرض» حواريّة شعريّة بين آلهة ثلاثة. أحد هؤلاء إله يصدر في كلامه عن عدميّة خانقة ما بعدها عدميّة. فالوجود كلّه بما فيه ومن فيه معادلة لا نهائيّة مهولة مفرغة في جوهرها من أيّ معنى. فاليقظة رعب خالص لأنّها استفاقة الكائن الحيّ على عبثيّة ما هو فيه. والنوم رهيب لأنّه خداع العين المبصرة عمّا تتناهى إليه حدود الرؤية، فهو تخدير مؤقّت ريثما تنفتح العين ثانية بعد إغماض. والحلم هلع الحقيقة من نفسها وقد عمدت إلى تمويهه بالأماني. وهكذا ينتهي هذا الإله الأوّل إلى قراره:

عبث هي اليقظة،
باطل هو المنام،
وعبث مثلّث هو الحلم.

وذلك بعد أن يصرخ متمنّيًا في إحدى المقطوعات بيأس ما بعده يأس وقنوط ما بعده قنوط، لو ينسلّ من معادلة الوجود كلّها إلى عدميّة ما لم يكن شيئًا في الأصل:

تعبةٌ هي أنفاسي من كلّ ما هو كائن،
وإنّي لن أحرّك يدًا لأكوّن عالمًا
أو لأمحوَ آخر.
إنّني ما كنت لأحيا لو أنّ باستطاعتي أن أموت،
فأثقال الحِقَب ترسو على منكبيّ
وأنين البحار الذي بلا قرار، يُضني منامي.
آهٍ لو أستطيع أن أتوهَ عن المقصد الأُمّ
وأتلاشى ككوكب محترق؛
آهٍ لو أستطيع أن أعرّي ألوهتي من مقصدها
وألفظَ خُلودي في المدى،
وأنعدِم؛
آهٍ لو كان لي أن أُستهلك وأنسلّ من ذاكرة الزّمن
إلى خواء اللّامكان!

أمّا الإله الثاني فيصدر في صوته عن إيمان خلاصيّ أكيد. في نبرته الكثير من ثقة «النبيّ» و«يسوع ابن الإنسان» وسائر مؤلّفات جبران الخلاصيّة الأخرى. فالحياة سائرة إلى هدف. وكلّ ما فيها من سلبيّات ضعفٍ وألمٍ وموتٍ وعبث، إنّما هو الدرجات الأكيدة في سلّم الترقّي نحو الخلاص الإلهيّ على الذروة. ففي كلّ ذات حيّة متناهية قبس من العلويّ اللامتناهي. إنّ في كلّ ذات مبدأ خلاصها إذا عرفت في فسحة الزمن المعطاة لها أن ترقى باللانهائيّ المكبّل فيها إلى اللانهائيّ المطلق في الوجود:

نحن المدى الأبعد ونحن أعلى العليِّين،
وما من شيء بيننا وبين الأبديَّة التي بلا حدود
سوى شوقنا المحموم الذي بعد لم يتبلور
وسوى مَقصد ذلك الشَّوق.

* * *

إي! في ذاتكَ يرقد مخلّصكَ،
ويرى في إغفائه ما لا تراه عينُكَ المستيقظة.

وأمّا الإله الثالث وهو أصغرهم، فيقطع الحوار من حين إلى آخر بين شقيقيه ليُلفتهما إلى عاشقَين فتيَّين في المرج المقابل حرص هو منذ البداية على رصد حركاتهما. إنّهما مغنّ وراقصة كانا أوّلًا متباعدين لا يعرف واحدهما بوجود الآخر. إلّا أنّ نزَقَ الحياة الملتهب انجذابًا في كلٍّ منهما إلى الحياة، وحنينَ الإلف المتأجّج احتراقًا إلى الإلف، وشوقَ الضياع الراعب الموحود إلى اللقيا، قد انصهرت جميعًا في حلق المغنّي لتسيل ذوبًا من نداء، وتحوّلت إيقاعات استجابة في قدمي الراقصة لتنتهيَ بها وبه إلى دائرة لقاء فعناق فنشوة فسكون.

ويتمكّن هذا الإله الثالث في النهاية من إخراس رفيقيه المتجادلين في تنظير تجريديّ مفرغ، أمام نبض الحياة الفتيّة في الإنسان التي لا تعرف فراغ الفكر وسفسطة التنظير ولا تأبه لهما لأنّها أبدًا مترعة بالحبّ. يقول هذا الثالث:

آهٍ لبلوى المعرفة،
لذلك القِناع من التطفّل والتساؤل،
الذي سترنا به العالم والذي لا كوّة فيه على النّور،

إلى أن يقول:
ماذا تستطيعه أجناد المنطق منطقكما؛
حيث يأتي الحبّ بجحافله ويعسكر؟
إنّ أولئك الذين اجتاحهم الحبّ،
ومرّت فوق أجسادهم عربته
عابرة من بحر إلى قمّة
ومن القمّة رجوعًا إلى البحر
يَمثُلون بصورة هذين الواقفين الآن في نصف
عناق خجول.
إنّهما، بتَلة على بتَلة، يتنسَّمان العبير المقدّس،
وروحًا إلى روح، يحظيان بروح الحياة،
وعلى جفونهما تطفو صلاة
مرفوعة إليكما وإليّ.

وينتهي الحوار بين آلهة الأرض بفضل هذا الأخير إلى أنّ على الآلهة إذا هم شاؤوا أن يتخلّصوا من رعب وحدتهم وفراغ عالمهم أن يتأنّسوا، لا على الإنسان أن يتألّه. وهكذا يختتم الإله الفتيّ الثالث حوار آلهة الأرض بأنّ عليهم أن يواروا ألوهتهم أمام الحبّ البشريّ الطفل لأنّ له لا لهم في الحياة حقَّ القيادة.

أمّا نحن فسنعبُر إلى الشفق؛
عسى أن نستفيق على فجر عالم آخر.
وأمّا الحُبّ فيمكث،
ولن تُمحى أبدًا بصماته.
الكور المبارك في لهب،

الشّرر يتصاعد، وكلّ شرارة كوكب.
وإنّه لأجدى بنا وأحكم،
أن نلجأ بألوهتنا الأرضيّة إلى رُكنٍ قصيّ،
ونغفو،
تاركين للحُبّ، على بشريّته وضعفه،
قيادةَ الزمن الآتي.

بين أصوات «آلهة الأرض» الثلاثة، صوتان جبرانيّان جديدان لا عهد لنا بهما عند جبران النبيّ ويسوع ابن الإنسان. وإنّهما، وإن كنّا نسمع بعض ذبذباتهما الخافتة هناك، قد ارتفعا هنا وطغيا على كلّ صوت آخر بحيث لا يتركان أيّ شكّ في أنّ صاحبهما كان على عتبة تحوّل. إنّهما يبدوان كصرختي مخاض عن جبران جديد. أهو مخاض الموت المرتَقَب في نفس جبران واستجابة شعريّة لألم ذلك المخاض؟ لعلّه كذلك.

إنّ كلّ ما يقع ضمن إطار العقل والمعقول في الوجود ليس حقلًا صالحًا للشعر. ذلك لأنّه خاضع للتعليل والتحديد والشرح والتحليل – خاضع للفهم والإفهام. والنثر في هذا المجال أقدر من الشعر وأجدى وأصوب. النثر أفضل من الشعر وسيلة للمعرفة العقلية. وحده الكائن الحيّ إذن يبقى موضوعًا للشعر ولا يمكن أن تطاله أو تنفذ إلى حقيقته أيُّ نثريّة على الإطلاق. ذلك لأنّ الكائن وحده لا يمكن أن يحلَّل أو يُجزّأ أو يحدّد ثمّ أن يبقى خلال ذلك أو بعد ذلك كائنًا حيًّا. نحلّل لنعرف ممّا يتألّف الشيء، فيفوتنا سرّ التجسُّد. ونفتّق عن سرّ الحياة في الأحياء، فتطفأ الحياة في الأحياء تحت مبضع التنقيب ونبقى أمام عتمة الجثث. ففي حين أنّ الجثث هي موضوع العقل وحقل النثر، يبقى للشعر أن ينشغل أبدًا بالتجسُّد.

لقد كان جبران في أعماله حتّى «آلهة الأرض» يصدر في رؤاه الشعريّة عن مقولة عقليّة، كائنًا ما كان بُعدها الصوفي. إنّها الإعتقاد بأنّ الحياة وحدة لا متناهية هي الله، وإنّ الكائنات جميعًا هي مظاهر متعدّدة لهذه الحقيقة العلويّة. فكلّ إنسان مدعوّ إذن إلى الاتساع وعيًا، متخطّيًا ذاته الآنيّة التي هو فيها إلى حدّ الذوبان في اللامتناهي الذي هو الذات الحقّة – إلى حدّ الفناء في الله، وذلك حياة بعد حياة وموتًا بعد موت في سلسلة تقمّص تفضي به في النهاية إلى الوصول. هذا ملخّص فلسفة النبيّ التي صدر عنها جبران في جميع رؤاه الشعريّة. فكانت رؤى شعريّة صادرة في الأساس عن معادلة عقلية.

الموت تسلّم وتسليم. وليس يتسلّم الحيِّ إلّا الحيّ. فعندما أقبل جبران على عتبات الموت إلى تسليم نفسه الحيّة، لم يجد بموجب فلسفة «المصطفى» من يستلمه عبر الهاوية سوى الحياة الواحدة الكلية اللامتناهية التي هي الله. أي لم يجد سوى معادلة فكرية ذهنية معمّمة لا عين لها ولا قلب ولا كيان. اللانهاية مقولة بلا وجه.

وكيف يمكن أن يُقبِلَ الوجه الكائن الحيّ تسليمًا عبر الموتِ إلى لا وجه؟

من هنا الرعب الجبرانيّ في «آلهة الأرض» كما تجلّى في هذا الصوت العدميّ، وهذه العبثيّة التي كانها الإله الأوّل. لقد اخترق جبران عبر هذا الصوت جدار العقل – جدار مقولته النّبويّة الصوفيّة في المصطفى فإذا به يواجه الفراغ. إنّه أمام اللّاوجه، وليس معه من وجه في الفراغ المهول إلّا ذاته:

نفسي، آهٍ نفسي،
أيّتها الفلك الملتهب الذي يطوّقني،

كيف لي أن أقود مسارَك،
وإلى أيّ فضاء أوجّه حنينك؟

* * *

آهٍ نفسي. يا نفسي،
يا مركبًا جانحًا مثقلًا بالأماني،
من أين ستأتيك الريح لتملأ الشراع؟
وأيّ مدّ أعلى هو الذي سيحرّر فيكِ الدفّة؟
مرساتك مرفوعة وعلى السواري تُبسط الأشرعة،
لكنّ السماوات من فوقك مخنوقة الأنفاس،
والمياه الساجية من تحتك تهزأ من سكونك.
فأيّ الرّجاء رجاؤك أو رجائي؟

* * *

هل في رحم اللانهاية البتول
نطفة لمخلّص،
لمن هو أعظم من مطالات رؤاكِ
ولمن في يده أن يحلّك من إسارك؟

لقد سبق أن ألغى نبي جبران في فلسفته الإنسان. الإنسان في عرف النبيّ كائن مرحلي. عليه أن يلغي نفسه تساميًا في الله اللامتناهي. لذلك عندما شاء جبران «آلهة الأرض» أن يفتّش في هذا التيه المهول الذي وجد فيه عن كيان حيّ، أو وجه محدّد المعالم تنصبُّ فيه هذه اللانهاية المهولة المرعبة فتتجسّد وتتأنّس وتتسلّم الوديعة، لم يجد مسيحًا؛ لم يجد إلهًا مجسّدًا يسلّم نفسه إليه. فعاد مع إلهه الثالث إلى

البديل الوحيد المتبقّي – إلى الإنسان، وإلى الحبّ البشريّ الأرضيّ كحقيقة وحيدة وكلّ ما عدا ذلك عبث. ففي هذا الحبّ تنصهر اللانهاية كلّها؛ ينصهر هذا الله اللامتناهي نفسُه ويتأنّس. يقول هذا الإله الثالث وهو يُلفت رفيقيه إلى العاشقين المتعانقين:

أُلفتكما إلى المجد، مجدِكما ومجدي
ولكنّكما تتحوّلان عنه وتغمضان الجفون،
وتستسلمان لعرشيكما الهزّازين.
هوذا رجل وامرأة،
لهب إلى لهب،
في نشوة بيضاء.
جذور تمتصّ ثدي الأرض الأرجوانيّة،
وأزاهير لهب على أثداء السماء
وإنّنا نحن الأثداء الأرجوانيّة،
وإنّنا نحن السماء الجلود.
ذاتنا، حتّى ذاتُ الحياة عينها التي هي ذاتكما وذاتي،
إنّما تقيم هذه الليلة في حلق مشتعل
وتسربل جسم الصبيّة بأمواج نابضة.
ما لصولجانكما من سلطان على هذا القَدَر،
والذي فيكما من تضجّر، إن هو إلّا طموح.
جميع هذا وكلّ ما سواه يهوي وينهار انهيارًا
في غمرة الوجد، وجد مَرْءٍ وامرأة.

في «آلهة الأرض» إذن، ينتهي جبران النبيّ الذي كان حتّى الآن يقتصر في رؤاه الشعريّة على مخزون العقل الواعي، ويبدأ جبران جديد يقود رؤاه إلى مخزون اللاوعي – إلى الشخص السرّ الذي هو ينبوع كلّ شعر. ليس «آلهة الأرض» في ذاته أثرًا عظيمًا لجبران، فالحصيلة فيه أقلُّ بكثير ممّا ينبئ المخاض. لكنّه مؤشّر لتحوّل لم يتسنَّ لجبران من العمر ما يمكّنه من أن يحقّق شيئًا يذكر من أبعاده. في «آلهة الأرض» يظهر جبران الشاعر الذي بدأ يخترق جدار العقل. ترى أي مرحلة شعرية مهولة كان سيرودها هذا الذي خسرناه سنة 1931: أسورياليّة شخصانيّة، أم وجوديّة ملحدة، أم وجوديّة مسيحيّة وهو الأرجح؟ أم أنّه ترك كلّ هذا أو بعضه لمن استمرّ بعده من الرفاق؟

ن. ن.
1989

آلِهةُ الأرض

عندما هبطت ليلةُ الدّهر الثاني عشر،
وأغرق السكونُ، ذروةُ مدّ الليل،
هاماتِ التلال،
انتصب على الذُّرى، الآلهة الثلاثة
الذين هم مواليد الأرض وأرباب الحياة العمالقة.
كانت الأنهار تلفُّ أقدامهم،
وعند صدورهم يتهادى الضباب.
أمّا رؤوسهم فكانت مرتفعة بجلال فوق كلّ العالم.
وإذ تكلّموا، مثلما الرعدُ البعيد،
كرّت أصواتهم فوق البطاح.

الإله الأوّل

نحو الشرق تهبُّ الريح،
ولكنّي إلى الجنوب أدير وجهي،
لأنّ الريح تزحم منخريّ برائحة الميّتات.

الإله الثاني

إنّها رائحة اللّحوم المحترقة، زكيّة وغنيّة.
وإنّه ليطيب لي ان أتنشّقها.

الإله الأوّل

بل هي رائحة الأشياء المحتضرة تجفُّ قديدًا على
لهب ذواتها المتحشرج.
إنّها لَتنوءُ ثقيلة على الهواء،
وكالنّتن الصاعد من الحفرة الخبيثة،
تكدِّر أنفاسي.
وإنّي إلى الشمال الذي بلا رائحة، سأدير وجهي.

الإله الثاني

بل إنّ أريج الحياة في لهب تفتُّحها
هو ما سأتنشّقه من الآن وإلى الأبد.
على الذبائح يحيا الآلهة،
بالدم يُطفأ عطشهم،
بالأرواح الصبيَّة مرضاة قُلوبهم،
وبالتنهّدات الأبديّة لأولئك الذين يساكنون الموت
يكون اشتدادُ عصبِهم؛
وأمّا عروشهم فعلى رماد الأجيال تقوم.

الإله الأوّل

تَعبةٌ هي أنفاسي من كلّ ما هو كائن.
وإنّي لن أحرِّك يدًا لأكوِّن عالما
أو لأمحو آخر.
إنّي ما كنت لأحيا
لو أنّ باستطاعتي أن أموت،
فأثقال الحِقَب ترسو على منكبيّ
وأنينُ البحار الذي بلا قرار، يضني منامي.
آهٍ لو أستطيع أن أتوه عن المقصد الأمّ
وأتلاشى ككوكب محترق؛
آهٍ لو أستطيع أن أعرّي ألوهتي من مقصدها
وألفظَ خلودي في المدى،
وأنعدم؛
آهٍ لو كان لي أن أُستهلك وأنسلَّ من ذاكرة الزمن
إلى خواء اللّامكان!

الإله الثالث

أصيخا، يا أخويّ، يا شقيقيّ القديمين.
ففي الوادي، هناك، فتى
يرسلُ القلبَ إلى الليل غناء.
قيثاره إبريز وأبنوس.
فضّةٌ صوتُه وذهب.

الإله الثاني

لن أبلغ من الخفّة حدّ أن أُوثر التلاشي.
فأنا لا أملك إلّا أن آخذ الطريق الأوعر؛
أن أتتبّع الفصول وأُعلي جلال السنين؛
أن أُلحِدَ الحبّة وأرقبها تتفتّق في التراب؛
أن أنادي الزهرة من مخبئها
فأهبها القوّة لتحتضن الحياة التي فيها،
ثمّ لأقتطفها بعد ذلك آن تقهقه في الغاب العاصفة؛
أن أُخرج الإنسان من مكنون الظلام،
مُبقيًا جذوره مع ذلك عالقة بالتراب؛
أن أمنحه العطش إلى الحياة، وأجعل الموت حامل كأسه؛
أن أهبه الحُبَّ الذي يشحذه الألم،
وتُزكيه الشهوة ويتزايد مع الحنين،
والذي يذوي لأوّل عناق ويندثر؛
أن أجعل أحلامه بأيّام علويّة، طوقًا للياليه،
ورؤى لياليه الهنيّة مَددًا لأيّامه،
وأن أحصر مع ذلك أيّامه ولياليه
ضمن طوق التشابه الذي لا يتبدّل؛
أن أجعل خياله كنسر الشواهق،
وفكرَه كعصف البحار،
وأن أعطيه بعد ذلك يَدين بطيئتين عند الحسم،
ورجلين يُثقلهما التفكّر؛
أن أهبه الفرَحَ كي يقف أمامنا ويسبّح،
وأُنزل به الشقاء كي يتضرّع،

وأذلّه بعد ذلك،
عندما في جوعها تُقبِلُ الأرض على الطعام؛
أن أرتفع بروحه فوق قبّة الفَلك
حتّى على غَدنا يتفتّح ذوقه،
وأن أُبقي جسده متمرّغًا بالطين،
كي لا يَغرب عن باله أمسُه.
هكذا سنحكم الإنسان حتّى منتهى الدهر،
مُخضعين أنفاسه التي بصراخ أمّه بدأت،
وبمراثي أبنائه تُختتم.

الإله الأوّل

القلب عَطِش، لكنّني لست أرضى أن أرتوي بالدم
المُضنَى لجنس ضعيف،
فالكأس مُلوّثَة وعُصارتُها مرّة في فمي.
إنّي مِثلك قد عَركت الطين وصغته أشكالًا متنفِّسة
تركتها تنزلق عن أصابعي المُتَقَطِّرة لتدرُج على
الهضاب وفي الوهاد.
إنّي مثلك قد أضأت الأنفاق المظلمة للحياة في بدئها
ورافقت بناظريّ دبيبها من الأغوار حتّى قاسيات الذُّرى.
مثلك كان لي أن أستحضر الربيعَ وأوشّيه بالجمال
كي يكون الإغراءَ الذي يسحَر الشباب ويشدّه إلى التوالد.
مثلك كانَ لي أن أطوّف بالإنسان من مَزار إلى مزار،
وأن أتحوّل برُعبه الأبكم من مَهُول الغيب
إلى إيمان بنا مُرتجف، نحن الذين لا تُبلغه إلينا

معرفةٌ أو زيارة.
مثلك كان لي أن أمتطي من فوقه هُوجَ الرِّياح
كي يطأطئ أمامنا رأسه،
وأن أزلزل من تحته الأرض حتّى يصرخ إلينا ويتضرّع؛
مثلك كان لي أن أثير وحشيَّ البحار على جزيرته الآهلة،
إلى أن مات وهو بنا يستغيث.
هذا فعلتُه وأكثر.
والذي فعلته كان عبثًا كلُّه وفراغا.
عبثٌ هي اليقظة، باطل هو المنام،
وعبث مثلّث هو الحلم.

الإله الثالث

شقيقيَّ، يا شقيقيَّ المهيبين،
في غيضة الآس عند المنحنى
صبيّة ترقص للقمر،
في شعرها من الندى ألف نجمة،
وفي القدمين ألف جَناح.

الإله الثاني

في الضَّباب الأرجوانيّ للفجر الأوّل
غرسنا الإنسان، كرْمَتنا، وحرثنا التراب.
وطيلة أيّام السنين التي لا فصول لها
راقبنا أغصانه النحيلة وهي تنمو،
وتعهَّدنا أوراقها الفتيّة.

حصَّنّا البراعم من عاتيات العناصر،
ومن الأرواح الشرّيرة حَمينا الأزاهير.
وها أنت الآن، وقد أخرَج الكرمُ العناقيد،
لا تحملُ العنب إلى المعصرة كي تملأ الكأس بالنبيذ.
الغلال! يدُ من أقدر من يدك على جمعها؟
والخمرة! أيُّ عطشٍ أنبل من عطشك ينتظرها؟
طعامٌ للآلهة هو الإنسان.
وحينما تمتصّ شفاه الآلهة المقدّسة أنفاسَه الهائمة
عندها فقط يبدأ مجدُه.
فكلّ ما هو بشريّ، صفرًا يبقى، طالما أنّه بشريّ،
الطفولةُ ببراءتها والشباب في عذوبة انتشائه،
الرجولة في صبواتها العنيدة، والشيخوخة في رويّتها،
ألَق الملوك، وظَفر المحاربين،
شُهرة الشعراء، وتسامي القدّيسين وذوي الأحلام؛
هذه جميعًا وجميع ما فيها، خُبز للآلهة.
فهي إن لم يرفعها الآلهة إلى أفواههم
بقيت خبزًا بلا بَرَكة.
ومثلما يَبتلع الهزار الحبّة الخرساء فتستحيل
في فمه أناشيد حُبّ،
هكذا يكون الإنسان خبزًا للآلهة فيذوق طَعمَ الألوهة.

الإله الأوّل

إيْ، مأكولُ آلهةٍ هو الإنسان!
وكلّ ما هو إنسان، إلى مائدتهم الأبديّة سيُرفع!

آلام الحمْل وأوجاع المخاض،
صرخة المولود الطائشة التي تمزّق عُرْي الليل،
وعذابات الأمّ التي تصارع توسّلات النوم
لِتسْكبَ من ثدييها حياةً منهكة؛
الأنفاس اللّاهبة لشباب معذّب،
والزّفرات المثقَلة بأشواق حبيسة؛
الجبين المتقطّر، لرجولة تفلَحُ جديبَ الأرض،
وشحوبُ الشيخوخة ترسل الحسرات آن الحياة،
على غير ما تبغي الحياة،
ترفعُ النداء إلى القبور.
ذاك هو الإنسان!
مخلوقٌ على الجوع تربّى، وطعامًا لآلهة جياع أُعدّ.
إنّه الكرمة الزّاحفة في الغبار تحت أقدام
موت لا يعرف الموت.
هو الزهرة التي تتفتّح في ليالي أشباح شرّيرة؛
هو عنقود أيّام مفجَعة، وأيّام فزع وعار.
وبعدُ، ترغبون إليّ أن آكل وأشرب.
تطلبون إليّ أن أجالس وجوهًا مكفّنة،
وأن أَستقطر حياتي من شفاه حجريّة،
ومن أيادٍ ذاوية أن أتسلّم خلودي؟

الإله الثالث

شقيقيّ، يا شقيقيّ المهولين،
من ثالث الأعماق يغنّي الفتى،

وفي ثالث الأعالي يشيع نشيدُه.
صوتُه يُرعش الغاب،
يخترق السموات
ويبدّد سبات الأرض.

الإله الثاني (أبدًا لا يستمع)

طنينُ النّحلةِ يبدو لأذنك صوتًا أجشّ،
ومُرّ في شفتيك طعمُ العَسَل.
مُناي لو أستطيع لك العزاء،
ولكن أنّى لي ذلك؟
عندما ينادي الآلهةُ الآهلةَ، الهاوية وحدها تُنصت،
فالشّقّة بين أصحاب الألوهة أوسع من أن تقاس،
ومُفرغ من الأرياح هو المدى.
ولكنّي مع ذلك محاول أن أريحك
وأنشرَ الصفاء على كوكبك المتجهّم؛
وإنّي على رغم ما بيننا من تعادل في البأس والحكمة
سأُسدي إليك النُّصح.

عندما انبثقت الأرض من سديم وكان لنا نحن أبناء البدء أن يبصر واحدُنا الآخر في الضوء البراء، صعّدنا الهمسة المرتعشة الأولى التي أزكت مجاري البحر والهواء.

عندها مشينا، يدًا بيد، على وجه العالم الرّمادي الطفل، ومن أصداء خطواتنا المترنّحة الأولى وُلد الزمن قدّوسًا رابعًا، يمشي مطبقًا قدميه على آثار أقدامنا، طامسًا أفكارنا والرّغائب، ومبصرًا هكذا فقط من خلال عيوننا.

وتسرَّبت إلى الأرض الحياة وإلى الحياة تسرّب الرّوح، نغمُ الكون المجنّح. وكانت لنا السيادة على الروح والحياة، فما كان لأحد غيرنا أن يعرف مقاس السنين ولا عبء أحلامها السديميّة، حتّى كانت ظهيرةُ الدهر السابع حين عَقَدنا زواجًا بين الشمس والمحيط.

ومن حميم مخدع نشوتهما الزوجيّة استخرجنا الكائن البشريّ، ذلك المخلوقَ الذي، على تقلقله ووهنه، يحمل أبدًا سمات تحدّره الأبويّ.

وإنّنا من خلال هذا الإنسان الذي يجوب الأرض وعيناه مرتفعتان إلى النجوم، نَجِدُ المسالك إلى أقاليم الأرض القصيّة؛ من الإنسان، ذلك القصَبة الوضيعة النامية على ضفاف المياه الداكنة، نصنع المزمار الذي عبر قلبه الأجوف نسكب صوتنا على العالم المسربل بالسكون.

من الشمال الذي لا يعرفُ الشمس إلى شواطئ الجنوب التي يكويها الهجير.

من بلاد النّيلوفر حيث تُولد الأيّام
إلى حيث تُذبَح الأيّام في أقاليم الجزر المخوفة،
تَرى الإنسان، ذلك القلب المهيض، وقد ضاعفه مقصدنا جسارة،
يقبِلُ على خوض الغمار بالسَّيف وبالقيثارة.
إرادتنا نحن هي الإرادة التي يمتَشِقُها،
لنا نحن هي السيادة التي ينادي بها؛
وما الدروب التي داستها أقدام حبّه غير أنهارٍ تصبُّ في محيط أمانينا.

فنحن، ومِن على الذُّرى، نحلم خلال منام الآدميِّ أحلامنا.
نحثُّ أيّامه على أن تنسلّ من أودية الشفق
لِتَنشُدَ امتلاءها على التلال.
العواصف التي تكتسح العالم، أيدينا نحن هي التي توجِّهها

لتُخرج الإنسان من عقم الاستكانة إلى خصب الجهاد،
ثم إلى الظَّفر.
رؤى أعيننا نحن هي الرؤى التي تحوّل في الإنسان روحَه إلى لهب،
وتفضي به إلى توحُّد أثيريّ ونبوَّة ثائرة،
ثم إلى الصليب.
الإنسان للعبوديّة كانت ولادته،
وفي عبوديّته يكمن شرَفه وثوابه.
مطلبنا في الإنسان أن يكون الناطقَ بلساننا،
وتحقيقًا لذواتنا أن تكون حياتُه.
من لِصوتنا من مُرجعٍ للصدى إذا قَلبُ الإنسان
أخرسه التراب؟
ومن عساه يبصر الألَق، ألقَنا، إذا عين الإنسان أعماها الظلام؟
وماذا عساك تفعل بالإنسان، مولودِ أبكرِ قلوبنا؛
صورةِ ذاتنا نحن ومثالِها؟

الإله الثالث

شقيقيّ، يا شقيقيّ القديرين،
قدَما الراقصة منتشيتان بالأناشيد.
إنّهما تجعلان الهواء ينبض،
أمّا اليدان فكَيمامَتين تسبحان في المدى.

الإله الأوّل

القُبَّرة تناغي القُبّرة،
لكن النسر يهوّم مصعّدًا في الجو،

ولا يتوقّف كي يسمع الأغنية،
بودِّك أن تلقِّنني محبّةَ الذات التي من تَعبّد الآدميّ
تَسْتَمِدُّ إكتمالها،
لكنّ حُبِّي لذاتي ليس يقاس ولا يعرف حدًّا.
فأنا فوق موتي رهين الأرضِ، أسمو
فأتَّخِذُ من السموات عرشًا،
وأترك ذراعيّ تطوِّقان المدى وتحيطان بالأفلاك.
أتَّخِذُ من المجرّات قوسًا
ومن المُذَنّباتِ سهاما،
وأعمد باللّانهائي إلى اجتياح اللانهاية.

أمّا أنت فلن تفعل ذلك حتّى ولو كنت قادرًا عليه.
فإنّه كما الإنسان بالنسبة إلى الإنسان،
كذلك هم الآلهة نسبةً إلى الآلهة.
آهٍ، إنّك تريد أن تحمل إلى قلبي المتعَب
ذكرى مقامات تقضَّت في الضباب،
أزمانَ كانت نفسي تنشد ذاتها بين الجبال
وكانت عيناي تتعقّبان صورتيهما في المياه الظليلة؛
في حين أنّ سحابة أمسي ماتت على فراش المخاض.
وحده الصَّمت يقرع رحِمها
وفي صدرها تنغلُّ سافيات الرمال.
آهٍ أمسي، يا سحابة أمسي الميتة،
يا أمَّ ألوهتي المكبّلة،
أيُّ إلهٍ فائقٍ كان له أن واصلكِ في أجوائك المحلّقة

وقضى عليك بأن تَنْسُلي في القفص.
أيُّ جرمٍ جبّار من الشموس أدفأ صدرك
حتّى ولدتني؟
لا، لن أباركَكِ، كما لست أُلقي عليكِ اللعنة،
لأنّك كما أثقلتِني بعبء الحياة
هكذا الإنسان، أنا أثقلته.
إلّا أنّي كنت أقلَّ قسوةً منكِ.
فأنا المخلّد، ظلًّا عابرًا صنعتُ الإنسان
أمّا أنتِ المائتة، فحبلتِ بي كائنًا للخلود.

أيُّها الأمس، يا سحابة أمسي الميتة،
أراجعةٌ أنتِ مع الغد القصيّ،
فأمثُلَ بكِ أمام القضاء؟
وهل تعاودين اليقظة مع الحياة في فجرها الثاني
كي يتاح لي أن أمحو من الأرض تذكارك المتشبِّث بالتراب؟
آهٍ لو تُبعثين ومعك جميع موتى الأزمنة الغابرة
حتّى تغصّ اليابسة بما أعطته هي ذاتُها من ثمارٍ مرّة،
وتأسنَ البحارُ بالدم المسفوح،
ويَستنفد الويل على الويل ما للأرض من خصبٍ عقيم.

الإله الثالث

شقيقيّ، يا شقيقيّ الطَّهورين،
إلى مسامع الصبيَّة تناهت الأغنية،
وها إنّها الآن تسعى إلى المغنّي.

تتدافع وثبًا فوق الجداول والصخور
وتتلفَّت في كلّ اتّجاه
كأنّها الظبية في غمرة المفاجأة.
آهٍ لبهجة المقصد عند أبناء الفَناء،
للمُبتغى متفتِّحًا في نصف ولادة؛
لبسمة تطفو على شفه
يُرعشُها تلمُّظٌ مسبقٌ بالفرح الموعود!
أيُّ زهرة ساقطة من النعيم،
أيُّ لهب صاعد من جهنّم،
هو الذي جفّل قلب السَّكينة
بهذا الرّاعش اللاهث من فرح وخوف؟
أيُّ حلمٍ حلمناه على الذُّرى،
أيُّ فكرٍ وهبناه للرِّياح
هو هذا الذي أيقظ الوادي من غفلته
وأسلم الليل للأرق؟

الإله الثاني

لكَ أُعطي النَّولُ المقدّس،
وأن تعرف كيف تَحيك النسيج.
ولك إلى أبد الأبد سيكون النّول وفنّ الحياكة،
لك الخيط الداكن والخيط المُشرق
مثلما لك المذهّب والأرجوانيّ.
لكنّك مع ذلك تبخل على نفسك برِداء.
نفس الإنسان، بيديك غَزَلتها

من هواء نابض ونار،
وها أنت تريد الآن أن تَقطعَ الخيط
وتنصرفَ بأصابعك المتمكّنة إلى أبديّةٍ كسُول.

الإله الأوّل

لا بل إنّي مُطلق يديَّ في أبديَّة لم تزل بعدُ هَيولَى،
وإنّي إلى بقاع بعدُ لم توطأ، مسدّدٌ قدميّ.
أيُّ متعة هي متعة مألوف الأغاني،
تلك التي تلتقطُ الأذن لحنها المعتاد
حتّى قبل أن تُفضي بها الأنفاس إلى الهواء؟
قلبي يحنُّ إلى ما ليس يعرفه قلبي،
وإنّي إلى المجهول أطلق نفسي،
إلى ذاك الذي ليس تقطنه ذاكرة.
آهٍ، لا تستهوني بمجدٍ يُمتلك،
ولا تسعَ إلى تعزيتي بحلم يأتي منكَ أو منّي،
فجميع ما هو ذاتي، وجميع ما هو كائن على الأرض أو ما سيكون،
لا يحرّك نفسي.
آهٍ نفسي،
صامت هو وجهك،
وفي عينيكِ تغفو ظلال الليل.
لكن رهيب هو الصَّمتُ، صمتُكِ
وأنتِ رهيبة.

الإله الثالث

شقيقيَّ، يا شقيقيَّ الجليلين،
ها الصبيَّة قد اهتدت إلى المغنِّي.
هي الآن تُبصر وجهه النشوان.
بخطى رشيقة، ومثلما اللبوة، تنزلق إليه
خلال حفيف الدوالي وغضِّ العريش.
وها هو في صبواته المتأجِّجة
يتطلَّع إليها بملء الحدقتين.
شقيقيَّ، آهٍ يا شقيقيَّ الغافلين.
تُرى أإله آخر يزكيه الولوع
هو ذاك الذي حاك هذا الحبيك من قرمزيٍّ وأبيض؟
أيُّ نجمٍ جامح هذا الذي شرد؟
هذا الذي سِرُّه أن يَكشَحَ اللّيلَ عن الصَّباح،
وعلى كلِّ عالمنا تُهيمِنُ يداه؟

الإله الأوّل

نفسي، آهٍ نفسي،
أيُّها الفلك الملتهب الذي يطوِّقني،
كيف لي أن أقود مسارك،
وإلى أيِّ فضاء أوجِّه حنينك؟

إيهٍ نفسي التي بلا رفيق،
في مجاعة ذاتك تفترِسينَ ذاتك،
وعطشكِ، بالدمع دمعِك تُطفئينَه؛

فالليل لا يجمع في كأسِك ندى الليل،
والنهار لا يأتي إليك بثمر.
آهٍ نفسي، يا نفسي،
يا مركبًا جانحًا مُثْقَلًا بالأماني،
من أين لكِ الريح لتنشر الشِّراع،
والدفّة، أيُّ مدّ أعلى سيستطيع أن يحرِّرها؟
مِرساتك مرفوعة، وأشرعتُكِ مستعدَّة،
لكنَّ السموات من فوقِك مخنوقة الأنفاس،
والمياه الساجية من تحتِك تهزأ من سكونك.
فأيّ الرجاء رجاؤكِ أو رجائي؟
أيّ تبديل عوالم، أيّ مطلب جديد في السموات،
سيستطيع أن يحتويكِ؟
هل في رحِم اللانهاية البتول نطفةٌ لِمُخَلِّص،
لمن هو أعظم من مطالات رؤاكِ
ولمن في يده أن يحلَّكِ من إسارك؟

الإله الثاني

إحبس نداءك الملحّ،
وتنهّدات قلبك المحترق،
فالسماء غافلة،
وأُذن اللانهاية ليس تسمع.
نحن المدى الأبعد ونحن أعلى العليين،
وما من شيء بيننا وبين الأبديّة التي بلا حدود
سوى شوقنا المحموم الذي بعد لم يتبلور

وسوى مَقصد ذلك الشَّوق.
إنّك تستحضر المجهول،
والمجهولُ، مُسربَلًا بالسَّديم المتهادي،
قاطنٌ في ذات ذاتِك.
إي! في ذات ذاتكَ يرقد مخلّصك،
ويرى في إغفائه ما لا تراه عينُكَ المستيقظة.
ذلك سرّ وجودنا
أتترك الموسم وهو بعدُ لم يُجمع
لتستعجل البذارَ ثانية في أثلامٍ حالمة؟
ولماذا تحاول نشرَ غَمامتك على حقولٍ وعرةٍ ومقفرة،
في حين أنّ قطيعك أنت يسعى إليك
متلهّفًا إلى أن يتجمّع تحت ظلّك؟
ألا فارعوِ وتحوّل بناظريكِ نزولًا إلى العالم.
أنظر إلى أبناء حبِّك الذين لم يبلغوا بعدُ الفِطام.
الأرض مسكنك، والأرض عَرشك؛
وعاليًا فوق أماني الإنسان وأبعدها جُموحًا
ترتفع يدك حاملة مصيره.
إنّه ليس بوسعك أن تتخلّى عنه
ذلك الجاهد نحوك عبر المسرّة والوجع.
إنّك لن تتحوّل بوجهِكَ عن الحاجة التي
تتوسَّل إليك من عينيه.

الإله الأوّل

هل يضمُّ الفجرُ قلبَ الليل إلى قلبه؟
أم هل يعبأ البحر بأجساد موتاه؟
كالفجر ترتفع نفسي في داخلي
عاريةً وخفيفة.
وكالبحر الذي لا يعرف السكون
يلفظ قلبي ما يلوِّثه من مَوات الأرض والإنسان.
إنّي لن أتشبَّثَ بما هو متشبِّثٌ بي
بل إلى ذاك الذي هو أبعد من مطالي أريد أن يكون تطلُّعي.

الإله الثالث

شقيقيّ، يا شقيقيّ، أنظرا،
إنَّهما يتلاقيان؛ روحان منشدّتان إلى النُّجوم
تتلاقيان في الجَلَد.
يتملّى واحدهما الآخر وعلى الاثنين سكوت.
هو الآن لم يعد يغنِّي
إلّا أنّ حلقه الذي أحرقته الشمس ما زال نابضًا بالأغنية؛
أمّا رقصة الصبيَّة فهي الآن هادئة نشوى في المفاصل
لكنّها ليست غافية.
شقيقيّ، أيُّها الشقيقان العجيبان،
الليلُ مُغرقٌ في الحلَك،
وعاليًا يتألَّق ضياءُ البدر،
وبين المرج والشاطئ
صوتٌ نشوان يدعوكما إليه ويدعوني.

الإله الثاني

لنا أن نكون، وأن نسمو، وأن نحترق أمام الشمس المحترقة،
أن نحيا، وأن نرقُبَ ليالي الأحياء
كما ترقبنا الجوزاء!
أن نواجه الرياح الأربع برأسٍ رفيع متوّج،
وأن نشفي أسقامَ البشر بأنفاسنا المتواصلة!
للحائك أن يجلس مسترخيًا إلى نوله،
وللخزَّافِ أن يدير دولابه في شرود؛
أمّا نحن، نحن المدركين الذين لا تطالهم غفلة،
فإنّنا في حِلٍّ من أيّ تخمين أو احتمال.
فلا نحن نتردّد ولا نحن نلجأ إلى التفكّر.
بل نحن أبعد من القلق الذي يبعثه التساؤل.
كن هانئًا واترك لذوي الأحلام أن يعبروا.
دَعنا كالأنهار نجري إلى المحيط
محيطٍ أبعد من أن تحدّه ناتئات الصخور؛
وعندما نبلغُ فيه اللجّة ونذوب،
لا يعود يشغلنا حول غدٍ حِوار أو جدل.

الإله الأوّل

آهٍ، أيّ وَجعٍ هو وجع هذا التفكّر الذي لا يهدأ،
هذا السّهر الخفر السَّائر بالنهار إلى شَفَق،
وباللّيل إلى صباح؛
هذا المدُّ المتواصل أبدًا من تذكّر ونسيان؛

وهذا العمل الأبديّ في أن نزرع المصائر وألّا نحصد غير الأماني؛
هذا الدّأب الذي لا يتبدّل: نفسٌ تُرفّع من تراب إلى سديم،
كي تحنَّ هناك مجدّدًا إلى تراب، حتّى إذا هبطَ الحنين بها إليه،
ألهبَها حَنينٌ أكبر إلى أن تطلب الفضاء من جديد.
طوال الزَّمن نقيس الزَّمن.
أمحكوم على نفسي أن تكون ذلك البحر الذي أمواجُه
أبدًا تُربِك أمواجه،
أو ذلك الفضاء الذي أبدًا تستحيل الرياح المحتدمة فيه زوابع؟
لو أنّي كنت بشرًا؛ حفنةً عمياء،
لارتضيت بصبرٍ قسمتي.
أو لو أنّي كنت الخالق الأسمى،
الذي يملأ الفراغ في نفوس الآلهة والناس،
لعرفت الإكتفاء.
لكنّني لستُ بشرًا ولا أنت بشر
ولا نحن أيضًا ذلك الأسمَى.
ما نحن غير شفق عالق بين الأفق والأفق،
أبدًا يطلع وأبدًا يغيب.
ما نحن غير الهة قابضين على عالم هم أيضًا في قبضته،
نحن أقدارٌ تصوّت بالأبواق.
في حين أنّ الأنفاس النافخة، كما الأنغام، آتيةٌ من مدى أبعد.
وإنّي لأثور.
بودِّي لو أستنفد ذاتي وأتحوَّل إلى فراغ،
لو أُذيب نفسي في ما لا تطاله رؤاك،
ولا ذاكرة هذا الفتى الصامِت، شقيقِنا الأصغر،

الذي يجلس بيننا فيما عيناه شاخصتان إلى الوادي البعيد،
والذي على الرُّغم من تحرُّك شفتيه لا ينطق بكلمة.

الإله الثالث

إنّني متكلِّم يا شقيقيَّ الغافلين،
إنّني فعلًا أتكلّم،
لكنّكما لغير ما تقولانه لا تصغيان.
ألفتكما إلى المجد، مجدِكما ومجدي،
ولكنّكما تتحوّلان عنه وتغمضان الجفون،
وتهزّان عرشيكما مُتَرَجِّحينْ.
أيّها المِلكان الطامحان إلى سيادة العالم
عاليه ودانيه،
يا إلهين أسيرين لذاتيهما، ولاويين على أمسٍ هو أبدًا في غيرةٍ من غده،
يا ذاتين مُتعَبتين بذاتيهما تُنفِّسان عن كربهما بالكلام
وتجلدان كوكبنا بالصواعق!
ما خلافكما غير ترجيعٍ لقيثارةٍ علويّةٍ تليدة
أشاحت عن أوتارها في شبه غفلة، أنامل العُلويّ
ذاك الذي يتَّخِذ من المجرّة قيثارةً ومن الثُّريا صنوجا.
حتّى في هذه اللحظة، وأنتما في غمغمةٍ ودمدمة،
تَشيع أنغام قيثارته وأصوات صنوجه،
وإنّي لأتوسَّل إليكما أن تُصغيا لنشيده.
هوذا رَجل وامرأة،
لهبٌ إلى لهب،

في نشوةٍ بيضاء،
جذورٌ تمتصُّ صدرَ الأرض الأرجوانيّة،
أزاهير لَهبٍ على أثداء السماء.
وإنّنا نحن الأثداء الأرجوانيّة،
وإنّنا نحن السماء الجَلود.
ذاتنا، بل ذات الحياة عينها وهي ذاتكما وذاتي،
إنّما تُقيمُ هذه الليلةَ في حَلْق لاهب،
وتسربل جسم صبيَّة بأمواج خافقة.
ما لصولجانكما من سلطان على هذا القدر،
والذي فيكما من سأمٍ هو محضُ طموح.
جميعُ هذا وكلّ ما سِواهُ تلاشيًا يتلاشى
في غمرةِ الوجد، وجْدِ مَرْءٍ وامرأة.

الإله الثاني

آهٍ، ماذا عن هذا الحُبّ ما بين امرأة ورَجُل؟
أنظر كيف تترنَّح الرّيحُ الشرقيّة مع قدميها الرّاقصتين،
وكيف تُقْبِلُ الرّيحُ الغربيّة مترنّمة مع نشيده.
هوذا مقصدنا القدّوس بالغٌ الآنَ تمامَه،
في إذعان روحٍ مغنّية إلى جسدٍ راقص.

الإله الأوّل

إنّي لن أتحوّل بناظريَّ نزولًا إلى اعتداد الأرض،
ولا إلى ما يُكابده أبناؤها من احتضار بطيء تُسمّيه الحُبّ.
وهل الحُبُّ،

غير الطّبل المغلّف، يتقدّمُ تلك المسيرة الطويلة
من لذيذِ التوقُّع إلى احتضارٍ آخرَ بطيء؟
لا، لن أتطلّعَ إلى أسفل.
وأيّ شيء يُرى هناكَ
غير رجلٍ وامرأة في غابٍ ما نَبتَ إلّا ليوقِعهما في المصيدة،
مَصيدةِ أن يُنكرا ذاتيهما،
فيَحْتَضِنا مخلوقاتٍ يُعدّانِها لغَدِنا الذي بعدُ لم يُولَد؟

الإله الثالث

آهٍ لبلْوى المعرفة،
لذلك القِناع من التطفُّل والتساؤل،
الذي سَتَرنا به العالم والذي لا كوّة فيه على النّور؛
أيّ تحدٍّ هذا لطاقة الإنسان على الجَلَد!
تحت بلاطةٍ نُلحِدُ الجثّة الممتقعة
ثم نقول، إنّها شيء من تراب،
وإلى تراب تعود.
وعلى أكفّنا نرفع اللّهب النّقي
قائلين في قلوبنا،
إنّه القبسُ من ذاتنا في طريق الرّجوع،
هو النفَسُ الذي سَبَق وأفْلتَ من أنفاسنا،
يعود ليهوِّم الآن فوق أيدينا وعلى شِفاهنا
طلبًا للمزيد من العبير.
إلهَي الأرض، يا أَخَوَيَّ،
إنّنا، كائنًا ما كان انطلاقنا على القمّة،

ما زلنا مُرتَهنين للأرض،
من خلال الإنسان التائق إلى المنتهى الذّهبي لِمَصيره.
أتُقْدِمُ حكمتُنا على ان نَحجُبَ الجَمالَ عن عينيه؟
أترتضي مقاييسنا أن نُخْضِعَ أشواقه لأشواقنا نحن،
أو أن نحوِّلها فيه إلى سُكون؟
ماذا تستطيعه أجنادُ المنطِق، منطِقِكُما
حيث يأتي الحُبُّ بجحافله ويُعسْكِر؟
إنَّ أولئِك الذين اجتاحَهم الحُبّ،
ومرّت فوق أجسادهم عَرَبَتُه
عابرة من بَحرٍ إلى قمّة
ومن القمّة رجوعًا إلى البحر،
يَمثُلونَ في هذين الواقفَين الآن في نصف عناق خجول.
إنّهما بَتَلةٌ على بَتَلة، يتنسَّمان العبير المقدّس،
وروحًا إلى روح، يحظيان بروح الحياة؛
وعلى جُفونهما تطفو صلاة
مرفوعةٌ إليكما وإليّ.
الحُبُّ ليلٌ تكوّر كوخًا مُعطّرًا،
سماءٌ تحوّلت مرجًا واستحالت جميع أنجمها حَباحب.
صحيحٌ أنّنا نحن المدى الأبعد،
وصحيحٌ أنّنا الأسمى.
لكنّ الحبَّ أبعدُ من تفلسُفنا
وأعلى ممّا لنشيدنا أن يحلِّق.

الإله الثاني

أَتسعى إلى فَلَكٍ قصيّ،
وتشيح عن هذا الكوكب الذي ضُرِبت فيه أطنابُك؟
ليس من مرتكز في متاهة المدى
إلّا حيثُ تقترنُ نَفْسٌ بِنَفس
ويكون الجمال إشبينًا لهما وكاهنا.
تطلَّع وانظُرْ إلى الجمال مذروًّا حول أقدامنا،
إليه يَملأ أكفّنا ليُخجِلَ منّا الشفاه.
أقصى الأشياء أشدّها قربًا.
وحيث يكون الجمال، كلّ شي يكون.
آهٍ، أيّها الشقيق المهوّم الحالم،
عُدْ إلينا من تُخومِ الزمن المدلهمّة!
أعتق قدميك من اللامكان واللازمان،
وامكثْ معنا في هذا المأمن الذي تضافرت أيدينا ويداك
على بنائه حجرًا فوق حجر.
إخلع عنك وشاحَ التفكّر الكئيب،
وكُنْ رفيقنا نحن أسياد الأرض الفتيّة الدافئة الخضراء.

الإله الأوّل

أيّها المذبح الأبديّ! تُرى أتَقْبل حقًّا هذه الليلة
أن تكون ذبيحَتُك إلهًا؟
إذن، ها أنا ذا، رافعًا إليك،
تألُّمي وولوعي.
ها الراقصة هناك، إنّها من توْقنا المتقادم قُدْت،

وبالأغاني، أغانيَّ، يرفع هذا المغنِّي صوته للريح.
وإنّ في ذلك الرقص وهذا الغناء،
إلهًا يُذبح في داخلي.
قلبي الآلهيُّ الذي بين أضلُعي البشَريَّة
يَنده قلبي الإلهيَّ القاطن في الريح.
الحُفْرَةُ الآدميّة التي أضْنَتْ منامي تستصرِخُ فيَّ الإله.
الجَمال الذي نشدناه منذ البدء
يصرخ إلى الألوهة.
إنَّني أصغي، لقد عرفت مدى النداء،
وها إنّني الآن أستجيب.
الجمال ممرٌّ يُفضي إلى الذات ذابحةً ذاتَها.
إضرب أوتارك.
إنّي لسالكٌ ذاك الممرّ.
وإنّه لمفضٍ أبدًا إلى فجرٍ آخر.

الإله الثالث

الحُبُّ يَنْتَصِر.
أخضرُ الحُبّ وأبيَضُه على شاطئ بحيرة
أنَفَةُ الحُبِّ الجليلة على شُرفةٍ أو بُرج؛
الحُبُّ في حديقة أو في الصحراء المقفرة،
الحُبُّ مولانا وسيِّدنا.
الحُبُّ ليس تفسّخَ اللحم الدَّاعر،
ولا هو تداعي الشهوة
عندما تكون النّفسُ والشهوة في صراع،

لا، ولا هو اللحم الذي يتمرَّد على الروح.
الحُب لا يثور.
إنّه فقط يهجرُ دربَ الأقدار العتيدة المطروق
طلبًا للغابة المقدّسة،
كي يرفَعَ إلى الأبديّة، راقصًا ومغنِّيًا، سرَّ تلك الغابة المكنون.
الحُبُّ شبابٌ تهاوَتْ قُيودُه،
رجولةٌ تعافت من زبدها،
وأنوثةٌ أدفأها اللّهب
فتوهّجتْ بأنوارِ سماءٍ أبعد من سمائنا.
الحُبُّ ضحكةٌ قصيّةٌ في الرُّوح.
إنّه انقِضاضَةٌ وحشيّةٌ تجعلُك من السكون بحيث تسمع
في ذاتِكَ دَبيب اليقظة.
هو فَجرٌ على الأرض جديد،
نهارٌ ما اجتلتْه بعدُ عيناك وعيناي،
لكنّه قائمٌ جليٌّ في قلب ذاتِه الأعظم.
شقيقيّ، يا شقيقيّ،
العروسُ مقبلةٌ من قلب الفجر،
والعريسُ مُقبلٌ من مغرب الشمس.
وفي الوادي عُرسٌ قائم.
هوذا يومٌ أرحبُ من أن يدوّن.

الإله الثاني

هكذا كانت الدُّنيا منذ كان للصباحِ الأوّل
أن يشُقَّ في البطاح أوديةً ويرفَعَ التِّلال،

وهكذا هي باقية حتّى المساء الأخير.
جُذورنا نحن هي التي تفَتَّقَتْ عن تلك الغصون
الراقصة في الوادي،
ونحنُ هم أزاهيرُ ذلك الغناءِ العَبِق المتصاعد إلى الأعالي.
هوذا خالدٌ ومائت، نهران توأمان يُناديان المُحيط.
ليس من فراغٍ بين النداء والنِّداء،
إلّا في الأذن.
الزَّمنُ يجعلنا أكثرَ يقينًا من أنّنا نستمِع
كما يزيد في شوقِنا إلى الإستماع.
لا يخنق الصوتَ غيرُ الشَّكِّ عند أبناء الفناء.
لكنَّنا نحن علَوْنا على الشّك.
الإنسان طفلُ قلبِنا الأصغر،
الإنسان إله ينهضُ في تمهُّل،
وما بين ابتهاجه وتألّمه
يمتدُّ بنا نحن المنامُ وما ينطوي عليه من أحلام.

الإله الأوّل

دع المغنِّي يصيح، والراقصةَ تدَوّم القدمين
ودعْني هنيهةً أهدأ.
دعْ لروحي هذه الليلة أن تستكين.
عَلّي أعرفُ النُّعاس، وفي نصف إغفاءتي
أُبصرُ عالمًا أبهى
وكائناتٍ دُرِّيّةً شفيقة هي الأقرب إلى خاطري.

الإله الثالث

ها أنا سأنهضُ الآنَ وأتعرّى من الزمان والمكان،
وأرقصُ في ذلك الحقلِ الذي ما وطِئتْ قدمٌ بعدُ أديمَه،
وستُشرك الراقصةُ في وقعِ قدميها قدميّ؛
في ذلك الجوِّ الطلق سأُنشد،
وإنّ صوتًا بشريًّا سيختلج في صوتي.
أمّا نحن فسَنعبر إلى الشَّفَق؛
عسى أن نستفيق على فجرِ عالمٍ آخر.
وأمّا الحُبّ فيمكث.
ولن تُمحى أبدًا بَصَماتُه.
الكور المبارك في لَهب،
الشَّرر يتصاعد، وكلُّ شرارة كوكب.
وإنّه لَأجدى بنا وأحكم،
أن نلجأ بأُلوهتِنا الأرضية إلى ركنٍ قصيٍّ
ونغفو،
تاركين للحُبِّ، على آدمِيته وضعفه، قيادة الزمن الآتي.

حديقة النبيّ

The Garden of the Prophet, 1933

وفي شهر تشرين، وهو شهر التذكّر، عاد المصطفى، الـذي كان قمرًا لزمانه، إلى جزيرة مولده.

وفيما كانت سفينته تقترب من الميناء، وقف على مقدّمها محاطًا ببحّارته، وفي قلبه رجوع إلى الديار.

وفتح فاه قائلًا، ورَجْعُ الموج في صوته: «ها هي ذي جزيرة مولدنا. هنا بالذات تمخّضت بنا الأرض وأطلقتنا أغنية وأحجية؛ أغنية للسماء وأحجية للأرض؛ وهل بين أرض وسماء ما له أن يحمل الأغنية ويحلّ الأحجية، غير الشوق الذي فينا؟

«مرّة ثانية يسلّمنا البحر إلى هذه الشواطئ. وما نحن سوى موجة من موجاته. هو يطلقنا كي نسبُر أبعاد خطابه، ولكن أنّى لنا ذلك ما لم يتشظَّ قلبنا على صخور الشاطئ ورماله.

«ذلك أنّ هذه هي شريعة البحّارين والبحر: إذا أنتَ أردتَ الحرّية، فعليك أن تستحيل سديمًا. الهيولانيّ هو في سعي أبديّ إلى أن يتشكّل، تمامًا كما تتحوّل التجمّعات الضوئيّة السديميّة الطائفة إلى شموس وأقمار؛ ونحن الذين طوّفنا كثيرًا قبل أن نعود الآن إلى الجزيرة كُتَلًا متصلّبة، علينا أن نتحوّل ثانية إلى سديم فنعرف المبتدأ. وهل من

شيء يتكوّن وينهض إلى أعلى إلّا ويتشظّى رجوعًا إلى سديم من حرّية وحنين؟

«نحن سنظلّ أبدًا طلّاب شواطئ حيث لنا أن نغنّي ويُسمع الغناء. ولكن ماذا عن الموجة التي تتحطّم حيث لا أذن لتسمع؟ إنّه ذاك الذي لا يسمع فينا هو الذي يغذّي حزننا الأعمق. ولكنّ غير المسموع إيّاه هو أيضًا الذي يمنح أنفسنا كيانها ويرسم مصيرها.»

وتقدّم عندها أحد بحّارته فقال: أنت يا سيّدي من تولّى التوجّه بحنيننا إلى هذا المرفأ، وها إنّنا قد وصلنا. ولكنّك مع ذلك تتكلّم عن حزن وعن قلوب ستتحطّم.»

فأجابه وقال: «أما تحدّثْتُ عن الحرّية وعن السديم الذي هو حرّيتنا الأعظم؟ لكنّي بتألّم أقوم بهذا الحجّ إلى الجزيرة التي فيها ولدتُ، لكأنّي شبحٌ قتيل آتٍ ليسجد أمام أولئك الذين قتلوه.»

وتكلّم بحّار آخر فقال: «تطلّع وانظر! هذه الجموع على سور البحر. إنّهم في سكينة أنفسهم قد تنبّأوا حتّى بنهار مجيئك وساعته، فتجمّعوا من حقولهم وكرومهم بدافع من حاجتهم المَشُوقة، لانتظارك.»

وتطلّع المصطفى من بعيد إلى الجموع بقلب يعي شوقهم، وظلّ ساكتًا.

وعندها جاءت صيحة من الجموع، وكانت صيحة استذكار وتوسّل.

فالتفت إلى بحّارته، قائلًا: «وما الذي جئتُ به إليهم؟ صيّادًا كنتُ في أرض قصيّة. وإنّي ما بين تسديد وقوّة ساعد، قد استهلكتُ جميع السهام الذهبيّة التي زوّدوني بها، ولكن من غير أن أُسقِط أيّ طريدة. لم أتتبّع السهام. فلعلّها تسبح الآن في الشمس محمولة بقوادِمِ أجنحَةِ النسورِ الجريحةِ التي أبت السقوط إلى الأرض. ولعلّ النِّبال قد

سقطت ووقعت في أيدي من هم بحاجة إليها من أجل الحصول على الخبز والنبيذ.

«لستُ أدري أين أنهت السهام تحليقها، لكنّ الذي أعرفه أنّها قد رسمَت، وهي تهوي، أقواسَها في الفضاء.

«وعلى أيّ حال، فإنّ يد المحبّة ما زالت تتعهّدني، وأنتم يا بحّارتي، ما زلتم تبحرون برؤياي، فلن أكون هكذا أخرس. سأصرخ عاليًا عندما تأخذ بخناقي يدُ الفصول، وسأُنشد كلماتي عندما تحرق ألسنة النار شفتيّ.»

واعترى القلق قلوبهم من هذا الذي قاله. فقال أحدهم: «يا معلّم، علّمنا جميعًا، ولعلّنا بسبب من دمك الذي يجري في عروقنا، ومن أنفاسنا التي هي من أريجك، سنبلغ الفهم.»

فأجابهم، والرّيح في صوته، قائلًا: «أجِئتُم بي إلى جزيرة مولدي لأكون معلّمًا؟ أنا ما أدخَلَتْني الحكمة بعد قفصها. إنّني ما زلت أكثر فتوّة وأشدّ ريعانًا من أن أُشغل كلامي بغير الذات، التي هي البحر ينده أبدًا إلى البحر.

«دعوا الذي مراده الحكمة، يسعى إليها في زهرة، أو في حفنة من طين أحمر. أنا ما زلت المغنّي. وما زلت سأغنّي الأرض وأغنّي أحلامكم الضائعة التي تجتاز النهار ما بين إغفاءة وإغفاءة. إلّا أنّي الآن سأتطلّع إلى البحر.»

ودخلَتِ السفينة الميناء حتّى بلغت السّور، وهكذا وصل إلى جزيرة مولده ووقف من جديد بين أبناء قومه. فخرجَت من قلوبهم صيحةٌ عظيمةٌ اهتزّت لها في داخله تلك الوحدة التي كان يعنيها رجوعه إلى الدّيار.

كانوا صامتين في انتظار كلمته، إلّا أنّه لم يستجب لهم، بسبب ما اعتراه من كآبة الذكرى، وقال في قلبه: «أقلتُ إنّني سأغنّي؟ لا، إنّ فِيَّ فقط أن أفتح شفتيّ علّ صوت الحياة ينطلق إلى الرّيح طلبًا للفرح وللعون.»

وتكلَّمَت كريمة، تلك التي لعبت معه، طفلًا، في حديقة أمّه، فقالت: «إثنتا عشرة سنة وأنت تخبّئ عنّا وجهك، واثنتا عشرة سنة ونحن نجوع إلى صوتك ونعطش».

وتطلّع إليها برقّة فائقة، ذلك أنّها هي التي أطبقت عيني أمّه عندما جاءت أجنحة الموت البيضاء وغيّبتها.

فأجاب قائلًا: «إثنتا عشرة سنة؟ أقلتِ اثنتَي عشرة سنة يا كريمة؟ أنا لم أقس حنيني بمعايير الأفلاك، ولا سبرت أعماقه بتلك المعايير. ذلك أنّ الحبّ، عندما يكون الحبّ مريض شوق إلى الديار، يستنفد معايير الزمن ومقاييسه.

«ثمّة لحظات تنطوي على دهور من الفراق. إلّا أنّ الفراق مع ذلك ليس سوى إرهاق في الذهن. لعلّنا في الواقع لم نفترق.»

وأدار المصطفى نظره في الناس جميعًا، الشباب والشيوخ، الركين والضعيف، أولئك الذين لوَّحتهم الشمس وراضَهُم الريح، وأولئك أيضًا الذين امتقَعَت منهُمُ الوجوهُ، فرأى عليهم إشراقة من شوق ومن تسآل.

وتكلّم أحدهم فقال: «الحياة يا معلّمي قد تعاطت بقسوة مع آمالنا وأمانينا. قلوبنا مضطربة، ويعوزنا الفهم. ألا أرحتنا وأَبَنْتَ لنا معاني أحزاننا؟»

فاعتصرت الرأفة قلبه، وقال: «الحياة أقدم من جميع الكائنات الحيّة؛ مثلما أنّ الجمال كان مجنّحًا قبل أن توجد الأشياء الجميلة على

الأرض، أو مثلما أنّ الحقيقة كانت حقيقة قبل أن تستحيل نُطقًا على شفّة.

«الحياة تغنّي من خلال صمتنا وتحلم من خلال إغفائنا. حتّى عندما نكون نحن مقهورين ومذلولين، تبقى الحياة رفيعة ومتوّجة. وعندما نحن ننتحب، تبقى الحياة باسمة للنهار، وتكون حرّة حتّى عندما نكون مقيّدين بالسلاسل.

غالبًا ما ندعو الحياة بأسماء قاسية، ولكنْ عندما نكون نحن قساة وسوداويّين؛ ونعتبرها فارغة وشحيحة، ولكن فقط عندما تكون النفس تائهة في مكان بَلْقَع ويكون القلب مترعًا حتّى السّكر بالذات الممتلئة بذاتها.

«الحياة عميقة ورفيعة وقصيّة؛ وعلى الرغم من أنّ رؤيتكم مهما امتدّ مجالها، بالكاد تبلغ قدمَيها، فإنّها تبقى قريبة؛ وعلى الرّغم من أنّ لهاث لهاثكم وحده قادر أن يبلغ قلبها، فإنّ وجهها يرصد ظلّ ظلّكم، وصدى أضعف صرخة تصدر عنكم يستحيل ربيعًا وخريفًا في صدرها.

«والحياة مقنّعة ومستترة مثلما أنّ ذاتكم الكبرى مستترة ومقنّعة. ولكن عندما الحياة تتكلّم تستحيل الأرياح كلّها كلامًا؛ وعندما تعود ثانية فتتكلّم تستحيل البسمات على شفاهكم والدموع في مآقيكم هي أيضًا كلامًا. وعندما الحياة تغنّي، يسمع الطرشان غناءها ويُؤخَذون، وعندما تقبل متمشّية يراها الذين لا نظر عندهم فيدهشون ويتتبّعونها بتعجّب وذهول.»

وتوقّف عن الكلام فلفّ الجموعَ صمتٌ عميق، تخلّله أغنية ساكتة، فأُريحوا هكذا من توحّدهم ووجعهم.

وتركهم على الفور آخذًا الدرب المؤدّية إلى حديقته التي كانت حديقة أمّـه وأبيـه، حيث يغفُوان الآن إلى جانب الغافين من الآباء والأجداد.

بين الجموع من كان بودّهم لو يتبعونه باعتبار أنّها رجعة له إلى الديار، وهو فيها وحده، لأنّ أحدًا من الأهل والأنسباء، لم يكن بعد موجودًا ليمدّ وليمة الترحيب على ما كانت عليه عوائد قومه.

لكنّ قبطان سفينته طلب إليهم قائلًا: «دعوه يذهب في طريقه، لأنّ خبزه هو خبز التوحّد، ولأنّ في كاسه خمرة هي الذكرى التي يريد أن يشربها وحيدًا.»

فأوقف بحّارته خطاهم لأنّهم كانوا يعلمون أنّ الأمر كما تكلّم القبطان. وعمد جميع الذين كانوا على السور إلى لجم ما كانت تشتهيه أرجلهم.

وحدها كريمة مشت خطوات قليلة وراءه تحدوها اللهفة على توحّده وذكرياته. هي لم تقل شيئًا، بل قفلت راجعة وذهبت إلى بيتها. وفي الحديقة تحت شجرة اللوز، وقفت في طريقها تبكي دون أن تعرف لماذا.

وأقبل المصطفى ووجد حديقة أمّه وأبيه، فدخلها وأقفل بابها كي لا يدخل إنسان وراءه.

ومكث وحده في تلك الحديقة وذلك البيت أربعين نهارًا وأربعين ليلة، من غير أن يأتي إنسان ولا حتّى إلى الباب. فهذا كان مقفلًا، فضلًا عن أنّ الجميع كانوا يعلمون أنّه يريد أن يكون وحده.

وعندما انقضت الأيّام والليالي الأربعون، فتح المصطفى الباب كي يتسنّى لهم الدخول.

وأتى إليه تسعة رجال ليكونوا معه في الحديقة؛ ثلاثة من بحّاريه في السفينة؛ وثلاثة ممّن خدموا في المعبد؛ وثلاثة من رفاق الصِّغَر الذين كانوا يلعبون معه أيّام الطفولة. وهؤلاء التسعة كانوا تلامذته.

وذات صباح تحلّق تلاميذه حوله، وكانت في عينَيه أبعاد وتذكارات. فقال له أحدهم واسمه حافظ: «حدّثنا يا معلّمي عن مدينة أورفليس، وعن تلك الأنحاء حيث مكَثْتَ هذه السنوات الإثنتَي عشرة.»

كان المصطفى ساكتًا. تطلّع نحو التلال وإلى الأثير اللامتناهي، وكان في سكوته عراك.

ثمّ قال: «يا أصحابي ويا رفاق الطريق، ويلٌ لأمّة كثرت مذاهبها وقَلَّ فيها الدين.

«ويلٌ لأمّة ترتدي لباسًا ليس من حياكتها، وتأكل خبزًا ليس من غلالها، وتشرب خمرًا لا يسيل من معاصرها.

«ويلٌ لأمّة تصفّق للمستأسِد على أنّه بطل وللفاتح المتجبّر على أنّه جواد.

«ويلٌ لأمّة تحتقر هوى يزورها في الحلم، ثمّ تستسلم له بعد أن تستفيق.

«ويلٌ لأمّة لا ترفع صوتها إلّا وهي سائرة في جنازة، ولا تفاخر إلّا بخرائبها، ولا تُقدِم على الاحتجاج إلّا حين تمدّ رقبتها ما بين السّيف والمسندة.

«ويلٌ لأمّة سياسيُّها ثعلب، وفيلسوفها مشعوذ، وفنّها فنّ الترقيع والتقليد.

«ويلٌ لأمّة تستقبل حاكمها الجديد بالتطبيل وتودّعه بالتزمير قبل أن تعود فتطبِّلَ لجديد من جديد.

«ويلٌ لأمّة حكماؤها أخرسَتْهُم السنون في حين أنّ أقوياءها ما زالوا في المهد.

«ويلٌ لأمّة مقسّمة إلى شظايا، وتحسب كلّ شظيّة نفسها أمّة.»

وقال أحدهم: «أخبرنا عن ذاك الذي يعتمل في قلبك الآن.»

فتطلّع إلى المتكلّم قائلًا وكأنّ في صوته نجمًا يغنّي: «أن تكون في حلم يقظتك، هادئًا ومصغيًا إلى الأعمق في ذاتك، تتهادى أفكارُك وتتساقط كَرِقاع من الثلج فتلبس جميع أصوات أبعادك ثوبًا من السكون الأبيض.

«وهل أحلام اليقظة إلّا الغيوم التي تتفتّح وتُزهِر على شجرة قلبك السماويّة؟ وهل أفكارك إلّا البتلات التي تحملها نسائم قلبك وتذروها على الحقول والتلال؟

«وكما أنّك تطلب الهدوء ريثما يتسنّى لغير المبلوَرِ في ذاتك أن يتبلور، كذلك هو شأن تلك الغيوم التي تتجمّع وتبقى سابحة إلى أن تتولّاها الأصابع الدهريّة القدّوس، فتبلور أشواقها الرماديّة على صورة شموس وأقمار ونجوم».

عندها تكلّم سركيس، الذي كان نصف مشكّك، فقال: «لكنّ الربيع سيُقبِل فتذوب كلّ ثلوج أحلامنا وأفكارنا ويلفّها العدم.»

فأجاب قائلًا: «عندما يأتي الربيع ليتفقّد أحِبَّتَه في الغياض والكروم الرّاقدة، ستذوب الثلوج فعلًا وتتراكض جداول وغدرانًا إلى النهر في أسفل الوادي حاملةً كؤوس الشراب لغابات الآس والغار.

«هكذا سيكون لثلج قلبك أن يذوب عند مجيء ربيعك، فينحدر السرّ فيك جداول نحو نهر الحياة في الوادي. فيحتضن النهر سرّك ويحمله إلى البحر الأعظم.

«قدر جميع الأشياء أن تذوب وتتحوّل إلى أغانٍ عندما يأتي الربيع. حتّى النجوم، تلك الرقاع الثلجيّة الوسيعة التي تتساقط وئيدة على السهوب، ستذوب وتستحيل جداول مغنيّة. عندما تشرق شمس «وجهه هو»، وترتفع فوق الأفق الأوسع، أيّ هيولى جمّدها التشكّل يمكن عندها ألّا تتحوّل إلى سيل من نغم؟ ومن منكم لن يرضى حين ذاك، أن يحمل الكأس إلى شجر الغار والآس ويكون الساقي؟

«أنتم حتّى البارحة لم تكونوا سوى موج يتحرّك في جملة أمواه البحر المتحرّكة، لا شطآن لكم ولا ذات. وكان أنّ الرّيح، التي هي أنفاس الحياة، نَسَجَتْكم نِقابَ نور على وجهها؛ ولم تلبث يدها أن ضمّتكم وأعطتكم كيانًا، فدرجتم مرتفعي الرأس طلبًا للعُلى. إلّا أنّ أمواه البحر ظلّت تقتفيكم وأغنيتها ما تزال تتردّد فيكم. وعلى الرغم من أنّكم قد نسيتم تحدّركم الأبويّ فإنّ هذه الأمواه ستواصل أبدًا تأكيد أمومتها، وستظلّ أبدًا تندهكم إليها.

«وإنّكم في تجوالكم بين الجبال والصحارى ستتذكّرون دائمًا عمق قلبها واعتدال أجوائها. ومع أنّكم غالبًا ما لا تعرفون إلى ماذا تحنّون، فحنانكم يقينًا هو إلى إيقاع سكينتها الرحيبة.

«وهل يمكن أن تكون غير ذلك؟ ففي الغياض أو في الكروم حينما يتراقص المطر على أوراق الشجر وعندما تتساقط الثلوج رحمة ووفاء بعهد؛ وفي الأودية عندما تقودون قطعانكم إلى النهر، وفي حقولكم حيث الجداول تتلاقى كخيطان من فضّة لتخيط معًا قطع الثوب الأخضر؛ وفي حدائقكم عندما تنعكس السماوات في قطرات ندى الفجر؛ وفي المروج حيث سديم المساء يغطّي طريقكم ولا يغطّيها؛ في كلّ هذه، البحر معكم، شاهدًا على خطّ تحدُّركم ومعلنًا حقّه بمحبّتكم.

«إنّها رقعة الثلج فيكم في طريقها إلى البحر.»

وذات صباح، وفيما كانوا يتمشّون في الحديقة، إذا بامرأة تقف خارج الباب، وإذا بها كريمة التي كان المصطفى قد أحبّها أيّام الولوديّة كأخته. وقفت دون أن تطلب شيئًا، أو تقرع بيدها الباب. فقط كانت تتطلّع إلى الحديقة بحنان وكآبة.

ورأى المصطفى الرغبة على أجفانها، فأقبل بخطوات سريعة إلى سور الحديقة وفتح البوّابة فدخلت واستقرّ بها المكان.

وتكلّمَت كريمة، فقالت: «لماذا نأيت بنفسك عنّا هكذا كلّيًّا، فحُرمنا العيش في ضوء محيّاك؟ وكان أنّا أحببناك كلَّ هذه السنين وليس لنا سوى أن ننتظر بشوق رجوعك بالسلامة. الناس الآن يندهون إليك ويـودّون التحدّث معك؛ أنا رسولتهم الآتية من أجل أن أرجوك المجيء إليهم والتكلّم بالحكمة التي أُعطيتَ، فتجبر القلوب الكسيرة، وتردّ حمقنا إلى رشاد.»

وقال، فيما هو ينظر إليها: «لا تَدْعيني حكيمًا ما لم تَدْعي الناس جميعًا حكماء. ما أنا سوى ثمرة فجّة ما تزال عالقة في الغصن، مع العلم أنّي حتّى البارحة لم أكن بعد سوى زهرة وأريج.

«ولا تَدْعي أحدًا منكم أحمق، فنحن بالحقيقة لسنا حكماء ولا حمقى. نحن أوراق خضراء على شجرة الحياة، والحياة في ذاتها هي أبعد من الحكمة، وأبعد بكلّ تأكيد من الحماقة.

«وهل انسحبتُ أنا فعلًا منكم؟ ألا تعلمين أنّ ما من مسافة إلّا تلك التي ليس بوسع النفس أن تذرعها بالخيال؟ وعندما يُتاح للنفس أن تذرع تلك المسافة، فإنّها لا تعود مسافة بل تستحيل في النفس إيقاعًا.

«المسافة التي تفصل بينك وبين جارك القريب الذي لا تربطك به محبّة، هي حقًّا أبعد من التي بينك وبين المحبوب الساكن خلف سبع قارّات وسبعة بحار.

«ليس في التذكّر من مسافات؛ ثمّة في النسيان فقط خليج يستحيل على عينك أو صوتك عبوره.

«بين شطآن المحيطات وقمّة أعلى الجبال، طريقٌ سرّيٌّ عليك اجتيازه قبل أن تصبحي واحدًا مع أبناء الأرض.

«وبين المعرفة والفهم في ذاتك، ممرٌّ سرّيٌّ عليكِ اكتشافه قبل أن تصبحي واحدًا مع الإنسان، وبالتالي مع نفسك.

«وبين يدكِ اليمنى التي تعطي ويدك اليسرى التي تأخذ، مسافةٌ عظيمة. فقط عندما تعتبرينهما كلتيهما آخذتَين إذ تعطيان، ومعطيتين إذ تأخذان، يمكن لك أن تدخليهما عالم اللامسافات؛ فأنت حالما تدركين أنّ ما من شيء عندك تعطينه ولا من شيء يمكن لك أن تأخذيه، يصبح بإمكانك أن تتغلّبي على المسافة.

«في الواقع، إنّ أبعد المسافات هي تلك التي تقع بين رؤى نومك وبين يقظتك؛ بين ذاك الذي هو فِعْلٌ وبين الذي هو مُشتَهى.

«وثمّة بعد، طريقٌ آخر عليك أن تجتازيه قبل أن تصبحي واحدًا مع الحياة. إلّا أنّي لن أتكلّم عن ذلك الطريق الآن نظرًا إلى أنّكم أصبحتم مرهقين من السّفر.»

ثمّ مضى مع المرأة، هو والتسعة الآخرون، إلى ساحة المدينة وتكلّم إلى الناس، أصحابه وجيرانه، فملأ الفرح قلوبهم وانعكس على جفونهم.

قال: «أنتم تتنامون في منامكم وتحيون في أحلامكم حياتكم المثلى. إذ إنّكم تصرفون نهاراتكم في تأدية الشكران على كلّ ذاك الذي أخذتموه في سكينة الليل.

«غالبًا ما تفكّرون بالليل وتتكلّمون عنه كأوانِ راحة، لكنّ الحقيقة هي أنّ الليل أوانُ سَعْيٍ وعثور.

«النهار يعطيكم القدرة على المعرفة، ويلقّن أصابعكم فنّ الأخذ، لكنّ الليل هو الذي يهديكم إلى مستودع كنوز الحياة.

«الشمس تلقّن جميع الكائنات النامية كيف تصبو إلى النور. لكنّ الليل هو الذي يرتفع بها إلى النجوم.

«إنّها سكينة الليل، هي التي تحيك نقاب العرس للأشجار في الغابة، وللأزهار في الحديقة، وهي التي تقيم الوليمة السخيّة، وتعدّ المخدع الزوجيّ؛ في تلك السكينة المقدّسة يتمّ الحَبَل بالغد فيتكوّر جنينًا في رحم الزمن.

هكذا هو الحال معكم، وهكذا يتمّ لكم في سعيكم أن تجدوا الغذاء وتعرفوا الشَّبَع، ومع أنّ استفاقتكم عند مجيء الفجر تمحو الذكرى، فإنّ وليمة الأحلام هي أبدًا معدّة، والمخدع الزوجي في انتظار.»

وسكت لفترة كما سكتوا هم في انتظار إشارة منه، ثمّ عاد إلى الكلام قائلًا: «أنتم أرواح على الرغم من أنّكم تتحرّكون كجسوم؛ وكالزيت الذي يشتعل في الظلام هكذا أنتم لهب محجور عليه في قناديل.

«لو كنتم فقط جسومًا لكان وقوفي بينكم والتحدّث إليكم فراغًا، تمامًا كميّت ينده إلى موتى. لكنّ الأمر ليس كذلك، كلّ ما ليس مائتًا فيكم هو حرّ طوال الليل وآناء النهار وما من يستطيع تقييده أو الحجر عليه، تلك هي إرادة القدير الأعلى. أنتم أنفاسه التي كالريح لا يُقبض عليها ولا تُقتنص. وإنّي كذلك نَفَسٌ من أنفاسه.»

وانصرف من أمامهم بخطى خفيفة وعاد فدخل الحديقة.

وتكلّم سركيس، المعروف بنصف المشكّك، فقال: «ماذا عن البشاعة يا معلّم؟ أنت لا تتكلّم أبدًا عن البشاعة.»

فأجابه المصطفى وفي كلماته سياط، فقال: «هل لأحد يا صديقي، أن يتّهمك بأنّك بخيل غير مضياف إذا هو مرّ ببيتك ولكنّه لم يقرع الباب؟

«ومن ذا الذي سيتّهمك بالصمم وعدم الاكتراث إذا هو تكلّم إليك بلسان غريب أنت لا تعرف منه شيئًا؟

«أليس أنّ ذاك الذي ما تطلّعتَ يومًا إلى بلوغه ولا رغبتَ أبدًا في أن تدخل قلبه، هو الذي تعتبره بشاعة؟

«إذا كانت البشاعة شيئًا، فهي يقينًا الغشاوة السميكة على عيوننا والشمع الذي يصمّ آذاننا.

«لا تدعُ شيئًا بشعًا، يا صديقي، إلّا خوف الرّوح في حضرة تذكاراتها.»

وذات يوم فيما كانوا جالسين في ظلال الحور المستطيلة، تكلّم أحدهم فقال: «الزمن يا معلّمي يخيفني. يمرّ بنا ويسلبنا شبابنا، ولكن لقاء ماذا؟»

فأجابه قائلًا: «خذ بيدك الآن حفنة من تراب بكر. هل تبصر فيه بذرة ما، أو ربّما دودة؟ لو كانت يدك رحبة وجلودة بما فيه الكفاية لرأيتَ كيف تغدو البذرة غابة والدودة سربًا من الملائكة. ولا تنسَ أنّ السنين التي تحوّل البذور إلى غابات والديدان إلى ملائكة تنتمي إلى ما نسمّيه [الآن]، هذه الآن التي فيها السنين كلّها.

«وهل السنون في تعاقب فصولها، سوى تحوّلات في أفكارنا نحن؟ الربيع استيقاظة داخل ضلوعك، والصيف ليس سوى وعيك لإثمارِك. وهل الخريف سوى المتقادم في نفسك، يغنّي تهويدته قرب مهد ذاك

الذي ما زال طفلًا في كيانك؟ وأسألك، هل الشتاء سوى الرّقدة الحبلى بأحلام الفصول الأخرى جميعها؟»

وكان منّوس، التلميذ الفضوليّ، قد رأى شجرة الجمّيز القريبة وقد التفّت عليها نباتات طفيليّة مزهرة، فسأل: «أنظر يا معلّم هذه الطفيليّات، ماذا تقول فيها؟ إنّها لصوص بأجفان مثقلة، تعمد إلى سرقة الضوء من أبناء الشمس الناشطين، والإستفادة من النّسغ الذي يجري في أغصانهم وأوراقهم».

وأجابه قائلًا: «نحن جميعًا، يا صاحبي، طفيليّون. نحن الذين نكدح في سبيل أن نحوّل النعوص إلى أرض تنبض بالحياة، لسنا أشرف من أولئك الذين يستمدّون الحياة من النعوص مباشرة من غير أن يعرفوا أنّها النعوص.

«وهل لأمّ أن تقول لطفلها: ها إنّي سأرجعك إلى الغابة التي هي أمّك الأعظم، لأنّك تضنيني قلبًا ويدًا؟

«وهل لِمُغنٍّ أن ينتهر أغنيته قائلًا: عودي الآن إلى أصداء الكهف الذي منه أتيت، لأنّ صوتك يستهلك أنفاسي؟

«وهل للراعي أن يقول لِحَمَل بلغ الفطام: «لا مرعى عندي لأقودك إليه، فانقَطِع إذن وِصر أضحية في سبيل ذلك؟

«كلّا يا صاحبي، جميع هذه تُستجاب حتّى قبل أن تُسأل وهي، كأحلامك، تتحقّق قبل أن تنام.

«نحن نحيا بعضنا على بعض بموجب ما يمليه القانون الذي كان منذ البدء وأبدًا سيكون. فدعونا نحيا كذلك برأفة ومحبّة. نسعى واحدنا إلى الآخر في وحدتنا، ونلزم الطريق عندما لا يكون لنا مأوى نلجأ إليه.

«الطريق الأوسع، يا إخوتي وأصحابي، هي رفيقكم الإنسان.

«هذه النباتات التي تحيا على حساب الشجرة تشرب من حليب الأرض خلال الليل وعذوبة سكينته، والأرض من جهتها تمتصّ في هدأتها الحالمة أثداء صدر الشمس.

«والشمس، كما هو شأنكم وشأني وشأن كلّ ما هو كائن، تجلس بالجلال نفسه إلى وليمة ذلك الأمير الذي بابه أبدًا مفتوح ووليمته أبدًا قائمة.

«منّوس، يا صاحبي، كلّ ما هو كائن يحيا أبدًا على كل ما هو كائن؛ وكلّ ما هو كائن يحيا بالإيمان الذي بلا شطآن، على سخاء ذاك الذي هو أعلى العليّين.»

وذات صباح والسماء بعد ملفّعة بشحوب الفجر، كانوا يتمشّون سويّة في الحديقة وعيونهم إلى المشرق وكلّهم سكوت في حضرة الشمس الطالعة.

وبعد قليل، أشار المصطفى بيده قائلًا: «إنّ صورة الشمس الطالعة في قطرة الندى، ليست أقلّ من الشمس ذاتها. وإنّ انعكاس الحياة في مرآة روحك ليس أقلّ من الحياة.

«قطرة الندى تعكس الضوء في مرآتها لأنّها والضوء واحد، وأنتم تعكسون الحياة لأنّكم والحياة واحد.

«عندما تدهمكم الظلمة قولوا: هذه الظلمة هي فجرٌ بعدُ لم يولد؛ ومهما اعتراني اللّيل بكدّه، فإنّ الفجر سيبزغ عليّ تمامًا كما يشرق على التلال.

«وإنّ قطرة الندى التي تتكوّر كرة في غسق الزنبقة لا تختلف عنكم وأنتم تستجمعون أرواحكم في قلب الله.

«وإذا حدث أنْ قالت قطرة ندى: ولكنّها مرّة في ألف سنة صادف أن صرتُ حتّى قطرة من ندى، أجيبوها قائلين: ألا تعرفين أنّ نور السنين بأجمعها هو الذي يضيئ الآن في كرتك؟»

وذات مساء هبّت عاصفة على المحلّة فدخل المصطفى وتلامذته التسعة إلى الداخل وتحلّقوا حول النار وهم هادئون ساكتون.

فقال أحد التلامذة: «أنا وحيد أيّها المعلّم وحوافر الساعات تدقّ بثقلها صدري.»

فقام المصطفى ووقف في وسطهم قائلًا بصوت كأنّه حسُّ ريح عاصف: «وحيد! وماذا في ذلك؟ جئتَ وحيدًا ووحيدًا ستتحوّلُ إلى سديم.

«فاشرب كأسك إذًا وحدك وفي سكون. فأيّام الخريف قد أعطت شفاهًا أخرى كؤوسًا أخرى وملأتها بالخمرة، حلوةً ومُرّة، تمامًا كما ملأت كأسك.

«فاشرب كأسك وحيدًا حتّى لو كان مذاقها مذاق دمك أنت نفسك ودموعك، واشكر الحياة على هبة العطش. فقلبك من غير العطش ليس سوى شاطئ بحر جافّ لا أغنيات له ولا موج.

«إشرب كأسك وحيدًا، واشربها بابتهاج.

«إرفعها عاليًا فوق رأسك واشربها عميقًا نخب أولئك الذين يشربون مُستَوحدين.

«سعيتُ مرّة إلى الناس أنشد رفقتهم، فجلست معهم في ولائمهم وشربت عميقًا بصحبتهم؛ لكنّ خمرتهم لم تصعد إلى رأسي، ولا هي سَرَت إلى صدري. إنّها هبطت فقط إلى رجليّ. أمّا حكمتي فظلّت يباسًا كما ظلّ قلبي موصدًا ومختومًا. فقط رجلاي ظلّتا معهم في ضبابهم.

«ولم أعد أطلب رفقة الناس ولا تناول الخمرة معهم على موائدهم.

«لذلك أقول لك، ما همّ أن تضرب حوافر الساعات بثقلها على صدرك؟ إنّه خير لك أن تشرب كأس كآبتك وحدك، فكأس فرحك أيضًا ستشربها وحيدًا».

وذات يوم، فيما كان فارْدْرُس، اليونانيّ، يتمشّى في الحديقة، صدم رجله بحجر فثار غضبه. وانحنى فأخذ الحجر قائلًا بصوت خافت: «تبًّا لك من جثّة في الطريق!» ورماه بعيدًا.

فقال المصطفى المختار الحبيب: «لماذا تقول: تبًّا لك من جثّة؟ أَأَقَمْتَ هذه المدّة في هذا البستان ولم تعرف بعد أنّ ما من شيء موات هنا؟ الأشياء جميعها تتألّق في حافظة النهار وجلال الليل. أنت والحجر واحد، والفرق يكمن في نسبة ضربات القلب. فضربات قلبك أكثر سرعة بقليل من قلب الحجر، أليس كذلك يا صاحبي؟ بلى، إلّا أنّها ليست بطمأنينة الحجر؟.

«فإيقاعها قد يكون إيقاعًا مختلفًا. لكنّني أقول لك إنّك إن سبرتَ أعماق روحك وذرعت أمداء الفضاء، فستسمع لحنًا واحدًا فيه يشترك الحجر والنجم، الواحد مع الآخر، في تناغم كلّي.

«وإذا كان أنّ كلماتي لم تصل إدراكك، فلندع الأمر إلى فجر آخر. وإذا كنتَ قد لعنتَ هذا الحجر لأنّك، بسببٍ من عماك، قد تعثّرتْ به قدمك، فهل تلعن نجمًا إذا صدف أن اصطدم به رأسك في الفضاء. ولكنّ زمنًا ما سيأتي عندما سيكون لك أن تجمع الحجارة والنجوم، كما يجمع الولد زنابق الوادي، وستعرف يومها أنّ جميع هذه الأشياء حيّة وعطرة.»

وفي مطلع الأسبوع عندما كانت أجراس الهيكل تتناهى برنينها إلى أسماعهم، تكلّم أحدهم قائلًا: «أيّها المعلّم، نسمع في هذه النواحي كلامًا كثيرًا عن الله، فما قولك عن الله وما هو الله في حقيقته؟»

فوقف أمامهم كشجرةٍ فتيَّةٍ لا يداخلها خوف من ريح أو من عاصفة، وقال: «تصوّروا الآن، يا رفاقي وأحبّتي، قلبًا يحوي جميع قلوبكم، ومحبّةً تشتمل على جميع محبّاتكم، وروحًا تطوّق جميع أرواحكم، وصوتًا يحتضن جميع أصواتكم، وصمتًا أعمق من كلّ صمت تعرفونه؛ صمتًا خارج الزمن.

«إسعوا الآن إلى أن تدركوا بملء نفوسكم، جمالًا أكثر سحرًا من أيِّ شيء جميل، وأغنية أوسع من أغاني البحار والغابات، وجلالة قائمة على عرش ليست الجوزاء نسبة إليها سوى كرسيٍّ للقدمَين، في يدها صولجان ليست الثريّا نسبة إلى ألقه سوى وميض في قطرات من ندى.

كنتم دائمًا طلّابَ قوتٍ وملجأٍ وعكّازٍ ورداءٍ؛ فليكن الآن سعيكم إلى واحد أحد، لا هو مرمى قُوتٍ لسهامكم، ولا هو كهف صخريّ ليقيكم من العناصر.

وإذا كانت كلماتي صخرة وأحجيّةً، فاسعوا مع ذلك إلى أن تنكسر قلوبكم وتقودكم تساؤلاتكم إلى محبّة ذلك الكائن الأعلى وإلى حكمة ذلك الواحد الأحد الذي يسمّيه الناس الله.»

وَرانَ عليهم السكوتُ، على كلّ فرد منهم، واعترت قلوبهم الحيرة؛ فانعصر قلب المصطفى حنوًّا عليهم، وتطلّع إليهم برأفة قائلًا: «فلنوقف الكلام الآن عن الله الآب، ولنتحدّث عوض ذلك عن الآلهة من حولكم، وعن العناصر، إخوتكم الذين يتحرّكون حول بيوتكم وفي حقولكم.

«تُحلِّقون بمخيّلتكم عاليًا إلى الغيوم وتحسبون ذلك علوًّا؛ وتعبرون على امتداد البحر وتعدّون ذلك مسافة. لكنّي أقول لكم إنّكم إذ تبذرون

بذرة في التراب إنّما تبلغون علوًّا أبعد من الغيوم؛ وعندما تلقون جمال الصّبح تحيّةً على جاركم، إنّما تجتازون بحرًا أعظم من البحر.

«غالبًا ما تنشدون لله الذي لا يحدّه حدّ، من غير أن تعرفوا حقًّا أنّكم تنشدون. كم هو حريّ بكم أن تنصتوا إلى الطيور المغرّدة، وإلى الأوراق التي تودّع الأغصان مع الريح العابرة، من غير أن تنسوا، يا أحبّتي، أنّ هذه تغنّي فقط عندما تنفصل عن الغصون!

«أعود فأطلب إليكم ألّا تتكلّموا هكذا ببساطة عن الله الذي هو كلّ وجودكم، بل تكلّموا بالأحرى عن أنفسكم وأفهموا واحِدَكم الآخر، جارًا يَفهَمُ جارًا، وإلهًا يتكلّم مع إله.

«وإلّا من سيزقّ الفراخ في العشّ إذا كان دَأْبُ الأمّ أن تطير صعدًا في الفضاء؟ وأيّ واحدة من أزاهير الحقل ستبلغ غايتها ما لم تأتِها نحلةٌ بلقاح من زهرة شقيقة؟

«فقط عندما تكونون منشغلين بذواتكم الصغرى، تتوجّهون إلى السماء التي تسمّونها الله. كم هو أحرى بكم أن تجدوا معابر إلى ذواتكم الأوسع؛ كم هو حريّ بكم أن تكونوا أقلّ تكاسلًا فتمهدّوا الطرقات إلى تلك الذوات!

«يا بحّارتي ويا أصدقائي، كان الأحكم لنا أن نكون أقلّ كلامًا عن الله الذي لا نفهمه وأكثر كلامًا بعضنا عن بعض، وهو ما قد يكون الأقرب إلى فهمنا. لكنّي مع ذلك أريدكم أن تعلموا أنّنا نفَس الله وأريجه. نحن الله، كما يتجلّى أوراقًا وزهرًا، وغالبًا ثمارًا أيضًا».

وذات صباح، بعد أن كانت الشمس قد ارتفعت، اقترب منه أحد تلاميذه، أحد الثلاثة الذين كانوا يلعبون معه في الصِّغَر، وتكلّم قائلًا: «ثوبي يا معلّمي أصبح متهرّئًا، وليس عندي ثوبٌ سواه. هلّا أَذِنتَ لي

بأن أذهب إلى السّوق علّني أحظى بثوب جديد يكون في مكنتي أن أشتريه؟»

ونظر المصطفى إلى الفتى قائلًا: «أعطني ثوبك». فأعطاه إيّاه ووقف عاريًا تحت شمس الظهيرة.

فقال المصطفى بصوتٍ كأنّه صوت حصان مهر يركض في الطريق: «العراة وحدهم يحيَون في الشمس. أبناء الطبيعة وحدهم يمتطون الرّيح. ووحده الذي يضيّع طريقه ألف مرّة سيحظى بعودة إلى الديار.

«سئم الملائكة أهلَ التذاكي. البارحة، لا أبعد، قال لي أحد الملائكة: لقد أوجدنا جهنّم من أجل أصحاب البهرجة اللمّاعة. مَنْ لِغَير النار أن يزيل الطلاء اللمّاع ويذيب الشيء حتّى يبلغ اللبّ؟

«فقلتُ: ولكنّكم في إيجادكم جهنّم أوجدتُم الشياطين لإدارتها. فأجاب الملاك: لا أبدًا، الذين يديرون جهنّم هم الذين لا تقوى عليهم النار.

«هذا الملاكُ، يا له من حكيم! هو يعرف طرق البشر وطرق أنصاف البشر. هو أحد الساروفيم الذين يأتون لمساندة الأنبياء عندما يجرّبهم المتذاكون. فهو يبتسم من غير شكّ عندما يبتسم الأنبياء، وينتحب أيضًا عندما ينتحبون.

«يا أصحابي ويا بحّارتي، وحدهم العراة يعيشون في الشمس. وحدهم الذين لا دفّة عندهم يستطيعون الإبحار في البحر الأعظم. فقط للذي يَسْوَدُّ مع الليل، أن يستفيق مع الفجر، وللّذي ينام مع الجذور تحت الثلوج أن يبلغ الربيع.

«فأنتم مثلكم مثل الجذور، مثلها أنتم بسطاء، ولكنّكم أهل الحكمة التي من الأرض. وأنتم صامتون، إلّا أنّ عندكم داخل أغصانكم المزمعة جوقة الرياح الأربع.

«أنتم لدنون ولا شكل لكم بعد، إلّا أنّكم السنديان الصلب وهو بعد في بدء تكوينه، وشجر الصفصاف المنعكس على صفحة السماء، وهو بعد نصف مرتسم في خطوط تكوينه الأولى.

«مرّة أخرى أقول لكم، ما أنتم سوى جذور قائمة ما بين انغلاق التربة المظلمة وانفراج الفضاء. وكثيرًا ما رأيتكم تنهضون لترقصوا مع النور، ولكن على خفر، كما كنت أحيانًا أرى الجذور جميعًا خفرة. فهي قد خبّأت قلوبها طويلًا في الأعماق حتّى إنّها لم تعد تعرف ماذا تفعل بهذه القلوب.

«لكنّ الربيع سيأتي، ونوّار عذراء محراك، وهي التي ستغدو أمّ التلال والسهول.»

وأقبل إليه أحدهم، وقد سبق أن كان من خَدَمَة المعبد، فقال: «علّمنا يا سيّدي بحيث تغدو كلماتنا مثل كلماتك، أناشيد وبخُورًا للناس.»

فأجاب المصطفى قائلًا: «سترتفعون أعلى من كلماتكم، إلّا أنّ دربكم إلى ذلك العلوّ سيبقى، إيقاعًا وعبيرًا؛ إيقاعًا للعاشقين ولجميع من هم موضوع العشق، وعبيرًا لأولئك الذين يريدون لعيشهم أنْ يكون في حديقة.

«إلّا أنّكم سترتفعون أعلى من كلماتكم إلى قمّة يتساقط عليها غبار النجوم، وتفتحون أيديكم تحت ذلك الغبار إلى أن تمتلئ، فتنامون بعدها وتغفون كفرخ أبيض في عشّ أبيض، وستحلمون بِغَدِكم كما يحلم البنفسج الأبيض بالربيع.

«أجل، وستهبطون إلى ما هو أعمق من كلماتكم، طلبًا لمنابع الجداول الضائعة، وستكونون كهفًا خفيّا يُرجع صدى أصوات الأعماق الخافتة التي أنتم الآن لا تسمعونها.

«ستهبطون أعمق ممّا هي فيه كلماتكم، بل إلى أعمق من الأصوات كلّها، إلى قلب الأرض، حيث ستكونون وحدكم «معه هو»؛ مع ذاك الذي يتمشّى أيضًا على المجرّة.»

وبعد فترة سأله أحد التلاميذ قائلًا: «أيّها المعلّم، كلّمنا عن الوجود. ماذا تعني ‹الكينونة›؟»

وأطال المصطفى النظر إليه، وأحبّه. فوقف ومشى خطوات مبتعدًا عنهم؛ وفي رجوعه إليهم قال: «في هذه الحديقة يرقد أبي وأمّي، وقد دفنتهما أيادٍ حيّة؛ وفي هذه الحديقة تنام راقدة بذور السنين الخوالي، وقد جاءت محمولة على أجنحة الريح.

ستُدفَن أمّي وسيُدفَنُ أبي ألف مرّة هنا، وألف مرّة ستَدفنُ الريحُ البذورَ؛ وألف مرّة من بعد ذلك سنأتي معًا، أنتم وأنا وهذه الأزاهير، إلى هذه الحديقة كما نحن الآن، و‹سنكون›، على حبّ للحياة، و‹سنكون› مع أحلامنا التي نجوب فيها الفضاء، و‹سنكون› صاعدين نحو الشمس.

«أمّا الآن، اليوم، فأن ‹نكون› تعني أن نكون حكماء من غير أن نغترب عن الأغبياء؛ وأن نكون أقوياء ولكن من غير التسبّب بالقضاء على الضعيف؛ وأن نلعب مع الصغار، لا كآباء، بل بالحَريّ كرفقاء بودّهم أن يتعلّموا ألعابهم؛

«وأن نكون بسطاء وصادقين مع المسنّين رجالًا ونساء، فنجلس معهم في ظلّ السنديانة العتيقة، على الرغم من أنّنا ما زلنا من السائرين مع الربيع؛

«وأن نسعى إلى شاعر، حتّى ولو كان يسكن ما بعد الأنهار السبعة، وأن نكون في حضوره بسلام، لا شيء ينقصنا، ولا شيء يُقلِقنا، وليس على شفاهنا سؤال؛

«وأن نعرف أنّ القدّيس والخاطئ هما شقيقان توأمان، لوالد هو ملكنا الرؤوف، وأنّ أحدهما وُلِدَ لحظة قبل الآخر فكان أنّا نعتبره الأمير المتوّج؛

«وأن نكون حديقة من غير أسوار، وكرمًا من غير ناطور، وبيتَ مالٍ مشرّعًا أبدًا للعابرين؛

«وأن نُسلَب ونُخدَع ونُغَشّ، أجل، أن نُضلَّل وتُصْلى لنا الشِّراك، وأن نُطلّ مع كلّ ذلك من أعالي ذواتنا الرحيبة ونبتسم، عارفين أنّ ثمّت ربيعًا سيأتي إلى حدائقنا ليرقص مع أوراقنا، وأنّ ثمّت خريفًا سيُنضِج أعنابنا؛ وأنّه إن كان لواحدة من نوافذنا لا أكثر، أن تُفتَح على الشرق، فلن نعرف قط فراغًا؛ وعارفين أنّ جميع هؤلاء الموسومين بالخطأة واللصوص والمحتالين والمضلّلين هم إخوتنا المحتاجون، وأنّنا قد نكون جميع هؤلاء في أَعْيُن السكّان المباركين لتلك المدينة غير المنظورة القائمة بعيدًا فوق هذه المدينة.

«والآن إليكم أنتم ذوي الأيدي التي تَصنَعُ وتوجِدُ جميع الأشياء التي نحتاجها من أجل رفاهية أيّامنا ولياليناـ

«أن ‹تكون› يعني أن تكون حائكًا بأصابع مبصرة، وبنّاءً ذا علم بشؤون الضوء والمكان؛ أن تكون فلّاحًا يشعر بأنّه يخبّئ كنزًا مع كلّ بذرة يبذرها؛ أن تكون صيّاد بحر أو برّ وفي قلبه شفقةٌ على السمكة وعلى الطريدة، وشفقةٌ أكبر على البشريّ الجائع والمحتاج.

«وإنّي فوق كلّ ذلك أقول، أريد من كلّ واحد منكم، ومنكم مجتمعين، أن تكونوا شركاء في مسعى كلّ إنسان. ذلك وحده ما يعزّز أملكم في تحقيق مسعاكم أنتم الخَيِّر الذي إليه تنظرون.

«يا رفاقي ويا أحبّتي، تحلّوا بالجرأة ولا تكونوا من أهل الخنوع؛ كونوا شاسعين لا مقيّدين بِتُخوم؛ وإلى أن تحين ساعتي وساعتكم الأخيرة، كونوا عن حقّ ذواتكم الأعظم».

وتوقّف عن الكلام، فخيّم على التسعة وجوم عميق، وتحوّلت عنه قلوبهم لأنّهم لم يستطيعوا أن يفهموا كلامه.

حتّى إنّ الثلاثة منهم الذين كانوا بحّارة، تشوّقوا إلى البحر، والذين سبق أن كانوا من خَدَمة الهيكل تشوّقوا إلى العزاء في حَرَمِه المقدّس؛ وأولئك الذين كانوا في الماضي رفاقه في اللعب، تاقوا إلى ساحة المدينة. وقعت كلماته إليهم على صمم فارتدّت إليه أصواتها وكأنّها العصافير المشرّدة في سعيها إلى ملجأ.

وابتعد المصطفى قليلًا عنهم متمشّيًا في الحديقة، وذلك من غير أن يقول شيئًا أو أن ينظر إليهم.

فبدأوا يتفكّرون في ما بينهم ويفتّشون عن تبرير لتشوّقهم إلى المغادرة.

وكان أنّهم تفرّقوا وذهب كلّ منهم إلى مكانه تاركين المصطفى المختار الحبيب، وحيدًا.

وعندما اكتمل الليل، توجّه نحو قبر أمّه وجلس إلى جانبه تحت الأرزة التي كانت تخيّم على المكان. وإذا بِطَيف ضوء عظيم يملأ الفضاء فتأتلق الحديقة كجوهرة بديعة تزيّن صدر الأرض.

وصاح المصطفى من أعماق توحّده الروحيّ قائلًا:

«نفسي مثقلة بثمارها اليانعة. أَما مِنْ أحد يأتي فيأخذ منها كفايته؟ أما مِن صائِمٍ ذي قلب عطوف كريم، يأتي وينهي صيامه بباكورة

أعطياتي لِوَجه الشمس، ويريحني من عبء ما أَثقلَ به نفسي خصبُ نفسي؟

نفسي إناء طائف بخمرة الدهور. أما مِن عطشان يأتي فيشرب؟

«تأمّلوا! كان ثمّة رجل يقف عند تقاطع الطرقات، ويداه ممدودتان إلى المارّة، وقد مُلِئت كلّ منهما بالجواهر. وكان ينادي على المارّة قائلًا: ‹أشفِقوا عليّ وخذوا منّي. حلّفتكم بالله أن تأخذوا من يديّ وتجبروا خاطري›.

«إلّا أنّ المارّة كانوا يكتفون بالنظر إليه من غير أن يلتقط أحد شيئًا من يديه.

«لكأنّ الأحرى به كان أن يمدّ يده كشحّاذ ليستعطي – أجل، يدًا مرتجفة، يردّها فارغة إلى صدره – لا أن يمدّها ملأى بالعطايا الثمينة، ولا يجد أحدًا ليأخذ.

«واسمعوا أيضًا عن الأمير الكريم الذي نصب خيامه الحريريّة ما بين الجبل والصحراء وطلب إلى خَدَمِه أن يُشعِلوا نارًا كعلامة هداية للغريب وللتائه، والذي أرسل عبيده لمراقبة الطريق علّهم يأتونه بِمَن كان بحاجة إلى القِرى. لكنّ طرقات الصحراء ودروبها لم تكن مسعفة فلم يصدفوا أحدًا.

«لكأنّ الأحرى بذلك الأمير لو أنّه كان رجلًا من لا مكان ولا زمان يسعى إلى قوت ومأوى؛ لو كان التائه الذي ما من شيء يملكه سوى عكّازه وقصعة من فخّار. فهو عندها كان سيلتقي أمثاله عند حلول المساء، سيلتقي بشعراء اللامكان واللازمان، فيتشاطرون استجداءهم، وذكرياتهم وأحلامهم.

«وإليكم أيضًا ابنة الملك العظيم التي نهضت من نومها ولَبِست مئزرها الحريريّ وتزيّنت بلآلئها وياقوتها، ورشّت المسك على شعرها

وغمست أصابعها بالعنبر. ثمّ نزلت من برجها إلى حديقتها حيث التقى ندى الليل صندلها المذهّب.

«كانت ابنة الملك العظيم تسعى في هدأة الليل إلى الحبّ في الحديقة، ولكنّها في كلّ مملكة أبيها المترامية لم يكن لها من عاشق واحد.

«لكأنّ الأجدى، لو أنّها كانت ابنة فلّاح، ترعى خرافه في الحقل وتعود مساء إلى بيت أبيها وغبار الدروب الملتوية على قدمَيها، وأريج الكروم في مطاوي ردائها، حتّى إذا أقبل اللّيل وتولّى ملاك الليل شؤون العالم، أنسلّت إلى ضفّة النهر في الوادي حيث حبيبها في الانتظار.

«لكأنّ الأحرى بها لو أنّها كانت راهبة في دير تُشعِل قلبَها بخُورًا، علّ قلبها يتصاعد إلى الهواء، وتُشعِل روحَها شمعةً يتصاعد نورها إلى النور الأعلى، وذلك بمعيّة جميع أولئك الذين يتعبّدون ويحِبّون ويحَبّون.

«لكأنّ الأحرى بها لو أنّها كانت امرأة مُثقلة بالسنين، جالسة في الشمس وهي تستعيد في ذاكرتها ذاك الذي شاطرها صباها.»

وتقدّم الليل، وشاطر المصطفى الليلَ سوادَه، فكانت روحه كغمامة لم تفرغ حمولتها. فصاح ثانية:

«نفسي مثقلة بثمارها اليانعة؛
«نفسي مثقلة بالثمار.
مَن ذا الذي يأتي الآن ليأكل ويشبع؟
نفسي إناء طائفٌ بخمرته
مَن ذا الذي يأتي الآن فيسكُب ويشرب ويطفئ عطش الصحراء؟
«حبّذا لو كنتُ شجرةً لا زهر لها ولا ثمر،
لأنّ آلام الخصب أشدّ مرارة من العقم،

وأنّ كآبة صاحب الوفرة الذي لا يد تمتدّ إليه لتأخذ،
هي أعظم من أسى المُستَعطي الذي ليس من أحد يعطيه.

«حبّذا لو كنت بئرًا، جافّة ومقرّحة، والناس ترمي بي الحجارة؛
ذلك أفضل وأيسر للتحمّل من أن أكون ينبوعَ ماءٍ حيٍّ
يمرّ بِيَ الناس ولا يشربون.
«حبّذا لو كنت قصبة تدوسها الأرجل،
ذلك أفضل من أن أكون قيثارة بأوتار ذهبيّة
في بيتٍ، سيّدُهُ لا أصابعَ له
وأبناءُ سيِّدِه جميعهم طرشان.»

ومرّت سبعة نهارات وسبع ليالٍ من غير أن يقرَب الحديقة إنسانٌ، فكان هو وحده مع ذكرياته ووجعه؛ حتّى أولئك الذين استمعوا إليه بمحبّة وتأنّ، انصرفوا إلى متابعة شؤون أيّام أخرى.

فقط كريمة جاءت وعلى وجهها نقاب من السكوت، تحمل إليه كوبًا وطبقًا، وفيهما الشّراب والمأكل لتوحُّده ولجوعه. وبعد أن وضعت الأشياء هذه قدّامه ذهبت في طريقها.

وعاد المصطفى من جديد إلى رفيقاته، شجرات الحور الأبيض داخل البوّابة، وجلس يرقب الطريق. وإذا به يرى بعد فترة ما يُشبِه الغمامة من غبار متصاعد فوق الطريق ومتّجه نحوه. وما لبثت الغيمة أن انقشعت عن التسعة، مقبلين إليه وعلى رأسهم كريمة.

فتقدّم المصطفى إليهم والتَقاهُم على الطريق، ودخلوا البوّابة بصورة طبيعيّة كما لو أنّهم لم يغادروا المكان إلّا منذ ساعة.

دخلوا إلى مائدته المتواضعة وتناولوا عشاءهم معه، من بعد أن كانت كريمة قد وضعت عليها الخبز والسمك وصبّت ما تبقّى من النبيذ في الأكواب. وفيما كانت تصبّ النبيذ، توجّهت إلى المعلّم قائلةً: «هلّا أذنتَ لي بالذهاب إلى المدينة لآتِيَ بالمزيد من النبيذ كي أعيد ملء أكوابكم. ما عندنا منه قد نفد.»

وتطلّع إليها بعينين فيهما سفرة وفيهما بلاد قصيّة، وقال: «كلّا، كفانا منه الآن.»

أكلوا وشربوا كفايتهم، وبعد أن فرغوا تكلّم المصطفى بصوت رحيب، عميق كالبحر وممتلئ كمدّ موج عظيم تحت ضوء القمر، فقال: «يا أصحابي ويا رفاق الطريق، علينا هذا النهار أن نفترق. يا طول ما اجتزنا البحارَ المَخوفَةَ، وتسلّقنا القمم المُمتَنِعة وتصارعنا مع العواصف، عرفنا الجوع، ولكنّا جلسنا أيضًا إلى ولائم أعراس. كثيرًا ما افتقرنا إلى اللباس، ولكنّا لبسنا أيضًا لباس ملوك. صحيح أنّا سافرنا فبلغنا الأقاصي، إلّا أنّنا الآن نفترق. تذهبون أنتم معًا في طريقكم، وعليّ أنا وحدي أن آخذ طريقي.

«وعلى الرغم من أنّ البحار والعوالم الشاسعة ستفصل بيننا، فإنّا سنبقى رفقاء في رحلتنا إلى الجبل المقدّس.

«ولكن قبل أن نأخذ طريقَينا المفترقَتَين، دعوني أزوّدكم بحصاد قلبي وباللقاطة وراء حصّاديه:

«إذهبوا في طريقكم وأنتم تغنّون، ولكن فلتَكُن كلّ من أغنياتكم قصيرة، وحدها الأغنيات التي تموت وهي بعد صبيّة على شفاهكم، هي التي ستحيا في قلوب الناس.

«أوردوا الحقيقة المحبّبة بكلمات موجزة، أمّا الكريهة فأبدًا لا توردوها ولا بأيّ كلام. قولوا للصبيّة التي يلتمع شعرها في الشمس، إنّها بنت الفجر. أمّا إذا التقيتم فاقد نظر، فلا تقولوا له إنّه والليل واحد.

«أصغوا إلى لاعب الناي كما لو أنّكم تصغون إلى نيسان، أمّا إذا كان أن سمعتم النقّادةَ والمنقّبَ عن العيوب يتكلّمان، فكونوا كصمم عظامكم، وبعيدين بُعد تخيّلاتكم.

«يا رفاقي ويا أحبّتي، ستصدفون في طريقكم أناسًا بحوافر؛ فمدّوهم بشيء من أجنحتكم. وأناسًا بقرون؛ فمدّوهم بأكاليل من الغار. وأناسًا بمخالب، فمدّوهم ببتلات الزهر كأصابع. وأناسًا بألسنة مغصّنة، فمدّوهم بالعسل مكان الكلمات.

«أجل ستصدفون جميع هؤلاء وأكثر؛ ستصدفون العرج يبيعون عكّازات، والعمي يبيعون مرايا، والأغنياء يستعطون عند أبواب الهيكل.

«فاعطوا للعرجان من رشاقتكم، وللعميان من بصركم؛ واحرصوا على أن تعطوا من أنفسكم للمستعطين الموسِرين؛ فهؤلاء أشدّهم حاجة، إذ ما من أحد يمدّ يده طلبًا لِحَسنة، إلّا إذا كان حقًّا محتاجًا، حتّى وإن يكن صاحب ممتلكات عظيمة.

«يا رفاقي ويا أصحابي، أوصيكم باسم محبّتنا، أن تكونوا ما لا يُحصى من الدروب المتقاطعة في الصحراء، حيث تمشي الأسود مع الأرانب، والذئاب مع الخرفان.

«واذكروا عنّي هذا: أنا لا أطلب إليكم أن تعطوا، بل أن تأخذوا؛ لا أن تنكروا الذات بل أن تحقّقوها، لا أن تمتثلوا بل أن تفهموا مع ابتسامة على الشفتين.

«أنا لا أعلّمكم السكوت، بل أعلّمكم بالحري، أغنية تغنّونها في هدوء.

«أعلّمكم أن تبلغوا ذاتكم العظمى التي تشمل الناس أجمعين.»

ونهض عن المائدة وذهب توًّا إلى الحديقة حيث تمشّى في ظلال شجرات الشربين فيما كان النهار ينصرم. وكان الباقون يتبعونه من مسافة قريبة، لأنّ قلوبهم كانت منطبقة وألسنتهم عالقة في سقوف حلوقهم.

فقط كريمة التي، بعد أن فرغت من لمّ الفضلات، أتته قائلة: «أودّك أيّها المعلّم أن تدعني أهيّئ زاد غدٍ ورحلتك المزمعة.»

ونظر إليها بعينَين كانتا تريان عوالم أخرى غير هذه، وقال: «يا أختي ويا حبيبتي، إنّه لَمُعَدٌّ حتّى منذ بدء الزمن. طعام الغد وشرابه جاهزان مثلما كانا جاهزين للأمس ولهذا اليوم.

«أنا ذاهب، ولكن إن أنا ذهبتُ وبي حقيقة لم تُعلَن بعد، فإنّ تلك الحقيقة عينها ستلاحقني مجدّدًا وتجمعني، حتّى ولو كانت عناصري منثورة على امتداد صمت اللانهاية، فأعود إليكم ثانية لأتكلّم بصوت جديد هو وليدُ قلبِ ذلك الصمت الذي ليس له حدود.

«وإذا كان ثمّة جمال لم أعلنه عليكم، فسأُدعى مرّة أخرى، أجل، أُدعى حتّى باسمي، المصطفى، فأعطيكم علامةً كي تعرفوا أنّي رجعت لأعلن جميع ما ظلّ منتقصًا، ذلك أنّ الله لا يرضى بأن يكون مخبّأً عن الإنسان، ولا أن تكون كلمته رهينة تلك الهوّة المعتمة في القلب البشريّ.

«سأعود فأحيا بعد أن أموت، وسأعود فأغنّي في آذانكم،
حتّى بعد أن تكون موجة البحر التي بلا حدود قد عادت بي
إلى لجّة الأعماق المهولة.
سأعود فأجلس إلى مائدتكم ولو من غير جسد،
سأرافقكم إلى حقولكم، روحًا بلا لحم ودم،

وسآتي إليكم حول مواقدكم، ضيفًا غير منظور.
الموت لا يغيّر فينا سوى الأقنعة التي بها نقنّع وجوهنا
فالحطّاب سيستمّر حطابًا
والفلّاح فلّاحًا
وذاك الذي أنشد أغنيته للرّيح سينشدها هي نفسها للأفلاك التي تدور.»

وحلّ بالتلاميذ جمودٌ ولا جمود الحجارة، وأطبق الحزن على قلوبهم بسبب أنّه قال: «أنا أذهب». لكنّ أحدًا منهم لم يرفع يده لِيُثْنِيَ المعلّمَ فيُبقيه، كما أنّ لا أحد منهم تبع خطاه.

وغادر المصطفى حديقة أمّه بخطوات سريعة وخفيفة بلا وَقْعٍ، فلم يلبث، وكأنّه الورقة على متن ريح قويّة، أن غدا جدّ بعيد عنهم، فأبصروا كما لو أنّ نورًا شاحبًا كان يتحرّك صعدًا إلى الأعالي.

وسار التسعة نزولًا في طريقهم، أمّا المرأة فلبثت واقفة في غبش العشيّة المتنامي ترصد كيف ذاب الضوء في حمرة الغروب وأصبحا واحدًا؛ فلجأت في التخفيف من أساها وتوحّدها إلى كلماته: «أنا ذاهب، ولكن إن أنا ذهبتُ وبي حقيقة لم تعلن بعد، فإنّ تلك الحقيقة ستلاحقني وتجمعني فأعود إليكم من جديد».

وانتصف الليل.

وكان هو قد بلغ التلال. كانت قدماه قد قادتاه إلى سحابة من سديم، فوقف بين الصخور وأشجار السرو، محجوبًا بالسحابة السديميّة الهلاميّة عن كلّ شيء، وتكلّم قائلًا:

«أيّتها السحابة السديميّة، أنت يا أختي، يا لهاثًا أبيض ما قيّدته بعد كثافة.
ها إنّي أعود إليكِ لهاثًا أبيض لا يملك صوتًا،
وكلمةً لم يخرج بها نطق.

«أيّتها السحابة، أنتِ يا أختي المجنّحة، نحن الآن معًا،
ومعًا سنبقى إلى يوم الحياة الثاني،
يعود بك فجر ذلك اليوم، قطرات من ندى في أزهار بستان،
ويعود بي طفلًا على صدر امرأة.
وسأذكر عندها، وستذكرين.

«أيّتها السحابة، أنتِ يا أختي، ها إنّي أعود قلبًا منصتًا في أعماقه،
تمامًا كما هو شأن قلبك.
أعود أمنيةً نابضة، إنّما إلى غير مقصد، تمامًا كما هي أمنيّتك،
وفكرًا بعدُ لم يتمحور، تمامًا كما هو فكرك.
«أيّتها السحابة، أنتِ يا أختي ويا أوّل مولود لأمّي،
ما زالت يداي تحملان البذور الخضر التي أردتني أن أبذرها،
وما زالت شفتاي مطبقتين على الأغنية التي أردتني أن أغنّيها،
وأنا لستُ أحمل إليك ثمرًا، ولست آتيك بصدى،
لأنّ يديَّ كانتا عميّتَين، وكانت شفتاي على يباس.

«أيّتها السحابة، أنتِ يا أختي، لشدّ ما أحببت الدنيا والدنيا أحبّتني،

فابتساماتي كلّها كانت على شفتيها، وكانت دموعها جميعًا في عينيّ.

إلّا أنّ هوّة من الصمت كانت تفصل بيننا، فلا كانت هي تُقدِم على تضييقها،
ولا كان باستطاعتي أنا العبور.

«أيّتها السحابة، أنتِ يا أختي، ويا شقيقتي التي لا تموت،
أنشدتُ الأغاني القديمة لأولادي الصغار،
فأصغوا إليّ والدهشة على وجوههم؛
إلّا أنّهم في الغد قد ينسون الأغنية،
ولست أدري من بعد، إلى من ستحملها الرّيح.
ومع أنّ الإنشاد لم يكن حقًّا لي، فإنّه قد وجد إلى قلبي طريقه.
وأقام لبرهة على شفتيّ.
«أيّتها السحابة، أنتِ يا أختي، على الرّغم من كلّ هذا الذي حدث،
أحسّني في سلام.
كفاني أنّي غنّيت لِمَن وُلِدوا،
ومع أنّ الغناء في الحقيقة ليس لي،
فإنّه يصعد من الأمنية الأعمق في تلافيف قلبي.

«أيّتها السحابة، أنتِ يا أختي، يا أختي السديميّة،
أنا قد صرتُ الآن واحدًا وإيّاك،
ولم يعد لي، من بعدُ، ذات.
سقطَت جدران الأنا عندي
وتقطَّعَت فِيَّ قيود الكينونة؛

وها أنا آت إليك سديمًا يأتي إلى سديم،
معًا سنطفو على وجه الغمر إلى أن تجيء الحياة في يومها الثاني.
عندما يعيدُكِ فجر ذلك اليوم قطرات من ندى في أزهار بستان،
ويعود بي طفلًا على صدر امرأة.»

لعازر وحبيبته

Lazarus and his Beloved, 1973

«ألم أقل لكِ إنّكِ إن آمنتِ ترَينَ مجد الله؟»

فرفعوا الحجر ورفع يسوع عينيه وقال: «شُكرًا لكَ، يا أبتِ، على أنّك استجبتَ لي، وقد علمتُ أنّك تستجيب لي دائمًا أبدًا. ولكنّي قلتُ هذا من أجل الجَمْعِ المحيط بي لِكَي يؤمنوا أنّك أنت أرسلتني». قال هذا ثمّ صاح بأعلى صوته: «يا لعازر، هلمّ فاخرج».

فخرج الميت مشدود اليدين والرجلين بالعصائب، ملفوف الوجه بمنديل. فقال لهم يسوع: «حُلّوه ودعوه يذهب.»

يوحنّا 11/40-44

الشخصيّات

لعازر

مريم أخته

مرثا، أخته

أمّ لعازر

فيليبّس أحد التلاميذ

المجنون

المكان: الحديقة خارج بيت لعازر وأمّه وشقيقتَيه في بيت عنيا.

الزمان: ساعة متأخّرة من بعد ظهر اثنين الباعوث، ثاني يوم قيامة يسوع الناصريّ من القبر.

عند ارتفاع الستارة: مريم إلى اليمين متطلّعة إلى فوق نحو التلال. مرثا جالسة إلى نولها قرب باب البيت إلى اليسار. المجنون جالس إلى جانب زاوية البيت مستندًا إلى الحائط، نزولًا إلى اليسار.

مريم (متّجهة إلى مرثا) أنتِ لا تعملين. قَلَّ أن اشتغلتِ مؤخّرًا.

مرثا ليس عملي هو ما يشغل بالك. بل في تكاسلي ما يجعلك تفكّرين بما قاله المعلّم. آه أيّها المعلّم الحبيب!

المجنون سيأتي يوم لا يكون فيه حائكون، ولا أحد ليلبس الثياب. بل سنقف جميعنا عراة تحت الشمس.

(سكوت طويل. لا يبدو على الأختين أنّهما سمعتا المجنون. هما لا تسمعانه أبدًا.)

مريم تأخّر الوقت

مرثا صحيح، صحيح، أعرف ذلك. تأخّر الوقت.

(تدخل الأمّ، خارجة من باب البيت.)

الأمّ ألم يرجِعْ بعد؟

مرثا لا يا أمّي، هو لم يرجع بعد.

(يتحوّل النساء الثلاث بنظرهنّ نحو التلال)

المجنون هو بذاته، أبدًا لن يعود. كلّ ما سترونه أنفاس تصطرع في جسد.

مريم يبدو لي أنّه لم يرجع بعد من العالم الآخر.

الأمّ موت المعلّم قد هزّه في العمق، لم تدخل فمه طوال هذه الأيام الأخيرة لقمة واحدة، وأعرف أنّه ليلًا لا ينام. موت صديقنا هو بالتأكيد وراء كلّ ذلك.

مرثا لا، يا أمّي، ثمّت شيء آخر، شيء لا أفهمه.

مريم صحيح، صحيح، ثمّت شيء آخر. أنا على علم به أيضًا. كنت على علم به طوال هذه المدّة، إلّا أنّي لا أستطيع أن أفسّره.

عيناه بعيدتان. يتطلّع إليّ فكأنّما هو يبصر من خلالي شخصًا آخر. فيه رقّة، إلّا أنّ رقّته هي نحو شخص ليس ههنا. وهو ساكت، ساكت، وكأنّ خاتم الموت ما يزال على شفتيه.

(يخيّم السكوت على النساء الثلاث)

المجنون كلّ واحد ينظر من خلال كلّ واحد من أجل أن يرى أحدًا آخر.

الأمّ (تكسر الصمت) ليته فقط يعود. صرف الساعات الطويلة وحده بين هذه التلال. يجب أن يكون هنا معنا.

مريم زمان وهو ليس معنا، يا أمّي.

مرثا لا، كان دائمًا معنا، عدا هذه الأيّام الثلاثة!

مريم ثلاثة أيّام؟ ثلاثة أيّام! صحيح، مرثا، أنتِ على حقّ.

مرثا إنّها مسألة أيّام ثلاثة.

الأمّ رجائي أن يعود ولدي من التلال.

مرثا قريبًا ويعود، يا أمّي، يجب ألّا تقلقي.

مريم (بصوت غريب) أحسّ أحيانًا أنّه لن يعود أبدًا من التلال.

الأمّ إذا كان قد عاد من القبر، فإنّه حتمًا سيعود من التلال. لكن ما أصعب التفكير يا ابنتي في أنّ الذي أرجعه إلينا حيًّا هو الذي قتلوه البارحة.

مريم آه لهذا الأمر، كم هو غريب. وكم هو موجع.

الأمّ آه لمجرّد التفكير أنّهم بلغوا هذا الحدّ من الوحشيّة مع الذي ردّ ولدي إلى قلبي من الموت!

(سكوت)

مرثا لكن لا يصحّ للَعازر أن يبقى بين التلال إلى هذا الحدّ.

مريم سهل على أحدنا وهو يحلم أن يضيّع طريقه في بساتين الزيتون. أعرف مكانًا كان لعازر يحبّ أن يجلس فيه ويحلم ويستكين. هو يا أمّي قرب جدول صغير. ولا يمكن لك أن تجديه ما لم تكوني على معرفة بالناحية. أخذني مرّة إلى هناك، فجلس كلّ منّا على حجر كأنّنا أولاد. كان الوقت ربيعًا والأزهار الصغيرة تتفتّح من حولنا. كثيرًا ما كنّا نتحدّث عن ذلك المكان في فصل الشتاء. وفي كلّ مرّة كان يتكلّم عن ذلك المكان، كان النور يشعّ من عينيه.

المجنون أجل، ذلك النور العجيب، ذلك الظلّ الذي يعكسه النور الآخر.

مريم وأنتِ يا أمّي، أنتِ تعرفين أنّ لعازر كان دائمًا بعيدًا عنّا رغم أنّه كان دائمًا معنا.

الأمّ أنتِ تقولين أشياء كثيرة لا أستطيع أن أفهمها. (وقف قصير) ليت ولدي يرجع من التلال. أرجو لو أنّه يعود. (وقف قصير) عليّ الآن أن أدخل. يجب ألّا تغيب عن بالي طنجرة العدس.

(تغادر الأمّ من خلال باب البيت)

مرثا ليتني أستطيع أن أفهم كلّ ما تقولينه، يا مريم. يبدو عندما تتكلّمين وكأنّ إنسانًا آخر هو الذي يتكلّم.

مريم (صوتها على شيء من الغرابة) أعرف، يا أختي، أعرف. كلّما تكلّمنا، كأنّ شخصًا آخر هو المتكلّم.

(صمت طويل. مريم بعيدة في أفكارها، ومرثا ترقبها بشيء من الفضول. يدخل لعازر من الجهة الخلفيّة إلى اليسار، آتيًا من التلال. يرتمي بنفسه على العشب تحت شجرات اللوز قرب البيت).

(مريم راكضة نحوه) أنت تعب ومنهكِ يا لعازر، ما كان عليك أن تمشي كلّ هذه المسافة.

لعازر (متكلّمًا بشرود) أمشي، أمشي، وإلى لا مكان؛ سعيٌ من غير العثور على شيء. لكن من الأفضل أن أكون بين التلال.

المجنون صحيح، وعلى كلّ حال، تكون هناك أقرب بوصة من التلال الأخرى.

مرثا (بعد صمت قصير) لكن أنت لست على ما يرام، وتتركنا النهار كلّه وتشغل بالنا كثيرًا. عندما رجِعتَ يا لعازر ملأتنا فرحًا، بتركك لنا هنا وحدنا حوّلتَ سعادتنا إلى قلق.

لعازر (مديرًا وجهه شطر التلال) هل غادرتكنّ طويلًا اليوم؟ غريب أن تحسبن هنيهة بين التلال مغادرة. هل فعلًا طال مكثي بين التلال أكثر من هنيهة؟

مرثا مكثت هناك النهار كلّه.

لعازر أن نتفكّر، أن نتفكّر! نهار بطوله بين التلال! من بإمكانه أن يصدّق؟

(سكوت. تدخل الأمّ آتية من داخل البيت ومن خلال الباب.)

الأمّ أنت هنا يا ولدي، يفرحني أنّك رجعت. الوقت متأخّر، والسديم آخذ بالتجمّع على التلال. انشغل بالي عليك يا بُنيَّ.

المجنون يخافون السديم. والسديم منه بدأوا، والسديم إليه ينتهون.

لعازر نعم، رجعت إليكنّ من التلال. يا حسرتي، حسرتي على كلّ ذلك.

الأمّ ما القضيّة يا لعازر، ما الحسرة على كلّ ذلك؟

لعازر لا شيء، يا أمّي، لا شيء.

الأمّ كلامك غريب، لا أستطيع أن أفهمك يا لعازر. كنت قليل الكلام منذ رجوعك إلينا. إلّا أنّ القليل الذي قلته كان غريبًا عليّ.

مرثا صحيح، كان غريبًا.

(وقف عن الكلام)

الأمّ والآن، السديم يتجمّع هنا. فلندخُلْ إلى البيت، تعالوا يا أولادي.

(بعد أن تقبّل الوالدة لعازر برقّة كئيبة، تدخل البيت)

مرثا صحيح، في الهواء لسعة باردة. عليّ أن أنتقل بِنَولي وقُطنيّاتي إلى الداخل.

مريم (جالسة على العشب قرب لعازر تحت شجرات اللوز ومخاطبة مرثا) صحيح أنّ أمسيات نيسان لا تناسب نَولَكِ ولا قُطنيّاتِك. أتريدينني أن أساعدك في حمل نَولك إلى الداخل؟

مرثا لا. لا. أستطيع ذلك وحدي. لطالما قمتُ بذلك بمفردي.

(تحمل مرثا نَولَها إلى داخل البيت، ثمّ تعود إلى القُطنيّات فتُدخلها أيضًا. تمرّ هبّة ريح فتحرّك أشجار اللوز، فتتساقط منها بتلات على مريم ولعازر!)

لعازر حتّى الربيع يعمد إلى تعزيتنا. وحتّى الأشجار تنتحب من أجلنا. كلّ ما على الأرض، لو أنّ لكلّ ما على الأرض أن يعرف مدى انهيارنا وأسانا، لكان سيُشفِق علينا وينوح من أجلنا.

مريم لكنّ الربيع معنا، حتّى ولو كان محجّبًا بحجاب من الكآبة، فإنّه مع ذلك ربيع. دعنا لا نتكلّم عن شَفَقة. دعنا عوض ذلك نتقبّل ربيعنا وحزننا كلَيهما بامتنان. ودعنا في سكون أليف، نعجب لذاك الذي ردّ إليك الحياة في حين أنّه من جهته، بذل حياته. دعنا لا نتكلّم عن شفقة، يا لعازر.

لعازر أشفق، أشفق على أن أجدني مشلوعًا عن ألف ألف ألف سنة من أمنية قلبيّة، ألف ألف سنة من جوع قلبي. أشفق على أن يُعاد بي بعد ألف ألف ربيع، مرّة ثانية إلى هذا الشتاء.

مريم ماذا تعني، يا أخي؟ لماذا تتكلّم على ألف ألف ربيع؟ فقط ثلاثة أيّام غبتها عنّا. ثلاثة أيّام قصار. إلّا أنّ حزننا كان، بالطبع، أطول من ثلاثة أيّام.

لعازر ثلاثة أيّام؟ ثلاثة قرون، ثلاثة دهور! الزمن كلّه! الزمن كلّه مع الذي أحبّته نفسي قبل أن يبدأ الزمن.

المجنون أجل، ثلاثة أيّام، ثلاثة قرون، ثلاثة دهور. غريب، كيف أنّهم دائمًا يزِنون ويقيسون. إنّها دائمًا مزولة وكفّتا ميزان.

مريم (بِانْذِهال) الذي أحبّته نفسك قبل أن يبدأ الزمن؟ لماذا تقول هذه الأشياء يا لعازر؟ هذا ليس إلّا حلمًا حلمته في إحدى الحدائق الأخرى. نحن الآن في هذه الحديقة، على مرمى حجر من أورشليم. نحن هنا. وأنت تعرف جيّدًا يا أخي أنّ

المعلّم كان لِيَوَدّك أن تكون معنا في هذه الاستفاقة لتحلم بالحياة وبالحبّ، ولتكون له تلميذًا متحمّسًا وشاهدًا حيًّا لمجده.

لعازر ليس من حلم هنا ولا من استفاقة. أنتِ وأنا وهذه الحديقة لسنا سوى أوهام، سوى ظلّ للحقيقة. الاستفاقة هي هناك حيث كنت مع حبيبتي ومع دنيا الحقيقة.

مريم (وهي تنهض) حبيبتك؟!

لعازر (وهو ينهض) حبيبتي.

المجنون نعم، نعم، حبيبته، بتوليّة المدى، معشوقة كلّ إنسان.

مريم ولكن أين هي حبيبتك؟ من هي حبيبتك؟

لعازر هي توأم قلبي الذي طلبته هنا ولم أجده. وإذا بالموت، ذلك الملاك المجنّح القدمين، يأتي فيقتادُ شَوْقي إلى شوقها، وإذا بي أحيا معها في داخل قلب الله. صرتُ أقربَ منها وصارت أقرب منّي وأصبحنا، نحن الإثنين، واحدًا. صرنا كوكبًا يتألّق في الشمس؛ أغنية تتهادى ما بين النجوم. صرنا كلّ هذا، يا مريم، كلّ هذا وأكثر، إلى أن أتى صوتٌ، صوت من الأعماق، صوت عالَم يُسمّى أنا؛ فإذا الذي كان واحدًا لا ينفصم يتمزّق نتفًا. وإذا الألف ألف سنة مع محبوبتي في المدى لا تستطيع أن تردّ عنّي سلطان ذلك الصوت الذي دعاني إلى الرجوع.

مريم (متطلّعة إلى السماء) أيّها الملائكة الأطهار، ملائكة سُوَيعاتنا المستكينة، أهّلوني لأن أفهم هذا الأمر! لستُ أريد أن أبقى

غريبة في هذا العالم الجديد الذي اكتشفه الموت. زدني يا أخي، أكمل. أشعر في داخلي أنّ باستطاعتي متابعة ما تقول.

المجنون تابعيه إذا استطعتِ أيّتها المرأة الضئيلة. هل للسلحفاة أن تتابع الغزال؟

لعازر كنتُ جدولًا يسعى إلى البحر حيث سكنى حبيبتي، وعندما بلغتُ البحر جيء بي إلى التلال كي أتراكض ثانية بين الصخور. كنت أغنية سجينة السكوت، مشوقة إلى قلب حبيبتي، وعندما حرّرتني رياح السماء وفاهت بي في تلك الغابة الخضراء، عاد صوت ما فَاقتنصني، فتحوّلت ثانية إلى سكوت. صرتُ جذرًا في عتمة التراب، ثمّ تحوّلت إلى زهرة، فإلى عبير في الجوّ صاعدٍ إلى حبيبتي لأطوّقها، لكنّ يدًا امتدّت إليّ واستجمعتني فاستحلت جذرًا من جديد، جذرًا في عتمة التراب.

المجنون إذا كنت جذرًا فبإمكانك دائمًا أن تنجو من العواصف في الأغصان. إنّه لَجيّد أن تكون جدولًا جاريًا حتّى بعد أن تكون قد بلغت البحر. إنّه جيّد للماء من غير شكّ أن يجريَ صعدًا.

مريم (إلى نفسها) غريب! غريب جدًّا! (إلى لعازر) لكنّه جيّدٌ يا أخي أن تكون جدولًا جاريًا، وجيّدٌ أن تكون أغنية ما غُنّيت بعد، وجيّدٌ أن تكون جذرًا في ظلمة التراب. كان «المعلّم» يعرف كلّ هذا، وهو قد أعادك إلينا كي نعرف أنّ ما من حجاب بين الموت والحياة. ألا ترى أنّك شهادة حيّة للغلبة على الموت؟ ألا ترى كيف أنّ الكلمة الواحدة، إن هي نُطِقت بمحبّة، قادرة أن تعيد جمع عناصر كان قد بدّدها وَهْمٌ يُسمّى الموت؟

صدّق، وليكن عندك الإيمان الذي هو وَعْينا الأعمق. وحده هذا الإيمان يمكن أن يعطيك السلام.

لعازر السلام! السلام الغدّار، المميت! السلام الذي يخدع حواسنا ويجعل منّا عبيد ساعتنا العابرة! السلام ليس مطلبي. مطلبي هو الشوق! أن ألتهب في برودة المدى مع حبيبتي. مطلبي المدى الذي بلا حدود، مع حبيبتي التي هي ذاتي الأخرى. يا مريم، كنت مرّة أختي وكنّا نعرف الواحد منّا الآخر حتّى عندما لم يكن يعرفُنا أقرب القريبين منّا. فاستمعي إليّ الآن، استمعي إليّ بقلبك.

مريم أنا مصغيةٌ يا لعازر.

المجنون دع العالم كلّه يصغي. ستتكلّم السماء الآن إلى الأرض، إلّا أنّ الأرض صمّاء؛ صمّاء ربّما على قدر الصّمم الذي فيك وفِيَّ.

لعازر كنّا أنا وحبيبتي في المدى، وكنّا المدى كلّه. كنّا في النور وكنّا النور كلّه. طفنا تمامًا كالرّوح التي من قديم طافت على وجه الغمر؛ كنّا ولا غد، فالأيّام إلى الأبد يوم أوّل. كنّا نحن الحبّ ذاته الذي ينضوي في قلب السكينة الناصع. إلّا أنّ صوتًا كقصف الرّعد، صوتًا كسهام لا عدّ لها تخترق الأثير، صاح قائلًا، «يا لعازر، هلمّ فانهض إليّ!» وتردّد رجع الصوت وصدى صداه في المدى، فإذا بي تمامًا كمدّ موج ينثني إلى جزر؛ أو كَبَيت منقسم، كَثوبٍ يقدّ، كفتوّة فُطِمت عن ذاتها، كَبُرج هوى فابتنوا بحجارته المهدّمة علامة حدود. صوت صرخ، «يا لعازر، هَلُمَّ فانهض!» فهبطتُ من قصر السماء إلى قبر داخل قبر، إلى هذا الجسد في غار مختوم.

المجنون يا سيّد القافلة، أين جِمالُك وأين رجالك؟ هل هي الأرض الجائعة وقد ابتلعتهم؟ أم هي ريح السموم وقد كفّنتهم بالرمال؟ لا! يسوع الناصريّ رفع يده، يسوع الناصريّ تفوّه بكلمة؛ قل لي الآن، أين جِمالُك وأين رجالك، وأين هي كنوزك؟ في الصحارى الخالية، في الصحارى الخالية. لكنّ السَّموم ستأتي ثانية وتسفّ الرمال من قبورهم. السَّموم دائمًا تعاود المجيء.

مريم لَعَمري، إنّه كحلم احتُلم على قمّة جبل، أعرف، يا أخي، أعرف العالم الذي زرتَه، مع أنّي لم أره قطّ. لكنّ كلّ ما تقوله هو في منتهى الغرابة. إنّه أحدوثة يرويها أحدهم عبر وادٍ وأنا بالكاد أستطيع سماعها.

لعازر الذي إلى الجانب الآخر من الوادي جدّ مختلف. لا أوزان هناك ولا مقاسات. أنتِ مع حبيبك.

(سكوت)

آه يا حبيبتي! آه أيّها العطر الحبيب الطافي في المدى! أيّتها الأجنحة المبسوطة من أجلي! أخبريني في السكينة التي في قلبي، هل تطلبينني، وهل آلمك أن تُفصَلي عنّي؟ هل كنت أنا أيضًا عطرًا وأجنحة طافية في المدى؟ قولي لي الآن يا حبيبتي، هل كانت هناك في عالمك قسوة مزدوجة أيضًا، كأنْ يكون للناصريّ أخ في عالم آخر دعاك من الحياة إلى الموت، وكأن يكون لكِ أمّ وأختان وأصحاب ممّن اعتبروا ذلك أعجوبة؟ هل كانت هناك قسوة مزدوجة مورِسَت عندك أيضًا بصيغة القداسة؟

مريم لا، لا، يا أخي، هناك يسوع واحد فقط في عالم واحد. ما عدا ذلك ليس سوى حلم تمامًا كما هي حبيبتك.

لعازر (بشَوق بالغ) لا، لا! إذا لم يكن حلمًا فهو إذًا لا شيء. إذا لم يكن يَعرف ما هو أبعد من أورشليم هذه، فهو إذًا لا شيء. إذا لم يكن يعرف حبيبتي في المدى، فهو إذًا لم يكن المعلّم. آه يا صديقي يسوع، أعطيتني مرّة كوبًا من النبيذ عبر الطاولة قائلًا، «إشرب هذه من أجل ذكراي». وغمستَ لقمة خبز في الزيت، وقلتَ، «كُلْ هذه، إنّها جزء من حصّتي في الرّغيف». آه يا صديقي، وضعتَ يومها ذراعَك على كتفي، ودعوتَني «بنيّ» فقالت أمّي وشقيقتاي في قلوبهنّ، «هو يحبّ لعازرنا». وكان أنّي أحببتك. ثمّ انصرفتَ عنّا لتبنِيَ المزيد من الأبراج في السماء، وانصرفتُ أنا إلى حبيبتي. قل لي الآن، قل لي، لماذا أرجعتني؟ أما عرفتَ في قلبك الذي يعرف، أنّي كنت مع حبيبتي؟ ألم تصدفها خلال تطوافك فوق قمم لبنان؟ لا شكّ أنّك رأيت صورتها في عينيّ عندما جئتُ ووقفتُ أمامك عند باب القبر. أليست لك حبيبة في قرص الشمس؟ وهل ترضى أن يعمد واحد أعظم منك إلى أن يفصل بينك وبينها؟ وبعد الانفصال، ماذا عساك تقول؟ وماذا عساي أقول لك الآن؟

المجنون طلب إليّ أنا أيضًا أن أعود إلّا أنّني لم أستجب، فَهُم الآن يدعونني مجنونًا.

مريم لعازر، هل لي أنا حبيب في السماء؟ هل تسبّب لي حنيني بكائن وراء هذا العالم؟ وهل عليّ أن أموت كي أكون معه؟

آه، يا أخي، قل لي أَلي رفيقٌ أنا أيضًا؟ إذا كان الأمر كذلك، فكم هو رائع أن نحيا وأن نموت، ثمّ أن نعود ثانية فنحيا ونموت؟ كم هو رائع، إذا كان من حبيب ينتظرني، أن يحقّق لي كلّ ما هو أنا وأن أحقّق له كلّ ما هو هو.

المجنون لكلّ امرأة حبيب في السماء. من شأن قلوب النساء أن يوجِدَ كلّ منها كائنًا في المدى.

مريم (تعيد في هدوء وكأنّها تحدّث نفسها) هل لي حبيب في السماء؟

لعازر لست أدري. إن كان لكِ حبيب، ذاتٌ أخرى، في مكان ما وزمان ما، وعليكِ أن تلتقيه، فمن المؤكّد ألّا يكون هناك أحدٌ ليُباعد بينك وبينه.

المجنون قد يكون هنا، وقد ينده إليها. ولكنّها، كالكثيرات، قد لا تسمع النداء.

لعازر (يتقدّم إلى وسط المسرح) أن تنتظر، أنت تنتظر كلّ موسم كي يزحم الموسم الآخر؛ ثمّ أن تنتظر كي يزحم هذا الموسمَ موسمٌ آخر؛ أن تراقب جميع الأشياء من حولك وهي تبلغ نهاياتها قبل أن تجيء أنت نهايتك – نهايتك التي هي بدايتك – أن تستمع إلى جميع الأصوات، وأن تعرف أنّها جميعها تستحيل إلى سكوت، جميعها ما عدا قلبك الذي يصيح حتّى في المنام.

المجنون إقترَنَ مواليد الله بمواليد الناس. ثمّ ما لبثوا أن تطلّقوا. وهكذا صار مواليد الناس في شوق إلى مواليد الله. وإنّي لأشفق عليهم جميعًا، مواليدنا ومواليد الله على السواء.

(سكوت)

مرثا (تظهر في الباب) لماذا لا تدخل إلى البيت يا لعازر؟ لقد أعدّت أمّي العشاء. (مع شيء من العصبيّة) عندما تكونان معًا أنت ومريم، تأخذان في الكلام، والكلام، والكلام، ولا أحد يعرف ماذا تقولان.

(تلبث مرثا واقفة لبعض الثواني، ثمّ تدخل البيت.)

لعازر (يتكلّم مع نفسه، وكأنّه لم يسمع مرثا.)

آهٍ، أنا منهك، أنا خاوٍ، جائع وعطشان. حبّذا لو تعطيني بعض الخبز والنبيذ.

مريم (تتحرّك نحوه وتلفّه بذراعها) حاضر، حاضر، يا أخي. ولكن أدخل إلى البيت. فأمّنا قد أعدّت وجبة المساء.

المجنون هو يطلب خبزًا ليس بوسعهم أن يخبزوه، ونبيذًا لا قناني له عندهم.

لعازر هل قلتُ إنّي جائع وعطشان؟ أنا لستُ جائعًا لخبزكم ولا عطشان لنبيذكم. أقول لك إنّي لن أدخل بيتًا إلّا حين تكون يد حبيبتي على مزلاج الباب، ولن أجلس إلى الوليمة حتّى تكون هي إلى جانبي.

(الأمّ تحدّق من باب البيت.)

الأمّ والآن، يا لعازر، ما بقاؤك خارجًا في مثل هذا السديم؟ وأنتِ يا مريم، لماذا لا تدخلين إلى البيت؟ لقد أضأت القناديل، والطعام على المائدة، وأنتما مع ذلك ما زلتما مصرَّين على البقاء خارجًا تهذيان وتمضغان كلامكما في العتمة.

لعازر أمّي أنا، ترغب إليّ أن أدخل القبر. تريدني أن آكل وأشرب، وتطلب إلـيّ حتّى أن أجالس وجوهًا مكفّنة، وأن أتسلّم خلودي من أياد ذاوية وأستمدّ حياتي ممّا تحمله إليّ أكواب من طين.

المجنون أيّها الطائر الأبيض الـذي طار نحو الجنوب حيث تعشق الشمس الأشياء كلّها، ما الذي أمسك بك في وسط الفلك، ومن ذا الذي أرجعك؟ إنّه صديقك، يسوع الذي من الناصرة. هو الذي عاد بك شفقة على الذين بلا أجنحة، فلا يستطيعون اللّحاق. آه أيّها الطائر الأبيض، البرد قارس هنا، أنت ترتجف، وريح الشمال تعبث بريشك وتضحك.

لعازر تؤثرون أن تكونوا في بيت يحميكم سقفه؟ تؤثرون أن تكونوا بين أربعة جـدران، وبـاب وشبّاك؟ تؤثرون أن تكونوا هنا، وبلا رؤيا؟ عقلكم أنتم هنا، وروحي أنا هناك. أنتم بكلّ ما فيكم أرضيّون؛ وأنا بكلّ ما هو ذاتي، أثيريّ. أنتم تزحفون إلى مساكن، أمّا أنا فطرتُ في المدى صعودًا فوق رأس الجبل. أنتم جميعًا أرقّـاء، يستعبد واحدكم الآخر، ولا تعبدون إلّا أنفسكم. تنامون ولكنّكم لا تحلمون؛ وتستفيقون ولكنّكم لا تخطرون بين التلال. وأمس، ضجرتُ منكم ومن حياتكم، ولجأتُ إلى العالم الآخر الذي تسمّونه الموت، وإنّي إذا كنت قد متّ، فبدافع الشوق دخلت الموت. وهكذا أجدني، الآن، واقفًا وكلّي ثورة على تلك التي تسمّونها الحياة.

مرثا (التي كانت قد خرجت من الداخل فيما كان لعازر يتكلّم) ولكنّ المعلّم رأى حزننا وألمنا، فأرجعك إلينا، ومع ذلك تثور! عجبًا للثوب يثور على الذي حاكه! وللبيت على الذي بناه!

مريم لقد عرف حالة قلوبنا فكان رؤوفًا بنا، وعندما التقى أمّنا ورأى في عينيها ابنًا ميتًا دفينًا، تشبّث به حزنها فلبث لبرهة جامدًا واعتراه السّكوت. (وقفة) ثمّ تبعناه إلى قبرك.

لعازر أجل! كان ذلك بسبب حزن أمّي وحزنكما. إنّها الشفقة، الشفقة على الذات، هي التي أرجعتني. كم هي أنانيّة هذه الشفقة على الذات وكم هي متأصّلة. أقول إنّي أثور. أقول، حتّى القداسة نفسها، لا ينبغي لها أن تحوّل الربيع إلى شتاء. ارتقيت التلال يحدوني الشوق، فكان أن عاد حزنكنّ فنزل بي إلى الوادي. شئتنّ أن يكون لَكُنَّ ابنٌ وأخ يرافقكنّ في الحياة، وشاء جيرانكنّ أن يروا أعجوبة عن كثب. أنتنّ وجيرانكنّ، مثلكم مثل آبائكم وأجدادكم، تريدون أعجوبة كيما تؤمنوا بأبسط الأشياء في الحياة. ما أظلمكم وما أقسى قلوبكم، وكم هو حالكٌ ليلُ عيونكم. حتّى إنّكم من أجل ذلك، تُنزِلون الأنبياء من مجدٍ هُمُ فيه إلى التسبّب بأفراحكم، ثمّ من بعده تقتلون الأنبياء.

مرثا (بتأنيب). أنت تدعو حزننا شفقة على الذات. وهل تَشَكّيكَ هذا كلّه غير شفقة على الذات؟ إهدأ وتقبّل الحياة التي أعطاك إيّاها المعلّم.

لعازر إنّه لم يعطني حياة، بل أعطاكنّ أنتنّ حياتي. هو أخذ حياتي من حبيبتي وأعطاكنّ إيّاها أعجوبة كيما تتفتّح عيونكنّ

وآذانكنّ. فكان أن ضحّى بي كما ضحّى بنفسه. (موجّهًا كلامه إلى السماء) إغفر لهم يا أبتي لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون.

مريم (برهبة) كان هو الذي تفوّه بهذه الكلمات عينها وهو معلّق على الصليب.

لعازر نعم، قال هذه الكلمات من أجلي وأجله، وأجل جميع المستورين الذين يَفهمون في حين أنّهم لا يُفهمون. أَلَم يقل هذه الكلمات عندما توسّلت إليه دموعكنّ أن يردّ حياتي؟ هو رجاؤكنّ، لا إرادته، الذي جعل روحه تقف أمام الباب المختوم لتحضّ الأبديّة على إرجاعي إليكنّ. ذلك الشوق المتقادم إلى ابن وإلى أخ، هو الذي ردّني ثانية إلى هنا.

الأمّ (تقترب منه وتضع ذراعها حول كتفيه) كنت دائمًا يا لعازر ابنًا مطيعًا ومحبًّا. ما الذي دهاك؟ كن معنا وتناس جميع ما يقلقك.

لعازر (رافعًا يده) أمّي وإخوتي وأخواتي هم أولئك الذين يستمعون إلى كلماتي.

مريم وهذه أيضًا كلماته.

لعازر نعم، وقد قال هذه الكلمات من أجلي كما من أجله هو، ومن أجل جميع أولئك الذين يتّخذون من الأرض أمًّا، ومن السماء أبًا، ومن أجل جميع الذين وُلِدوا غير مقيّدين بشعب، أو وطن، أو عرق.

المجنون يا قبطان سفينتي، ملأت الرّيحُ أشرعتك وتحدَّيتَ البحار طلبًا للجُزُر المباركة. أيّ ريح أخرى غيّرت مسارك، ولماذا كان

رجوعك إلى هذه الشواطئ؟ يسوع الناصريّ هو الذي تولّى قيادة الرّيح بنسمة من أنفاسه، فملأ الشراع حيث كان فارغًا وأفرغه حيث كان ملآنًا.

لعازر (فجأة، يذهل عنهنّ جميعًا فيرفع رأسه ويفتح ذراعيه.) يا حبيبتي! كان في عينيك فجر، وكان في ذلك الفجر السرُّ الصامت لِليلٍ عميقٍ، والوعدُ الصامت بنهارٍ مليء، وكنت أحسّني تامًّا ومكتملًا. آه يا حبيبتي كيف أنّ هذه الحياة وهذا النقاب يقفان الآن حائلًا بيني وبينك. أعَلَيّ أن أحيا هذا الموت من أجل أن أموت ثانية لأحيا من جديد؟ أعَلَيّ أن أُراوِحَ مكاني في انتظار أن يتحوّل خَضار هذه الأشياء الخضر إلى صفار، ومن ثمّ إلى عري بعده عُري من جديد؟ (وقفة) آه، أنا لا استطيع أن أذمّه. ولكن لماذا كان عليّ، من بين جميع الناس، لماذا كان عليّ أن أعود؟ لماذا كان عليّ وحدي بين جميع الرّعاة أن أعود ثانية إلى الصحراء طلبًا للمراعي الخضر؟

المجنون لو كنتَ واحدًا من أولئك الذين يَذُمّون، لَما كنتَ قد متَّ وأنت بعد في ريعانك.

لعازر يا يسوع الناصريّ، قل لي الآن لماذا فعلت بي هكذا؟ أمِنَ العدل أن يُلقى بي حجرًا متواضعًا وضيعًا وكئيبًا كي يكون مرقاة إلى مجدك العالي؟ كان أيّ واحد آخر من الموتى يصحّ في أن تُظهر من خلاله مجدَك. لماذا اخترت أن تفصل هذا العاشق عن حبيبته؟ لماذا دَعَوتَني إلى عالم كنت في سرّك تعرف أنّك ستغادره. (يصيح عندها بصوت عظيم) لماذا – (لماذا) – (لماذا) – استدعيتني من قلب الأبديّة الحيّ إلى

هذا الموت المعاش؟ آه، يا يسوع الذي من الناصرة – أنا لا استطيع أن أذمّك! لا أستطيع أن أذمّك. بل بودّي أن أباركك.

(سكوت. يبدو لعازر كواحد انسلّت منه قواه. يتدلّى رأسه إلى الأمام فيكاد يلامس صدره. بعد برهة من السكوت الرّهيب. يرفع رأسه من جديد ويصرخ بصوت عميق يثير الرعدة)

يسوع الناصريّ! يا صديقي! نحن كلانا صُلِب. سامحني! سامحني. أباركك – الآن، وإلى الأبد.

(في هذه اللحظة يظهر التلميذ راكضًا من جهة التلال)

مريم فيليبّس!

فيليبّس إنّه قد قام! المعلّم قام من بين الأموات وذهب الآن إلى الجليل.

المجنون إنّه قام، ولكنّه سيُصلَب ألف مرّة من جديد.

مريم فيليبّس، صديقي ماذا تقول؟

مرثا (تسرع نحو التلميذ وتشدّ به من ذراعه) كم يسرّني أن أراك من جديد. ولكن من هو الذي قام؟ عمّن تتكلّم؟

الأمّ (سائرة نحوه) أدخل يا ابني، ستتعشّى معنا هذا المساء.

فيليبّس (غير متأثّر بأيّ ممّا يقُلنَه) أقول إنّ المعلّم قد قام من الموت وذهب إلى الجليل.

(يخيّم سكوت عميق)

لعازر الآن، عليكم جميعًا أن تصغوا إليّ. إذا كان قد قام من الموت، فإنّهم سيصلبونه من جديد، إلّا أنّهم لن يصلبوه وحده. فأنا

الآن، سأنادي به، فيصلبوني أنا أيضًا. (يتحوّل عنهم بانتشاء، ويمشي في اتّجاه التلال.) يا أمّي ويا شقيقتيّ، سأتبعه هو الذي أعطاني الحياة، إلى أن يعطيني الموت. نعم أنا أيضًا يتمّ صلبي، فينهي ذلك الصلبُ الصليبَ الذي أنا الآن عليه.

(صمت)

سأعتصم الآن بروحه، وسأتحرّر. وحتّى لو كبّلوني بسلاسل من حديد فإنّي لن أُقيّد. وحتّى لو تمسّكت ألف أمّ وألف وألف أخت بثيابي، فإنّي لن أرتدّ. سأذهب مع الرّيح الشرقيّة إلى حيث الرّيح الشرقيّة تتوجّه. سأطلب حبيبتي في مضارب الغروب حيث تحظى جميع أيّامنا بالسلام، وسأطلب حبيبتي في مطاوي الليل حيث جميع صباحاتنا تنام. وسأكون الإنسان الأوحد بين الناس الذي عانى الحياة مرّتين، والموت مرّتين، وتعرّف مرّتين إلى الأبديّة.

(ينظر لعازر في وجه أمّه، ثمّ في وجه كلّ من شقيقتَيه، ثمّ في وجه فيليبّس؛ ومن بعد ينظر ثانية إلى وجه أمّه، ثمّ يدور وكأنّه يمشي في حلمه، ويركض في اتّجاه التلال. يختفي. الجميع في رعدة ودوار.)

الأمّ ابني، يا ابني، إرجع إليّ!

مريم يا أخي، إلى أين أنت ذاهب. آه عُدْ، يا أخي، عد إلينا.

مرثا (وكأنّها تخاطب نفسها) الظلمة دامسة، أعرف أنّه سيضيّع طريقه.

الأمّ (قريبًا من الصراخ) لعازر، يا بنيّ!

فيليبّس ذهب إلى حيث جميعنا سنذهب. وهو لن يعود.

الأمّ (تذهب إلى طرف المسرح للجهة الخلفيّة، قريبًا من النقطة التي اختفى عندها) لعازر، يا لعازر، يا ابني، إرجع إليّ! (تصرخ)

(يخيّم السكون. وتضيع خطوات لعازر الراكضة في المدى)

المجنون ذهب الآن، وأصبح أبعد من مطالكم. على حزنكم الآن أن يتوجّه إلى آخر. (وقفة). مسكين، مسكين لعازر، أوّل الشهداء، وأعظمهم جميعًا.

الأعمى

The Blind, 1981

الشخصيّات

داود رجبي، موسيقيّ أعمى، في الثلاثين.

هيلانة، زوجته، امرأة فوق الأربعين.

حنّة، ابنة هيلانة من زواج سابق.

مالك، الرجل الساكن في الجانب الآخر من الحقل.

المجنون.

المشهد: غرفة الجلوس الفسيحة، والمكتبة في الطابق الأرضيّ من بيت داود

الزمن: حوالى الحادية عشرة من إحدى ليالي كانون الثاني. عاصفة ثلجيّة تزمجر في الخارج.

عند ارتفاع الستارة يمشي المجنون إلى وسط القاعة ويصعد إلى المسرح، وإلى كرسي قرب المدفأة حيث يجلس. داود وحنّة يشاهَدان جالسَين على أريكة. حنّة تقرأ قصيدةً للرّجل الأعمى. وبعد أن تنتهي من القراءة تتكلّم.

حنّة آه يا أبي، أنا لا أستطيع قراءة هذه القصيدة مثلك. تبدو فائقة الجمال عندما تتلوها أنت.

(يتلو داود السطرين أو الثلاثة الأخيرة. ويخيّم سكوت عميق بعد ذلك على الاثنين. يُسمَع صوت الرّيح في الخارج.)

هل أقرأُ لك قصيدة أخرى يا أبي؟

داود كلّا يا حبيبتي. يكفي لهذه الليلة. لا بدّ أنّكِ تعبتِ.

حنّة أنا لستُ تعبة. أنا لا أَمَلُّ أبدًا القراءة لك. أرجوك أن تسمح لي البقاء قليلًا بعد.

(يتناول داود ساعة من جيبه ويتلمّس سطحها بأصابعه)

داود الوقت متأخّر، متأخّر أكثر ممّا تعتقدين يا بنيّتي. إذا لم تذهبي إلى الفراش، ستغضب أمّك عليك وعليّ أنا أيضًا.

حنّة أمّي ما زالت تعاملني كما لو كنت طفلة. فهي لا تستطيع أن ترى أنّي صرت كبيرة مثلها. آه كم أتمنّى لو كان لأمّي مزيد من التفهّم.

داود (في تفكّر) ولأبيك، أيضًا؟

حنّة أنت يا أبي، دائمًا تتفهّم.

داود كم أتمنّى لو كنت أباك يا حنّة.

المجنون تدعوه أباها في حين أنّه طفل قلبها. كلّ رجل هو طفل المرأة التي تحبّه.

حنّة (واضعة ذراعها حوله) ولكنّك أنتَ أبي. أرجوك قل إنّك أبي. كنت بعد طفلة عندما تزوّجتَ من أمّي. أنا لا أذكر زوجها الأوّل، أعني والدي.

داود (وبكآبة) نعم، نعم يا حبيبتي، أنا أعرف. لكن أتمنّى مع ذلك لو كنتِ حقيقةً ابنتي. الأعمى بحاجة إلى ابنة، ابنة تخصّه فترى من أجله وتقرأ له كلّما تعبت أطراف أنامله من الأحرف النافرة وملّت عيناه العتمة.

حنّة حتمًا أنت لا تقول هذه الأشياء لتؤذيني. أنت تعلم أنّي أحبّك أكثر من أيّ شخص آخر في العالم. تعلم أنّك والد قلبي، وتعرف أنّي لن أتخلّى عنك أبدًا طالما أنّي على قيد الحياة. ألا تذكر ما فرحنا له الصيف الماضي؟ القصيدة التي تقول: «أنتِ ابنة قلبي في الله، وابنة روحي رغم أنّك من غير لحمي. ففي عروقك ينساب نَفَس أغنى من الياقوت المذاب». ألا تذكر ذلك يا أبي؟

داود بلى، أذكر، أذكر. (يتوقّف) وأعرف أنّك تحبّينني يا حبيبتي. أنت تحبّينني لأنّني بحاجة إليك، ولأنّي أعمى.

حنّة (صارخة) لا يا أبي! أنا أحبّك لأنّي بحاجة إليك. أحبّك لأنّك الوحيد في العالم الذي ليس أعمى.

المجنون إذا كان للنسر والدودة أن يلتقيا، ويتحدّثا عمّا يريانه، فإنّ كلًّا منهما سيدعو الآخر أعمى.

داود فلتباركْكِ السماء (وقفة) علينا الآن أن نتوقّف عن الكلام. الوقت متأخّر. تعالي، دعيني أرى وجهك.

(تجلس حنّة على الأرض وتدير وجهها نحوه إلى فوق. يأخذ وجهها بحنان ويتلمّسه بأنامله الحسّاسة.)

أتعرفين يا حنّة، وجهك هو الوجه الوحيد الذي رأيته بعد أن صرت أعمى. هو الوجه الوحيد الذي أبصرته بأصابعي، ويا له من وجه جميل.

(يمرّر أصابعه على شعرها)

وشعرك أيضًا، ناعم هكذا وكثيف. وهو ذهبيّ. أستطيع أن أرى أنّه ذهبيّ.

(داود وحنّة يصمتان لبرهة. وكفّه مرتاحة على شعرها البرّاق.)

حنّة إسمع يا أبي. أريد أن أطلعك على سرّ.

داود أنا مصغٍ.

حنّة هل تعلم أنّي منذ مدّة أعلّم نفسي الرؤية من خلال الأنامل. أخذت كتبك إلى غرفتي – تعرف، الكتب ذات الأحرف النافرة – وقد تعلّمت الكثير حتّى الآن. أستطيع أن أقرأ في غياب النور. لكن رجاءً لا تذكر ذلك لأمّي. لأنّها لن تتفهّم. فأنا، كما ترى يا أبي، أريد أن أحسّ إحساسك. أريد أن أكون مثلك. أريد أن أحيا في عالمك. أشعر أن لا مانع لديك من مجيئي إلى عالمك.

(وقفة قصيرة. داود متأثّرًا بالغ التأثّر.)

وهل لي أن أقول لكَ أكثر من ذلك؟

داود (مغطّيًا وجهه بكفّيه.) بلى يا حنّة، أخبريني زيادة.

حنّة منذ أيّام، عندما ذهبتُ إلى احتفال بربارة بعيد مولدها. كان هناك إلى جانبي، ستّ صبايا أخريات – وبربارة تحبّ موسيقاك كثيرًا يا أبي وكان أنّا لعبنا ألعابًا كثيرة. أنت تعرف الألعاب التي من عادة البنات أن يلعبنها. فجأة خطر لي خاطر فابتكرت لعبة جديدة. لا، لم تكن في الحقيقة لعبة. كانت أقرب إلى – إلى – نعم، كانت أقرب إلى الصلاة.

(تردّدت)

داود أكملي يا حنّة، أخبريني زيادة.

حنّة أعني، جعلتهنّ يعصبن عينيّ، وطلبت إليهنّ أن يجئن الواحدة بعد الأخرى ويجلسن إلى جانبي، تمامًا كما أجلس الآن إلى جانبك. ففعلن وكان كلّ ذلك في سكوت، وكنت، كلّما جاءت إحداهنّ إلى جانبي، أتلمّس وجهها بأناملي ابتداءً بالجبين، ثمّ العينين فالوجنتين، فالفم ومن ثمّ الذقن، وكنت حالًا أعرف من هي. لم أخطئ مرّة واحدة، ولا واحدة.

داود آه يا ربيبة قلبي!

حنّة ولكن، ليس هذا كلّ ما في الأمر يا أبي. بل هناك ما هو أبدع من هذا بكثير؛ ثمّت شيء كان ينفذ إلى قلبي وأنا أتلمّس وجوههنّ في عتمة إغماضي.

(تأتي إلى وجهها إشراقة نور بهيج)

لم يسبق لي أن أحسستُني هكذا طيّبة. هكذا مُحِبّة، هكذا عَطوفة. أحببتُ هؤلاء البنات، أكثر ألف مرّة ممّا أحببتهنّ من قبل. وأحسستُ أنّهنّ أحبَبْنَني أكثر. بدا كلّ شيء غريبًا وطيّبًا.

(وقفة)

في تلك الأمسية، عرفتُ لأوّل مّرة كم أنتَ جميل، وشيء ما أوحى إليّ بأنّ الأخريات عَرَفنَك وأحبَبْنَك. وعندما أزلن العصابة عن عينيّ، نظرت إليهنّ فإذا وجوههنّ قد اختلفت. بدا وكأنّي كنتُ قد رأيت رؤيا. وبعد ذلك توقّفنا عن الألعاب. جلسنا فقط معًا وتحادثنا في هدوء. كنّا كسبع أخوات صغيرات كلّ واحدة منهنّ تريد أن تكون الأمّ.

داود (بعد صمت طويل يأخذ يدها ويقبّلها) يا بنيّتي، يا بنيّتي الحبيبة. عندما استردّ الله بصري وأعطاني إيّاك، كان الله رحيمًا معي.

حنّة (تنهض وتجلس إلى جانب داود) كان الله محسنًا إليّ عندما أعطاني إيّاك.

داود (يقبّل جبينها، ثمّ يأخذ يدها ويمسح عينيه العمياوين برؤوس أناملها) يا بنيّتي الحلوة، يا حنّتي الصغيرة!

(داود وحنّة يجلسان ساكتين)

(تدخل هيلانة. تتطلّع برهة إلى داود وحنّة. تقلق وتضطرب ولكنّها تحاول ظاهرًا أن تبدو هادئة. تجتاز الغرفة متحوّلة مرّة أو مرّتين لتنظر إليهما.)

حنّة ها أنت هنا يا أمّي.

هيلانة (بخشونة) نعم، أنا هنا.

داود الوقت، لا بدّ، متأخّر يا هيلانة، أليس كذلك؟

هيلانة إنه متأخّر (إلى حنّة) تعالي، لا أفهم لماذا أنت هنا في مثل هذه الساعة. لماذا لا تذهبين إلى الفراش؟

داود ما زال الثلج يتساقط، يا هيلانة، أليس كذلك؟

هيلانة أجل، إنّها عاصفة مهولة. إذا كان لها أن تستمرّ طوال الليل، فلن يكون من مجال غدًا للخروج من البيت.

المجنون لكنّها عاصفة صادقة. تكسّر جميع الأغصان العفنة وترميها، وتلحد جميع الأشياء الميتة في الغابة.

(تذهب هيلانة إلى النافذة وتتطلّع إلى الخارج، ثمّ تندار فجأة وتنظر بنفاد صبر إلى داود وحنّة.)

داود العاصفة الثلجيّة تبعث فيّ دائمًا حسًّا بالسكون. سمعي للأشياء يكون دائمًا أكثر وضوحًا بوجود الثلج.

هيلانة نعم، نعم، سمعتك تقول هذا من قبل. وسمعتك تكرّره إلى حدّ أن أصبح سماعه مجدّدًا يزعجني.

حنّة لا يا أمّي، كيف يمكنك أن تقولي ذلك؟ الثلج فعلًا يعطي الإنسان حسًّا بالسكوت.

هيلانة (بنزق، إلى حنّة) كفّي عن هذا الهزر. تقولين هذه الأشياء كي تبدي ذكيّة. الببّغاوات، عمرها لم تكن ذكيّة.

(وقفة)

وعلى أيّ حال دعونا لا نناقش هذا الآن. الأفضل لك أن تذهبي إلى غرفتك. الوقت متأخّر. سأتفقّد الباب والنوافذ وأهتمّ بشأن النار في المدفأة.

داود لم أكن أعرف أنّ الوقت متأخّر إلى هذا الحدّ. كانت حنّة تقرأ لي فغابت عنّا مسألة الوقت. (متوجّهًا إلى حنّة وواضعًا يده على رأسها) والآن، إذهبي إلى فراشك يا حبيبتي وتمتّعي بنوم هنيء واحلمي أحلامك الجميلة. وسأحذو حذوك بعد قليل.

(تقف حنّة وتستدير نحوه بحنان ظاهر، وتقبّل جبينه)

حنّة تصبح على خير يا أبي.

(تتوجّه إلى أمّها بصوت مختلف) تصبحين على خير يا أمّي.

هيلانة (ببرودة) تصبحين على خير.

(تصعد حنّة الدرج ببطء، ملتفِتة مرّة أو مرّتين لترى وجه داود المشرئبّ نحوها متتبّعًا خطواتها بعينيه العمياوين. هيلانة تتمشّى بقلق ذهابًا وإيابًا.)

يا لها من عاصفة، يا لها من عاصفة.

(وقفة)

داود أنتِ متوتّرة هذه الليلة يا هيلانة، أليس كذلك، تتمشّين ذهابًا وإيّابًا بصورة غريبة.

(تتوقّف هيلانة فجأة عن تمشّيها وتقف بكلّ تصلّب.)

هيلانة لست متوتّرة! بل هادئة. ألا تستطيع أن تسمع كم أنا هادئة؟ كنت أعتقد أنّك تسمع كلّ شيء.

داود (بهدوء) لا، ليس كلّ شيء، ليس كلّ شيء. أستطيع أن أسمع بعض الهمس خلال العتمة، فقط بعض الهمس.

المجنون ماذا، خلا الهمسة، يَستحقّ أن يُستمع إليه؟ الهمسة وحدها هي التي تبلغ الآذان.

(كان داود الآن قد نهض وتوجّه بهدوء نحو الدّرج.)

(تعبّر هيلانة بإشارات من يديها وذراعيها عن الفرج. يتسلّق داود الدرج ببطء.)

داود تصبحين على خير يا هيلانة.

هيلانة وأنت بخير. (ثمّ بتشديد) أتمنّى لك نومًا هنيئًا.

المجنون من يأتيه النوم في ليلة من رعب؟ من يمكن أن يأتيه نوم هادئ وهو بين شِدْقَي بركان؟ من يستطيع أن يغمض عينيه، والشوك قابع في جفنيه؟

(وإذ يتوارى داود، تتنهّد هيلانة تنهيدة فرج وتذهب إلى النافذة وتفتحها. تتطلّع إلى الخارج بتركيز، حاميةً وجهها من الثلج. وإذ لا ترى أحدًا آتيًا، تقفل النافذة وتنظر إلى الساعة. إنّها ليست الثانية عشرة تمامًا. تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا.)

المجنون استمرّي في تمشّيكِ، يا سيّدتي المجلوّة، استمرّي. فثمّة مكان أنت بالغة إليه، ومن ثمّ هناك بَعدُ وراءه مكان آخر.

(تدقّ الساعة، الثانية عشرة. تضيء هيلانة على الفور ثلاث شموع وتضعها على الطاولة بالقرب من النافذة.)

أنظروا المنارة التي ترشد السفن التي ضلّت طريقها في العاصفة.

(يتبع دقيقة من الصمت العميق. هيلانة، عيناها مسمّرتان على الباب وهي منصتة لأقلّ صوت يمكن أن يأتي. ينفتح الباب الخارجيّ ببطء وخفّة، ومن بعده الباب الداخلي. يدخل مالك مغطّى بالثلج. تهرع هيلانة إليه.)

هيلانة عزيزي، يا عزيزي ها قد جئت أخيرًا!

مالك (بصوت منخفض) صار لي زمان منتظرًا هناك. خُيّل إليّ وكأنّ منتصف الليل لن يأتي أبدًا.

(يذهب إلى ردهة المدخل خارجًا، ويخلع معطفه، وقبّعته وشاله ويعلّقها، ثمّ يدخل الغرفة ويغلق الباب الداخليّ وراءه.)

كنتُ نصف مغمور في الثلج. بدا لي وكأنّ الصباح سيأتي قبل أن أرى هذه الشمعات مضاءة في النافذة.

هيلانة (تقود مالك إلى الأريكة وتجلس إلى جانبه.) حبيبي، يمكنك أن تتصوّر أيّ حرج كنتُ فيه! أنت هناك خارجًا في العاصفة، وأنا هنا مع هذَين المخلوقَين! لا، أنا لا أستطيع أن أتحمّل بَعدُ، هذا الأمر. أقول لك، يا مالك، أنا لم أعد أستطيع التحمّل!

مالك أخفضي صوتك يا هيلانة، قد يسمعان. تكلّمي همسًا.

هيلانة (متذكّرة ما قاله داود عن الهمس، وبصوت منخفض.) آه، لم يعد فيّ أن أهمس. لا اريد أن أهمس! أريد أن أصرخ! سأختنق ما لم أصرخ!

مالك أعرف، أعرف. ولكن عليك أن تتحلّي ببعض الصبر.

هيلانة الصبر، الصبر، ذلك السمك الهلاميّ البارد الميت.

ومع من علينا أن نكون صبورين؟

(تقبّله بلهفة)

حبيبي، حبيبي، أما كنّا صبورَين بما فيه الكفاية؟

مالك وهل بِيَدنا غير الانتظار؟

هيلانة (تقف وتتكلّم بانفعال) لماذا علينا أن ننتظر، ومن أجل ماذا علينا أن ننتظر؟ أنت لا تعرف، أنت بكلّ بساطة، لا تعرف ما أمرّ به من معاناة.

(تفرك يديها بانفعال عاطفيّ كبير) إستمع إليّ الآن. أنا أحيا في بيت أعمى. كلّ ما فيه أعمى. حتّى ابنتي، التي من لحمي ودمي، بدأت تصبح عمياء. إنّها تتّبع طريقه هو في كلّ ما تفعل. تدور في البيت متلمّسة الطاولات والكراسي كما لو كانت من غير إبصار. حتّى إنّها تتكلّم كالعميان، ويبدو لي أحيانًا كما لو أنّ صوتها آتٍ من عتمة. وعندما تكون معه لا تتكلّم أبدًا عن أشكال الأشياء وألوانها، بل دائمًا عن الأصوات، والموسيقى، والملمس، والرائحة. (تقلّد طريقة حنّة في الكلام) آه، إنّي أكرهها! أكرههما كِلَيهما! أكره العالم الذي يعيشان فيه. إنّه ليس عالمًا، ليس حياة. هو مجرّد سديم، حلم أسود، هو ليس حقيقيًّا. أقول لك، أنا لا أستطيع أن أتحمّله يومًا واحدًا بعد. إنّه يدفعني إلى الجنون!

(تتحوّل نحوه، وتطوّق عنقه بذراعيها.)

آه، خذني معك يا مالك! أخرجني من هذه العتمة. حرّرني من هذا السجن!

مالك ولكن كيف لي ذلك؟ كيف لي أن أخرجك من هذا، يا هيلانة؟ وإلى أين عسانا أن نذهب؟ أرجوك أن تصبري قليلًا. لا نستطيع مجرّد أن نهرب. ماذا يقول عنّا الناس؟

هيلانة لا يهمّني ما يقوله الناس عنّا. لست أهتمّ لشيء أو لأحد. ما يهمّني هو أنت وأنا والحبّ الذي بيننا. قل لي، ماذا عساهم يقولون؟ «هيلانة رجبي قد تخلّت عن عبئها الأعمى»؟ طيّب، عندها سأجيب، «هيلانة رجبي تخلّت عنه لأنّه تركها لينصرف بكلّيّته إلى ابنتها».

المجنون صار لك خارج هذا البيت أيّام على أيّام، يا سيّدتي المجلوّة. أنت فقط تتظاهرين بأنّك هنا.

مالك قد يقولون أيضًا أمورًا أخرى. قد يقولون، «الشباب يسعى إلى الشباب»، وإنّه ما كان لك أن تتزوّجي رجلًا أفتى منك بهذا القدر.

(يتوقّف فجأة، ثمّ يكمل.)

لا تؤاخذيني يا هيلانة على ما أقوله. أنا فقط أكرّر ما يقوله الناس.

هيلانة (تقف بكلّ قامتها ساخطة)

آه، يا إلهي، كيف يمكنك يا مالك أن تقول ذلك؟ أنا أفتى منهما كليهما. أنا أفتى من ابنتي أنا نفسها. هي مسنّة. هما كلاهما مسنّان. شأنهما شأن شخصيّتين في رواية قديمة، يتحرّكان بين دفّتي كتاب عوض العيش في منزل. يتحرّكان ببطء. يتكلّمان ببطء. كلّ ما يقومان به بطيء ومسنّ.

لا، يا مالك، أنت تعرف أنّي فتيّة. أنت على عهد باللهب الذي فيّ! أنت تعرفني!

مالك (يقف ويأخذ هيلانة بين ذراعيه) صحيح، صحيح، أعرف، أعرف، كنت فقط أفكّر بك. أنت تعرفين أنّي لا أريد أن أكون سببًا لأيّ مشكلة. وفوق كلّ هذا يا هيلانة، نحن لا نريد التسبّب بفضيحة. كنت فقط أفكّر فـ...

(يتوقّف فجأة ويرهف السّمع. يتطلّع الإثنان واحدهما إلى الآخر ثمّ يكمل هامسًا.)

هل سمعت وقع خُطًى؟

(يقف جامدًا وساكتًا. وقع الخطى في الطابق العلويّ يصبح أعلى فأعلى، فأكثر علوًّا.)

هيلانة (متكلّمة بمنتهى الهمس، واضعة يدها على فم مالك ومشيرة إليه بأن يذهب إلى زاوية الغرفة حيث الخزانات الكبيرة للكتب)

إنّه هو، الأعمى!

(يذهب مالك على رأس أصابع قدميه إلى الزاوية. الخطوات في الطابق العلوي تتّجه نحو رأس الدرج. هيلانة تقف في وسط الغرفة، مستقيمة، مضطربة ومتحدّية. يظهر داود على رأس الدرج وينزل ببطء. كلّ خطوة يخطوها تبدو وكأنّها تنقر على أعصاب هيلانة. بعد ستّ درجات أو سبع، يقف لحظة.)

داود أنت هناك، يا هيلانة، ألست كذلك؟

هيلانة نعم، أنا هنا. ماذا تريد؟ لماذا نزلت؟

داود (يكمل نزوله على الدرج، فيبلغ صحن الغرفة ويقف.)

لماذا نزلتُ؟ (وكأنّه يتوجّه إلى نفسه) لماذا نزلتُ؟

(يرفع يده إلى رأسه) آه، نعم، تذكّرت الآن.

(يخطو بعض الخطوات في اتّجاه خزانات الكتب، ثمّ يتوقّف فجأة، كما لو أنّه غيّر رأيه. يمشي نحو الأريكة ويجلس تمامًا حيث كان يجلس مالك. يتحسّس الصوفا بيده المرهفة كما لو أنّه يحاول أن يجد شيئًا أضاعه.)

هيلانة (متشنّجة وبصوت مرتجف) ما الأمر، يا داود؟ لماذا نزلت؟ ماذا تريد، هل من شيء أستطيعه نحوك؟

داود (مستمرًّا في تحسّس الأريكة من حوله) لا، لا، ما من شيء تستطيعينه لي.

(يقف واضعًا يده لبرهة على عينيه. عندما يعود فينزل يده، يتبدّى تعبير مختلف في عينيه الواسعتين المنفتحتين العمياوين. فيقول بصوت أعمق.)

هيلانة، هل نحن وحدنا في هذه الغرفة، فقط أنتِ وأنا؟

هيلانة نعم، بالتأكيد نحن وحدنا، ماذا تعني؟

داود (متطلّعًا من حوله) يا للغرابة. كم أنّ كلّ شيء غريب.

هيلانة ما هو الغريب؟

(يتوجّه داود مرّة أخرى نحو خزانات الكتب حيث يقف مالك. تؤشّر هيلانة لمالك بأن يبتعد بهدوء. يفعل مالك ذلك.)

أقول، ما الغريب؟ ما الذي تريده؟

داود (يقترب أكثر من خزانة الكتب.) أَلَسْتِ منشغلة أكثر من اللزوم بمعرفة ماذا أريد، يا هيلانة؟ طيّب، نزلت من أجل كتاب الموسيقى الأخير الذي أصدرته الجمعيّة من أجل العميان. نسيت أن آخذه معي إلى فوق. أعتقد أنّ بمستطاعي وضع يدي عليه - إلّا إذا كانت حنّة قد حملته معها إلى فراشها.

هيلانة (خانقة غضبها) ولكن، بحقّ السماء، لماذا تأخذ حنّة كتابك الأعمى معها إلى الفراش؟

(داود لا يجيب، بل يكمل تحرّكه ببطء.)

المجنون إنّها تتعلّم لغة الليل، سيّدتي المجلوّة. وفي تلك اللغة، كلّ كلمةٍ نجمةٌ، والله وحده يستطيع أن يركّب العبارات.

(داود يتلمّس صندوق الكتب، ثمّ يخرج أحدها ويعود به إلى وسط الغرفة، ويضعه على الطاولة ويتوقّف.)

داود هيلانة، هل قلت إنّنا وحدنا في هذه الغرفة، فقط أنتِ وأنا؟

هيلانة أيّ سؤال عبثيّ هو هذا! قلت لك إنّنا وحدنا. من غيرنا يمكن أن يكون هنا؟

داود إذا كنت تقولين إنّنا وحدنا، فبيتنا هذا إذن مسكون. أحسّ أنّ هناك شخصًا آخر معنا في هذه الغرفة، في حين تقولين إنّ ما من أحد.

(يحدّق بعينيه العمياوين في مالك)

إنّه لَشيء غريب، هذا الشعور بحضور ثالث. (توقّف)

هيلانة، هل تؤمنين بالأشباح؟ (توقّف) غريب أنّ على أحدنا أن يموت قبل أن يُتاح له التردّد على بيت. الأحياء ينامون بسلام.

المجنون ألم تعرف، يا حارس الليل، أنّ الأموات وحدهم يسكنون الليل؟

(هيلانة تقترب من داود متظاهرة باللطف، ثمّ تتكلّم بصوت مختلف ومصطَنع.)

تعال، يا حبيبي، أنت تبدو مرهقًا. فاذهب إلى الفراش.

ها هو كتابك. فَانْعَم بنوم طويل.

داود نعم، أظنّني مرهق.

(فجأة، يبتعد عنها وينصت إلى الرّيح في الخارج.)

أقول، يا هيلانة، إنّ العاصفة، لا بدّ قد ساقت روحًا تائهة ما إلى هذا البيت. مسكينة هذه الروح، ماذا نستطيع لها؟ إذا كانت مقرورة، فنحن لا نستطيع لها مأوى. وإذا كانت جائعة، فنحن لا نستطيع أن نعطيها طعامًا. اللحم يحيا على اللحم، يا هيلانة، والإنسان باستطاعته دائمًا أن يريح الإنسان. لكن ماذا نستطيعه نحن من أجل روح ضائعة في العاصفة؟ لهفي على الأرواح. لهفي على الأنفس، لهفي على الأشباح!

هيلانة (تحاول جهدها ألّا تصرخ) عجيب هذا الكلام الذي تقول. أوقف، أرجوك، كلّ هذا الهراء عن الأشباح والأرواح، الوقت متأخّر، وقد قلت لك إنّي أريد أن أبقى وحدي لبعض الوقت.

داود آ، أنت تريدين أن تبقي وحدك.

المجنون ستكونين وحدك، يا سيّدتي المجلوّة، ولوقت طويل؛ لوقت طويل، طويل.

(داود ينصرف عن هيلانة ويتوجّه نحو الباب وأسفل الدرج. تعتقد هي أنّه ذاهب إلى فوق وتومئ إلى مالك أن يبقى في سكوت تامّ لفترة وجيزة. يذهب داود بخطوات سريعة شجاعة إلى الباب ويدير المفتاح في القفل ويصيح بصوت عال.)

داود حنّة! حنّة! حنّة!

(وقفة لثانية. مالك وهيلانة يتجمّدان في خوف مفاجئ. داود ينادي من جديد.)

حنّة! حنّة!

(تُسمع خطوات حنّة على الفور تقريبًا. تتحرّك سريعًا على أرض الطابق العلوي.)

صوت حنّة، نعم، نعم! ما الأمر يا أبي؟

داود إنزلي، إنزلي إليّ. تعالي بسرعة!

(تسمع حنّة وهي تتحرّك بعجلة إلى رأس الدّرج.)

صوت حنّة، أنا آتية! أنا آتية!

هيلانة (بغيظ شديد) آه أيّها الخلد الأعمى! تريد أن تراني بعينَي ابنتي! دعها الآن تأتي. دع كلّ ابنة ملعونة لكلّ امرأة ملعونة تأتي!

(تظهر حنّة الآن على رأس الدرج بأثواب طويلة فضفاضة، وشعرها مسدول فوق كتفيها. تتطلّع حنّة إلى المشهد الغريب في الأسفل فتُسمَّر للحظة.)

داود هل أنت نازلة، يا حنّة.

(حنّة تهبط درجتين أو ثلاث على مراحل وهي تنزل ببطء.)

أنا هنا الآن.

(تبلغ أسفل الدرج وتذهب فتقف إلى جانب داود. هيلانة ومالك يبدوان متجمّدين، يضرب وجهيهما رعب بارد.)

مَن هُنا في هذه الغرفة، يا حنّة، سواك وسوى أمّك وسواي؟ قولي لي، مَن هنا؟

(هيلانة ومالك يقفان وكأنّهما ينتظران صعقة آتية.)

حنّة (ببطء وبصعوبة) ما من أحد هنا.

(هيلانة ومالك يترنّحان فيبدو وكأنّهما على وشك السقوط.)

داود (رافعًا رأسه صائحًا) آه، يا إلهي، أما من أحد في هذا العالم يأتي ليرى ما أحسّه؟ حنّة، أسألك ثانية، من معنا هنا؟

حنّة (الآن، متفكّرة وآخذة بذراعه) ما من أحد هنا سوانا؛ ما من أحد.

المجنون هي قالت الآن حقيقة، لا أستطيع حتّى أنا، أن أقولها بهذه الحلاوة.

داود (إلى حنّة) كنت أعتقد أنّك ترين ما أحسّ. الآن أقف وحدي، ولكن ليس في العتمة. عيناي الميتتان تريان شبحَ إنسان ميت هنا في بيتي أنا.

(وفجأة يضع يده على كتفها) آ، أنا أفهم الآن. عيناك هما أرأف من أن تريا.

حنّة (بهدوء) قلت لك، ليس من أحد هنا سوى نحن، لا أحد.

(داود يستدير فجأة وبسرعة فائقة، فيفتح الباب على مصراعيه ويرفع يده مشيرًا بإصبعه بالتحديد إلى مالك، ومتكلّمًا بصوت آمر.)

داود تعال، يا شبح إنسان ميت، أخرج من هنا. إنصرف من بيتي واحرص على ألّا تهوّم حولي من جديد.

(مالك يسير متثاقلًا إلى الباب سارقًا خطواته على الرغم من إيماءات هيلانة إليه راجية منه أن يبقى جامدًا وساكتًا. يتناول معطفه، وقبّعته، وشاله. يخرج. هبّة ثلج تعصف إلى داخل. هيلانة تسرع نحو الباب. تتناول معطفًا بسرعة وتستدير نحوه لثانية.)

هيلانة (بما يقرب من الصراخ) أنا أيضًا أخرج خارجًا أيّها الخلد الأعمى.

(تهزّ إصبعها في وجه حنّة) وأنت أيّتها العرّافة، أيّتها اللعنة ذات الأنامل الناعمة، ظلّي هنا إذا كان في مستطاعك. إبقي هنا في هذه العتمة الأبديّة.

(تخرج هيلانة، وتصفق الباب خلفها.)

حنّة لم يكن من أحد آخر سوانا هنا. هل تفهم؟

(تضع يدها على كتف داود وتتطلّع إلى فوق. يذهب داود إلى الباب الداخليّ ويغلقه).

داود أنا الآن أفهم، يا حنّة، أنا أفهم.

المجنون ستمحو الرّيح آثار أقدامهما في الثلج. الثلج سيذوب وسيأتي بعده الربيع، يا صاحبي، وجميع الأزهار في جميع الحقول ستفتح عيونها لرؤية الشمس.

الفهرس

نشكر لجنة جبران الوطنية (لبنان)، بشخص الدكتور طارق الشدياق، ومتحف Telfair Museum of Art (الولايات المتحدة الأميركية) وخاصة السيّدة Beth Moore، على تعاونهما لتأمين الصور الأصلية لرسوم جبران خليل جبران الواردة في هذه المجموعة.

Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 222
The Mute Suffering of the Crucifixion
(La souffrance muette de la crucifixion),
from The Prophet, 1922 (prob.)
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 238
The Prayer (La Prière),
from The Prophet, 1922,
signed lower rigtht K. G.
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 249
Towards the Other Light (Vers l'autre lumière),
from The Prophet, 1923,
not signed
Watercolor
28 x 21 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 251
The Being and his Aura (L'Être et son aura),
from The Prophet
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 261
The Divine World (Le monde divin),
from The Prophet, 1922,
signed lower right K. G.
Charcoal
28 x 21.6 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Sand and Foam

Page 264
Rhythmical Dance on the Summit
(Danse rythmique sur le sommet),
from Sand and Foam, 1922 (prob.),
signed Kahlil Gibran
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 270
Serenity Crowned by the Ether of Spirits
(Sérénité auréolée par l'éther des esprits),
from Sand and Foam, 1921-1923 (prob.),
signed Kahlil Gibran
Watercolor
29 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 280
Untitled,
from Sand and Foam (Reclining female nude floating on cloud above river), c. 1925
Watercolor and pencil on paper
11 x 8 1/2 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950.8.65

Page 292
Interpenetration of Joy and Sorrow
(Interpénétration de la joie et de la tristesse),
from Sand and Foam, 1921-1922 (prob.),
not signed
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 301
The Summit,
from Sand and Foam, c. 1925
Watercolor and pencil on paper
11 x 8 1/2 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.14

Page 315
The Ether Is the True Abode (L'Ether est la véritable demeure),
from Sand and Foam, 1921-1922 (prob.),
signed Kahlil Gibran
Watercolor
33 x 25 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 319
The Blessed Mountain,
from Sand and Foam, c. 1926
Watercolor on paper
11 x 8 1/2 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.7

Illustration Credits

The Madman

Page 61
The Three are One,
frontispiece for The Madman, 1918
Graphite on wove paper
22 1/4 x 15 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.39

Page 100
The Madman (Le Fou),
from The Madman, 1918,
signed Kahlil Gibran
Pencil
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

The Forerunner

Page 149
The Heavenly Mother,
from The Forerunner, 1920
Graphite on wove paper
22 1/4 x 14 1/2 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.21

Page 158
The Dying Man and the Vulture,
from The Forerunner, 1920
Graphite on paper
22 x 16 3/4 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.40

The Prophet

Page 172
Face of the Prophet (La face du Prophète),
from The Prophet, 1923,
signed lower right K. G.
Charcoal
47 x 33.4 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 178
The Triad Being Descending Towards
the Mother-Sea (L'Être Triade descendant
vers la Mer-Mère),
from The Prophet, 1922,
signed Kahlil Gibran
Watercolor
28 x 21 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 181
Love (L'Amour),
from The Prophet, 1922,
not signed
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 185
The Marriage (Le Mariage),
from The Prophet, 1922,
signed lower left K. G.
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 188
The Archer (Le Lanceur),
from The Prophet, 1922,
signed lower right K. G.
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 191
The Gift (Le Don),
from The Prophet, 1922,
signed lower left K. G.
Watercolor
33 x 22.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 207
The Three Stages of Being (Les trois étapes
de l'être),
from The Prophet, 1922,
signed lower right K. G.

The Earth Gods

Page 652
The Triad in its Feminine Aspect
(La Trinité dans son aspect féminin),
from The Earth Gods, 1930,
signed Kahlil Gibran
Watercolor
35.5 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 669
Orpheus at the Lyre (Orphée à la lyre),
from The Earth Gods, 1928-1930 (prob.),
not signed
Watercolor
35.5 x 27 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 672
Degeneracy at the Edge of the Abyss
(Dégénérescence au bord du gouffre),
from The Earth Gods, 1930,
signed Kahlil Gibran
Watercolor
35.5 x 28 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 677
Mother Earth,
from The Earth Gods, c. 1931
Watercolor and pencil on paper
11 x 8 1/2 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.10

Page 683
Universal Motherhood Unifying Two
Lovers (Maternité universelle unifiant
deux amants),
from The Earth Gods, 1921-1922,
not signed
Watercolor
35.5 x 27.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

The Garden of the Prophet

Page 697
Crossed Open Embrace,
from The Garden of the Prophet, n.d.
[Garden of the Prophet published in
1933]
Graphite and charcoal on paper
14 1/8 x 10 7/8 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.5

Page 699
Life,
from The Garden of the Prophet, c. 1931
Watercolor and pencil on paper
11 x 8 1/2 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.12

Page 706
Untitled,
from The Garden of the Prophet, 1930
Watercolor and pencil on paper
11 x 8 3/8 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950.8.68

Page 708
Untitled,
from The Garden of the Prophet, 1930
Pencil, watercolor and gouache on
paper mounted on cardboard
14 1/8 x 10 7/8 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950.8.66

Page 716
Untitled,
from The Garden of the Prophet, 1930
Watercolor and pencil on paper
11 x 8 1/2 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950.8.67

Page 724
The Outstretched Hand,
from The Garden of the Prophet, 1930
Watercolor and pencil on paper
11 x 8 3/8 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.13

Jesus the Son of Man

Page 322
Jesus Son of Man from Jesus Son of Man: His Words and His Deeds as Told and Recorded by Those Who Knew Him, n.d. [Jesus, The Son of Man was published in 1928]
Graphite on paper
47 1/4 x 18 inches
Telfair Museum of Art, Savannah, Georgia
Gift of Mary Haskell Minis, 1950
1950.8.22

Page 366
John the Beloved Disciple
(Jean le disciple aimé),
from Jesus the Son of Man, 1928,
signed Kahlil Gibran
Charcoal
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 385
The Being Gazing at the Ether
(L'Être braquant l'éther),
from Jesus the Son of Man, 1920,
not signed
Pencil and watercolor
30 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 442
Offering Oneself to the Triad
(Offrande de soi à la Triade),
from Jesus the Son of Man, 1928,
signed Kahlil Gibran
Pencil and charcoal
75 x 56 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 471
The Ethereal Archetype Embracing the Four Transcending Spirits (L'Archétype éthéré enlace les quatre esprits transcendants),
from Jesus the Son of Man, 1926,
not signed
Watercolor
27.5 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 489
Celestial Mother Embracing the Two Beings of Harmony (La mère céleste embrasse les deux Êtres d'Harmonie),
from Jesus the Son of Man, 1928,
signed Kahlil Gibran
Pencil and charcoal
71 x 55.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 506
The Soul Supporting the Body
(L'Âme supporte le corps),
from Jesus the Son of Man, 1915 (prob.),
signed Khalil Gibran
Pencil and charcoal
12 x 7.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

The Wanderer

Page 548
The Wanderer (L'Errant),
from The Wanderer, 1931,
not signed
Charcoal
27.5 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 561
Facing the Scattering Storm
(Affrontement de la tempête dispersante),
from The Wanderer, 1930 (prob.),
not signed
Watercolor
28 x 21.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 588
The Spirit Revealed to the Seven
(L'Esprit transfiguré aux Sept),
from The Wanderer, 1930 (prob.),
not signed
Watercolor
35.5 x 28 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

Page 603
The Ethereal Being Liberated from the Corporal Element (L'Être éthéré libéré de l'élément corporel),
from The Wanderer, 1920 (prob.)
Watercolor
35.5 x 27.5 cm
Gibran Museum, Bsharreh, Lebanon

ISBN 978-9953-26-600-8
9 789953 266008

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت
أنطوان